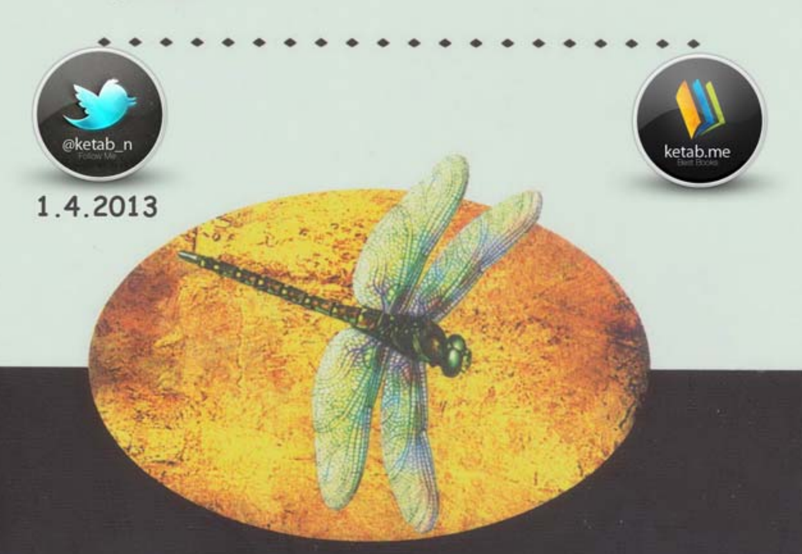
خالد حسيني

عدَّاء الطائرة الورقية

رواية



ترجمة : منار فياض



خالد حسيني

عـدَّاء الطائرة الورقية

روايـــة

ترجمة: منار فخر الدين فياض





عدَّاء الطائرة الورقية

*المؤلف: خالد حسيني

* المترجم: منار فخر الدين فياض

* الرواية: عدّاء الطائرة الورقية

* الطبعة الأولى 2010

* الناشـر:

دال للنشـر والتوزيـع

سـورية دمشـق ص ب 29170

هاتف 00963 944 464830

إيميل: N_hammdan@yahoo.com

جوائز حازت عليها رواية خالد حسيني
«عدّاء الطائرة الورقية»

كتاب السنة (سان فرانسيسكو كرونيكل)
الكتاب الأول (قائمة أفضل عشر كتب)
خيار السنة
تنويه المكتبة الأميركية
جائزة الحياة من مؤسسة الثقافة المسرحية الأميركية

كُتِبَ عن «عدّاء الطائرة الورقية»

رواية جميلة... من أفضل ما كتب، إحدى الروايات التي تهز مشاعرك.
قصة صداقة مستحيلة، بلاغةعالية، تروي قصة العلاقة الهشة بين الآباء والأبناء، الإنسان وآلهته، رجال وبلادهم.
كل هذه العلاقات رابطها الإخلاص والدم تعبر عنها واحدة من أكثر القصص غنائية وتحريكاً للمشاعر، مما يجعلها إحدى الروايات التي فاجأتناهذه السنة.

دينفر بوست

حضور رائع لرواية أولى.... قصة طفلين صغيرين كاناصديقين في أفغانستان، قصة مميزة عن الثقافة.... من النوع الكلاسيكي الذي يأخذك إلى عوالم أخرى.

سان فرانسيسكو كرونيكل

هذا الكتاب من الكتب التي تبقى في الذاكرة. كتاب رائع، سواء على صعيد كونه سجلاً سياسياً أو على صعيد كونه قصة شخصية في العمق، تبين كيف أن خيارات الطفولة تؤثر على حياتنا كراشدين. .
طريقة دراسة الشخصية بحد ذاتها تجعله إصداراً جديراً بالانتباه.
من صورة الأمير، الحساس، غير المستقر، إلى التطورات المتعددة لأبيه "بابا" الذي تظهر تضحياته، وتصرفاته المخزية بشكل كامل فقط عندما يعود أمير إلى أفغانستان، ويدرس التاريخ ونتائجه في أميركا والشرق الأوسط معاً. والنتيجة هي عمل متكامل نجح في اكتشاف حضارة أمة كانت غامضة، وأصبحت نقطة محورية في السياسة العالمية للألفية الجديدة.

من النادر أن نجد رواية تجري أحداثها في فترة زمنية معينة، وفي نفس الوقت تحمل بين صفحاتها قيمة ثقافية تنير لأجيال.

الناشرون الإسبوعيون

كل المواضيع الهامة في الحياة هي تركيبة هذه الرواية الاستثنائية: الحب، الشرف، الذنب، الخوف، التوبة. هذه الرواية من القوة، لحد أنه لوقت طويل سيبدو كل ما قرأته سطحياً

ايزابيل الليندي

مؤامرة شخصية بامتياز، تبدأ من صداقة أمير الوثيقة مع حسان، ابن خادم أبيه، تظهر بأنها الخيط الذي يربط الحكاية بأكملها.

هشاشة هذه العلاقة - التي رمز لها بالطائرات الورقية التي يطيرها الطفلان معاً - تُمتحن عندما يشاهدان طريقة حياتهما القديمة تختفي.

صورة حسيني عن أفغانستان قبل الثورة غنية بالذاتية والدعابة ولكن أيضاً دقيقة فيما يتعلق بالاحتكاك بين الجماعات الطائفية المختلفة المكونة للأمة الأفغانستانية..

الرواية أيضاً مليئة بالصور المميزة: رجل يائس لإطعام أطفاله، يحاول بيع رجله الاصطناعية في السوق السوداء، رجل وامرأة يرجمان حتى الموت في ملعب كرة القدم، خلال الاستراحة بين الشوطين للمباراة، صبي صغير وسيم، يجبر على ممارسة الدعارة، وتقليد حركات قرد يرقص معه عارياً.

النيويورك تايمز

إنها ليست قصة عن السياسة الشرق أوسطية، بقدر ما هي قصة عن بلد جميلة مزقت أشلاء. من خلال شخصياته والمؤامرة الرهيبة
حسيني يقدم مثلاً عن حضارة وتاريخ وطنه المحبوب.

سان أنتونيو إكسبريس نيوز

إيقاع الحياة هو إطار هذه القصة. مسرحها أفغانستان في السبعينيات وبعدها أميركا.

هي عمل عالمي بسبب العبقرية الثقافية لخالد حسيني.

ذروة الرواية الوحشية والجميلة بشكل ساحر، تبرهن على قدرة المؤلف على خلق الحياة بكاملها، وذلك برشاقة عظيمة وعودة للذات.

البوفلونيوز

قلة هي الكتب التي تستطيع أن تحاكي عدّاء الطائرة الورقية لخالد حسيني.

حسيني أعاد بلده الأصلي للحياة بحس رائع.

هو، وبسخاء وصف العادات والتقاليد الأفغانية، حيث يشدك بقوة، خصوصاً في وصفه للحداد على المهجرين، خسارتهم بلدهم والصراع من أجل بناء حياة أميركية.

في قائد الطائرة الورقية، خالد حسيني خلق كتاباً مليئاً بالفكر، والحكمة، الخلاص والسعادة فيه ليسا بالضرورة الشيء نفسه.

هيوستن كرونيكل

تستدعي الصور، الأحاسيس والذكريات، حادة وصادقة. من أعظم نقاط القوة في قائد الطائرة الورقية هي التصوير العاطفي للأفغان والحضارة الأفغانية.

حسيني كتب بدفء وحميمية عن أفغانستان وأهلها يحسد عليهما.

رواية تبقى في الذاكرة تشدك لقرائتها، وتضمك داخلها بسرديتها الوصفية المذهلة.

منبر شيكاغو

- 1 -

كانون الأول ٢٠٠١

أصبحت ما أنا عليه الآن منذ بلغت الثانية عشر من عمري، في يوم غائم من شتاء ١٩٧٥.

لا زلت أذكر اللحظة بدقة.

جالساً خلف حائط طيني متهدم، أختلس النظر إلى الزقاق قرب الجدول المتجمد.

حدث هذا من زمن طويل، لكنهم مخطئون فيما قالوه عن الماضي، لقد تعلمت كيف أدفنه، إلا أنه دائماً يجد طريق عودته.

عائداً بذاكرتي إلى ذاك اليوم، أدركت أني كنت أختلس النظر إلى ذلك الزقاق المهجور، طوال الست وعشرين سنة الماضية.

في يوم من أيام الصيف الماضي، اتصل بي صديقي رحيم خان من باكستان، وطلب مني أن أذهب لأراه.

واقفاً في المطبخ وجهاز الاستقبال على أذني، علمت أن رحيم خان لم يكن وحده على الخط... بل كل معه كل ماضيّ من الذنوب غير المكفر عنها.

بعد أن أغلقت السماعة، ذهبت لأمشي بجانب بحيرة سبريكلز، في الجانب الشرقي من حديقة البوابة الذهبية.

تلألأت شمس المساء على الماء حيث أبحرت عشرات القوارب الصغيرة، يدفعها النسيم البارد. نظرت للأعلى ورأيت زوجاً من الطائرات الورقية، حمراء بأذيال زرقاء طويلة، تحلق عالياً في السماء، ترقص فوق الأشجار عند النهاية الغربية للحديقة فوق طواحين الهواء، تحلقان جنباً إلى جنب، كزوج من العيون تحرسان سان فرانسيسكو، المدينة التي أسميها الآن وطني.

فجأة... همس صوت حسان في أذني : لأجلك، ألف مرة أخرى....

حسان ذو الشفتين كشفتي الأرنب، حسان صاحب الطائرة الورقية.

جلست على مقعد بظل شجرة صفصاف، فكرت في شيء قاله لي رحيم خان قبل أن يغلق السماعة مباشرة. كأنها تداعيات فكرة : هناك طريقة لتصلح ما قمت به.

عدت بنظري الى الطائرتين، فكرت بحسان، فكرت ببابا، علي، كابول، فكرت في الحياة التي عشتها حتى أتى شتاء ١٩٧٥ وغيَّر كل شيء، وصنع مني ما أنا عليه الآن.

- 2 -

عندما كنا صغيرين، اعتدت وحسان تسلق أشجار الحور المزروعة على جانبي الممر في بيت أبي، وإزعاج الجيران بأن نعكس ضوء الشمس على بيوتهم بكسرات حادة من مرآة.

كنا نجلس قبالة بعضنا بعضاً على زوج من الجذوع العالية.

أقدامنا حافية، متدلية، جيوبنا ملأى بالتوت البري والبندق.

نتضارب بها، نضحك، لا زلت أستطيع رؤية حسان فوق تلك الشجرة. ضوء الشمس يلمع من خلال الأوراق على وجهه المستدير تماماً، وجه كوجه دمية صينية منحوتة من الخشب الصلب، أنفه المسطح الكبير غير متساوي الجانبين، عيناه الضيقتان كأوراق المامبو، لونهما يختلف بحسب الضوء، ذهبيتان، خضراوان وحتى ياقوتيتان؟ما زلت استطيع أن أرى أذنيه الصغيرتين المتدليتين، وذاك الذقن المعقوف إلى الأمام، زائدة لحمية تبدو وكأنها وضعت بعد تفكير، والشفة المشقوقة، إلى اليسار تماماً من خط المنتصف، هذا التفصيل الذي غفل عنه صناع الدمى الصينية، أو ربما تعبوا وأصبحوا غير مهتمين فقط.

أحيانا، فوق تلك الأشجار، كنت أقنع حسان بإطلاق البندق بمقلاعه على كلب الراعي الألماني ذو العين الواحدة الذي يملكه جارنا، لم يكن حسان يرغب بذلك،

ولكن إن طلبت، بشكل جدي، لم يكن ليرفض طلبي، لم يرفض حسان لي طلباً أبداً، وقد كان قاتلاً بمقلاعه ذاك.

والد حسان، علي، كان يمسك بنا، ويغضب بقدر ما يمكن لشخص محترم كعلي أن يغضب، كان يرفع إصبعه ويشير لنا بالنزول، يأخذ المرآة، ويقول لنا ما كانت أمه تقوله له دائماً، أن الشيطان كان يعكس بالمرآة أيضاً... ليلهي المسلمين عن صلاتهم.

وكان يضحك أثناء قيامه بذلك أيضاً، كان يضيف دائماً وهو يعبس في وجه ابنه.

"نعم... أبي" كان يتمتم حسان وهو ينظر إلى قدميه.

لكنه لم يشِ بي أبداً، لم يقل مرة أن المرآة وقذف البندق على كلب جارنا كانا دائما فكرتي.

كان الممر ذو الحجارة الحمراء محدد بأشجار الحور، وينتهي بزوج من البوابات الحديدية، وهما بدورهما يفتحان على ممر ثان يصل إلى ملكية أبي. البيت على يسار الطريق الحجري، والباحة الخلفية كانت في نهايته.

أكد الكل أن أبي، بابا، بنى أجمل بيت في منطقة الوزير أكبر خان- حي جميل وغني في القسم الشمالي من كابول_والبعض اعتقد انه أجمل بيت في كابول كلها.

مدخل عريض مزين من الجانبين بشجيرات الورد يقود إلى البيت الممتد على مدى النظر، بطبقات رخامية ونوافذ واسعة، قرميد مزخرف بفسيفساء بديعة، اختارها بابا بعناية من أصفهان، تغطي الطوابق ذوات الحمامات الأربعة .

زخارف بماء الذهب، اشتراها بابا من كلكتا، غطت الحيطان.

ثريا من الكريستال معلقة من السقف المقنطر.

في الطابق الثاني كانت غرفةٍ نومي، غرفة بابا، ومكتبه المعروف "بغرفة التدخين" الذي كان دائماً يفوح برائحة الدخان والقرفة إلا بابا الذي سماها دائماً "إسمين" غرفة التدخين وغرفة الغليون. كان بابا وأصدقاؤه يستريحون هناك على الكراسي الجلدية السوداء بعد أن يكون علي قد قدم طعام العشاء، يحشون غلايينهم"، ويناقشوا مواضيعهم الثلاثة المفضلة: السياسة، العمل، كرة القدم. في بعض الأحيان كنت أسأل بابا إن كنت أستطيع أن أجلس معهم، لكن بابا كان يقفٍ على الباب ويقول: إذهب الآن، هذا وقت الكبار، لم لا تقرأ واحداً من كتبك تلك.

ثم يغلق الباب تاركني متسائلاً لم دائماً هذا وقت الكبار معه، كنت أجلس بجانب الباب، وركبتاي غارقتان في صدري.

أحياناً كنت أظل على هذه الوضعية ساعة أو ساعتين مستمعاً لضحكهم وأحاديثهم.

غرفة المعيشة في الأسفل، جدرانها منحنية وتحوي مقصورات صنعت حسب الطلب، داخلها كانت تعلق صور العائلة مؤطرة، صورة قديمة بيضاء وسوداء لجدي والملك نادر شاه، أخذت في العام ١٩٣١، قبل سنتين من اغتيال، يقفان أمام غزال ميت، ينتعلان جزمات تصل حتى الركبة، وبندقية كل منهما معلقة على كتفه.

صورة لأبي وأمي ليلة زفافهم، بابا يلمع في حلته وأمي أميرة صغيرة متشحة بالبياض.. تبتسم، وهنا بابا وأعز أصدقائه وشريكه بالعمل رحيم خان، يقفان أمام البيت، لم يكونا مبتسمين... كنت طفلاً صغيراً في تلك الصورة، أبي يحملني وهو تعب وعابس: أنا بين ذراعيه، ولكن ذراعي كانا ملتفين حول كتف رحيم خان.

يصل الجدار المزخرف إلى غرفة الطعام. في الوسط توجد الطاولة المصنوعة من خشب الماهوجاني التي تستوعب ثلاثين شخصاً بسهولة، وتسمح لأبي بإشباع حبه للحفلات المترفة، وكان يقيم واحدة كل أسبوع تقريبا.

في نهاية غرفة الطعام، توجد المدفأة الكلاسيكية المصنوعة من المرمر الخالص، التي تضيء دائماً بنار برتقالية في الشتاء. بعدها باب زجاجي كبير يفتح على مصطبة نصف دائرية تطل على إيكرين من الباحة الخلفية وصفوف من أشجار الكرز، على طول الحائط الشرقي: زرع بابا وعلي حديقة صغيرة من الخضروات: بندورة، نعناع، فلفل وصف من الذرة التي لم تنتج أبداً، كنا نسميها أنا وحسان "جدار الذرة المريضة".

على الطرف الجنوبي من الحديقة في ظلال شجرة الإجاص كان بيت الخدم، كوخ صغير متواضع حيث عاش حسان وأبيه، هناك في ذاك

الكوخ، ولد حسان في شتاء ١٩٦٤، بعد سنة واحدة من موت أمي وهي تلدني.

في الثمانية عشر سنة التي عشتها في ذاك البيت. دخلت بيت علي وحسان ما لا يزيد على أصابع اليد.

عندما تغرب الشمس خلف التلال ونكون قد انتهينا من اللعب لذاك اليوم، يذهب كل منا في اتجاه مختلف، أنا أقطع شجيرات الورد إلى قصر بابا، وحسان إلى الكوخ الطيني حيث ولد وأمضى حياته كلها، أذكر أنه كان واسعاً، نظيفاً، مضاء بزوج من مصابيح الكيروسين، كان هناك فرشتين على جانبين متعاكسين من الغرفة، سجادة ملبسة بالهيراتي بالية الأطراف، كرسي بلا ظهر بثلاثة أرجل وطاولة خشبية في الزاوية، حيث أنجزحسان كل رسوماته، وقفت الجدران عارية، إلا من زخرفة وحيدة من الخرز المطرز تشكل كلمتي "الله أكبر". اشتراها بابا لعلي في واحدة من رحلاته إلى ماشاد.

هناك في ذاك الكوخ الصغير، أم حسان، صنوبر، أعطته الحياة، في واحد من أيام الشتاء الباردة في عام ١٩٦٤.

بينما أمي ماتت من نزيف داخلي أثناء ولادتي. خسر حسان أمه بعد أقل من أسبوع من ولادته، خسرها بطريقة يعتبرها أغلب الأفغان أسوأ من الموت: هربت مع عشيرة من المغنين والراقصين.

لم يتكلم حسان أبداً عن أمه، كأنها لم توجد أبداً.

كنت أتساءل دائماً إن كان قد حلم بها، كيف تبدو، أين هي، تساءلت إن كان يتمنى لقاءها، هل تألم لعدم وجودها كما تألمت لعدم وجود أمي التي لم ألتقيها.

في أحد الأيام، كنا نمشي من منزل بابا إلي سينما زينب، حيث كان سيعرض فيلم "إيراني" جديد، أخذنا طريقاً مختصراً من خلال مراكز الجيش قرب مدرسة الاستقلال الإعدادية.كان بابا قد منعنا من أخذ هذا الطريق لكنه كان في الباكستان هو ورحيم خان، قفزنا فوق السياج الذي يحيط المراكز عند مكان الجدول الصغير على الحقل الترابي حيث

تركت الدبابات القديمة ليأكلها الغبار. مجموعة من الجنود كانت تختبئ في ظل إحدى تلك الدبابات، يدخنون السجائر ويلعبون الورق، رآنا آحدهم، لكز الجندي الذي بجانبه وصاح بحسان: "أنت! أنا أعرفك". في الحقيقة نحن لم نره في حياتنا ـ.

كان رجلا مربوع القامة برأس حليق ولحية خشنة سوداء تغطي وجهه، الطريقة التي كشَّر بها والنظرة الماكرة على وجهه أخافتني، " لا تتوقف" همست لحسان.

أنت! أيها الهازارا! انظر إليَّ عندما أكلمك! نبح الجندي.

أعطى السيجارة إلى زميله، صنع دائرة بإبهام وسبابة إحدى يديه ثم أدخل إصبعه الأوسط داخل الدائرة، أدخله وأخرجه، أدخله وأخرجه.

لقد عرفت أمك، هل تعرف هذا؟ عرفتها جيداً، ضاجعتها من الخلف عند ذلك الجدول، هناك.

ضحك الجنود، وصرخ أحدهم كامرأة تغتصب.

لا تتوقف، لا تتوقف قلت لحسان.

يا له من ثقب صغير ضيق تملكه أمه، كالقفل،

كان الجندي يقول وهو يصافح باقي الجنود، ضاحكاً كالكلب.

لاحقاً في الظلام بعد أن بدأ الفيلم، سمعت حسان بجانبي ينتحب، كانت الدموع تنهمر على خديه، اقتربت منه، ووضعت ذراعي حول كتفه، وضممته بقوة، أراح رأسه على كتفي.

لقد أخطأ بينك وبين شخص آخر، همست: لقد أخطأ بينك وبين شخص آخر.

سمعت أن أحداً لم يتفاجأ عندما هربت صنوبر.

لكنهم تفاجؤوا من قبل عندما تزوج علي ـ الرجل الذي حفظ القرآن كاملاً ـ من صنوبر، امرأة تصغره بتسعة عشر عاماً، جمالها على الألسنة، كسمعتها.

كانت صنوبر مثل علي من المسلمين الشيعة، هازارية، وابنة عمه، لذلك كان علي خياراً طبيعياً كزوج لها، و رغم هذه التوافقات إلا أنهما لم يملكا أي صفات مشتركة، كان لعلي حضوراً محترماً، بينما تلك العينان الخضراوان اللتان تشعان ذكاءً وذاك الوجه الذي لم يشهد أحد مثيلاً له، هذه هي صنوبر، يقول الناس أنها جرَّت عددا لا يحصى من الرجال إلى الخطيئة.

كانت عضلات وجه علي السفلية مصابة بشلل نصفي، ما جعله غير قادر على الابتسام، وتركه عابس الوجه على الدوام، و من الغريب جداً أن ترى وجهه الحجري سعيداً، أو حزيناً، لم يكن يستطيع التعبير إلا بعينيه البنيتين اللتين كانتا تلمعان بضحكة أو تتدفقان بالحزن، يقول الناس أن العيون هي نوافذ الروح، لم يكن هذا القول أكثر صحة مما هو عليه مع علي.

كنت أسمع أن مشية صنوبر المغرية وهزَّات ردفيها الرائعين كانت تغرق الرجال في بحر من أحلام الخطيئة والخيانة.

وكأن علي لم يكتف بالشلل في وجهه، فقد تركته حمّى البوليو برجل يمنى ضامرة وملتوية، كان جلدها شاحباً فوق عظام رقيقة، لا يفصل بينهما إلا طبقة رقيقة جداً من العضل.

أذكر يوماً عندما كنت في الثامنة، أخذني علي إلى البازار "السوق الشعبية" لشراء بعض النان "الخبز".

كنت أمشي وراءه، أهمهم وأحاول تقليد مشيته.

رأيته يأرجح رجله الضامرة بحركة دائرية إلى الخارج، كل جسمه كان يميل بطريقة مستحيلة إلى اليمين ، في كل مرة يضع فيها تلك الرجل على الأرض.

بدت المسألة كمعجزة أنه لم يقع مع كل خطوة.

عندما حاولت أن أقلده، تعثرت وكدت أسقط في القناة، أضحكني هذا كثيراً، فنظر إلي علي ورآني، لم يقل شيئاً، لا وقتها ولا فيما بعد، فقط تابع مشيته.

وجه علي وطريقتة في المشي أفزعت بعضَ الأطفال في الحي، لكن المشكلة الحقيقية كانت مع الأولاد الأكبر سناً.

كانوا يلحقونه في الطريق، و يسخرون منه عندما يمر وهو يعرج، أصبح البعض يدعوه بابالو "الرجل الفزاعة".

"بابالو، من أكلت اليوم" كانوا ينبحون في جوقة من الضحك " من أكلت اليوم، بابالو ذو الأنف الأفطس"

كانوا يسمونه ذو الأنف الأفطس كما هي صفة كل الهازارا الذين يشبهون المغول.

لسنوات كان هذا كل ما أعرفه عن شعب الهازارا، أنهم أحفاد المغول، وأنهم يبدون كصغار الصينيين. ذكرتهم كتب المدرسة، وأشارت إلى تاريخهم بسطر أو سطرين، ولكن في أحدٍ الأيام، كنت في مكتب بابا، أنبش أغراضه، عندما وجدت واحداً من كتب أمي القديمة، لكاتب إيراني يدعى كورامي، نفضت الغبار عنه، وتسللت به إلى فراشي تلك الليلة، ذهلت عندما وجدت مقطعاً كاملاً عن ماضي الهازاريين.

مقطع كامل مهدى لشعب حسان! قرأت في ذلك المقطع أن شعبي، الباشتون، عذبوا وقمعوا الهازاريين، يقول أن الهازارا حاولوا أن يثوروا ضد طغيان الباشتون، لكنهم أخضعوهم بعنف لا يوصف، الكتاب يقول أن شعبي قتل الهازارا وأخرجهم من أرضهم، حرق بيوتهم وباع نساءهم. واحد من الأسباب التي ذكرها الكتاب عن سبب قمع الباشتون للهازارا أن الباشتون كانوا من السنة المسلمين بينما الهازارا كانوا من الشيعة، قال الكتاب الكثير من الحقائق التي لم أكن أعرفها، أساتذتي لم يذكروها، وحتى بابا، قال بعض الأشياء التي أعرفها، مثل أن الناس كانوا يلقبون الهازارا بأكلة الفئران وذوي الأنوف المسطحة وحمير التحميل، كنت قد سمعت بعض الأطفال ينادون حسان بهذه الأسماء.

الأسبوع التالي، بعد الدرس، أريت الكتاب لأستاذي وأشرت إلى المقطع الذي يتحدث عن الهازارا.

قلب الأستاذ بين الصفحات، تمتم بعض الكلمات، أعاد الكتاب إلي "هذا هو الشيء الوحيد الذي يجيد الشيعة القيام به" قال الأستاذ وهو يرتب أوراقه" إظهار أنفسهم كشهداء" عبس وهو يلفظ الكلمة "شيعة" كأنها وباء من نوع ما.

متجاهلة اشتراكها معه بالإرث العرقي والدم، شاركت" صنوبر" أولاد الحي في السخرية من علي. سمعت أنها لم تخف خجلها منه

هذا زوج؟ كانت تهزأ، لقد رأيت حميراً عُجَّز أصلح منه لتكون أزواجاً.

في النهاية، شك أغلب الناس في أن هذا الزواج كان نوعاً من الاتفاقيات بين علي وعمه، أبو صنوبر، وقالوا إن علي تزوج صنوبر ليعيد بعض الشرف لاسم عمه الملطخ.

إذ أن علي ـ الذي فقد أباه وأمه وهو في الخامسة_ لم يكن يملك أملاكاً أو إرثاً يطلب يد صنوبر على أساسه.

لم يحاول علي أبداً أن يرد مضايقيه عنه، أعتقد أن جزءاً من السبب كان استحالة أن يلحق بهم بتلك الرجل الملتوية. لكن الجزء الأهم أن علي كان منيعاً ضد الإهانات، لقد وجد متعته، ترياقه، في اللحظة التي أعطت فيها صنوبر الحياة لحسان، لقد كانت لحظة بسيطة، بلا طبيب، بلا أجهزة مراقبة، فقط صنوبر مستلقية على سجادة عارية، علي وقابلة يساعدانها، مع أنها لم تتطلب مساعدة كبيرة، لأنه حتى وقت الولادة، كان حسان مخلصاً لطبيعته، لم يكن قادراً على إزعاج أحد، بعض الصرخات، اثنتين أو أكثر من الدفعات، وكان حسان قد خرج مبتسماً.

وكما قالت خادمة إحدى الجيران على لسان القابلة الثرثارة، التي بدورها أخبرت كل من استمع إليها، أن صنوبر ألقت نظرة خاطفة على الطفل بين ذراعي علي، رأت الشفة المشقوقة فضحكت بمرارة.

انظر، قالت صنوبر: الآن أصبح لك طفلك الغبي ليقوم بكل الابتسامات عنك. لقد رفضت أن تحضن حسان حتى، وبعد خمسة أيام فقط، كانت قد رحلت.

استعان بابا بالممرضة نفسها التي أرضعتني لترعى حسان.

قال لنا علي أنها كانت هازارية بعينين زرقاوين من باميان، مدينة التمثالين العملاقين لبوذا.

ما أجمل صوتها عندما تغني، كان يقول لنا.

ماذا كانت تغني؟ كنا أنا وحسان دائماً نسأله على الرغم من أننا كنا نعلم . فعلي أخبرنا عدداً لا يحصى من المرات، كنا فقط نريد أن نسمعه يغني.

كان يتنحنح ثم يبدأ:

على جبل عالي وقفت

وصحت باسم علي، أسد الله

أواه علي، أسد الله، ملك الرجال

امنح قلوبنا اليائسة بعض السعادة

ثم كان يذكرنا أن هناك أخوَّة بين الناس الذين رضعوا من الصدر الصدر، قرابة حتى الزمن لا يستطيع أن يحلها.

حسان وأنا رضعنا من الصدر نفسه، ومشينا خطواتنا الأولى على المرج نفسه، وتحت السقف نفسه نطقنا بكلمتنا الأولى.

كلمتي الأولى كانت بابا، كلمة حسان الأولى كانت أمير، إسمي.

أفكر في هذا الآن، أجد أن الأساس لما حدث في ذاك الشتاء من سنة ١٩٧٥ وكل ما لحقه، كان في انتظاري من وقت تلك الكلمات الأولى.

- 3 -

هناك قصة مشهورة عن بابا أنه صارع مرة دباً أسوداً في بالوشستان بيديه العاريتين، لو كانت القصة عن أي شخص آخر لاعتبرت كذبة، لأن الأفغان مع الأسف ميالين بطبعهم إلى المبالغة، وهذه تقريباً علة عامة، إذا تبجح أحد ما بأن ابنه طبيب، فأغلب الظن أن ابنه نجح مرة في فحص العلوم في الثانوية.

لكن أحداً لم يشكك مرة بمصداقية بابا، وحتى لو قام أحد بذلك، فبابا يحمل تلك الندب الثلاثة المتوازية التي تشكل طريقاً واضحاً حتى نهاية ظهره، تخيلت مصارعة بابا مع الدب عشرات المرات، حتى حلمت بها، وفي كل تلك الأحلام لم أستطع التفريق بين بابا والدب.

كان رحيم خان أول من لقب بابا بما أصبح لقبه المشهور، طوفان آغا.

كان اسماً يحمل دلالته فور رؤية بابا، إذ كان أبي قوة من قوى الطبيعة.

كان بابا عملاقاً باشتونياً نموذجياً بلحية خشنة وشعر غزير مجعد غير منتظم كصاحبه. يدان كأنهما قادرتان على اقتلاع شجرة صفصاف من جذورها، ونظرة تشع لهباً، تجعل الشيطان نفسه يخر على ركبتيه طالباً الرحمة. كما اعتاد رحيم خان أن يقول: في الحفلات، عندما يخطو داخل الغرفة كالرعد، تدور جميع الرؤوس إليه كما يدور عباد الشمس نحو الشمس.

كان من المستحيل تجاهل بابا، حتى في نومه، اعتدت أن أضع قطناً في أذني، وأرفع الغطاء فوق رأسي، ويبقى صوت شخير بابا، كصوت محرك جرار دائر، يخترق الجدران، رغم أن غرفتي كانت بآخر القاعة بعيدة عن غرفة نومه، كيف استطاعت أمي أن تنام في نفس الغرفة معه !كان هذا لغزاً بالنسبة لي، ما زال على القائمة الطويلة من الأشياء التي سأسأل ماما عنها إذا التقيتها يوماً.

في آخرِ الستينات عندما كنت في الخامسة أو السادسة، قرر بابا أن يبني ميتماً، سمعت القصة من رحيم خان الذي قال لي أن بابا رسم المخططات الأولية بنفسه متجاهلاً أنه لا يملك أي خبرة هندسية، حاول الجميع إقناعه بالتوقف عن هذه الحماقة واستخدام مهندس، لكن بالطبع، رفض بابا، وهز الكل رأسه فاقداً الأمل من عناده، وعندما نجح، هز الجميع رؤوسهم تقديراً لخططه الناجحة، دفع بابا كل تكاليف بناء الميتم ذي الطابقين الواقع على طريق جدة مايواند جنوب نهر كابول.

قال لي رحيم خان أن بابا شخصياً موَّل المشروع كاملاً، دفع للمهندسين، الكهربائيين، عمال الصحة، وعمال البناء.

بلا ذكر موظفي البلدية الذين "تحتاج شواربهم لتزييت" على قول المثل الأفغاني.

استكمل بناء الميتم خلال ثلاث سنوات، كنت في الثامنة عندها، لا زلت أذكر اليوم الذي سبق افتتاح الميتم، أخذني بابا إلى بحيرة غارغا، الواقعة على بعد بضعة أميال شمال كابول.

سألني أن أطلب من حسان القدوم معنا، لكني كذبت وقلت أن حسان ذهب ليجلب حاجيات المنزل، أردت بابا كله لي، كما أنه مرة، في بحيرة غارغا، كنا أنا وحسان نرشق الحجارة على سطح البحيرة. استطاع حسان أن يجعل حجره يقفز فوق الماء ثماني مرات، بينما أفضل مرة لي كانت خمس مرات، كان بابا هناك، يراقب، فاقترب من حسان وربت على ظهره، حتى أنه وضع ذراعه حول كتفيه.

جلسنا على طاولة للرحلات قرب البحيرة، أنا وبابا فقط، نأكل البيض المسلوق وسندويشات الكوفتا "كرات اللحم ومخلل مع الخبز".

كان الماء أزرقاً غامقاً، وضوء الشمس يرتدُّ عن صفحته الصافية كالمرآة.

كانت البحيرة تزدحم أيام الجمعة بعائلات خارجة لقضاء يوم في الشمس، لكننا كنا في منتصف الأسبوع، لم يكن هناك أحد سواي

وبابا واثنين من السيَّاح طويلي الشعر واللحى، "الهيبيين"، كما سمعت البعض يلقبونهم.

كانا يجلسان على الرصيف وأرجلهم في الماء، يصطادان الصدف بأيديهم.

سألت بابا لم تركوا شعرهم يطول، لكن بابا عبس ولم يقل شيئاً، كان يحضر خطبته لليوم التالي.

يقلب بين صفحات خربش عليها بيده، يضع ملاحظاتٍ هنا وهناك بقلم رصاص، أكلت بيضتي وسألت بابا إن كان صحيحاً ما قاله لِي طفل في المدرسة، أنك إذا أكلت قشرة البيض عليك أن تبولها خارجاً، عبس بابا ثانية.

أكلت لقمة من سندويتشتي، أحد السائحين ذوي الشعر الأصفر ضحك وصفع الآخر على ظهره. في المدى على الجهة المقابلة من البحيرة، قطعت شاحنة منعطفاً متثاقلة على التل، أعمت بصري أشعة الشمس المنعكسة عن مرآتها.

أعتقد أني مصاب بالسرطان، قلت.

رفع بابا رأسه عن الأوراق التي تقلبها الريح، وقال لي أني أستطيع جلب الصودا بنفسي، كل ما علي القيام به هو أن أبحث في صندوق السيارة.

في اليوم التالي، خارج الميتم، لم تكف الكراسي إلا قلة من الناس التي تجمهرت لحضور حفل الإفتتاح واضطر الغالبية للوقوف، كان يوماً عاصفاً، جلست على المنصة خلف بابا، خارج الباب الرئيسي مباشرة.

كان بابا يلبس حلة خضراء وقبعة كاراكول.

في منتصف الكلمة، طارت قبعته من الريح، فضحك الجميع.

فأشار لي أن أمسك قبعته، كنت سعيدا بذلك.

لأن الجميع سيعلم عندئذ أنه أبي، "باباي".

ثم استدار إلى المايكروفون قائلاً أنه يرجو أن يكون البناء أكثر متانة من قبعته، فضحك الجميع ثانية.

عندما أنهى بابا كلمته، وقف الناس مهللين، مصفقين، واقتربوا من بابا ليصافحوه، بعضهم ربت على رأسي وصافحني أيضاً، كنت فخورا جداً ببابا، بنا.

برغم نجاح بابا، شك الناس دائماً بقدراته، قالوا له أن التجارة ليست بدمه وأن عليه أن يدرس القانون كأبيه.

لكن بابا أثبت أنهم جميعاً مخطئين، ليس فقط بتأسيس تجارة رابحه، بل بأنه أصبح أحد أثرى التجار في كابول. حيث أقام بابا ورحيم خان تجارة تصدير سجاد ناجحة جدا.

عندما هزء الناس قائلين أن بابا لن يتزوج زواجاً جيداً في النهاية.

لم يكن بابا من العائلة الملكية، لكنه تزوج أمي، صوفيا أكرمي، امرأة تلقت تعليماً عالياً وتعتبر من السيدات الأكثر احتراماً وعفة في كابول، لم تكن تعلّم الأدب الفارسي في الجامعة فقط، بل كان يجري في عروقها الدم الملكي، إنها حقيقة أن أبي كان "يفرك وجه" كل من كان يهزأ به بالإشارة إليها "أميرتي".

كنت أنا الفشل الوحيد في سلسلة النجاحات تلك.

أبي بنى العالم حوله كما يريد، لكن المشكلة كانت أنه رأى العالم بالأبيض والأسود، وكان عليه أن يقرر ما كان أبيضاً وما كان أسوداً، لا تستطيع أن تحب شخصاً يرى العالم بهذه الطريقة دون أن تخافه أيضاً وربما تكرهه قليلا.

عندما كنت في الصف الخامس، كان هناك مولى يعلمنا مادة الإسلام.

اسمه مولى فتح الله خان، رجل قصير ممتلئ، وجهه مليء بندوب تركها حب الشباب، صوته أجش، كان يعلمنا عن حسنة الزكاة، وواجب الحج وفوائد أداء الصلوات الخمس المفروضة، وجعلنا نحفظ آيات من القرآن مع أنه لم يترجم لنا الكلمات.

وكان يحثنا على ذلك بمساعدة عود من الصفصاف كالسوط، ليعلمنا أن علينا لفظ الكلمات العربية بدقة كي يستطيع الله سماعنا بشكل صحيح.

قال لنا مرة أن الإسلام يعتبر شرب الخمر معصية كبرى، وأن الذين يشربون سيسألونٍ عن معصيتهم يوم القيامة، في تلك الأيام كان شرب الخمرة أمراً معتاداً في كابول، حيث لم تحرَّم بشكل رسمي.

لكن الأفغان الذين يشربون كانوا يفعلون ذلك في بيوتهم احتراماً للبقية، كانوا يشترون السكوتش من صيدليات "خاصة" وتوضع الزجاجة في كيس بني من الورق.

ويخرجون وهم يخفون الكيس، لكنهم يتلقون نظرات عدم الرضا من أولئك الذين يعرفون سمعة تلك "الصيدليات".

كنا في الأعلى، في مكتب بابا " غرفة التدخين"، عندما أخبرته ما قاله لنا المولى فتح الله خانٍ في الدرس.

صب بابا لنفسه قدحاً من الويسكي عند البار، في زاوية الغرفة.

استمع إلي وهو يهز رأسه متابعاً، ثم أخذ رشفة من شرابه، وجلس على إحدى تلك الأرائك الجلدية، وضع كأسه جانباً، وأجلسني في حضنه، شعرتٍ كأني جالس على زوج من جذوع الأشجار. أخذ نفساً عميقاً ثم زفره، بدا صوت الهواء وهو يمر من شاربه كأنه سيدوم للأبد، لم أستطع أن أحدد إن كنت أريد أن أضمه أو أهرب من حضنه خوفاً.

قال بصوت أجش: يبدو أنك تهت بين ما تتعلمه في المدرسة والتعليم الحقيقي.

- لكن إن كان ما يقوله صحيحاً، هل يجعلك هذا عاصياً، بابا؟

همهم بابا وهو يحطم قطعة الجليد بين أسنانه.

هل تريد أن تعرف رأي أبيك عن الذنب؟

"نعم!"

"إذاً اسمع" تابع، لكن بداية إفهم هذا وافهمه جيداً، أمير، لن تتعلم شيئاً ذو قيمة من أولئك الحمقى ذوي اللحى.

تقصد مولى فتح الله خان؟

حرك بابا كأسه، أقصدهم جميعاً، بُلْ على لحى كل أولئك القردة حاملي الحق في جيوبهم.

بدأت أضحك، صورة بابا وهو يبول على لحية أي قرد، حامل الحق في جيبه أو غيره، كانت أكثر مما أحتمل.

لا يعرفون إلا الصلاة بمسابح يحركونها بإبهامهم وقراءة كتاب كتب بلغة لا يستطيعون أن يفهموها حتى.

أخذ رشفة أخرى: فليرحمنا الله جميعاً إذا وقعت أفغانستان بين أيديهم.

لكن المولى فتح الله خان يبدو لطيفاً، قلت ذلك وكتمت ضحكة مدوية كانت على فمي.

كذلك بدا جنكيز خان، قال بابا، ولكن دعنا من هذا، سألت عن الخطيئة وأنا أريد أن أجيبك، هل أنت مصغي؟

نعم، قلت وأنا أضغط على شفتي كي لا أضحك.

لكن صوت شخير خرج من أنفي، جعلني أضحك ثانية.

أغرق بابا عينيه الحجريتين في عيني، جعلني ذلك أتوقف عن الضحك فوراً.

أريد أتكلم معك رجل لرجل، هل تستطيع القيام بذلك مرة واحدة؟

"نعم، بابا جان"، تمتمت وأنا أشعر بالدهشة ـ ليس للمرة الأولى ـ كيف يستطيع بابا أن يلذعني بكلمات قليلة.

كانت لحظة جيدة، إذ من النادر أن نتحدث أنا وبابا ـ وهو يضعني على حضنه، أكون غبياً إن أضعتها.

"جيد" قال بابا، لكن التساؤل بقي في عينيه.

"الآن، لا يهم ما يقوله المولى، هناك خطيئة واحدة، واحدة فقط. وهي السرقة، كل خطيئة أخرى هي وجه آخر للسرقة. هل تفهم ؟".

"لا، بابا جان" قلت وأنا أتمنى بيأس أن أكون فهمت، لم أرغب أن أخذله ثانية.

تنفس بابا بقلة صبر. لذعني هذا أيضاً، تذكرت كل الأوقات التي لم يأتِ فيها إلا بعد حلول الظلام. كل الأوقات التي تعشيت فيها وحيدا.

كنت أسأل علي أين هو؟ متى سيعود إلى البيت؟

مع أني كنت أعلم تمام العلم أنه في موقع البناء، يعيد النظر في هذا، يشرف على ذاك، ألم يأخذ هذ مني صبرا كثيراً ؟

كرهت كل الأولاد الذين يبني الميتم لهم. وفي بعض الأحيان تمنيت لو ماتوا مع أهلهم.

عندما تقتل رجلاً فأنت تسرق حياة، قال بابا، تسرق حق زوجته بزوج، من أطفاله تسرق أباهم. عندما تكذب تسرق حق شخص بالحقيقة، عندما تغش، تسرق حق العدالة، هل فهمت.

فهمت . عندما كان بابا في السادسة، دخل سارق إلى بيت جدي في منتصف الليل، جدي، وهو قاضٍ محترم، واجهه ، لكن السارق طعنه في حنجرته، فقتله فورا، سارقاً من أبي أبيه، أمسك سكان البلدة بالقاتل قبل ظهيرة اليوم التالي، ظهر أنه كان متسكعاً من منطقة الكوندوز، شنقوه على جذع شجرة سنديان.

قبل ساعتين من صلاة العصر، ـ رحيم خان وليس بابا ـ هو الذي أخبرني هذه القصة، كنت دائماً أعرف عن بابا من الآخرين.

"ليس هناك فعل أشنع من السرقة، أمير" قال بابا، "رجل يأخذ ما ليس له ، قد تكون حياة أو قطعة خبز، ابصق على هكذا رجل، وإذا التقيت بمثله مرة فليساعده الله، هل تفهم؟

وجدت فكرة بابا يضرب سارقاً تخطف الأنفاس ومخيفة بنفس الوقت، "نعم بابا".

"إن كان هناك إله، فأرجو أن يكون لديه أمور أهم ليهتم بها من شربي للسكوتش أو تناولي للحم الخنزير. الآن، إنزل . كل هذا الكلام عن الخطيئة جعلني عطشا مرة أخرى.

راقبته يملأ كأسه ثانية على البار وتساءلت كم سيمر من الوقت إلى أن نتحدث ثانية كما تحدثنا هذه المرة.

لأني في الحقيقة، كنت دائماً أشعر أن بابا يكرهني قليلاً.

ولم لا؟ لقد قتلت زوجته المحبوبة، أميرته الجميلة. ألم أفعل؟ أقل ما وجب علي فعله أن أحاول أن أتمثل قيمه قليلا، ولكني لم أصبح مثله، على الإطلاق.

في المدرسة كنا نلعب لعبة اسمها شيرجانغي، أو معركة القصائد عليك أن تلقي مقطعاً شعرياً و لدى خصمك ستين ثانية كي يرد بمقطع يبدأ بنفس الحرف الذي انتهى به المقطع السابق.

أرادني كل الصف في فريقه، لأني مع الوقت الذي أصبحت به في الحادية عشر، كنت أستطيع أن ألقي عشرات المقاطع من خيام، حافظ، وشهيرة الرومي الماسناوي.

حتى أني واجهت الصف كاملاً وحدي وانتصرت، أخبرت بابا بهذا لاحقاً ذاك المساء، لكن كل ما فعله أن أومأ برأسه وقال: جيد.

هكذا تغلبت على عزلة أبي، بكتب أمي.

هذا وحسان طبعاً، قرأت كل شيء، رومي، حافظ، سعدي، فيكتور هيجو، جولز فيرن، مارك تواين، إيان فليمنغ، عندما أنهيت كتب أمي - إلا كتب التاريخ المملة - التي لم أحبها أبدا، لكن الروايات والملحمات، شيء آخر .

بدأت أنفق كل مصروفي على الكتب، كنت أشتري كتاباً في الأسبوع من متجر الكتب قرب سينما الحديقة، حتى أصبحت أضعهم في علب عندما امتلأت الرفوف.

بالطبع، الزواج من شاعرة كان شيئاً، و أن تكون أباً لإبن يفضل دفن وجهه في كتب الشعر على الصيد شيئاً آخر. حسناً لم يكن هذا ما

تصوره بابا، على ما أعتقد، الرجال الحقيقيون لا يقرؤون الشعر، ولا يكتبوه أبداً معاذ الله.

الرجال الحقيقيون، الأولاد الحقيقيون. يلعبون كرة القدم كما فعل بابا عندما كان صغيراً.

هذا كان شيئاً تشغف به، في عام ١٩٧٠، أخذ بابا إجازة من أعمال بناء الميتم وسافر طائراً إلى طهران ليشاهد كأس العالم على التلفاز، حيث أنه في ذاك الوقت لم يكن هناك تلفاز في أفغانستان، وسجلني لأتدرب في فريق كرة القدم، ليشاركني شغفه، لكنني كنت سيئاً لدرجة مخجلة. إعاقة شنيعة لفريقي كنت، دائماً أعرقل تمريرة متاحة أو أعيق طريقاً مفتوحاً عن غير علم.

دائماً كنت أتثاقل حول الملعب برجلي الضعيفتين، أتضرع لتمريرة لا تصلني أبداً.

وكلما حاولت أكثر، ملوحاً بيدي فوق رأسي بهياج صائحاً، أنا غير مراقب، أنا غير مراقب، كلما تجاهلوني أكثر.

لكن بابا لم يكن ليستسلم، عندما أصبح واضحاً تماماً أني لم أكن أملك أي موهبة رياضية، حاول أن يجعلني مشاهداً شغوفا، بالطبع استطعت أن أقوم بهذا، ألم أستطع؟

تظاهرت لأطول وقت ممكن، هتفت لفريق كابول عندما سجل في مرمى قندبار، شتمت الحكَم عندما أعطى ضربة جزاء ضد فريقنا.

لكن بابا لاحظ قلة اهتمامي الجاد وواجه الحقيقة أن ابنه لن يلعب أو يشاهد كرة القدم أبداً.

أذكر أن بابا أخذني مرة إلى بطولة بوزكاشي السنوية، تبدأ في أول يوم من أيام الربيع، يوم السنة الجديدة كان البوزكاشي ومازال، شغف أفغانستان كلها.

تشابانداز، حوذي ماهر جداً ترعاه الشركات الكبيرة عادة.

عليه أن يخطف جثة غنم أو ماعز من منتصف الحلبة ويعدو بها بأقصى سرعة ويسقطها في دائرة التسجيل بينما فريق من التشابانداز

الآخرين يحاولون اللحاق به ويقومون بأي شيء يستطيعون القيام به من (الركل، والخدش ، الضرب بالسوط ، اللكم) لأخذ الجثة منه.

ذاك اليوم، زأر الحاضرون بحماسة عندما قاتل راكب الحصان في أسفل الساحة صارخاً وهو يتدافع بخشونة مع اللاعبين الآخرين للحصول على الجثة مثيراً غمامة كبيرة من الغبار. اضطربت الأرض مع قعقعة الحوافر، كنا نتفرج من المقاعد العليا بينما يمر أعضاء الفريقين أمامنا بأقصى سرعة، وهم يصرخون ويتضاربون والزبد يتطاير من أفواه أحصنتهم.

أشار بابا إلى شخص وقال: أمير، هل ترى ذلك الرجل هناك في الأعلى المحاط بالعديد من الرجال؟ رأيته.

هذا هنري كيسينجر.

"أوه" لم أكن أعلم من هو هنري كيسينجر، كان من الممكن أن أسأل، ولكن في تلك اللحظة رأيت برعب كيف سقط أحد التشاباندازا عن سرجه وداسته العديد من الحوافر. كان يطير من جهة إلى أخرى، حتى أصبح كالدمية الممزقة، وأخيرا وقف عندما ابتعد عنه الجمع، حرك رجله قليلاً، ثم سقط بلا حراك، انثنت رجلاه بشكل غريب، وكانت الدماء تسبح عل الرمال، بدأت بالبكاء، بكيت كل الطريق إلى البيت.

أذكر كيف كان بابا يقبض بيديه على المقود بإحكام، يقبض عليه ثم يفلت يديه، وأهم شيء، لن أنسى محاولات بابا الكبيرة ليمحو نظرة الاشمئزاز عن وجهه وهو يقود بصمت.

لاحقاً تلك الليلة. كنت ماراً بجانب مكتب أبي، عندما سمعته يتحدث إلى رحيم خان، ضغطت أذني إلى الباب المقفل، "اشكر الله أن صحته جيدة"، قال رحيم خان،

"أعلم، أعلم لكنه دائماً مع تلك الكتب أو يدور حول المنزل كأنه تائه في حلم ما.

"إذاً؟

"لم أكن هكذا. كان في صوت بابا إحباط وغضب.
ضحك رحيم خان، "الأطفال ليسوا كتباً ملونة، لا يمكنك أن تلونهم بألوانك المفضلة."
"أقول لك، لم أكن هكذا أبداً، لم يكن أحد من الأطفال الذين ترعرعت معهم هكذا أيضاً.
"أتعلم، أحياناً تظن أن العالم كله يدور حولك" قال رحيم خان، كان الشخص الوحيد الذي أعرف أنه يستطيع أن يقول شيئاً كهذا لبابا ويهرب بفعلته.
" لا علاقة لهذا بالأمر."
"لا؟"
"لا"
"إذاً ماذا؟"
سمعت صوت صرير كرسي بابا وهو يتهالك عليه، أغمضت عيني وضغطت أذني أكثر على الباب.أريد أن أستمع، ولا أريد.
"في بعض الأحيان أنظر من النافذة وأراه يلعب في الشارع مع أولاد الحي، أرى كيف يدفعوه فيما بينهم، يأخذون ألعابه، يلكموه هنا، يركلوه هناك.
وهو لا يدافع عن نفسه، أبداً هو فقط... يخفض رأسه و.....
"إذاً؟، هو ليس عنيفاً" قال رحيم خان.
" ليس هذا ما أقصد، رحيم وتعلم ذلك." قال بابا دافعاً هجوم رحيم خان.
"هناك شيء ناقص في هذا الصبي."
"نعم، نزعة اللؤم"
"الدفاع عن النفس لا علاقة له باللؤم، هل تعلم ماذا يحصل عندما يضايقه أولاد الحي؟ يتدخل حسان ويقاتلهم جميعاً، رأيت ذلك بأم عيني، وعندما يعودان إلى البيت أقول له: كيف أصيب حسان بذلك

الجرح على وجهه؟ ويقول لي: لقد سقط، أقول لك رحيم، هناك شيء ناقص في هذا الصبي.

"كل ما عليك فعله هو تركه ليجد طريقه" قال رحيم خان.

"وأين ينتهي هذا الطريق؟ طفل لا يدافع عن نفسه، يصبح رجلاً لا يستطيع الدفاع عن أي شيء."

"أنت تعقد الأمور كالعادة."

- لا أعتقد ذلك.

- أنت غاضب لأنك خائف أنه لن يستلم الأعمال بعدك.

- والآن.... من يعقد الأمور؟ أعلم أن هناك ما يربط بينك وبينه وأنا سعيد بذلك، وأحسدك عليه، لكني سعيد، وأعني ما أقول، هو يحتاج لشخص... يفهمه، لأني، والله يعلم، لا أفهمه. لكن هناك شيء بأمير يؤرقني بطريقة لا أستطيع شرحها. كأنني..." استطعت تخيله في تلك اللحظة يبحث، يحاول الوصول للكلمات الصحيحة، أخفض صوته وهو يكمل لكني سمعته على أي حال." لو لم أرَ الطبيب يخرجه من بطن زوجتي بعيني، لما استطعت تصديق أنه ابني".

في الصباح التالي، سألني حسان وهو يحضر فطوري إن كان شيء يزعجني.

نظرت إليه بقسوة وقلت له أن يهتم بأموره.

كان رحيم خان مخطئاً بشأن نزعة اللؤم هذه.

- 4 -

في ١٩٣٣، السنة التي ولد فيها بابا والسنة التي بدأ فيها زهير شاه عهده الذي دام أربعين عاماً، ركب أخوان - شابان من عائلة غنية ومحترمة في كابول - سيارة أبيهم الرودستر وهما منتشيان من الحشيشة والنبيذ الفرنسي، وصدما امرأة وزوجها الهازاريان على طريق باغمان، أتت الشرطة بالأخوين النادمين ويتيم الزوجين القتيلين ذو الخمس سنين أمام جدي، وكان قاضياً مهماً جداً ورجل ذو سمعة معصومة، بعد سماع الأخوين والتماس أبوهما للرحمة، أمر جدي أن يذهب الأخوان إلى قندبار فوراً ويخدما في الجيش سنة كاملة، على الرغم من أن العائلة كانت قد تدبرت أن يحصل الأخوان على استثناء من الخدمة، الأب حاول أن يجادله، ولكن ليس كثيراً. في النهاية اتفق الجميع أن العقاب كان قاسياً ولكن عادل، بالنسبة لليتيم، جدي تكفل برعايته، جلبه إلى منزله وأمر الخادم الآخر أن يعلمه وأن يكون لطيفاً معه، هذا الطفل كان علي.

كبر علي وبابا سوية رفيقا طفولة.

على الأقل إلى أن أعاقت البوليو رجل علي، كما ربينا أنا وحسان في الجيل التالي، بابا كان دائماً يخبرنا عن الأذى الذي كان يسببه هو وعلي، وكان علي يهز رأسه ويقول: لكن آغا صاحب أخبرهم من كان العقل المدبر ومن كان المنفذ المسكين؟ وكان بابا يضحك ويضع ذراعه حول علي.

لكن ولا بأي قصة من قصصه، أشار بابا إلى علي كصديقه، والشيء الغريب أنيّ لم أفكر بحسان كصديق أيضاً، ليس بالمعنى المعروف على كل، لا يهم أننا علمنا بعضنا قيادة الدراجة بلا يدين، وصناعة كاميرا حقيقية من صندوق من الكرتون. لا يهم أننا أمضينا

شتاءات كاملة نلعب بالطائرات الورقية. لا يهم بالنسبة إلي أنّ وجه أفغانستان هو وجه طفل رقيق العظام، برأس حليقٍ، وأذنين تحت مكانهما الصحيح. ولد بوجه دمية صينية يضيء دائماً بابتسامة على شفته المشقوقة، كل هذه الأمور لا تهم. لأن التاريخ لا يمحى بسهولة، كالدين. في النهاية أنا كنت من الباشتون وهو كانٍ هازارا، أنا كنت سني وهو شيعي، ولا شيء يستطيع تغيير هذا أبداً، لكننا كنا أولاداً تعلمنا الزحف سوية، لا تاريخ ولا طائفية ولا مجتمع أو دين كان يستطيع تغيير هذا أيضاً. لقد أمضيت أغلب الإثنتي عشر سنة الأولى من حياتي ألعبٍ مع حسان . فٍي بعض الأحيان كنت أشعر أن طفولتي كلها كانت يوماً صيفياً طويلا مع حسان، نلاحق بعضنا بعضاً بين الأشجار المتشابكة في ساحة البيت، نلعب الغميضة، الشرطة واللصوص، رعاة البقر والهنود، نعذب الحشرات، ونصرنا المتوج الذي لا يمكن نسيانه، كان في المرة الأولى التي فصلنا إبرة النحلة عن جسدها وربطنا خيطاً حول المسكينة ليسحبها عائدة كلما حاولت الطيران.

كنا ننتظر الكوتشي (البدو)، الذين كانوا يمرون من كابول في طريقهم إلى الجبال في الشمال، نسمع صوت قوافلهم تقترب من حيِّنا، ثغاء خرافهم، ماعزهم، رنين الأجراس المعلقة برقاب جمالهم، كنا نركض إلى الخارج لنراقب القافلة وهي تمر من الطريق، رجال بوجوه مغبرة أكل الجو القاسي قسماً منها، ونساء بعباءات طويلة ملونة، خرز وخلاخل فضية حول المعصم والكاحل، نرمي الحصى على ماعزهم، ونرش الماء على بغالهم، كنت أقنع حسان أن يجلس على "جدار الذرة المريضة" ويرمي الحصى بمقلاعه القاتل على مؤخرات الجمال.

رأينا أول فيلم غربي سوية" ريو سيرافو" بطولة جون واين في سينما الحديقة، مقابل متجر الكتب المفضل لدي.

أذكر أنني رجوت بابا ليأخذنا إلى إيران لكي نقابل جون واين، انفجر بابا بضحكته العاصفة التي لا تختلف كثيراً عن صوت محرك

دائر، ولما استطاع الكلام، شرح لنا مفهوم الدوبلاج، صعقنا أنا وحسان، جون واين لا يتكلم فعلاً الفارسية!! ولم يكن إيرانياً!! بل كان أميركياً، مثل الرجال والنساء اللطفاء ذوي الشعر الطويل، الذين نراهم في أنحاء كابول. الذين يلبسون تلك الثياب "الممزقة" الملونة والتي يدعونها "شورت".

شاهدنا أنا وحسان ريو سيرافو ثلاث مرات، لكننا شاهدنا فيلمنا المفضل الرائعون السبعة، ثلاثة عشر مرة، وفي كل مرة بكينا في النهاية عندما يدفن الأطفال المكسيكيون تشارلز برونسون الذي كما اتضح لنا لم يكن إيرانياً أيضاً.

كنا نتنزه في البازار "سوق شعبية" ذو الرائحة العفنة في قسم شا ر- إي - ناو من كابول، غربي منطقة وزير أكبر خان، كنا نتحدث حول أي فيلم شاهدناه بين الجموع الرائحة والغادية في السوق، كنا نجد طريقنا بين التجار والمتسولين متجولين بين زقاقات ضيقة محصورين بين صفوف من الأكشاك الصغيرة المتلاصقة، كان بابا يعطينا مصروفا قدره عشر أفغانيات لكل منا.

نصرفها على الكوكاكولا الدافئة، وبواري البوظة المحشوة بالبيستاتكيوس (نكهة بوظة معروفة في أفغانستان). خلال فترة المدرسة، كان لدينا روتيناً يومياً، في الوقت الذي أجرُّ به نفسي من السرير متثاقلاً إلى الحمام، يكون حسان قد غسل وجهه، صلى صلاة الفجر مع علي، وحضَّر فطوري. شاي أسود ساخن مع ثلاث قطع سكر وقطعة من الخبز المحمص عليه المربى المفضل لدي (الكرز الحامض) كل هذا مرتَّب على طاولة العشاء، وبينما آكل وأتذمر حول وظائف المدرسة، يكون حسان قد رتب سريري ونظف حذائي وكوى ثيابي ووضع كتبي وأقلامي في حقيبتي. كنت أسمعه يغني لنفسه في الردهة بينما يكوي ثيابي، أغاني هازارية قديمة بصوته الذي يخرج من أنفه.

بعدها يوصلني بابا في فورده الموستانغ السوداء التي ترسم نظرة الحسد على الوجوه في كل مكان، لأنها نفس السيارة التي قادها ستيف

ماكوين في "بوليت"، الفيلم الذي ظل يعرض ستة أشهر في نفس السينما، حسان كان يبقى في البيت ويساعد علي في الأعمال اليومية، غسيل الثياب ونشرها لتجف في الباحة، مسح الأرض، شراء الخبز الطازج من البازار، نقع اللحمة للعشاء، رش العشب بالماء. بعد المدرسة نلتقي أنا وحسان، نأخذ كتاباً ونطير إلى التلة التي يشبه شكلها "الطاسة" شمال المنزل، كان هناك مقبرة مهجورة على التلة بصفوف من الشواهد غير المكتوب عليها وشجيرات متشابكة تعيق الطريق. فصول من المطر والثلج جعلت البوابة الحديدية صدئة وتركت جدران المقبرة الصغيرة البيضاء بحالة مزرية، كان هناك شجرة رمان قرب مدخل المقبرة.

- في أحد أيام الصيف، أخذت سكيناً من مطبخ علي، لنحفر عليها أسماءنا (أمير وحسان... سلاطنة كابول) وهكذا أصبحت الشجرة رسمياً ملكنا - بعد المدرسة كنا نتسلق جذوعها أنا وحسان ونسرق رماناتها الحمراء، وبعد أن نأكلها ونمسح يدينا بالعشب، كنت أقرأ لحسان...

ونحن جالسين مصالبين أرجلنا وأشعة الشمس وظلال أوراق الرمان تتراقص على وجه حسان. كان يقتلع العشب من الأرض بينما أنا أقرأ له القصص التي لا يستطيع أن يقرأها لنفسه، لأنه كبر أمياً كعلي وكأغلب الهازاريين، كأنه قرار اتخذه في الدقيقة التي ولد فيها، وربما حتى في الدقيقة التي حمله فيها رحم صنوبر على مضض. على كل، ماذا يهم الخادم في الكلمة المكتوبة؟ ولكن برغم أميته، وربما بسببها، كان حسان يأخذ الكلمات بغموض، يغويه هذا العالم الممنوع عليه، قرأت له قصصاً وقصائد وأحياناً ألغاز، مع أنني توقفت عن ذلك عندما رأيت أنه أفضل بكثير في حل الألغاز مني، لذا قرأت له أشياء ليس فيها تحديات، كمغامرات المولى نصر الدين الجوال وحماره، كنا نجلس لساعات تحت تلك الشجرة، حتى غياب الشمس، ومع ذلك كان يصر أنه لا زال هناك ضوء كاف لقصة أخرى، لمقطع آخر. أفضل

جزء في القراءة لحسان كان عندما تمرُّ كلمة كبيرة لا يعرف معناها، كنت أغيظه، و أظهر جهله، مرة كنت أقرأ له في قصص المولى نصر الدين، وأوقفني: ما معنى تلك الكلمة؟

ـ أي منها؟

ـ أحمق

ـ لا تعرف معناها؟ قلت ضاحكاً

ـ لا، أمير آغا.

ـ ولكنها كلمة معروفة.

ـ ومع ذلك.... لا أعرفها، حتى عندما ينزعج من إغاظتي له، لا يظهر ذلكٍ على وجهه الضاحك.

ـ حسناً، كل من في المدرسة يعرفها، لنرى، أحمق، إنها تعني ذكي، عبقري، سأستخدمها في جملة عنك، في الكلمات، حسان أحمق.

ـ ااااااااااه. قال وهو يهز رأسه موافقاً.

كنت دائماً أشعر بالذنب بعدها، لذا كنت أحاول أن أعوض عنها بإعطائه أحد قمصاني القديمة أو لعبة مكسورة وأقول لنفسيَ، هذا تعويض كاف عن مزحة بريئة، كتاب حسان المفضل كان الشاه ناماه. ملحمة القرن العاشر عن أبطال بلاد فارس.

أحبَّ كل قصصه، الشاهات القدماء، فيريدون، زال، و رودابيه، ولكن قصته المفضلة، وقصتي، كانت روستام وسوهراب، قصة المحارب العظيم روستام وراكهاش حصانه ذو الأقدام السريعة.

روستام يطعن خصمه الباسل سوهراب طعنة قاتلة في المعركة وبعدها فورا يكتشف أن سوهراب هو ابنه الذي فقد منذ زمن بعيد، وبينما يغرق في الحزنٍ، يسمع روستام كلمات ابنه الأخيرة:

إن كان الفنّ حقيقةً يا أبي، إذاً عجّل بتلطيخ سيفك بدم حياة ابنك. ورغم ذلك، سأحيا في ضميرك، لأني بحثت لأجدك في الحب، وأني

نشدت اسمك، بحثت كي أحفظ التذكارات المحمولة من أمي. لكني انغلقت داخل قلبي في ألم، والآن.. حان وقت الذهاب للقاء...

أعد قراءتها أرجوك، أمير آغا، كان حسان دائماً يطلب مني، أحياناً كانت عينا حسان تغرق بالدموع بينما أنا أقرأ هذا المقطع، وكنت دائماً أتساءل على من يبكي. على حزن روستام الذي ملأت دموعه ثيابه وهو يلطخ وجهه بالرماد، أو على سوهراب المحتضر الذي دائماً حنّ إلى حب أبيه؟ شخصياً لم أستطع أبداً أن أجد التراجيديا في قدر روستام. ألم يكن لدى كل الآباء رغبة سرية في قتل أبنائهم؟

في أحد أيام تموز ١٩٧٣، قمت بحيلة أخرى على حسان، كنت أقرأ له، وفجأة ابتعدت عن القصة المكتوبة، وتظاهرت أني أقرأ من الكتاب وأنا أقلب الصفحات بانتظام، لكنني كنت قد تركت النص بكامله. مبتدعاً البقية من عندي، حسان... بالطبع، كان لا يدري شيئاً عن هذا. بالنسبة إليه، الكلمات على الصفحة كانت شيفرة من رموز غريبة غير قابلة للحل، ألغاز كلمات كانت أبواباً سرية وأنا أحمل كل المفاتيح. وما إن انتهيت، سألته إن كانت القصة قد أعجبته وأنا أكتم ضحكتي، بدأ حسان بالتصفيق، ماذا تفعل؟ قلت له.

ـ هذه أفضل قصة قرأتها لي منذ زمن طويل، قال وهو لا يزال يصفق.

ضحكت قائلا: حقاً؟.

ـ بالطبع.

ـ هذا مذهل، تمتمت، وأنا أعنيها تماماً، كان هذا غير متوقع أبداً.

ـ هل أنت متأكد، حسان؟ كان لا يزال يصفق.

ـ كانت رائعة، أمير آغا، هلا قرأت لي المزيد منها غداً؟.

ـ مذهل، قلت ثانيةً، انقطعت أنفاسي لفترة قصيرة، أحسست كرجل وجد كنزاً مخبئاً في حديقته، ونحن ننزل الهضبة، كانت الأفكار تتفجر في رأسي، كالألعاب النارية في التشامان (عيد أفغاني من المرجح أن يكون عيد الأضحى)، أفضل قصة قرأتها لي منذ زمن طويل، قال

لي، وأنا قرأت لهِ الكثير من القصص، قطعت هذه السلسلة بصوت حسان يسألني شيئاً.

ـ ماذا؟

ـ ماذا يعني هذا، مذهل؟

ضحكت وضممت حسان إلى صدري بقوة، وزرعت قبلة على خده.

ـ لم كان هذا؟ قال حسان، وهو محمر من الخجل، كنت قد أظهرت له صداقتي.

ابتسمت، أنت أمير، حسان، أمير وأنا أحبك.

في تلك الليلة، كتبت أول قصة قصيرة، أخذتٍ مني نصف ساعة، كانت حكاية متشائمة صغيرة عن رجل وجد كوباً سحرياً، واكتشف أنه إذا بكى فيهٍ، دموعه تتحول إليِ لآلئ، ومع أنه كان دائماً فقيراً، إلا أنه كان دائماً رجلاً سعيداً، نادرا ما بكى. لذا صار يبحث عن طريقة تحزنه لتجعله دموعه غنياً، وبينما تراكمت اللآلئ، تحول الى رجل حزين. تنتهي القصة بالرجل جالساً على جبل من اللآلئ، و سكين بإحدى يديه، يبكي بيأس في الكوب على جسد زوجته المذبوحة التي أحبها أشد الحب بين ذراعيه. تلك الليلة، صعدت الدرجات ومشيت إلى غرفة التدخين، بين يدي الورقتين المؤلفتين للقصة، بابا ورحيم خان كانا يدخنان الغليون ويرشفان البراندي عندما دخلت.

ـ ما المشكلة، أمير؟ وهو يغير جلسته على الكنبة، واضعاً يديه خلف رأسه.

دخان أزرق تجمع حول وجهه، عبوسه جعل حنجرتي تجف، لا أدري كيف أخبرته أنني كتبت قصة.

هز بابا رأسه وابتسم ابتسامة صغيرة تظهر عدم اكتراثه

ـ حسن، هذا جيد جداً، أليس كذلك؟ ولم يقل شيئاً آخر، فقط ظل ينظر إلي من خلال سحابة الدخان، على أغلب الظن وقفت هكذا لأقل من دقيقة، لكن في ذاك اليوم، كانت إحدى أطول الدقائق

في حياتي، الثواني مرت بتثاقل، بين الثانية والأخرى فاصل أبدي، الهواء أصبح ثقيلا، رطباً وتقريباً صلباً. كنت أتنفس حجارة. ظل بابا يحدق بي من الأعلى إلى الأسفل ولم يطلب مني قراءتها.

كالعادة، كان رحيم خان من أنقذني، رفع يديه وخصَّني بابتسامة لا تعبر عن لا مبالاة من بعيد أو قريب.

ـ أتسمح لي، أمير جان؟ أرغب كثيراً في قراءتها.

لا أذكر أن بابا خاطبني بهذه الصيغة المحببة، جان، هز بابا كتفيه ووقف، بادياً عليه الارتياح.

ـ نعم، أعطيها لكاكا (عم) رحيم، أنا صاعد لأهيئ نفسي، وترك الغرفة، في معظم الأيام كنت أعبد بابا بعمق يقترب إلى التدين، لكن في تلك اللحظة، تمنيت لو أستطيع فتح شراييني لأخرج دمه الملعون من جسدي.

بعد ساعة، بينما سماء الليل أصبحت غائمة، ذهب كلاهما في سيارة أبي لحضور حفلة، في طريقه إلى الخارج وقف رحيم خان أمامي وأعطاني قصتي مع ورقة أخرى مطوية، ضحك لي ثم غمزني "لك، اقرأها لاحقاً، ثم توقف قليلا وأضاف كلمة أعطتني تشجيعا لأكمل الكتابة أكثر من أي مبلغ دفعه لي أي محرر. تلك الكلمة كانت "برافو".

بعد ذهابهما، جلست على سريري وأنا أتمنى لو كان رحيم خان والدي، لكن بعدها فكرت في بابا وصدره الضخم الواسع، وكم كان شعوري جميلاً عندما يضمني إليه. كم هي رائحته زكية في الصباح، وكيف تدغدغ لحيته وجهي، غمرني شعور بالذنب حتى أني اندفعت إلى الحمام وتقيأت في المغطس.

لاحقاً تلك الليلة وأنا مغطى في فراشي، قرأت ما كتب رحيم خان لي مرة تلو الأخرى، كانت هكذا:

أمير جان: استمتعت بقصتك كثيراً، ماشاء الله. الله قد وهبك موهبة خاصة، و الآن واجبك أن تطور هذه الموهبة، لأن الشخص الذي يهدر مواهبه "حمار". لقد كتبت قصتك بحس عال وأسلوب مثير

للاهتمام. لكن الشيء المذهل الذي يميز قصتك هو القدرة على "التهكم"، قد لا تعلم ما تعني هذه الكلمة، لكنك ستفعل يوماً ما، إنها شيء يحاول بعض الكتاب امتلاكه كل حياتهم ولا يصلون إليه، ولقد حققت هذا في أول قصة لك. بابي مفتوح لك، وسيبقى دائماً، أمير جان. سأسمع أي قصة لديك لترويها، برافو.

صديقك رحيم.

وأنا مليء بزخم ما كتب رحيم خان لي، حملت القصة وركضت إلى البهو، حيث حسان وعلي كانا نائمين على سجادة، كان هذا الوقت الوحيد الذي ينامان فيه داخل المنزل، عندما يذهب بابا، ويكون على علي الاهتمام بي، هززت حسان وسألته إن كان يريد أن يسمع قصة.

فرك عينيه المثقلتين بالنعاس وقال: الآن! كم الساعة؟

- لا يهم الوقت، هذه القصة مميزة، كتبتها بنفسي. همست وأنا أتمنى ألا يستيقظ علي.

أضاء وجه حسان: إذاً يجب أن أسمعها، قال هذا وهو يرفع الغطاء عنه.

قرأتها له في غرفة المعيشة قرب المدفأة. بلا ألعاب لفظية أو تحويرات في القصة هذه المرة، فهذه قصتي! كان حسان أفضل مستمع في كثير من النواحي، يندمج تماماً مع الحكاية، يتغير وجهه مع تحولات القصة. عندما انتهيت من قراءة آخر جملة، صفق تصفيقاً صامتاً: ماشاء الله، أمير آغا. برافو! قال هذا ووجهه يضيء بهجة.

- أعجبتك؟ قلت وأنا آخذ ثاني رأي لي، وكم كان جميلاً أن آخذ رأياً إيجابياً آخر.

- يوماً ما، انشاء الله، ستصبح كاتباً عظيماً والناس في العالم كله سيقرؤون كتاباتك.

- أنت تبالغ، حسان. قلت وأنا أشعر بالحب لمبالغته.

ـ لا، ستصبح عظيماً ومشهوراً، أصرَّ، ثم توقف قليلاً، كأن هناك شيئاً يريد إضافته، زان كلماته، تنحنح: لكن إن سمحت لي أن أسأل سؤالا عن القصة؟ قال بخجل.

ـ بالطبع.

ـ حسنٌ... بدأ، ثم توقف.

ـ قل، حسان، قلت مبتسماً.

مع أني شعرت بخوف الكاتب من سماع هذا.

ـ حسنا، إن كان يحق لي أن أسأل، لم قتل الرجل زوجته؟ في الحقيقة، لم كان يجب أن يشعر بالحزن ليذرف الدموع؟ ألم يكن من الأسهل أن يشم بصلة؟

صعقت! هذه النقطة بالذات، واضحة لدرجة أنه كان من الغباء تماماً أنها لم تخطر ببالي.

حركت شفتيَّ بلا صوت. يبدو أنني في نفس الليلة تعلمت إحدى أهداف الكتابة (حس السخرية) وأيضا وقعت في أحد مطباتها. العقدة بكاملها، علمني إياها حسان، من بين كل الناس، حسان الذي لم يقرأ أو يكتب كلمة واحدة في حياته كلها. صوت، بارد وقاسٍ، همس في أذني: ما الذي يعرفه هذا الهازاري الأمي؟ لن يصبح شيئاً أكثر من طباخ. كيف يجرؤ على انتقادك؟

ـ حسناً. بدأت ولكن لم يتح لي الوقت لأكمل هذه الجملة.

لأنه وفجأة، تغيرت أفغانستان للأبد.

- 5 -

شيء زأر كالرعد، الأرض اهتزت قليلاً، وسمعنا صوت (ترات - ا - تات - تات) صوت إطلاق النار.

- أبي! صاح حسان، طرنا خارج الغرفة ووجدنا علي يعرج وهو يقطع البهو من جهة لأخرى.

- أبي! ما كان هذا الصوت؟ صرخ حسان، مادّاً يديه نحو علي، غطّانا علي بذراعيه، ضوء أبيض ومض، وأضاء السماء بلون الفضة. ثم ومض ثانية متبوعاً بزخات متتابعة من إطلاق الرصاص، إنهم يصيدون البط، قال علي هذا بصوت مبحوح.

- يصيدون البط في الليل كما تعلمون، لا تخافوا. صوت إنذار سمع من بعيد. صوت زجاج يتحطم وأحدهم يصيح، سمعت الناس في الشارع، مستيقظين من نومهم وعلى الأغلب لا زالوا في ثياب النوم، بشعر منفوش وعيون منتفخة، كان حسان يبكي، اقترب علي منه، وربت على كتفه بحنان. لاحقاً كنت أقول لنفسي، لم أحسد حسان على الإطلاق.

بقينا هكذا حتى الساعات الأولى من الصباح.

الطلقات والانفجارات لم تستمر أكثر من ساعة، لكنها أرعبتنا بشدة، لأنه لم يسمع أحد منا من قبل إطلاق نار في الشوارع، كانت أصواتاً غريبة بالنسبة لنا في ذلك الوقت، جيل أطفال أفغانستان الذين لا تعرف آذانهم شيئاً إلا صوت القنابل والرصاص لم يكن قد ولد بعد، ونحن متكورون على بعض في غرفة الطعام ننتظر شروق الشمس، لم يكن لدى أحدنا أي فكرة أن طريقة عيشٍ في الحياة قد انتهت، طريقتنا في الحياة، وإن لم تنته بعد فعلى الأقل كانت هذه بداية النهاية.

النهاية، النهاية الرسمية كانت ستأتي في أول نيسان ١٩٧٨ مع الانقلاب الشيوعي السياسي.

وبعدها في كانون الأول ١٩٧٩، عندما كانت الدبابات الروسية تدور في نفس الشوارع التي كنا أنا وحسان نلعب فيها، قاتلة أفغانستان التي أعرفها، ومحددة بداية حقبة لا تزال مستمرة من إراقة الدماء.

قبل شروق الشمس بقليل، سابقت سيارة بابا الممر إلى البيت، فتح بابها وأغلق بسرعة، وصوت خطاه الراكضة هزت الدرجات، ثم ظهر في البهو ورأيت شيئاً على وجهه، لم أعرفه فوراً، لأنني لم أره من قبل أبدا.. الخوف.

- أمير! حسان! قال وهو يتنفس الصعداء راكضاً نحونا وهو يفتح ذراعيه.

- لقد أغلقوا كل الطرق، وخطوط الهاتف قطعت، كنت قلقاً جداً!

حضننا بقوة، وللحظة جنونية قصيرة، كنت سعيداً بما حدث تلك الليلة.

ما كانوا يصطادون البط كما تبين، لم يصطادوا أي شيء في تلك الليلة، ليلة ١٧ تموز ١٩٧٣، استيقظت كابول الصباح التالي لتجد أن الملكية أصبحت من الماضي.

الملك زاهير شاه، كان في إيطاليا، وفي غيابه، أنهى ابن عمه، داوود خان، عهد الملك الذي دام أربعين عاماً، بثورة بيضاء.

أذكر حسان وأنا في الصباح التالي مقرفصين أمام باب مكتب بابا، بينما بابا ورحيم خان يشربان الشاي الأسود ويستمعان إلى أخبار الثورة على راديو كابول.

- أمير آغا! همس حسان.

- ماذا؟

- ما هي الجمهورية؟

هزرت كتفي: لا أعرف. على راديو بابا، كانوا يقولون كلمة "الجمهورية" مرارا وتكرارا.

ـ أمير آغا؟

ـ نعم؟

ـ هل "الجمهورية" تعني أن علينا أبي وأنا الذهاب بعيداً.

ـ لا أعتقد ذلك. همست.

حسان توقع هذا.

ـ أمير آغا؟

ـ نعم؟

ـ لا أريدهم أن يأخذوني أنا وأبي بعيداً.

ضحكت "كفى، يا حمار، لا أحد سيأخذك بعيداً"

ـ أمير آغا؟

ـ نعم؟

ـ هل تريد أن نذهب لنتسلق شجرتنا؟

اتسعت ابتسامتي، هذا شيء آخر عن حسان، هو دائماً يعرف متى يقول الشيء الصحيح، الأخبار كانت قد أصبحت مملة، ذهب حسان إلى الكوخ ليتجهز، وأنا صعدت إلى الأعلى وأخذت كتاباً، ثم عدت إلى المطبخ وملأت جيوبي بحبات الصنوبر، وركضت للخارج لأجد حسان ينتظرني، تسابقنا خلال البوابة متجهين إلى التلة، قطعنا الشارع الرئيسي، وكنا نتقافز خلال منطقة وعرة تقود إلى التلة عندما فجأة، أصاب حسان حجر في ظهره، نظرنا إلى الخلف، شعرت أن قلبي سقط من مكانه.

آصف واثنان من أصدقائه، والي وكمال كانوا يقتربون منا، آصف كان ابن أحد أصدقاء أبي، محمود، طيار مدني، عائلته تعيش على بعد بضعة شوارعٍ جنوب بيتنا. في قصر أنيق مسور بأشجار نخيلٍ كبيرة، إن كنت طفلا وتسكن في منطقة وزير أكبرٍ خان، فأنت حتما سمعت بآصف وبراجمه النحاسية الشهيرة، آملا أنك لم تعرفها عن تجربة شخصية، ولد لأم ألمانية وأب أفغاني، آصف الأشقر ذو العينين الزرقاوين حكم كل الأولاد الآخرين. سمعته ـ المكتسبة بجدارة ـ عن

وحشيته تسبقه في الطرقات. محاطاً بأصدقائه المطيعين، كان يمشي في الحي كخان يتنزه في أرضه متلهفاً ليرضي غروره، كلمته قانون، وإن احتجت لبعض التأديب القانوني فهذه البراجم النحاسية هي الأداة المناسبة للتأديب، رأيته يستخدمها مرة مع طفل من مقاطعة كارتيه ـ تشار، لن أنسى كيف لمعت عينا آصف الزرقاوان بضوء لا يخلو من بعض الجنون وكيف ابتسم، كيف ابتسم، وهو يلكم الطفل إلى أن فقد وعيه، بعض من الأطفال في وزير أكبر خان لقبوه بآصف الغوشكيور " آصف آكل الآذان"، بالطبع لم يجرؤ أحد منهم أن يقولها له في وجهه إلا إن كان يتمنى أن ينال نفس القدر الذي أصاب ذاك الطفل المسكين الذي قاتل آصف على طائرة ورقية وانتهى به الأمر يصطاد أذنه اليمنى في قناة من الطين. بعد سنين لاحقة، تعلمت كلمة إنكليزية للمخلوق الذي كان آصف يمثله، كلمة، الفارسية لا تعرف لها مرادفا، سوسيوباث (شخص مصاب باختلال في الشخصية تظهر في تصرفات وردود فعل غير اجتماعية).

بين كل أطفال الحي الذين يضايقون علي، آصف كان أكثرهم قسوة، في الحقيقة كان هو مخترع لقب بابالو، .

ـ هيبي ! بابالو، من أكلت اليوم؟ ها؟ أرجوك، بابالو، ابتسم لنا !
وفي الأيام التي يشعر فيها بالإلهام، كان يضيف إليها نكهته الخاصة.

ـ هيبي ! بابالو ذو الأنف المفلطح، من أكلت اليوم؟ أخبرنا أيها الحمار ذو العينين الصغيرتين !

والآن هو يمشي نحونا، ويداه على خصره، وحذاؤه يضرب الأرض جاعلاً الرمال تلتف حوله في غمامة.

ـ صباح الخير، غبي ! صاح آصف ملوحاً، مخنث.

هذه كانت من الإهانات المفضلة لديه، تراجع حسان ورائي بينما اقترب الأولاد الثلاثة الأكبر منا سناً. وقفوا بمواجهتنا، ثلاث أولاد طوال القامة، يرتدون سراويلاً من الجينز وكنزات قصيرة الأكمام، يغطوننا تماماً، صالب آصف ذراعيه الضخمتين أمام صدره، ابتسامة وحشية

ارتسمت على شفته، خطر لي وليس للمرة الأولى أن آصف لا يخلو من الجنون تماماً، وأيضاً كم أنا محظوظ لأن بابا هو أبي، هذا هوٍ السبب الرئيسي ـ على ما أعتقد ـ أن آصف لم يجرؤ على مضايقتي كثيرا.

نظر إلى حسان وقال: هيبيي! ذو الانف المفلطح، كيف بابالو؟ لم يقل حسان شيئاً وخطا خطوة أخرى خلفي.

ـ هل سمعتم الأخبار يا أولاد؟ قال بابتسامة ظاهرة، الملك ذهب إلى غير رجعة، تخلصنا منه إلى الأبد، فليعش الرئيس إلى أبد الآبدين!

ـ أبي يعرف داوود خان، هل تعرف هذا، أمير؟

ـ كذلك أبي، قلت وللحق ليس لدي فكرة إن كان هذا صحيحاً أو لا.

ـ كذلك أبي، سخر آصف بصوت يشبه المواء، ضحك كامل ووالي سوية، تمنيت لو كان بابا هنا.

ـ حسناً، داوود خان تعشى في بيتنا السنة الماضية. أكمل آصف، ما رأيك بهذا، أمير؟

تساءلت إن كان سيسمعنا أحد إن صرخنا في هذه المنطقة النائية، بيتنا كان يبعد كيلو متراً على الأقل، تمنيت لو بقينا في البيت.

ـ هل تعلم ماذا سأقول لداوود خان عندما يأتي المرة القادمة لدينا للعشاء؟ قال آصف

سأدردش معه قليلاً، رجل لرجل، مارد لمارد، وأقول له ما قلته لأمي عن هتلر، نعم! هذا قائد عظيم، رجل يملك رؤية، سأقول لداوود خان أن يتذكر أنهم لو تركوا هتلر ينهي ما بدأه لكان العالم مكاناً أفضل الآن.

- يقول بابا أن هتلر كان مجنوناً، وقد أمر بقتل الكثير من الناس الأبرياء. سمعت نفسي أقول قبل أن أتذكر أن أقفل فمي.

سخر آصف: كما قالت أمي، وهي ألمانية، كان يجب أن تعرف أفضل من هذا، لكنهم يريدون تصديق هذا، أليس كذلك؟ لا يريدون أن يعرفوا الحقيقة.

لم أعرف من كانوا "هم"، وأي حقيقة يخفون، ولم أرد أن أعرف، تمنيت لو لم أقل شيئاً، تمنيت ثانية أن أنظر لأجد بابا يصعد التلة.

ـ لكن عليك أن تقرأ كتباً لا يعطوك إياها في المدرسة، أكمل آصف، لقد قمت بهذا، وفتحت عينيَّ، الآن أنا أملك رؤية، وسأشارك رئيسنا الجديد بها، أتدري ما هي؟

هززت رأسي، سيقول لي على كل حال، آصف دائماً يجيب على أسئلته بنفسه.

برقت عيناه الزرقاوان نحو حسان، أفغانستان هي أرض الباشتون، كانت هكذا، وستبقى هكذا، نحن الأفغان الحقيقيون، الصافون، ليس ذو الأنف المفلطح هذا، شعبه يلوث أرضنا، وطننا، يوسخ دماءنا، مسح الفضاء حوله بإشارة كبيرة بيديه، أفغانستان للباشتون، هذه هي رؤيتي.

حملق بي ثانية، بدا كأنه شخص استفاق للتو من حلم جميل.

ـ الأمر انتهى بالنسبة لهتلر، ولكن ليس بالنسبة لنا. أكمل، أخرج شيئاً من الجيب الخلفي لسرواله.

ـ سأطلب من الرئيس أن يقوم بما لم يمتلك الملك القوة للقيام به، أن يخلص أفغانستان من كل الكاسيف "الوسخ" الهازاري.

ـ اتركنا نذهب آصف، قلت كارهاً صوتي الذي كان يرتجف، نحن لا نزعجك.

ـ أوه، أنتم تزعجوني، قال آصف، ورأيت بقلب غارق، ما كان آصف قد اصطاد من جيبه، بالطبع، براجمه النحاسية لمعت تحت ضوء الشمس،

ـ أنتم تزعجوني كثيراً، في الحقيقة، أنت تزعجني أكثر من هذا الهازارا، كيف يمكنك أن تتحدث إليه، تلعب معه، تتركه يلمسك؟ قال وصوته مفعم بالقرف.

هز والي وكمال رأسيهما موافقين.

ضيَّق آصف عينيه وهز رأسه، عندما تحدث ثانية، كان صوته كصوت الثور بقدر ما يبدو مثله.

ـ كيف يمكنك أن تسميه صديقك؟

كدت أقول، ولكنه ليس صديقي! هو خادمي، هل أعتبره فعلاً كذلك؟ بالطبع لا، عاملت حسان بشكل جيد، كصديق، وأفضل من ذلك، أقرب إلى أخ، ولكن إن كان هذا صحيحاً، إذاً لماذا عندما يأتي أصدقاء بابا صحبة أولادهم ليزورونا، لا أشارك حسان في ألعابنا؟ لماذا ألعب مع حسان فقط عندما لا يوجد أحد آخر؟

وضع آصف البراجم في يده ورمقني بنظرة جليدية.

ـ أنت جزء من المشكلة، أمير، لو أن الحمقى مثلك ومثل أبيك لم يأووا هؤلاء الناس في بيوتهم، لكنا قد تخلصنا منهم الآن، لكانوا كلهم ذهبوا ليتعفنوا في هازاراجات، حيث ينتمون، أنت عار على أفغانستان.

نظرت في عينيه المجنونتين وأدركت أنه يعني ما يقول، وأنه فعلاً يريد إيذائي، رفع آصف قبضته، اتجه نحوي، شعرت بحركة سريعة خلفي، بزاوية عيني رأيت حسان ينحني ثم يقف بسرعة. تحولت عينا آصف إلى شيء خلفي، واتسعتا من المفاجأة، رأيت نظرة الذهول ذاتها على وجهي والي وكمال عندما شاهدا ما يحدث خلفي.

استدرت للوراء لأصبح وجهاً لوجه مع مقلاعٍ حسان. كان حسان قد سحب الحبل إلى آخر المقلاع، وضع حجرا بحجم جوزة، و رفع مقلاعه ووجهه نحو وجه آصف، كانت يداه تهتزان من ضغط الحبل المطاطي، وحبات من العراق ظهرت على جبهته.

ـ اتركنا آغا، أرجوك، قال حسان بصوت واضح.

كان قد خاطب آصف (بآغا) تساءلت للحظة كيف هي الحياة مع هذا الحس الراسخ لتسلسل مكانة الشخص.

قال آصف وهو يصر على أسنانه: ضعها جانباً، أيها الهازارا الذي لا أم له.

ـ أرجوك اتركنا لحالنا، آغا. قال حسان.

ابتسم آصف، ربما لم تلاحظ ولكننا ثلاثة وأنتم اثنان فقط.

هز حسان كتفيه، لشخص لا يعرفه، لا يبدو عليه الخوف، لكني أعرف وجه حسان عن ظهر قلب، وأعرف كلٍ رمشة، وكل حركة أو تغيير يظهر عليه، ورأيت أنه كان خائفاً، خائفاً للغاية.

ـ هذا صحيح، آغا، ولكن ربما أنت لم تلاحظ أني أنا من يحمل المقلاع، إن قمت بحركة واحدة سيضطرون إلى تغيير لقبك من آصف آكل الآذان إلى آصف ذو العين الواحدة، لأنني أصوب حجري نحو عينك اليسرى مباشرة، قال هذا بوضوح تام لدرجة أنه حتى أنا اضطررت للإصغاء جيداً لأسمع الخوف الذي أعرف أنه يختبئ تحت هذا الصوت الهادئ.

ارتعش فم آصف، والي وكمال راقبا هذا التغير بما يقرب من الذهول، أحدهم تحدىٍ إلههم، أهانه، والأسوأ من هذا كله أنَّ هذا "الأحدهم" كان هازاريا هزيلا، كان آصف يقلب نظره بين الحجر وحسان. تفحص وجه حسان بعمق، ما وجده فيه أقنعه بجدية حسان لأنه خفض قبضته.

ـ جربٍ أن تعرف شيئاً عني، هازارا. قال آصف بوقار، أنا شخص صبور جداً، هذا لا ينتهي اليوم، صدقني، ثم نظر إلي، لم ينته الأمر بالنسبة لك أيضاً، أمير، يوماً ما سأواجهك وحدك.

تراجع آصف للوراء خطوة، ثم استدار وذهب في طريقه، راقبتهم يهبطون التلة، ويختفون خلف حائط.

عندما نظرت إلى حسان كان يحاول ربط مقلاعه إلى خصره، ويداه ترتجفان، فمه تجعد بما يفترض أن يكون ابتسامة اطمئنان، احتاج لخمس محاولات كي يربط الحبل حول سرواله.

لم يقل أحدنا كلمة بينما عدنا إلى البيت، والقلق يعلو وجهينا، متأكدين أن آصف وأصدقاءه سيكونون في الانتظار كلما مررنا من منعطف، لم يحدث هذا ولم يطمئننا هذا الأمر على الإطلاق.

في السنتين اللاحقتين، مصطلحيْ التطور الاقتصادي وإعادة التنظيم، ترددا على العديد من الشفاه في كابول، الملكية الدستورية كانت قد أُبطلت وحلت مكانها الجمهورية، يقودها رئيس للجمهورية.

لفترة، إحساس بالنشاط والعمل على تحقيق الهدف احتل أفغانستان كلها.

تحدث الناس بحقوق المرأة والتكنولوجيا الحديثة، لكن بالنسبة لأغلب الناس، مع أن قائداً جديداً يعيش الآن في الآرغ (القصر الملكي في كابول).. بقيت الحياة كما هي، يعملون من السبت إلى الخميس ويتجمعون للرحلات في الجمعة، في الحدائق على مقاعد بحيرة غارغا، حدائق باغمان، شاحنات وباصات متعددة الألوان تمشي في شوارع كابول الضيقة يقودها الصراخ المتواصل لمساعدي السائقين الذين يحتلون مؤخرات المركبات ويقدمون للسائق التوجيهات بلهجتهم الكابولية الثقيلة، في عيد الفطر الأيام الثلاثة من الاحتفالات بعد شهر رمضان المقدس، يرتدي الكابوليون أفضل وأزهى ثيابهم، ويذهبون لزيارة أقاربهم، يحضن ويقبل الناس بعضهم بعضا ويتبادلون التحيات بكلمة "عيد مبارك"، يفتح الأطفال الهدايا ويلعبون بالبيض الملون.

في أحد الايام من بداية الشتاء التالي من سنة ١٩٧٤، كنت وحسان نلعب في الباحة، نبني قصراً من الثلج، عندما نادى علي "حسان: آغا صاحب يريد أن يكلمك" كان يقف على الباب الأمامي مرتدياً ثياباً بيضاء، أكمامه تخفي يديه، وهو يلفظ الهواء من فمه، تبادلت انا وحسان ابتسامة، كنا ننتظر هذا كل اليوم، كان اليوم عيد ميلاد حسان "ما هي أبي، هل تعرف؟ قل لي"، قال حسان وعيناه تلمعان، هز علي كتفيه "آغا صاحب، لم يقل لي"

- هيا، علي، قل لنا، هل هو كتاب تلوين، أو ربما مسدس جديد.

كحسان، علي لم يكن قادرا على الكذب. كل سنة كان يتظاهر أنه لا يعرف ماذا اشترى بابا لحسان، أو لي، في عيد ميلادنا، وكل سنة،

كانت عيناه تخوناه، وكنا نعرف ما نريد منه، هذه المرة، بدا أنه يقول الحقيقة.

بابا لم يفوت عيد ميلاد حسان أبداً، لفترة كان يسأله ماذا يريد، ولكنه توقف عن ذلك لأن حسان كان متواضعاً جداً ليطلب هدية، وهكذا، كل سنة، كان بابا ينتقي هدية لحسان. جلب له مرة شاحنة من اليابان، ومرة قاطرة إلكترونية وسكة، السنة الماضية، جلب بابا لحسان قبعة كاوبوي حريرية تشبه بالضبط تلك التي وضعها كلينت إيستوود في "الجيد السيئ والقبيح". الفيلم الذي حل مكانه "السبعة الرائعون" كفيلمنا المفضل. كل شتاء، كنا أنا وحسان نضع القبعة ونحن نتمتم بموسيقى الفيلم المشهورة، ونتسلق تلال الثلج ونقتل بعضنا "بالرصاص".

خلعنا قفازاتنا وأحذيتنا الثلجية على الباب الأمامي، عندما دخلنا إلى البهو، وجدنا بابا جالساً بقرب المدفأة وبجانبه هندي، أصلع، قصير، يرتدي بذة بنية وربطة عنق حمراء.

ـ حسان، قال بابا، قابل هدية عيد ميلادك.

تبادلت وحسان نظرات فارغة، لم يكن هناك هدية ملفوفة أو كيساً أو لعبة، فقط علي واقف خلفنا، وبابا وهذا الهندي النحيف الذي يشبه أستاذ الرياضيات، ابتسم الرجل الهندي بالبذلة البنية وقدم يده لحسان " أنا الدكتور كومار، يشرفني لقاؤك"

كان يتكلم الفارسية بلكنة هندية ثقيلة ومتلعثمة.

ـ السلام عليكم، قال حسان متردداً، وهز رأسه أدباً، ولكن عينيه بحثتا عن أبيه خلفه، اقترب علي ووضع يديه على كتف حسان.

لاحظ بابا قلق حسان.

ـ لقد طلبت حضور الدكتور كومار من نيودلهي، دكتور كومار جراح تجميلي.

ـ هل تعرف معنى هذا؟ قال الرجل الهندي ـ دكتور كومار ـ هز حسان رأسه ونظر إلي طالباً المساعدة، ولكنني هززت كتفي، كل ما كنت أعرفه أنك تحتاج جرَّاحاً لأنك تعاني من الزائدة الدودية، أعرف

هذا لأن أحد زملائي مات السنة الماضية والمعلم قال لنا أن أهله انتظروا طويلاً ليأخذوه إلى الجراح.

نظرنا كلينا إلى علي، ولكن بالطبع مع علي لا يمكنك أن تعرف، كان وجهه خال من التعبير، كما هو دائما، مع أن نظرة رصينة كانت تلتمع في عينيه.

- حسنٌ، مهمتي هي إصلاح العيوب في أجسام الناس، وأحياناً في وجوههم. قال الدكتور كومار.

- أوه، قال حسان وهو يقلب نظره من الدكتور كومار إلى بابا ثم إلى علي، لمست يده شفته العليا "أوه" قال ثانية.

- إنها هدية غريبة، أعلم ذلك، قال بابا، وربما لم تكن كما توقعت، ولكن هذه الهدية ستدوم إلى الأبد.

- أوه، قال حسان ولعق شفتيه، وتنحنح ثم قال: آغا صاحب، هل... هل؟

- لا شيء، قاطعه الدكتور كومار وهو يبتسم بلطف، لن تؤلمك البتة، سأعطيك دواءً يجعلك لا تذكر شيئا.

- أوه، قال حسان، وابتسم بارتياح، قليل من الارتياح، لم أكن خائفاً، آغا صاحب، فقط... ربما خدع حسان، ولكن ليس أنا، كنت أعرف أنه عندما يقول الدكاترة أنها لن تؤلم، عندها عليك أن تعرف أنك في مشكلة. برعب تذكرت طهوري السنة الماضية، قال لي الدكتور الشيء نفسه، وطمأنني أني لن أتألم البتة، ولكن عندما انتهى مفعول المخدر لاحقاً في نفس الليلة، شعرت كأن شخصاً يضغط فحمة متوهجة على خصيتي، لمَ انتظر بابا إلى أن أصبحت في العاشرة ليطهرني؟ كان هذا أحد الأشياء التي لن أسامحه عليها.

تمنيت لو كان لدي تشوه أيضاً، يجعل بابا متعاطفاً معي، لم يكن عدلاً، لم يقم حسان بشيء ليكسب تعاطف بابا، فقط ولد بهذه الشفة الغبية.

انتهت العملية بنجاح، دهشنا جميعاً عندما أزلنا الضمادات عن شفة حسان، ولكننا ظللنا نبتسم كما طلب منا الدكتور كومار. لم يكن ذلك سهلاً، لأن شفة حسان العليا كانت متورمة بشكل رهيب، توقعت أن يبكي حسان برعب عندما أعطته الممرضة المرآة، ضم علي يديه على بعضهما، بينما أخذ حسان نظرة تفكير طويلة فيها، تمتم بشيء لم أفهمه، فوضعت أذني علىٰ شفتيه "تاتاشكور" ثم جعد شفتيه، عندها عرفت بالضبط ما كان يفعل، كان يبتسم كما ابتسم اللحظة التي خرج فيها من رحم أمه.

اختفى الورم، والتأم الجرح مع الوقت، ثم أصبح خطاً صغيراً وردي اللون، في الشتاء الذي تلاه أصبحت ندبة صغيرة، ما أغرب الأقدار، لأنه في ذاك الشتاء، توقف حسان عن الابتسام.

- 6 -

الشتاء. هذا ما كنت أفعله عند أول هطول للثلج كل سنة، أخرج من البيت في الصباح الباكر، وأنا ما زلت في ثياب النوم، أحضن نفسي من البرد، أجد أنّ الممر، سيارة أبي، الجدران، الأشجار والأسقف والتلال كلها مدفونة تحت الثلج، أبتسم للسماء الصافية الزرقاء، الثلج أبيض لدرجة أنه يحرق عيني، آكل القليل من الثلج، وأستمع إلى صوته يتكسر تحت أقدام المارة.

أقطع درجات الباب عاري القدمين وأنادي حسان ليخرج ويرى.

كان الشتاء الفصل المفضل لكل طفل في كابول، على الأقل لأولئك الذين يستطيع آباؤهم أن يشتروا مدفأة جيدة، والسبب كان بسيطاً، كانت تغلق المدارس طوال الفصل الجليدي، بالنسبة لي، كان الشتاء نهاية فصل طويل من تسمية عاصمة بلغاريا، وبداية ثلاثة أشهر من لعب الورق قرب المدفأة مع حسان، أفلام روسية مجانية صباح كل ثلاثاء في سينما الحديقة، الملفوف اللذيذ مع الأرز للغداء بعد صباح كامل من بناء رجل الثلج، والطائرات الورقية بالطبع، والسباقات التي نقوم بها.

بعض الأطفال غير المحظوظين لم يعرفوا معنى نهاية السنة المدرسية، كان هناك ما يعرف بدورات الشتاء الاختيارية، لا يوجد طفل أعرفه سجل في هذه الدورات، الأهل بالطبع كانوا يقومون بهذا عنهم.

لحسن حظي لم يكن بابا من هؤلاء، أذكر طفلاً، اسمه أحمد، يعيش في الجانب المقابل من الشارع، كان أبوه طبيباً من نوع ما، على ما أعتقد، أحمد كان مصاباً بالصرع، ودائماً كان يرتدي كنزة صوفية ونظارات سوداء ذات حواف عريضة، كان أحد ضحايا آصف الدائمين، كل صباح كنت أراقب من نافذة غرفة النوم، خادمهم

الهازاري وهو يجرف الثلج عن الممر ليفتح الطريق لسيارتهم الأوبل السوداء، ثم يأتي أحمد وأبوه ويركبان السيارة، أحمد بكنزته الصوفية ومعطفه الشتوي وحقيبته المليئة بالكتب والأقلام، كنت أنتظر حتى تقلع السيارة وتختفي خلف المنعطف، ثم أعود إلى سريري، وأرفع الغطاء حتى ذقني، وأنظر للتلال المغطاة بالثلج في الشمال عبر النافذة، وأظل هكذا حتى أنام مجدداً، أحببت الشتاء في كابول، أحببته للغطاء الثلجي الرقيق على نافذتي في الليل، كيف يتكسر الثلج تحت حذائي المطاطي، لدفء الموقد الحديدي بينما الريح تزأر في الخارج، ولكن أكثر ما أحببت فيه أنه بينما الأشجار تتجمد والجليد يغطي الطرقات، فإن العلاقة بيني وبين بابا تصبح حميمية أكثر، وسبب ذلك كان الطائرات الورقية، بابا وأنا عشنا في نفس البيت ولكن كل منا كان في فضائه الخاص به، والطائرات كانت المكان الوحيد الذي تتقاطع به هذه المجالات.

كل شتاء، تقوم مقاطعات كابول ببطولة في سباق الطائرات الورقية، وإن كنت طفلاً وتعيش في كابول، يوم البطولة، كان بلا أي شك الحدث الأهم في الفصل البارد.

لم أكن استطيع النوم في اليوم السابق للبطولة.

كنت أتقلب من جنب إلى جنب، وأنا أصنع أشكال حيوانات من الظلال على الحائط، حتى أني كنت أجلس على الشرفة في الظلام، وألف جسمي بغطاء، كنت كجندي يحاول النوم في الليلة التي تسبق معركة هامة، لم يكن الأمرين بعيدين، في كابول، معركة الطائرات كانت تشبه إلى حد بعيد الذهاب إلى الحرب.

وكما في كل حرب، عليك أن تستعد للمعركة.

لفترة، حسان وأنا، كنا نصنع طائراتنا بنفسنا، كنا ندخر مصروفنا الأسبوعي في الخريف، ونضعه في "مطمورة" على شكل حصان من البورسلان اشتراه بابا لنا من هيرات، كنا نفك القفل عند بطن الحصان ونذهب إلى البازار ونشتري خيزران وصمغ، حبل وورق، ونمضي

ساعات يومياً في قص الخيزران لمركز الطائرة، وقص الورق في قصاصات رقيقة لنضمن طيراناً أفضل، وبعدها بالطبع علينا أن نصنع حبلنا الخاص، أو التار، إن كانت الطائرة هي السلاح فالتار كان الرصاصة. ثم كنا نخرج إلى الباحة ونمد الحبل على امتداد خمسمئة قدم بمساعدة مزيج من الزجاج والصمغ. ثم كنا نعلق الحبل بين الأشجار ونتركه ليجف، وفي اليوم التالي، نلف الحبل الجاهز للمعركة حول البكرة الخشبية، وبينما يمر الوقت الذي يذوب فيه الثلج وتحل أمطار الربيع، كل طفل في كابول تمتلئ أصابعه بالجروح خلال شتاء كامل من قتال الطائرات، أذكر كيف كنت وزملائي في الصف نتجمع ونقارن جروحنا في المعارك في أول يوم في المدرسة، الجروح كانت موجعة، ولم تكن تشفى قبل أسبوعين، ولكني لم أكن أهتم، كانت تذكاراً من فصل رائع انقضى مرة ثانية بسرعة، ثم كان عريف الصف ينفخ في صفارته وكنا نمشي في خط واحد إلى صفوفنا ونحنّ إلى الشتاء منذ الآن، بينما ترحب بنا بداية سنة دراسية أخرى طويلة.

ولكن بعد فترة قصيرة، أصبح واضحاً أنني وحسان كنا مقاتلين أفضل من صانعي طائرات، بعض مما صنعنا كان يطير وبعضها لا، ولكن شيئاً في طريقتنا في صناعة الطائرة كان يحمل هلاكها معه، لذلك أصبح بابا يأخذنا إلى متجر سافيو لنشتري الطائرات.

سافيو كان رجلاً أعمى تقريباً، وكان موتشي "مصلح أحذية"، لكنه كان أيضاً أشهر صانع طائرات في المدينة، كان يعمل في كوخ صغير في جادة مايووند، وهو شارع مزدحم جنوب نهر كابول، أذكر أن عليك أن تنحني لتدخل إلى المحل الذي بحجم الزنزانة، ثم عليك أن تفتح باباً ضيقاً و"تزحف" هابطاً درجات خشبية إلى الأسفل لتصل إلى القبو الرطب حيث يخزن سافيو أفضل الطائرات، كان بابا يشتري ثلاث طائرات متطابقة لكل منا وبكرات من الزجاج وحبال، إن غيرت رأيي وطلبت طائرة أكبر وأغلى، كان بابا يشتريها لي ولكنه كان يشتري

واحدة لحسان ايضاً، أحياناً كنت أتمنى لو أنه لا يفعل ذلك، تمنيت لو أنه يجعلني المفضل.

مسابقة الطائرات الورقية كانت تقليداً شتوياً قديماً في أفغانستان، تبدأ مبكراً في الصباح ولا تنتهي حتى تحلق الطائرة الرابحة وحدها في السماء، أذكر في سنة أن المسابقة ظلت طوال النهار تجمع الناس على الأرصفة والسطوح ليشجعوا أولادهم، امتلأت الطرقات بمقاتلي الطائرات، يهزون ويشدون حبالهم، يحدقون عالياً في السماء، محاولين أن يكسبوا موقعاً يمكنهم من قطع حبل طائرة الخصم، كل قائد طائرة كان لديه مساعداً، حسان كان مساعدي الذي يمسك البكرة، ويمد الحبل.

مرة، قال لنا طفل هندي شقي، انتقلت عائلته إلى الحي مؤخراً، أن قتال الطائرات في بلدته الاصلية كان له قواعد وقوانين محددة، عليك أن تلعب في منطقة معينة و تقف في زاوية ملائمة لاتجاه الريح، وقال بفخر: لا يمكنك استخدام الألمنيوم في حبلك الزجاجي، تبادلت وحسان نظرة، وانفجرنا في الضحك، هذا الطفل الهندي سيتعلم قريباً ما تعلمه سابقاً الإنكليز، وما تعلمه الروس في النهاية، في أواخر الثمانينات، الأفغان أناس مستقلون يقدسون تقاليدهم ويمقتون القوانين.

وهذا ما كان في مسابقة الطائرات، القواعد كانت بسيطة، لا قواعد!

اجعل طائرتك تحلق، اقطع حبل طائرات الخصوم، حظاً سعيداً.

لكن هذا لم يكن كل شيء، المتعة الحقيقية تبدأ عندما يقطع حبل طائرة، هنا يأتي دور مطاردي الطائرات، هؤلاء الذين يطاردون الطائرة التي تطيرها الريح فوق الأحياء إلى أن تهبط في أحد المناطق، على باحة أحد المنازل، على شجرة، أو على سطح بيت، المطاردة تصبح عنيفة، حشود من المطاردين تَجوب الطرقات، يتدافعون كأولئك الإسبان الذين سمعت عنهم مرة، أولئك الذين يركضون أمام الثيران، مرة تسلق أحد أطفال الحي شجرة صنوبر سقطت عليها

طائرة، وانكسر جذع تحت وزنه وسقط عن ارتفاع ثلاثين قدماً، وكسر ظهره، ولم يمش ثانية، ولكنه سقط والطائرة بين يديه، عندما يضع أحد مطاردي الطائرات يده على طائرة، لا أحد يستطيع أخذها منه، لم تكن هذه قاعدة، ولكنها كانت تقليداً بالنسبة لمطاردي الطائرات الورقية، الجائزة التي يتوق لها الجميع هي آخر طائرة تسقط في البطولة، كانت تذكار شرف، شيء للعرض أمام الضيوف، عندما تخلو السماء من الطائرات، واثنتان فقط تبقيان، كل مطارد يجهز نفسه لفرصة الحصول على هذه الجائزة، يتمركز في موقع يظن أنه سيعطيه أفضلية في السباق، يريح عضلاته، ويفرقع رقبته، والعيون تحلق مع الطائرتين، ويتوقف القتال، وعندما يقطع حبل آخر طائرة، نيران الجحيم كلها تنطلق، على مر السنين، رأيت الكثيرين ممن يطاردون الطائرات، ولكن حسان كان الأفضل بلا منازع، كانت واضحة بشكل مخيف الطريقة التي دائماً يعرف مكان هبوط الطائرة حتى قبل أن تهبط، كأنه يملك بوصلة داخلية.

أذكر يوماً شتائياً غائماً، كنت وحسان نطارد طائرة، كنت ألاحقه عبر الأحياء، أقفز فوق الحفر، أتأرجح بين الطرقات الضيقة، كنت أكبر منه بسنة ولكنه كان أسرع مني.

- حسان! انتظر، صرخت، أنفاسي أصبحت ساخنة، التفت إلي، وأشار لي بيده "من هنا!" قال قبل أن يختفي خلف منعطف آخر، نظرت إلى الأعلى، ورأيت أن الاتجاه الذي ذهبنا به كان عكس اتجاه الطائرة.

- سنفقدها! إننا ذاهبان بالطريق الخاطئ! صرخت بيأس.

- ثق بي! سمعته يصرخ، وصلت إلى المنعطف ورأيت حسان من بعيد ورأسه للأسفل، لم يكن حتى ينظر إلى السماء، وظهره مبلل بالعرق.

تعثرت بحجر ووقعت، لم أكن فقط أبطأ من حسان، بل كنت أيضاً أخرق، دائماً شعرت بالحسد من كونه رياضياً بالفطرة، وعندما وقفت

وأنا أترنح رأيت حسان يختفي خلف منعطف آخر، عرجت وراءه، ومضات من الألم تضرب ركبتي الجريحتين، رأيت أننا وصلنا إلى طريق ترابي قرب مدرسة الاستقلال، كان هناك حقل على جانبه ينمو الخس في الصيف، وصف من أشجار الكرز الحامض في هذا الوقت من السنة على الجانب الآخر.

وجدت حسان جالساً ورجلاه متصالبتان على جذع أحد الأشجار، يأكل قبضة من التوت البري.

- ماذا تفعل هنا؟ لهثت، وأنا أشعر بالغثيان.

- اجلس معي، أمير آغا، قال مبتسماً.

ارتميت بجانبه، وتمددت على كتلة صغيرة من الثلج.

- أنت تضيع وقتنا، كانت ذاهبة في الاتجاه الآخر، ألم تر؟

وضع حبة توت في فمه وقال: إنها آتية. كنت أتنفس بصعوبة بالغة وهو لا يبدو عليه التعب حتى.

- كيف تعلم ذلك؟

- أعلم.

- كيف تستطيع أن تعرف؟

التفت إليَّ وبعض حبات العرق كانت تزحف على جبهته الصلعاء، "هل كذبت عليك مرَّةً، أمير آغا؟"

قررت أن أغيظه قليلاً، "كيف أعرف، إن كنت تكذب علي؟"

"سآكل التراب قبل أن أقوم بهذا" قال ذلك وعلى وجهه نظرة سخط.

- حقاً؟ هل تقوم بهذا؟

نظر إلي بطريقة غريبة، "أقوم بماذا؟"

- تأكل التراب إن طلبت منك ذلك؟ قلت وأنا أشعر بأنني قاس كما أفعل عندما أسخر منه إذا لم يعرف معنى كلمة كبيرة، ولكن كان هناك شيء رائع لدرجة مرضية في إزعاج حسان، تماما كتعذيبنا للحشرات، إلا أنه الآن كان هو النحلة وأنا كنت أحمل العدسة المكبرة، بحثت

عيناه في تعابير وجهي لوقت طويل، جلسنا هناك، طفلان تحت شجرة كرز حامضة، فجأة ننظر، فعلاً ننظر إلى بعضٍ، هنا حدث الأمر مرةً ثانية، وجه حسان تغير، ربما لم يتغير فعلاً ولكن فجأة شعرت فعلاً أنني أنظر إلى وجهين الأول أعرفه، الوجه الموجود في ذاكرتي الأولى، وآخر، وجهٍ ثان، هذا الوجه كان كامناً تحت السطح، رأيت هذا يحدث سابقاً، دائماً ما أفزعني قليلاً، ظهر فقط للحظة صغيرة، هذا الوجه الآخر، لوقت كاف ليتركني مع شعور مضطرب أنني ربما رأيته في مكان ما، طرفت عينا حسان، ثم عاد هوٍ ثانية، حسان فقط.

ـ إن طلبتَ، سأقوم بذلك، قال أخيرا، وهو ينظر مباشرة إلي، نظرت للأرض، إلى اليوم أشعر بصعوبة في النظر مباشرة لأشخاص كحسان، الأشخاص الذين يعنون كل كلمة يقولونها.

ـ لكنني أتساءل، أضاف، هل يمكن أن تطلب مني شيئاً كهذا، أمير آغا؟

وهكذا رمى علي امتحانه الخاص، إن كنت سأغيظه وأتحدى إخلاصه، سيقوم هو بإغاظتي، يمتحن نزاهتي، تمنيت لو لم أبدأ هذه المحادثة.

اغتصبت ابتسامة: لا تكن غبياً، حسان، تعرف أني لن أقوم بهذا.

ابتسم حسان لابتسامتي إلا أن ابتسامته كانت صادقة.

ـ أعرف ذلك، قال. هذا هو الشيء المهم عند الأشخاص الذين يعنون كل كلمة يقولونها، يظنون أن الآخرين هكذا أيضاً.

ـ ها هي آتية، قال حسان وهو يشير إلى السماء، وقف ومشى عدة خطوات إلى اليسار، نظرت للأعلى ورأيت الطائرة تقترب منا، سمعت صوت أقدام، صرخات، فريق من مطاردي الطائرات كان يقترب، ولكنهم كانوا يضيعون وقتهم، كان حسان يقفٍ وذراعاه مفتوحتان، ينتظر الطائرة، وليجعلني الله ـ إن كان موجوداً ـ أعمى إن لم تقع الطائرة بين ذراعيه الممدودتين.

في شتاء ١٩٧٥. رأيت حسان يطارد الطائرات للمرة الأخيرة.

عادة يقوم كل حي بمسابقته الخاصة وفي تلك السنة كانت ستجري المسابقة في حينا، وزير أكبر خان، وعدة مناطق أخرى كانت مدعوة، كارتيه ـ تشار، كارتيه ـ باروان، ميكرو رايان، وكوتيه سانجي، لم تكن تذهب إلى أي مكان دون أن تسمع الناس تتحدث عن المسابقة القادمة، كان الحديث أن هذه المسابقة ستكون الأكبر في الخمس والعشرين سنة القادمة.

في إحدى ليالي ذلك الشتاء، ومع أربعة أيام متبقية للبطولة، جلست أنا وبابا في مكتبه على الكراسي الجلدية بقرب الموقد المتوهج، كنا نرتشف الشاي، نتحدث، كان علي قد قدم العشاء باكراً، بطاطا وقرنبيط محشو بالأرز المتبل بالكاري، وأخذ بقية اليوم إجازة مع حسان، كان بابا يحشو غليونه وكنت أسأله أن يقص الحكاية عندما أتت مجموعة من الذئاب من الجبال في هيرات، وأجبرت الجميع على البقاء في بيوتهم لأسبوع كامل، عندما أشعل عود كبريت وقال بغير مبالاة: أعتقد أنه ربما ستفوز بالمسابقة هذه السنة، ما رأيك؟

لم أعرف ماذا أفكر، أو أقول، هل هذا ما كنت بحاجته؟ هل أعطاني الآن المفتاح؟ كنت مقاتلا جيدا، بالحقيقة، جيد جداً، عدة مرات، كنت قريبا من الفوز، مرة وصلت إلى آخر ثلاثة، ولكن الاقتراب من النصر ليس كالنصر، بابا لم يكن قريباً، بابا فاز، لأن الفائزين ينتصرون، والآخرون يعودون إلى بيوتهم خاليي الوفاض، كان بابا معتادا على الفوز في كل شيء يقرر الفوز به، ألم يكن لديه الحق أن يتوقع ذلك من ابنه؟ وتخيَّل، إذا ربحت... دخن بابا غليونه وتحدث، تظاهرت بالاستماع، ولكني لم أستطع أن أسمع ما يقول فعلاً، لأن ملاحظة بابا غير المبالية زرعت بذرة في عقلي، أنه يمكنني أن أفوز بمسابقة الشتاء، سأفوز، لم يكن هناك خيار متاح آخر، سأفوز، وطائرتي ستكون آخر طائرة تحلق في السماء، وبعدها سأعود بها إلى البيت وأريها لبابا، أريه مرة وللأبد، أن ابنه كان يستحق أن يولد، وعندها ربما حياتي كشبح في هذا المنزل ستنتهي أخيراً، تركت

نفسي أحلم، تخيلت حديثاً وضحكاً على العشاء بدل الصمت الذي لا تكسره إلا قرقعة الملاعق والصحون الفضية والمجاملات المعتادة.

تخيلتنا نذهب نزهة الجمعة في سيارة بابا، إلى باغمان، نتوقف على الطريق عند بحيرة غارغا لنشتري بعض السمك والبطاطا المقلية، ونذهب إلى حديقة الحيوان ونرى الأسد مرجان، وربما لن يتثاءب بابا ويختلس النظرات إلى ساعته كل الوقت، ربما أيضاً سيقرأ واحدة من قصصي، سأكتب مئة إن علمت أنه سيقرأ واحدة، وربما سيناديني أمير جان، كما يسميني رحيم خان، وربما، ربما... سيغفر لي أني قتلت أمي.

كان بابا يخبرني عن المرة التي قطع فيها حبل أربعة عشر طائرة في يوم واحد، ابتسمت وهززت رأسي وضحكت في اللحظات المناسبة، ولكنني لم أسمع كلمة مما قال تقريباً، لدي مهمة الآن، ولن أخذل بابا، ليس هذه المرة.

أثلجت السماء كثيراً الليلة السابقة للبطولة، جلست وحسان تحت الكرسي ولعبنا البانجبار "لعبة ورق" بينما جذوع الشجرة تضرب النافذة كلما هبت الريح، سابقاً ذلك اليوم، طلبت من علي أن يجهز الكرسي لنا، يتكون الكرسي بشكل رئيسي من سخان الكتروني تحت طاولة قليلة الارتفاع عن الأرض مغطاة بغطاء ثقيل، حول الطاولة وضعنا سجادات ووسائد كثيرة لدرجة أن عشرين شخصاً يستطيعون الجلوس عليها ووضع أرجلهم تحت الكرسي، كنت وحسان نمضي أياماً مثلجة كاملة تحت الكرسي، نلعب الشطرنج، الورق، ولكن غالباً البانجبار، أكلت عشرة الديناري التي لعبها حسان ولعبت شبين وستة، في الباب المجاور، في مكتب بابا، بابا ورحيم خان كانا يناقشان الأعمال مع رجلين آخرين، عرفت أحدهما، كان أبو آصف، من خلال الجدار استطعت سماع الصوت المزعج لراديو أخبار كابول، حسان أكل الستة وأخذ الشباب، على الراديو كان داوود خان يعلن شيئاً عن استثمار أجنبي.

- يقول أنه يوماً ما سيصبح لدينا تلفاز في كابول، قلت.

ـ من؟
ـ داوود خان، أيها الغبي، الرئيس.
ضحك حسان بعصبية: سمعت أنهم يملكون تلفازات في إيران.
تنهدت: هؤلاء الإيرانيون. بالنسبة للكثير من الهازارا، تمثل إيران مكاناً مقدساً نوعاً ما.
أعتقد لأنه كالهازارا، الإيرانيون كانوا شيعة مسلمين بأغلبهم، ولكنني تذكرت شيئاً قاله أستاذي هذا الصيف عن الإيرانيين، أنهم متحدثون رائعون يربتون على ظهرك بيد، وينشلون جيبك باليد الأخرى، قلت هذا لبابا، فقال أن أستاذي واحد من هؤلاء الأفغان الحسودين، يغارون لأن إيران كانت قوة صاعدة في آسيا وأغلب الناس في العالم لا يستطيعون إيجاد أفغانستان على الخريطة، يؤلمني قول هذا، قال بلا مبالاة ولكن من الأفضل أن تؤلمك الحقيقة من أن تضحك على نفسك بالكذب.
ـ سأشتري لك واحداً يوماً ما، قلت، فأضاء وجه حسان
ـ تلفاز؟ قل لي الحقيقة.
ـ بالطبع، وليس الأبيض والأسود، بل الملون، سنكون كباراً على الأغلب، ولكني سأجلب لنا إثنين. واحد لك وواحد لي.
ـ سأضعه على طاولتي، حيث أحتفظ برسوماتي، قال حسان، قوله هذا جعلني حزيناً كيف يمكن أن يقبل أنه سيحيا ويشيخ في هذا الكوخ الطيني في الباحة، مثل أبيه، رميت له آخر أوراقي، ملكتين وعشرة.
أخذ حسان الملكتين، "أتعلم، أعتقد أنك ستجعل آغا صاحب فخوراً غداً"
ـ أتعتقد ذلك؟
ـ انشاء الله، قال.
ـ انشاء الله، رددت وراءه، رغم أن (إنشاء الله) لم تبد صادقة من شفتي، هذا كان شيئاً يخصُّ حسان، كان نقياً لدرجة إلهية، دائماً تشعر أنك منافق أمامه.

أكلت ملكه ولعبت ورقتي الأخيرة، آس السباتي، كان عليه أن يأخذها، وفزت، ولكن بينما خلطت الورق لنلعب ثانية، شككت أن حسان تركني أفوز.

- أمير آغا؟

- نعم؟

- أتعلم... أحب المكان الذي أعيش فيه، كان دائماً يقوم بقراءة أفكاري، "إنه بيتي"

- لايهم، قلت، جهز نفسك لتخسر ثانية.

- 7 -

في الصباح التالي، بينما أتى بالشاي الأسود للفطور، قال حسان أنه حلم حلما.

- كنا عند بحيرة غارغا، أنتِ، أنا، بابا، آغا صاحب وآلاف آخرون، كان الجو مشمساً ودافئاً، والبحيرة صافية كالمرآة، ولكن لم يكن أحد يسبح لأنهم قالوا أن وحشاً أتى إلى البحيرة، كان يسبح في أرض البحيرة، ينتظر.

صب لي كأساً وأضاف السكر، نفخ عليه عدة مرات ووضعه أمامي.

- إذاً، الجميع كان خائفاً من النزول إلى الماء، وفجأة خلعت حذاءك، أمير آغا، وخلعت قميصك، ليس هناك وحش، قلتَ: سأريكم جميعاً، وقبل أن يستطيع أحد إيقافك، غصت في الماء، وسبحت بعيداً، لحقت بك وسبحنا سوية.

- ولكنك لا تستطيع السباحة.

ضحك حسان: إنه حلم، أمير آغا، تستطيع فعل أي شيء في الأحلام، على كل، الكل كان يصيح، اخرجوا، اخرجوا، ولكننا بقينا نسبح في الماء الباردة، وصلنا إلى منتصف البحيرة، كانوا يبدون صغاراً كالنحل، لكننا استطعنا سماعهم يصفقون، عرفوا الآن، أنه لا يوجد وحش، فقط ماء، فغيروا اسم البحيرة، وأصبح "بحيرة أمير وحسان.. سلاطنة كابول"، وأصبح الجميع يدفع لنا المال ليسبح في البحيرة.

- وما معنى هذا؟ قلت.

غطى قطعة من الخبز بالمربى ووضعها على صحني "لا أعلم، كنت آمل أن تخبرني"

ـ حسناً، إنه حلم غبي، لا شيء يحدث فيه.
ـ يقول بابا أن الأحلام دائماً تعني شيئاً ما،

رشفت بعض الشاي: لم لا تسأله إذاً، إن كان بهذا الذكاء، قلت بسخرية أكثر مما قصدت، لم أستطع النوم طوال الليل، رقبتي وظهري كانا يؤلماني بشدة، مع هذا، كنت لئيماً مع حسان، كدت أن أعتذر، ولكنني لم أفعل، حسان فهم أنني كنت متوتراً فقط، دائماً حسان يفهمني.

في الأعلى كان صوت تدفق الماء مسموعاً في حمام بابا.

تألقت الطرق بالثلج الذي هطل البارحة، السماء زرقاء لا تشوبها شائبة، غطى الثلج كل سطح، وأثقل كل أغصان شجر التوت الذي يحد جانبي الطريق، في الليل وجد الظلام طريقه إلى كل صدع وكل قناة.

لم أستطع إبقاء عيني مفتوحتين وأنا أمر مع حسان من البوابة الحديدية. أغلق علي البوابة وراءنا، سمعته يتمتم بدعاء ـ كان دائماً يدعو الله عندما يخرج ابنه من البيت.

لم أر هذا العدد من الناس في حيِّنا سابقاً، أطفال يلعبون بكرات الثلج، يتشاجرون، يلاحقون بعضهم بعضاً، يضحكون، كان مقاتلوا الطائرات متجهمي المحيّا واقفين مع حملة الأسطوانات يقومون بآخر التحضيرات.

من الطرق القريبة، تستطيع سماع أحاديث وضحكات منذ الآن.

كانت السطوح مزدحمة بالمتفرجين الجالسين على كراسي قصيرة، وبخار الشاي الساخن يتصاعد من الأباريق، موسيقى أحمد زاهير تعالت من المسجلات، الشهير جداً أحمد زاهير، الذي أحدث ثورة في الموسيقى الأفغانية، أطاح بصفائها، بإدخال الجيتار الإلكتروني والطبول والأبواق إلى الطبلة والهارمونيكا التقليدية.

على المسرح أو في الحفلات، كان يتهرب من طريقة المغنين القدماء الذين يؤدون بوجوم، وكان يبتسم فعلا عندما يغني، حتى للنساء أحيانا.

نظرت إلى سطحنا، ووجدت بابا ورحيم خان جالسين على مقعد، وكلاهما يرتدي كنزة صوفية ويرتشف الشاي، لوح بابا بيده، لم أعرف إن كان يلوح لي أو لحسان.

يجب أن نجهز نفسينا، قال حسان. كان يرتدي حذاءً أسوداً مطاطياً، وتشاباناً (رداء أفغاني تقليدي) أخضر جميل فوق كنزة ثقيلة وبنطال قماشي، أضاءت الشمس وجهه، وانتبهت كم تحسنت الندبة الزهرية على شفته واندملت.

فجأة شعرت برغبة في الانسحاب، أترك كل شيء وأعود إلى البيت، بم كنت أفكر؟

لمَ أضع نفسي في هذا، وأنا أعلم كيف سينتهي الأمر!

كان بابا على السطح، شعرت بنظرته لي كحر شمس حزيران. هذا سيكون فشلاً ذريعاً، حتى بالنسبة لي.

لست متأكداً أني أريد أن أطير طائرة اليوم، قلت.

إنه يوم جميل، قال حسان.

وقفت على قدمي، حاولت أن أبعد نظري عن سطح بيتنا. لا أعلم، ربما من الأفضل أن أعود إلى البيت.

عندها وقف بمواجهتي تماماً، وبصوت خفيض قال شيئاً أفزعني قليلاً، تذكر، أمير آغا، ليس هناك وحش، فقط يوم جميل.

كيف يمكن أن أكون كتاباً مفتوحاً هكذا بالنسبة له، بينما أغلب الوقت لا أدري شيئاً مما يدور في رأسه، كنت أنا الشخص الذي ذهب إلى المدرسة، الذي يستطيع القراءة والكتابة، أنا الذكي بيننا، لم يكن حسان ليستطيع أن يقرأ كتاب الصف الأول، ولكنه يستطيع أن يقرأني مراراً، أقلقتني هذه الفكرة قليلاً. لكن أيضاً، كانت تحمل قليلاً من الراحة أن تعرف أن شخصاً يعرف دائماً ما تحتاج.

ليس هناك وحش، قلت، وأنا أشعر بتحسن مفاجئ
ابتسم، ليس هناك وحش.
متأكد؟
أغلق عينيه وهز رأسه، نظرت للأولاد يركضون في الشارع، يلعبون بكرات الثلج.
إنه يوم جميل، أليس كذلك؟
هيا بنا نحلق. قال
خطر لي أنه ربما حسان اختلق حلمه، هل كان هذا محتملاً؟ قررت أنه لم يفعل، حسان لم يكن بهذا الذكاء، أنا لم أكن بهذا الذكاء، ولكن مختَلق أو لا، هذا الحلم السخيف رفع معنوياتي، ربما يجب أن أخلع قميصي وأسبح في البحيرة، لم لا؟
هيا بنا. قلت
أضاء وجه حسان، جيد، رفع الطائرة. صفراء بخطوط حمراء. وفي الأسفل في مكان تقاطع قطعتي الخيزران، علامة صافيو التي لا يمكن أن تخطئها.
لعق حسان إصبعه ورفعه ليعرف اتجاه الريح. ثم ركض في اتجاهها.
في المرات النادرة التي طيرنا فيها الطائرات في الصيف كان ينثر بعض الرمل ليعرف اتجاه الريح. دارت الاسطوانة في يدي بينما توقف حسان على بعد خمسة أقدام رافعاً الطائرة فوق رأسه كرياضي أولمبي يعرض ميداليته الذهبية، هززت الخيط مرتين، إشارتنا المعتادة، فقذف حسان الطائرة.
عالقاً بين بابا والموالي في المدرسة، لم أكن قد عقدت رأيي حول الله.
ولكن عندما قفزت آيات القرآن التي تعلمتها في درس الديانة على شفتي، تمتمت بها، وأخذت نفساً عميقاً، زفرت ثم سحبت الحبل. خلال دقيقة، كانت طائرتي ترتفع كالصاروخ إلى السماء، صوتها كان كصوت طائر يرفرف بجناحيه، صفق حسان، صفر وركض عائدا

إلي، أعطيته الاسطوانة وأمسكت بالحبل، فأدارها بسرعة ليلف الجزء الحر من الحبل.

على الأقل كان هناك دزينتين من الطائرات معلقة في السماء منذ الآن، كقروش ورقية تبحث عن طريدة، في أقل من ساعة تضاعف الرقم، طائرات حمراء، زرقاء وصفراء انسابت ودارت في السماء، نسيم بارد مر خلال شعري، كانت الريح ممتازة للتحليق، تهب بقوة كافية لترفع الطائرة، تجعل الالتفاف أسهل، بجانبي حل حسان الاسطوانة، يداه كانتا قد نزفتا من الحبل حتى قبل أن نبدأ.

وبعد وقت قليل، بدأ القطع، وأول الطائرات المقطوعة، دارت بلا سيطرة ووقعت من السماء كالنجوم، بذيول ملونة تمطر ملاحقي الطائرات جوائزاً، استطعت سماعهم يصيحون بينما ركضوا في الطرقات، أحدهم صرخ بأخبار شجار فرق منذ قليل على بعد شارعين، بقيت أختطف نظرات إلى بابا الجالس مع رحيم خان على السطح، أتساءل بم يفكر، هل كان يشجعني؟ أو جزء منه كان ليستمتع برؤيتي أفشل، هناك شيء عن تحليق الطائرات الورقية، عقلك يحلق مع الطائرة.

كانت الطائرات تسقط الآن في كل مكان.

وكنت ما أزال أحلق، عيناي مازالتا تتساءلان حول بابا، تفتشان في كنزته الصوفية، هل هو متفاجئ أني صمدت كل هذه الفترة؟

أنت لا تبقي عينيك على السماء، لن تصمد فترة أطول، أعدت نظري إلى السماء، طائرة حمراء كانت تقترب مني، انتبهت لها بالوقت المناسب، رقصت قليلاً معها وانتهيت متفوقاً على صاحبها عندما فقد صبره وحاول قطعي من الأسفل.

في كل الشوارع، ملاحقي الطائرات كانوا يعودون بكؤوس فوزهم، الطائرات المأسورة مرفوعة عالياً، يتباهون بها أمام أهلهم، أصدقائهم ولكنهم كانوا يعلمون أن الأفضل كان ينتظر، الجائزة الكبرى كانت ما تزال تطير، قطعت طائرة صفراء لامعة بذيل أبيض

ملتف، كلفتني جرحاً آخر في إبهامي، بدأ الدم بالخروج والسيلان على راحة يدي، أعطيت حسان الحبل، وامتصصت الدم حتى جف، ومسحت إصبعي بسروالي.

في الساعة التالية، عدد الطائرات الناجية هبط من حوالي الخمسين إلى اثني عشر، وكنت أحدها. وصلت إلى الاثني عشر طائرة الأخيرة.

عرفت أن هذا الجزء من المسابقة سيأخذ وقتا، لأن الذي صمد هذه الفترة كان مقاتلاً جيداً، ولن يسقط بسهولة في خدع بسيطة، "كارفع وانخفض" القديمتين، خدعة حسان المفضلة.

بينما أصبحت الساعة الثالثة عصراً، اقتربت جموع من الغيوم وغطت الشمس، أصبحت الظلال أطول، لف المتفرجون أنفسهم بأغطية ومعاطف ثقيلة، كان عددنا قد قل إلى ست طائرات، وكنت لا أزال أحلق، رجلي أصبحت تؤلمني، ورقبتي تصلبت، ولكن مع كل طائرة تسقط، الأمل كان يكبر في قلبي، كالثلج على الحائط، رقاقة تلو الأخرى، كانت عيناي تراقبان طائرة زرقاء زرعت الرعب في كل مكان الساعة الماضية.

كم طائرة قطع؟ سألت.

عددت إحدى عشر، قال حسان.

هل تعلم لمن تكون؟

مد حسان لسانه ولمس ذقته، كانت هذه ماركة مسجلة باسم حسان، تعني أن ليس لديه أي فكرة.

الطائرة الزرقاء قطعت أخرى أرجوانية، والتفت مرتين في دوائرٍ كبيرة، عشر دقائق أخرى، وكانت قد قطعت طائرة أخرى، باعثا جيوشاً من ملاحقي الطائرات وراءهما.

نصف ساعة أخرى وأصبح العدد المتبقي أربع طائرات، وكنت لا أزال أطير.

بدا أنه من غير الممكن أن أقوم بحركة خاطئة، وكأن كل هبة ريح كانت في صالحي.

لم أشعر بالسيطرة هكذا من قبل، بأني محظوظ، شعرت بالنشوة، لم أجرؤ على النظر إلى السطح، لم أجرؤ على إزاحة نظري عن السماء. يجب أن أركز، أن ألعب بذكاء، خمسة عشر دقيقة أخرى، وما كان يبدو كحلم مضحك، أصبح فجأة حقيقة، لم يبق غيري والرجل الآخر، الطائرة الزرقاء.

التوتر في السماء كان بقسوة التوتر في الحبل الذي كنت أشده بيديّ الداميتين.

كان الناس يضربون الأرض بأقدامهم، يصفقون، يصفرون، وتعالت الأصوات، بوبوريش! بوبوريش! (اقطعه! اقطعه!) تساءلت إن كان صوت بابا بين تلك الأصوات.

تصاعدت الموسيقى، ورائحة بخار المانتو والباكورا المقلية من السطوح والأبواب المفتوحة، ولكن كل ما كنت أسمع، كل ما سمحت لنفسي بسماعه، كان صوت الدم الفائر في رأسي، كل ما رأيته كان الطائرة الزرقاء، كل ما شممته كان النصر، الخلاص، الحرية.

إن كان بابا مخطئاً وكان هناك إله كما يقولون في المدرسة، إذاً سيجعلني أفوز، لم أكن أعرف ما كان يلعب الشخص الآخر لأجله، ربما فقط متعة التباهي، ولكن هذه كانت فرصتي الوحيدة لأكون شخصاً يُنظر إليه، ليس غير مرئي، يُنصت إليه، ليس غير مسموع.

إن كان هناك إله، سيقود الريح لأجلي، سيجعلها تهب من أجلي، كي أقطع بضربة من حبلي، ألمي، انتظاري، لقد عانيت الكثير ووصلت بعيداً.

وفجأة، فقط هكذا، أصبح الأمل واقعاً، سأفوز، أصبحت المسألة فقط مسألة "متى"، واتضح أن هذه "المتى" كانت قريبة. هبة ريح رفعت طائرتي وأصبحت متفوقا، غذيت الحبل ورفعتها عالياً، محاصراً الطائرة الزرقاء من الأعلى. أخذت موقعاً تعلم فيه الطائرة الزرقاء أنها في مأزق، كانت تحاول بيأس التخلص من هذه الورطة، ولكنني لم

أتركها، حافظت على موقعي، شعر الجمهور أن النهاية أصبحت محتومة، صرخاته: "اقطعه! اقطعه!" أصبحت قوية جداً، كالرومان يهللون لمصارعيهم "اقتل! اقتل!"

وصلت تقريباً.. أمير آغا! تقريباً وصلت، كان حسان يصيح بلهفة.

ثم، أتت اللحظة. أغلقت عيني وأفلت قبضتي عن الحبل، جرحت يدي ثانية بينما سحبته الريح، عندها لم أحتج أن أسمع زئير الحشد لأعرف، ولم أكن بحاجة للنظر حتى.

كان حسان يصيح، وقفز عليّ يعانقني، برافو! برافو! أمير آغا!

فتحت عيني، رأيت الطائرة الزرقاء تدور بجموح كإطار تحرر من سيارة مسرعة، حاولت أن أقول شيئاً، ولكن شيئاً لم يخرج من فمي، وفجأة حلقت، أصبحت أنظر إلى نفسي من الأعلى، معطف أسود جلدي، وشاح أحمر، سروال أزرق، ولد نحيل، شاحب قليلاً، قميص أكبر من سني عمره الاثني عشر، لديه كتفين ضيقين، ودوائر سوداء حول عينيه العسليتين، الريح تصارع شعره البني الخفيف، نظر عالياً إلي، وابتسمنا لبعض، ثم بدأت بالصياح، وكل شيئ أصبح صوتاً وألواناً، كل شيئ كان حياً وجميلاً. رميت ذراعي الحرة حول حسان، وبدأنا بالقفز ونحن نضحك ونبكي، لقد ربحت أمير آغا! ربحت!

نحن ربحنا! نحن ربحنا! كان كل ما استطعت قوله.

هذا لم يكن يحدث، في لحظة سأستيقظ من حلمي الجميل، وأقوم من فراشي، وأنزل إلى المطبخ ولا أحد أتحدث إليه غير حسان، وأنتظر بابا، أستسلم، أعود إلى حياتي القديمة. ثم رأيت بابا واقفاً على السطح، كان يقف على الحافة، يضرب قبضته، يهلل ويصفق، تلك اللحظة تماماً، كانت اللحظة العظيمة الوحيدة في سني عمري الاثني عشر، رؤية بابا على السطح، فخوراً بي أخيراً، ولكن في تلك اللحظة كان يقوم بشيء، يشير بيده في عجلة، فهمت، حسان علينا أن...

أعلم، قال قاطعاً عناقنا، انشالله، سنحتفل لاحقاً. الآن سأجلب الطائرة الزرقاء لك. قال، ترك الأسطوانة، وطار بعيداً، أطراف تشابانه الأخضر تجرف الثلج وراءها.

حسان! ناديته، عد بها!

كان يقطع المنعطف، حذاؤه المطاطي يضرب الثلج. توقف والتفت، وضع يديه حول فمه، لأجلك... ألف مرة أخرى، قال، ثم ابتسم ابتسامته، واختفى خلف المنعطف.

المرة الأخرى التي رأيته يبتسم بها هكذا كانت بعد ست وعشرين سنة، في صورة امحت معالمها.

بدأت بسحب طائرتي من الأعلى، بينما تجمهر الناس لتهنئتي، صافحتهم، وشكرتهم. الأطفالِ الأصغر نظروا إلي وعيونهم مليئة بالدهشة والإكبار، كنت بطلاً، أيدي كثيرة ربتت على ظهري وشعري، كنت أسحب الحبل وأبتسم للجميع، لكن عقلي كان مع الطائرة الزرقاء.

أخيراً، أصبحت طائرتي في يدي، ربطت الحبل الحر الذي تجمع عند قدمي، صافحت أيدٍ أخرى، وعدت إلى البيت، عندما وصلت إلى البوابة، كان علي ينتظر على الجانب الآخر، أخرج يديه من خلال القضبان، تهاني الحارة، أعطيته الطائرة والأسطوانة، صافحته، تاشاكورات، علي جان.

كنت أدعو لك كل الوقت.

لا تتوقف إذاً، لم ننته بعد.

أسرعت عائداً إلى الطريق، لم أسأل علي عن بابا، لم أرغب أن أراه بعد، في عقلي، خططت لكل شيء، سأدخل دخولاً عظيماً، بطل، وجائزتي الكبرى بين يدي الداميتين.

سينظر الجميع إلي، روستام وسوهراب يقيمان بعضهما، لحظة صمت درامية، بعدها سيقترب المحارب الكبير من الآخر الصغير،

يعانقه، يعترف بأهليته، براءته، خلاصه، وتحرره، وبعدها، حسناً... السعادة إلى الأبد، بالطبع، ماذا غير ذلك؟

شوارع وزير أكبر خان كانت مرقمة ومصممة لتكون على زوايا محددة من بعضها، كان حياً جديداً لا زال يتطور، بأراض بور كثيرة، وبيوت غير مكتملة البناء في كل طريق بين مناطق محاطة بأسوار يصل طولها إلى ثمانية أقدام، ركضت في كل الطرق، باحثاً عن حسان، في كل مكان كان الناس يغلقون الكراسي ويعيدون الطعام مكانه، ويتجهزون بعد يوم طويل من الإحتفال، البعض كان ما يزال يجلس على السطوح، يصيح بتهانيه لي، على بعد أربع شوارع من شارعنا، رأيت عمر، ابن مهندس من أصدقاء أبي، كان يلعب كرة القدم مع أخيه أمام بيتهما.

كان عمر شخصاً جيداً، كنا زملاء في الصف الرابع، ومرة أعطاني فونتين من النوع الذي تعيد تحبيره.

سمعت أنك انتصرت، أمير، قال، مبروك.

شكراً، هل رأيت حسان؟

خادمك الهازاري؟

هززت رأسي.

رمى عمر الكرة لأخيه، سمعت أنه ملاحق طائرات ممتاز، رمى أخوه الكرة له، أمسكها عمر وقذفها عالياً، مع أني دائماً تساءلت كيف يعرف مكانها، أعني أن له عينين صغيرتين، كيف يستطيع رؤية أي شي؟

ضحك أخوه، وطلب أن يرمي له الكرة، تجاهله عمر.

هل رأيته؟

أشار عمر بإبهامه إلى الجنوب الغربي، رأيته يركض باتجاه البازار منذ فترة.

شكراً. طرت متجهاً إلى البازار.

عندما وصلت، كانت الشمس قد اختفت تقريباً خلف التلال، والغبار لون السماء بالذهبي والأرجواني، على بعد بضعة شوارع، بدأ مسجد الحاج يعقوب المولى يؤذن، داعياً الأمين أن يمد سجادته وأن يوجه رأسه غرباً، حسان لم يفوت صلاة في حياته، حتى عندما كنا نلعب خارجاً، كان يطلب إذني ويختفي في الكوخ، ويخرج بعد عدة دقائق، مبتسماً، ليجدني جالسا قبالة الحائط، أو على جذع شجرة... لكنه سيفوت صلاة اليوم لأجلي.

كان البازار تقريباً خال، التجار كانوا ينهون عملهم لليوم، مشيت في الوحل بين صفين من الأكشاك حيث تستطيع شراء درَّج مذبوح أمامك من كشك وآلة حاسبة من الكشك المجاور، انتقيت طريقي بين حشد التجار والمتسولين المرتدين طبقات من الأسمال الممزقة، تجار الثياب والجزارون كانوا يغلقون، لم أجد أي إشارة لوجود حسان.

توقفت أمام كشك يبيع الفاكهة المجففة، وصفت حسان للتاجر العجوز الذي كان يحمل بغله صناديقاً من بذور الصنوبر والزبيب، كان يرتدي توربانا أزرق.

توقف، ونظر إلي مطولاً قبل أن يجيب.

ربما رأيته.

في أي اتجاه ذهب؟

تفحصني من الأعلى إلى الأسفل، ماذا يفعل ولد مثلك هنا في هذا الوقت باحثاً عن هازارا؟

تعلقت عيناه بمعطفي الجلدي والجينز الأميركي الذي أرتديه، في أفغانستان، امتلاك أي شيء أميركي الصنع، خصوصاً إن لم يكن مستعملاً، كان علامة على الثراء.

يجب أن أعثر عليه، آغا.

ما هو بالنسبة لك؟ قال، لم أجد أي معنى لسؤاله، لكنني ذكرت نفسي أن قلة الصبر لن تجعله يقول لي ما يعرف.

إنه ابن خادمنا، قلت.

رفع العجوز حاجبه الرمادي، هو كذلك؟ هازارا محظوظ، لديه سيد مهتم هكذا، يجب أن يركع أبوه، ويمسح الغبار عن قدميك برموشه.

هل ستخبرني أم لا؟

أراح يداً على ظهر البغل، وأشار إلى الجنوب، أعتقد أني رأيته يركض في ذلك الاتجاه، كان يحمل طائرة ورقية في يده، زرقاء على ما أظن.

حقاً؟ قلت.

لأجلك.. ألف مرة أخرى، وعدني حسان، أيها الصديق الذي يعتمد عليه، لقد حافظت على وعدك، وركضت لتحصل على الطائرة الأخيرة لأجلي.

بالطبع، أعتقد أنهم قبضوا عليه الآن. قال التاجر العجوز وهو يعبس ويحمل صندوقاً على ظهر البغل.

من؟

الأولاد الآخرون، الذين كانوا يلاحقونه، كانوا يلبسون مثلك، نظر إلى السماء وتنهد، اذهب الآن، ستأخرني على صلاة العشاء.

ولكني كنت أسابق الطريق ذاهباً.

في الدقائق القليلة اللاحقة، طفت البازار بلا جدوى، ربما عينا التاجر خانتاه، ولكنه رأى الطائرة الزرقاء، عندما أضع يدي على تلك الطائرة، فكرت.

نظرت في كل كشك، كل محل، لا أثر لحسان.

كنت قد بدأت بالقلق من أن يحل الظلام قبل أن أجد حسان، عندما سمعت أصواتاً قادمة من الأمام، وصلت إلى طريق موحل ومنعزل، يصل مباشرة إلى نهاية الطريق الرئيسي الذي يقسم البازار. وصلت إلى طريق ترابي مليء بالحفر، وتبعت الأصوات، كان حذائي يغرق قليلاً في الوحل مع كل خطوة أخطوها، وأنفاسي كانت تخرج غيوماً بيضاء من أنفي.

على أحد جانبي الطريق الضيق كان واد مليء بالثلج، يصبح جدولاً في الربيع، إلى جانبي الآخر وقفت صفوف من أشجار السرو المثقلة بالثلوج تحيط بالبيوت الطينية ذات السطوح المستوية التي لم تكن أكثر من أكواخ في أغلب الحالات، تفصل بينها أزقة ضيقة.

سمعت الأصوات ثانية، أعلى هذه المرة، آتية من أحد هذه الأزقة. زحفت قريباً من أول الزقاق، حبست أنفاسي وألقيت نظرة إلى آخر الزقاق.

كان حسان يقف في النهاية المسدودة للزقاق، في وضعية دفاع، قبضتاه مرفوعتان، ورجلاه متباعدتان قليلاً. خلفه، على أكوام من الحجارة والتراب، كانت الطائرة الزرقاء، مفتاحي إلى قلب بابا.

ثلاثة أولاد كانوا يقطعون على حسان الطريق، الثلاثة ذاتهم من ذاك اليوم على الهضبة، اليوم الذي تلا ثورة داوود خان، عندما أنقذنا حسان بمقلاعه.

والي كان يقف على جهة وكمال على الأخرى، وفي المنتصف، كان آصف.

شعرت بجسمي ينقبض، وشيء بارد تموج صاعداً عمودي الفقري.

كان آصف يبدو مرتاحاً، واثقاً وهو يلاعب براجمه النحاسية، الاثنان الآخران كانا يقفان بعصبية منتظران ينقلان نظرهما من آصف إلى حسان، كأنهما يحيطان بحيوان متوحش، ولا أحد غير آصف يستطيع قتله.

أين مقلاعك، هازارا. قال آصف، وهو يقلب براجمه بين يديه، ما كان الذي قلته؟ سيضطرون إلى تغيير لقبك إلى آصف ذو العين الواحدة، نعم، آصف ذو العين الواحدة، كان هذا ذكياً، ذكياً جداً، لكن انتظر، من السهل أن تكون ذكياً عندما تحمل سلاحاً ملقماً بين يديك.

أدركت أنني ما زلت أحبس أنفاسي، زفرت، ببطء.. وهدوء. شعرت بأني مجمد.

راقبتهم يطبقون على الولد الذي كبرت معه، الولد الذي كان وجهه المشقوق الشفة أول ذكرياتي وأقدمها.

ولكن اليوم يوم سعدك، هازارا. قال آصف وظهره بمواجهتي، وأدركت أنه كان يضحك .

إنني في حالة مناسبة لأسامح، ماذا تقولان عن ذلك، أولاد؟

هذا كرم، قال كمال، خاصة بعد وقاحته التي أظهرها المرة السابقة.

كان يحاول أن يتحدث كآصف إلا أن رعشة كانت تشوب صوته.

عندها فهمت، أنه لم يكن خائفاً من حسان، لكنه كان خائفاً، لأنه لم يكن يدري ماذا يدور في رأس آصف.

حرك آصف يده مشيرا له بالانصراف.

باكهشيدا، مسامح، لقد انتهى الأمر، ثم بصوت خفيض، بالطبع، لاشيء مجاني في هذا العالم، وسماحي يأتي مع سعر رخيص.

هذا عدل، قال كمال.

أنت محظوظ هازارا، قال آصف، وهو يتقدم خطوة نحو حسان، لأن سماحي اليوم سيكلفك هذه الطائرة الزرقاء فقط، صفقة عادلة، أليس كذلك أولاد؟

أكثر من عادلة، قال كمال

حتى من مكاني استطعت رؤية الخوف يزحف إلى عيني حسان، ولكنه هز رأسه، أمير آغا فاز بالبطولة وأنا لاحقت هذه الطائرة لأجله، ركضت من أجلها بعدل، هذه طائرته.

هازارا مخلص، مخلص ككلب.

ضحك كمال ضحكة حادة ومضطربة.

قبل أن تضحي بنفسك لأجله، فكر بهذا، هل سيقوم بالمثل لك؟ هل تساءلت يوما لم لا يشركك في ألعابه عندما يكون لديه ضيوف؟ لمَ يلعب معك فقط عندما لا يوجد شخص آخر؟ سأقول لك لماذا، هازارا، لأنك بالنسبة إليه لست أكثر من حيوان أليف بشع. شيء يلعب

معه عندما يشعر بالملل، شيء يستطيع ركله عندما يغضب. لا تخدع نفسك وتعتقد أنك أكثر أهمية.

أمير آغا وأنا صديقان، قال حسان ووجهه يتورد.

صديقان! قال آصف ضاحكاً، أيها المغفل المسكين، يوماً ما ستصحو من هذا الوهم وتعرف إن كان صديقاً لك. والآن انتهينا من هذا، أعطنا الطائرة.

انحنى حسان وأمسك بحجر.

تفاجأ آصف وبدأ يتراجع خطوة للوراء، فرصتك الأخيرة هازارا.

جواب حسان كان برفع يده التي تحمل الحجر استعداداً للقتال.

كما تريد، فك آصف أزرار معطفه الشتوي، خلعه وطواه بعناية، ووضعه بجانب الحائط.

فتحت فمي لأقول شيئاً، تقريباً بقية حياتي ربما تغيرت لو قلت أي شيء، ولكنني لم أفعل، فقط شاهدت مذهولا.

أشار آصف بيده، الولدان الآخران تفرقا وشكلا نصف دائرة محاصرين حسان في الزقاق.

لقد غيرت رأيي، قال آصف، سأتركك تحتفظ بالطائرة، سأتركك تحتفظ بها لتذكرك دائماً بما سأقوم به، ثم صاح، فرمى حسان الحجر، أصاب آصف في جبهته.

صرخ آصف من الألم ورمى نفسه على حسان، ملقياً إياه أرضاً، وتبعه كمال ووالي، عضضت على قبضتي وأغلقت عيني.

ذكرى:

هل تعرف أنك وحسان رضعتما من نفس الصدر؟ هل تعرف هذا أمير آغا؟ سَكينة، هذا اسمها، كانت امرأة هازارية شقراء، وعيناها زرقاوان من باميان، كانت تغني لك أغاني الزفاف، يقولون أن هناك رابطة أخوة بين الناس الذين يرضعون من نفس الصدر؟ هل تعرف ذلك.

ذكرى:

روبية للواحد، أطفال، فقط روبية للواحد، سأكشف الحقيقة، قال الرجل العجوز الذي كان جالساً بجانب حائط طيني، عيناه الضريرتان تشبهان الفضة المنصهرة في ظلام عميق، كصندوقين متطابقين، فوق طاولة مبعثرة، مد العرَّاف يداً متغضنة على خده المتجعد، ثم مدها أمامنا، ليس سعراً كبيراً لتعرف الحقيقة، أليس كذلك، روبية للشخص؟ وضع حسان نقوده في يده، ووضعت أنا نقودي أيضاً.

باسم الله العالم الرحيم، همس مخبر العرَّاف، وأخذ يد حسان أولا، ضرب بظفره يد حسان، ثم تحسسها مراراً وتكراراً، بعدها تحسس وجهه، مصدراً صوت احتكاك جاف بينما كانت يداه تلاحقان تضاريس وجهه، الخط الخارجي لأذنيه، النهاية القاسية لأصابعه وصلت لعينيه، وتوقفت هناك، تلكأت، لون بنيٌّ غطى وجه العجوز، تبادلت وحسان النظرات، أخذ العجوز يد حسان وأعاد روبيته، ثم التفت إلي، ماذا عنك صديقي الصغير؟

على الجانب الآخر للحائط، صاح ديك، بحث العجوز عن يدي، وسحبتها أنا بعيداً.

حلم:

أنا ضائع في عاصفة ثلجية، الريح تصرخ وتضرب عيني بحبات الثلج، جررت نفسي عبر طبقات من البياض، ناديت طالباً المساعدة، لكن الريح امتصت صرخاتي، وقعت ممدداً على الثلج، ضائعاً في البياض، الريح تئنُّ في أذني، راقبت الثلج يمحو آثار قدميَّ الحديثة، أنا شبح الآن، أعتقد. شبح بلا آثار، صرخت ثانية، اختفى الأمل كآثارقدميَّ، لكن هذه المرة، كان هناك رد بعيد، حميت عيني واستطعت الجلوس، خلال الستارات المتموجة من الثلج شاهدت حركة، ظل لون، شكلاً ليس غريباً بدا أمامي. يد امتدت إلي، نظرت فرأيت دماً يتساقط على الثلج، أمسكت اليد، وفجأة اختفى الثلج،

نحن واقفان في حقل تفاح أخضر، غيوم مبعثرة تتهادى في السماء الصافية، نظرت للأعلى ورأيت السماء مليئة بالطائرات الورقية، خضراء، صفراء، حمراء، برتقالية تشعُّ تحت ضوء الظهيرة.

رمال وحجارة كانت تملأ الزقاق، إطارات دراجات ممزقة، زجاجات منزوعة الماركات، مجلات ممزقة، جرائد اصفرت من القدم، كلها مرمية فوق كومة من الحجارة والاسمنت، مكواة صدئة مكسورة من جانب كانت موضوعة على الجدار، لكن كان هناك شيئان وسط النفايات لم أستطع أن أزيح نظري عنهما، الطائرة الزرقاء الموضوعة على الحائط قرب المكواة، الآخر كان سروال حسان البني المرمي على الحجارة.

لا أدري، والي كان يقول، وكذلك أبي أن هذه معصية، بدا صوته مضطرباً، متحمساً، خائفاً، كل هذا بنفس الوقت، حسان كان ممدداً على صدره، موثوقاً إلى الأرض، أمسك كل من كمال ووالي بأحد ذراعيه، ملويتان عند المرفق بحيث أصبحت يدا حسان ملتصقتان بظهره، كان آصف يقف فوقهما، كعب حذائه الثلجي يسحق رقبة حسان، أباك لن يعلم، قال آصف، وليس هناك شيء خاطئ في تعليم حمار وقح درساً في الأخلاق.

تمتم والي، لا أدري.

كما تريد، قال آصف، والتفت إلى كمال، ماذا عنك؟

أنا... حسناً.

إنه فقط هازارا، قال آصف، ولكن كمال بقي ينظر بعيداً، حسناً، قال آصف، كل ما أريد أن تقوما به أيها الضعيفان أن تبقياه ثابتاً، هل تستطيعا القيام بذلك؟

هز والي وكمال رأسيهما، والراحة تبدو عليهما.

ركع آصف خلف حسان، وضع يديه على ورك حسان، ورفع إليتيه العاريتين، ثم ترك يداً على ظهر حسان وفك حزامه باليد

الأخرى، ثم أنزل سحابه، وخلع لباسه الداخلي، ثم توضع خلف حسان، لم يقاوم حسان، لم يصدر أي صوت حتى، فقط حرك رأسه قليلاً، فرأيت وجهه، رأيت الاستسلام به، كانت نظرة لم أرها من قبل، كانت نظرة النعجة.

غداً، العاشر من ذي الحجة، الشهر الأخير من التقويم الإسلامي، وأول الأيام الأربعة من العيد، أو عيد الأضحى، كما يسميه الأفغان، اليوم الذي كان النبي ابراهيم سيضحي بابنه لأجل الله، انتقى بابا الخروف بنفسه مرة أخرى هذه السنة، أبيض الصوف بأذنين سوداوين. وقفنا جميعاً في الباحة الخلفية، حسان، علي، بابا وأنا. تلا المولى الدعاء، مسد لحيته، تململ بابا، أسرع، هيا، انتهي منها، كان يبدو متضايقاً من الدعاء اللانهائي، التقليد الذي يجعل اللحم حلالاً، سخر بابا من قصة العيد، كما يسخر من كل شيء ديني، لكنه كان يحترم تقاليد عيد الأضحى، العادة أن يقسم اللحم ثلاثة أقسام متساوية، أحدها للعائلة، والآخر للأصدقاء، والأخير للفقراء، كل سنة كان بابا يعطيها كلها للفقراء، الأغنياء يسمنون كفاية، كما يقول، أنهى المولى الدعاء، آمين، أمسك بالسكين ذو النصل الطويل، التقاليد لا تسمح أن يرى الخروف السكين، أطعم علي الخروف قطعة من السكر، حيلة أخرى لجعل الموت أحلى، رفس الخروف لكن ليس كثيراً، أمسكه المولى من تحت فكه، ووضع السكين على رقبته، قبل أن يقطع رقبته بحركة خبيرة بثانية، رأيت عينيه، كانت نظرة طاردت أحلامي لأسابيع، لا أعلم لم أشاهد هذا التقليد السنوي. كوابيسي تستمر طويلا بعد أن يختفي الدم عن العشب. ولكني دائماً أشاهد، أشاهد لأرى نظرة الاستسلام للقدر في عيني الحيوان، بسخافة، أتخيل أن الحيوان يفهم، أتخيل أن الحيوان يرى أن موته الوشيك يخدم هدفاً أكبر، هذا ما كانت تعنيه النظرة.

توقفت عن المشاهدة، ابتعدت عن الزقاق، شيء دافئ كان ينزل على معصمي، نظرت فرأيت أنني كنت ما أزال أعض قبضتي بقوة كافية لإسالة الدم من أصابعي، وأدركت شيئاً آخر، كنت أبكي، من مكاني، استطعت سماع نخير آصف السريع المتواصل، كان لدي فرصة أخيرة لأتخذ قراراً، فرصة أخيرة لأقرر الشخص الذي سأكونه، أستطيع أن أدخل الزقاق، وأدافع عن حسان، كما دافع عني كل تلك المرات في الماضي، وأتقبل أي شيء يحدث لي، أو يمكنني أن أهرب.

في النهاية هربت، هربت لأني كنت جباناً، كنت خائفاً من آصف وما قد يفعله بي، كنت خائفاً أن أتأذى، هذا ما قلته لنفسي وصدّقته بينما أدرت ظهري للزقاق، لحسان. حقيقة كنت أفضِّل أن أكون جباناً"، لأن الخيار الآخر، السبب الحقيقي لهروبي أنّ آصف كان محقاً، لا شيء مجاني في هذا العالم، ربما حسان كان الثمن الذي عليَّ دفعه، الخروف الذي علي ذبحه لأكسب بابا، هل كان ثمناً عادلا؟ الجواب وصل إلى عقلي الواعي قبل أن أستطيع إلغاءه، إنه هازارا بائس ليس أكثر، أليس كذلك؟ ركضت في الطريق الذي أتيت منه، ركضت إلى البازار الخالي، وصلت إلى كشك واتكأت على بابه، وقفت هناك وأنا ألهث والعرق يهطل من كل أنحاء جسدي، وقفت متمنياً لو أنّ الأمور انتهت بشكل مختلف.

بعد حوالي الربع ساعة، سمعت أصواتاً وضربات أحذية، انحنيت خلف الكشك، وراقبت آصف والإثنين الآخرين يطيرون بجانبي، يضحكون. بينما كان يرعبني طولُ الطريقِ الخالي، أجبرت نفسي أن أنتظر عشر دقائق أخرى، ثم مشيت عائدا إلى الطريق المليء بالحفر، نظرت عبر الضوء الضعيف، ورأيت حسان يمشي ببطء نحوي. وصلت إليه عند شجرة البتولا العارية على حافة الوادي، كانت الطائرة الزرقاء بين يديه، كان هذا أول شيء رأيته، ولا أستطيع أن أكذب وأقول أن عينيَّ لم تتفحصاها بحثاً عن أي خدش، تشابانا كان مبقعاً بالطين وقميصه ممزق تحت القبة بقليل، توقف وتمايل على رجليه كأنه

سينهار، تماسك قليلاً وأعطاني الطائرة، أين كنت؟ لقد بحثت عنك طويلاً؟ وأنا ألفظ هذه الكلمات كأن حجرا في فمي، اغتصب حسان ابتسامة، مسح دمعة، انتظرت أن يقول شيئا، ولكننا وقفنا هكذا محاصران بالصمت، تحت الضوء المختفي، شعرت بالامتنان لظلال المساء التي سقطت على وجه حسان وغطت وجهي، كنت سعيداً أنني لن أضطر أن أبادل حسان نظرته، هل علم أني أعرف؟ وإن علم، إذا، ماذا سأرى إن نظرت في عينيه، اللوم؟ السخط؟ أو لا سمح الله، ما كان أكبر مخاوفي، إخلاص تام؟كان هذا أكثر من أي شيء لا أحتمل أن أراه، بدأ يقول شيئاً، ولكن صوته لم يساعده، أغلق فمه، ثم فتحه، ثم أغلقه ثانية، تراجع الى الخلف خطوة، وهذا كان أقرب ما وصلنا إليه أنا وحسان لنقاش ما حدث في الزقاق، ظننت أنه انخرط في البكاء، ولكن لحسن الحظ لم يفعل هذا. وتظاهرت أني لم أسمع الانهيار في صوته، تظاهرت أني لم أر البقع السوداء على سرواله، أو تلك النقاط الصغيرة التي سقطت من بين فخذيه ولطخت الثلج بالأسود.

سيقلق آغا صاحب، كان كل ما قاله، استدار بعيداً وبدأ بالمشي.

حدث الأمر بالضبط كما تخيلت، فتحت باب المكتب ودخلت، بابا ورحيم خان كانا يشربان الشاي ويستمعان إلى الأخبار، نظرا إلي، وابتسامة علت وجه بابا، فتح ذراعيه، وضعت الطائرة جانبا، ومشيت إلى ذراعيه المليئتين بالشعر، ودفنت شعري في دفء صدره، وبكيت. ضمني بابا بشدة إليه، وهو يهزني إلى الأمام والخلف، بين ذراعيه، نسيت ما حصل، وكان هذا جميلا.

- 8 -

لأسبوع كامل، لم أر حسان تقريباً، أستيقظ لأجد الخبز المحمص والشاي، وبيضة مسلوقة على طاولة المطبخ، ملابس اليوم مكوية ومطوية ومتروكة على الكرسي في البهو، حيث يكوي حسان عادة، عادة كان ينتظرني ليجلس على طاولة الفطور قبل أن يبدأ بالكوي، هكذا نستطيع أن نتحدث، وكان يغني أيضاً أغاني هازارا قديمة عن حقول التوليب، الآن فقط الملابس المكوية تحييني وفطور لم أعد أنهيه.

في صباح غائم كنت أدور البيضة حول الصحن، دخل علي وهو يحمل بعض الحطب، فسألته أين حسان.

لقد عاد للنوم، قال علي وهو يركع أمام الموقد فاتحاً بابه المربع.

هل يستطيع حسان أن يلعب اليوم، توقف علي وقطعة حطب بين يديه، نظرة قلقة ملأت وجهه مؤخرا، يبدو أن كل ما يريده هو النوم، يقوم بما عليه، أحرص أنا على ذلك، ولكن بعدها كل ما يريده أن يزحف تحت الغطاء، هل أستطيع سؤالك شيئاً؟

إذا أردت.

بعد مسابقة الطائرات، عاد إلى البيت وهو ينزف قليلاً، وقميصه كان ممزقاً، فسألته ماذا حدث، قال أنه لم يكن شيئاً مهماً، فقط شجار صغير مع بعض الأولاد على الطائرة.

لم أقل شيئا، فقط بقيت أدفع البيضة حول الصحن.

هل حدث شيئ له، أمير آغا؟ شيء لم يقل لي عنه.

هززت كتفي، كيف لي أن أعرف؟

كنت ستقول لي، أليس كذلك؟

إنشاءالله.

ستقول لي إن كان شيئاً قد حدث؟

كما قلت، كيف لي أن أعرف ما خطبه؟ قلت بعصبية، ربما هو مريض، الناس يمرضون كل الوقت، علي، الآن هل سأموت من البرد أم أنك ستشعل الموقد اليوم؟

تلك الليلة سألت بابا إن كنا نستطيع الذهاب إلى جلال أباد يوم الجمعة.

كان جالساً على كرسيه الجلدي خلف مكتبه، يقرأ جريدة. وضعها جانباً، وخلع نظارات القراءة التي أكرهها كثيراً، لم يكن بابا كبيراً، ليس كبيراً على الإطلاق، ولديه سنين طويلة باقية ليعيشها، إذاً لماذا يضع هذه النظارات الغبية؟

لم لا! قال، في الفترة الأخيرة كان بابا يوافق على كل شيء أقوله، وليس فقط هذا، قبل ليلتين، سألني إن كنت أريد أن أرى (إل سيد) بطولة تشارلتون هيستون في سينما إريانا، هل تريد أن تطلب من حسان أن يأتي معنا إلى جلال أباد؟

لمَ كان على بابا أن يزعجني هكذا؟

هو مريض، قلت، ليس بحال حسنة.

حقاً؟ توقف بابا عن هز كرسيه، ما خطبه؟

هززت كتفي وغرقت في الصوفا قرب الموقد.

أخذ برداً أو شيء كهذا، يقول علي أنه ينام ليرتاح.

لم أره إلا قليلا الأيام الماضية، قال بابا، هذا كل شيء؟ إذاً، برد؟

لم أستطع إلا أن أكره الطريقة التي رفع بها بابا حاجبه بقلق.

فقط برد، إذا، هل نحن ذاهبين الجمعة بابا؟

نعم، نعم، قال بابا مبتعداً عن المكتب، حظ سيء لحسان، أعتقد أنك كنت ستستمتع أكثر إن أتى حسان معنا.

نستطيع أن نمرح أنا وأنت، قلت.

ابتسم بابا، غمزني، ضع ثياباً دافئة عليك، قال.

كان يجب أن نكون نحن الاثنين فقط كما أردت، ولكن بحلول ليلة الأربعاء، استطاع بابا أن يدعو أكثر من عشرين آخرين، اتصل ابن

عمه هومايون، كان في الحقيقة ابن عمه من ابن عم عمه، وذكر أنه ذاهب إلى جلال أباد الجمعة، وهومايون الذي درس الهندسة في فرنسا، والذي يملك بيتاً في جلال أباد، قال أنه سيسعد باستضافة الجميع، وأنه سيحضر الأولاد وزوجتيه، وبينما هو هناك ابنة عمه شفيقه وعائلتها سيزورونه من هيرات، ربما ستسر بالحضور معنا، وبما أنها ستكون عند ابن عمها نادر في كابول، يجب أن ندعو عائلته أيضاً، مع أن هناك بعض الخلاف بين نادر وهومايون، وإذا دعي نادر، بالطبع أخوه فاروق يجب أن يُسأل، وإلا سنكسر خاطره، ولا يدعونا إلى زفاف ابنته الشهر القادم و...

ملأنا ثلاثة فانات، وركبت مع بابا، رحيم خان، كاكا هومايون. كان بابا قد علمني عندما كنت أصغر أن أنادي أي رجل كبير بـ "كاكا" وأي امرأة كبيرة بـ "كالا".

زوجتا كاكا هومايون ركبتا معنا أيضاً.

البعوض ملأ يد الكبرى بالثآليل، والصغرى كانت تفوح رائحة العطر دائماً منها، وترقص بعينيها حول الشخص. أيضاً كان معنا توأما كاكا هومايون.

جلست في المقعد الخلفي، أشعر بغثيان السيارة والدوار.

وأنا محصور بين التوأمين اللتين تكبراني بسبع سنين، واللتين استمرتا تمدا جسديهما فوق حضني لتصفع إحداهما الأخرى.

الطريق إلى جلال أباد كان مسافة ساعتين بالسيارة، يمر خلال طريق جبلية، كانت الريح بجهة منحدر شاهق، ومعدتي تنقلب مع كل لفة تقوم بها السيارة.

كل من في سيارة الفان كان يتكلم بصوت عال وفي الوقت نفسه، تقريباً يصرخون، هذه هي الطريقة التي يتحدث بها الأفغان.

سألت إحدى التوأمين، فاطمة أو كريمة، لا أستطيع أبداً أن أعرف أياً منهما، أن نتبادل بالمقاعد كي أستطيع أن أتنفس هواءً نقياً بسبب

إحساسي بالغثيان، مدت لي لسانها، وقالت لا، قلت لها، هذا حسن ولكني في هذه الحالة سوف أتقيأ على فستانها الجديد.

بعد دقيقة أصبحت عند النافذة، وأخرجت رأسي وراقبت الطريق المتعرج يهبط ويعلو، يحيط بذيله جانب الجبل، أعد الشاحنات الملونة المحتشدة بالرجال وهي تمر على مهل، حاولت أن أغلق عيني، تاركاً الهواء يصفع خدي، فتحت فمي لأبتلع الهواء النقي، ومع ذلك لم أشعر بتحسن، نخزني إصبع في خاصرتي، كانت فاضلة \ كريمة.

نعم؟ قلت.

كنت أخبر الجميع عن المسابقة، قال بابا من وراء المقود، هومايون وزوجتيه كانوا يبتسمون لي، لا بد أنه كان هناك مئة طائرة في السماء ذاك اليوم، قال بابا، أليس كذلك أمير؟

أعتقد ذلك، تمتمت.

مئة طائرة، هومايون جان، بلا مزاح، والطائرة الوحيدة التي بقيت تطير آخر اليوم كانت طائرة أمير، وأحضر أيضاً آخر طائرة بقيت في الجو، طائرة زرقاء جميلة، حسان وأمير طارداها سوية.

مبروك، قال كاكا هومايون، زوجته الأولى ذات الثآليل صفقت، وا، وا، أمير جان، كلنا فخورون جداً بك! قالت، انضمت الزوجة الصغيرة إليها، ثم بدأ الجميع بالتصفيق، يطلقون الصيحات، يخبروني كم جعلتهم فخورين، فقط رحيم خان، الجالس بجانب بابا، كان صامتاً، كان ينظر لي بطريقة غريبة.

توقف جانباً بابا، أرجوك.

ماذا؟

أشعر بالغثيان، تمتمت منحنياً على المقعد، ضاغطاً على توأمي كاكا هومايون، امتعض وجه فاطمة / كريمة.

توقف، كاكا! وجهه أصبح أصفر! لا أريده أن يتقيأ على ثوبي الجديد. صرخت بسخط.

بدأ بابا بالتوقف جانباً، ولكني لم أستطع الاحتمال.

بعد بضع دقائق، كنت جالساً على صخرة إلى جانب الطريق، بينما فتحوا أبواب الفان لتذهب الرائحة.

بابا كان يدخن مع كاكا هومايون الذي كان يطلب من فاضلة\كريمة أن تتوقف عن البكاء، وأنه سيشتري لها فستاناً جديداً في جلال أباد، انزلقت عيناي ونظرت إلى الشمس. أشكال صغيرة تشكلت خلف جفني، كيدين تلعبان بالظلال على الحائط، كانوا يتقلبون، يختفون، ثم يشكلون صورة واحدة، بنطال حسان البني المرمي على كومة من الحجارة في الزقاق.

في بيت كاكا هومايون الأبيض ذو الطابقين في جلال أباد، كان له شرفة تطل على حديقة كبيرة محاطة بجدران عالية مزروعة بأشجار التفاح، كان هناك شجيرات يشكل منها البستاني أشكال حيوانات في الصيف، ومسبح بقرميد زمردي اللون، جلست على حافته، كان فارغاً إلا من طبقة من الثلج في قعره، مددت رجلي. أولاد كاكا هومايون كانوا يلعبون الغميضة في الجانب الآخر من الباحة، النساء كنَّ يطبخن، كنت أشم رائحة البصل المقلي. سمعت صوت الـ (بهت بهت) الذي تصدره طنجرة البخار، موسيقى وضحك.

بابا ورحيم خان، كاكا هومايون وكاكا نادر كانوا يجلسون على الشرفة، يدخنون، كان كاكا هومايون يخبرهم أنه جلب جهاز الإسقاط الضوئي ليريهم الصور التي التقطها في فرنسا.

عشر سنين مرت منذ عاد من فرنسا وما زال يري الناس هذه الصور الغبية.

ما كان يجب أن أشعر هكذا، فأنا وبابا أخيراً أصبحنا أصدقاء. ذهبنا إلى حديقة الحيوان قبل عدة أيام، وشاهدنا الأسد مرجان، ورميت حجراً على الدب عندما لم يكن أحد يشاهد، وذهبنا إلى مطعم بيت الكباب بعدها، مقابل بسينما الحديقة، وأكلنا كباب الغنم مع الخبز الطازج من المخبز، أخبرني بابا قصص رحلاته إلى الهند وروسيا، الناس الذي التقاهم، كالزوجين الذين ليس لهما ذراعين ولا رجلين في

بومباي، اللذين تزوجا منذ سبعة وأربعين سنة وأنجبا إحدى عشر طفلاً. يجب أن يكون هذا ممتعاً، يوم كامل مع بابا، وأنا أستمع إلى قصصه، أخيراً حصلت على ما تمنيته طوال السنين التي مضت، لكني الآن، بعد أن حصلت عليها شعرت بفراغ، كهذا الحوض الذي كنت أمد رجلي فيه، الزوجتان والتوأم قدموا العشاء، أرز وكفتة، ودجاج الكوراما. مع غياب الشمس، تعشينا بطريقة تقليدية، وسائد حول الغرفة، شرشف سميك ممدود على الأرض، وسنأكل بيدينا، على مجموعات، كل مجموعة من أربعة أو خمسة من صحن واحد، لم أكن جائعاً، لكنني جلست لآكل مع بابا، كاكا فاروق وأولاد كاكا هومايون، بابا الذي كان قد شرب بعض أقداح السكوتش قبل العشاء كان لا يزال يتحدث عن بطولة الطائرات الورقية، كيف تفوقت عليهم جميعاً، كيف عدت للبيت وبيدي الطائرة الأخيرة التي سقطت، صوته الذي يشبه سقوط القنابل ملأ الغرفة. رفع الجميع أيديهم عن الصحون ورفعوا أصواتهم بالتهاني، ربت كاكا فاروق على ظهري بيده النظيفة، شعرت كأن سكيناً دخل في عيني.

لاحقاً، بعد منتصف الليل بوقت طويل، بعد بضع ساعات من البوكر بين بابا وأبناء عمه، تمدد الرجال للنوم على سجادات متقابلة في الغرفة التي تعشوا فيها. ذهبت النساء للطابق العلوي، مرت ساعة، ولم أستطع النوم، درت ودرت بينما أقربائي بنخرون، يتنهدون ويشخرون في نومهم، جلست، شعاع من ضوء القمر مر من النافذة إلى الغرفة.

شاهدت حسان يغتصب، قلت للا أحد، تحرك بابا في نومه، نخر كاكا هومايون، جزء مني تمنى لو يستيقظ أحد منهم ويسمع، كي لا أضطر للعيش مع هذه الكذبة بعد الآن، ولكن أحداً لم يستيقظ. في الصمت الذي تلا ذلك فهمت طبيعة لعنتي الجديدة، أنني سأنجو بما فعلت.

فكرت بحلم حسان، الحلم الذي يدور حول السباحة في البحيرة.

ليس هناك وحش، كان قد قال، فقط ماء، ولكنه كان مخطئاً في ذلك، كان هناك وحش في الماء، ولقد أمسك حسان من كاحليه، وجره إلى القاع المظلم، كنت أنا الوحش، تلك كانت الليلة التي أصبحت فيها شخصاً مؤرقاً.

لم أتحدث إلى حسان حتى منتصف الأسبوع التالي، كنت قد أكلت نصف غدائي، وحسان كان يغسل الصحون، كنت أصعد إلى الطابق العلوي ذاهباً إلى غرفتي عندما سألني حسان إن كنت أريد أن أذهب إلى التل، قلت أنني أشعر بالتعب، كان يبدو التعب على حسان أيضاً، كان قد خسر بعض الوزن ودوائر رمادية تحيط عينيه المنتفختين، ولكن عندما سألني ثانية قبلت على مضض.

صعدنا التل وأحذيتنا تغرق في الثلج الموحل، لم يقل أحدنا شيئاً، جلسنا تحت شجرة الرمان الخاصة بنا، عندها عرفت أني أخطأت، لم يكن يجب أن أصعد التل، الكلمات التي حفرتها بسكين علي، أمير وحسان... سلاطين كابول. لم أحتمل النظر إليها، سألني أن أقرأ له من الشاهناماه، قلت له أني قد غيرت رأيي، قلت له أني أريد العودة إلى غرفتي، نظر بعيداً وهز كتفيه، مشينا عائدين، بصمت، ولأول مرة في حياتي لم أستطع الانتظار حتى يحل الربيع.

ذاكرتي عن بقية ذاك الشتاء من سنة ١٩٧٥ ضبابية جداً، أذكر أني كنت سعيداً عندما يكون بابا في البيت، كنا نأكل سوية، نذهب لمشاهدة فيلم، نزور كاكا هومايون أو كاكا فاروق، أحياناً كان يأتي رحيم خان ويسمح لي بابا أن أجلس معهم في المكتب، ونشرب الشاي، بل جعلني أقرأ له بعضاً من قصصي، كان هذا جميلاً، حتى أنني أقنعت نفسي أنه سيدوم، وبابا اعتقد هذا أيضاً، على ما أظن، ولكن كان علينا أن ننتبه أكثر. لعدة أشهر على الأقل بعد بطولة الطائرات الورقية، غرقت أنا وبابا في وهم جميل.

رأينا بعضنا بطريقة لم نخبرها من قبل، خدعنا نفسينا باعتقادنا أن لعبة مصنوعة من الورق، الصمغ وخشب الخيزران تستطيع أن تقرب

المسافة بيننا، لكن عندما كان يغيب بابا. وهو يغيب كثيراً. كنت أحبس نفسي في غرفتي، أقرأ كتاباً كل يومين تقريباً، أكتب قصصاً، تعلمت أن أرسم الأحصنة. كنت أسمع حسان يدور في المطبخ في الصباح. أسمع ضوضاء الأواني الفضية، صفارة إبريق الشاي. فأنتظر إلى أن أسمع صوت الباب يغلق، وعندها فقط أنزل لآكل. على تقويمي وضعت دائرة حول اليوم الذي تبدأ فيه المدرسة، وبدأت عداً تنازلياً.

وليزداد القدر معاندة لي، ظلَّ حسان يحاول إعادة الأمور إلى نصابها بيننا، أذكر آخر مرة كنت في غرفتي، أقرأ الترجمة الفارسية المختصرة لإيفانهو. عندما قرع باب غرفتي، ماذا هناك؟

أنا ذاهب إلى المخبز لأشتري بعض الخبز، قال: من الجهة الأخرى، كنت أتساءل إن كنت... إن كنت تريد الذهاب معي.

أعتقد أنني أريد أن أقرأ، قلت وأنا أفرك رأسي.

مؤخراً، كلما يكون حسان قريباً، كنت أشعر بالصداع. إنه يوم مشمس، قال.

أرى ذلك.

قد يكون المشي متعة.

اذهب أنت.

أتمنى لو تأتي معي. قال، توقف، شيء ضرب الباب، أعتقد أنها جبهته.

لا أدري ماذا فعلت، أمير آغا، أتمنى لو تخبرني، لا أعرف لم لم تعد تلعب معي.

لم تفعل شيئاً حسان، ارحل فقط.

أخبرني، سأتوقف عن القيام به.

دفنت رأسي في حضني وعصرته بركبتي كملزمة.

سأخبرك ما أريدك أن تتوقف عن القيام به. قلت وعيناي مغمضتان بشدة.

ماهو ؟ سألَ. أريدك أن تتوقف عن إزعاجي، أريدك أن ترحل بعيداً، صرخت.

تمنيت لو يرد علي بالمثل. أن يكسر الباب ويدخل ويقول لي أن أتوقف. كان هذا ليجعل الأمور أسهل، أفضل، ولكنه لم يقم بشيء من هذا، وعندما فتحت الباب بعد عدة دقائق، لم يكن هناك.

ارتميت على سريري، دفنت رأسي تحت الوسادة، وبدأت بالبكاء.

حسان ابتعد كثيرا عن حدود يومي بعد ذلك.

حاولت أن لا نتقابل إلا نادرا.

خططت يومي هكذا، لأنه عندما يكون موجوداً يمتص الأوكسجين من الهواء، يضيق صدري، ولا أستطيع أن أتنفس ما يكفي من الهواء، أتوقف هناك، محصوراً داخل فقاعتي الأتموسفيرية الخالية من الهواء، ولكن حتى عندما لا يكون موجودا، كان موجودا، في الثياب المغسولة باليد والمكوية، الموضوعة على الطاولة في البهو، بالجوارب الدافئة المتروكة أمام غرفتي، في الحطب الذي أجده يحترق دائماً في الموقد عندما أنزل للفطور، أينما تقع عيني أرى علامات عن إخلاصه، إخلاصه الملعون.

في أول الربيع، قبل بداية المدرسة بأيام قليلة، كنت وبابا نزرع التوليب في الحديقة، القسم الاكبرمن الثلج كان قد ذاب، وبقع من العشب الأخضر كانت قد ظهرت على التلال، كان صباحا باردا ورمادياً، كان بابا منحنياً أمامي. يحفر التربة ويزرع البذور التي كنت أعطيه إياها، كان يخبرني كيف أن أكثر الناس كانوا يعتقدون أنه من الأفضل زرع التوليب في الخريف وكم كان ذلك خطأ. عندما خرجت فوراً من فمي، بابا هل فكرت بجلب خدم آخرين؟

أوقع بذرة التوليب ودفن المنكوش في التربة. خلع كفيه، أعتقد أنني أفزعته.

ماذا، ماذا قلت؟

كنت أتساءل فقط.

لم قد أرغب أن أقوم بهذا، قال بابا بقسوة
لن ترغب، أعتقد. كان فقط سؤالا، قلت وصوتي يختفي إلى أنين.
أسفت على ما قلت منذ الآن.
هل هذا يتعلق بك وبحسان، أعرف أن هناك شيئاً بينكما، ولكن مهما يكن، عليك أن تحله بنفسك، أنا لا دخل لي.
أنا آسف بابا.
وضع بابا قفازيه ثانية، لقد كبرت مع علي، قال من خلال أسنانه المشدودة، أبي أخذه في رعايته، أحبه كابنه، أربعين سنة وعلي يعيش في هذه الغرفة، أربعين سنة، وأنت تعتقد أنني سأرميه خارجاً؟ هكذا؟
التفت إلي، وجهه أحمر كالتوليب.
لم أضع يدي عليك أبداً أمير، ولكن إن قلت شيئاً كهذا ثانية... ونظر بعيدا وهو يهز رأسه.
أنت تجلب لي العار، وحسان.. حسان لن يذهب إلى أي مكان. هل تفهم؟
نظرت للأسفل، ووضعت حفنة من التربة الباردة في يدي، وتركتها تنساب من بين أصابعي.
قلت هل تفهم؟ زأر بابا. جفلت. نعم بابا.
حسان لن يذهب لأي مكان. صرخ بابا وبدأ بحفر حفرة ثانية بالمجرفة. وهو يضرب التربة كأنه يضرب صخرة.
سيبقى معنا هنا، حيث ينتمي، هذا بيته ونحن عائلته. إياك أن تسألني هذا السؤال ثانية.
لن أفعل هذا، بابا. أنا آسف.
زرعنا بقية البذور بصمت.
كنت مرتاحاً جداً عندما بدأت المدرسة الأسبوع التالي، طلاب بأيديهم دفاتر وأقلام جديدة يسيرون حول الباحة يضربون الرمل، يتحدثون بمجموعات، ينتظرون صافرة كابتن الصف.

قاد بابا السيارة في الطريق الترابي الذي يصل إلى المدخل، كانت المدرسةعبارة عن بناءٍ قديمٍ من طابقين، بنوافذ مكسورة وردهات حجرية مظلمة. بقع من طلائه الأصلي الأصفر القاتم كانت ما تزال صامدة على قطع الجص الكبيرة.

أغلب الصبية كانوا يمشون إلى المدرسة.

وموستانغ بابا السوداء كانت ترسم أكثر من نظرة حسد، كان يجب أن أشعر بالغرور عندما يوصلني ولكن كل ما ظهر علي هو إحساس بالإحراج والفراغ، ذهب بابا بدون أن يودعني حتى، مررت بجانب الجمهرة التقليدية لمقارنة جروح معركة الطائرات. ووقفت في الصف، قرع الجرس ومشينا إلى صفوفنا، جلسنا كل اثنينٍ في مقعد، جلست في الصف الأخير بينما أعطانا أستاذ الفارسية كتباً، دعوت أن يعطينا وظيفة ثقيلة.

المدرسة أعطتني العذر كي أبقى في غرفتي وقتاً طويلاً.

لفترة، أنستني ما حدث في الشتاء، ما تركته يحدث، لعدة أسابيع حجزت نفسي مع الجاذبية، وكمية الحركة، الذرة والخلايا، الحروب الأنجلوٍ - أفغانية. بدلاً من التفكير في حسان وما حدث له، لكن، ودائماً، كان عقلي يعود إلى الزقاق، لسروال حسان البني المرمي على الصخور، إلى نقطة الدم التي لوثت الثلج بالأحمر القاني القريب من الأسود.

بعد ظهيرة يوم صيفي خامل وبليد.

سألت حسان أن يذهب معي إلى التل، أخبرته أني كتبت قصة جديدة أريد قراءتها له.

كان ينشر الثياب لتجف في الباحة، ورأيت اللهفة في السرعة التي أنهى فيها عمله. صعدنا التلة، ونحن نتحدث قليلا، سألني عن المدرسة، ماذا كنت أتعلم، تحدثت عن أساتذتي، خصوصاً أستاذ الرياضيات اللئيم، الذي يعاقب الطلاب المشاغبين بوضع قضيب حديدي بين أصابعهم ويشد عليها.

انتفض حسان عند سماعه هذا، وقال أنه يتمنى ألا أضطر لتجربة هذا أبداً. قلت أنني كنت محظوظاً إلى الآن، عارفاً أن لا علاقة للحظ بهذا أبداً، لقد قمت بحصتي من الشغب في الصف أيضاً، ولكن أبي كان ثرياً والكل يعرفه، لذلك كنت معفى من عقاب العصا.

جلسنا تحت جدار المقبرة في ظل شجرة الرمان، بحلول شهر أو اثنين، الحشائش تغطي جانب التل، ولكن هذه السنة طالت طلائع الربيع كثيراً والعشب كان ما يزال أخضرا، على قمته زهور برية متنوعة، الجدران البيضاء والسطوح المستوية لوزير أكبر خان ،لمعت تحت الشمس، الغسيل معلق في الباحات، يحركه النسيم ليرقص كالفراشات، انتقينا اثني عشرة رمانة من الشجرة. فتحت القصة التي جلبتها وقلبت على الصفحة الأولى ثم وضعتها جانباً، وقفت والتقطت رمانة كانت قد وقعت من الشجرة، ماذا ستفعل إن ضربتك بها؟ قلت وأنا أقلب الرمانة بين يدي.

اختفت ابتسامة حسان وبدا أكبر مما أذكر، لا، ليس أكبر، كبيراً، هل هذا ممكن؟ الخطوط غضنت وجهه المسمر والتجاعيد أحاطت بعينيه، فمه. من الممكن أن أكون أنا قد أمسكت بسكين، وحفرت هذه الخطوط بنفسي.

ماذا ستفعل؟ قلت ثانية.

اختفى اللون من وجهه، بقربه، أوراق القصة التي وعدته بقراءتها طارت مع النسيم، قذفته بالرمانة، أصابته في صدره وانفجرت بطلاء أحمر. صرخ حسان كامرأة حامل بدهشة وألم.

دافع عن نفسك! صرخت، نظر حسان من البقعة على صدره إلي.

قف! دافع عن نفسك! قلت.

وقف حسان، ولكن فقط وقف هناك، ينظر بذهول كرجل جره الجزر إلى المحيط بينما قبل لحظة كان يستمتع بالاستلقاء على الشاطئ. ضربته برمانة أخرى، في الكتف هذه المرة، غطى العصير وجهه.

دافع عن نفسك! صرخت.

دافع عن نفسك! لعنك الله! تمنيت أن يفعل ذلك، تمنيت لو يعاقبني العقاب الذي أستحق، وربما أستطيع النوم في الليل أخيراً، ربما تعود الأمور بيننا إلى نصابها، ولكن حسان لم يفعل شيئاً بينما ضربته مرة وأخرى وأخرى، جبان! قلت، لا شيء إلا جباناً ملعوناً! لا أعلم كم مرة ضربته، كل ما أعرفه أنه عندما توقفت أخيراً، متعب ألهث، كان حسان مصبوغاً بالأحمر كأن فرقة جنود بأكملها فتحت نيرانها عليه، وقعت على ركبتي، متعباً، مستهلكاً، غاضباً.

عندها التقط حسان رمانة، مشى نحوي، فتحها وسحقها على جبهته.

هاك، قال بصوت أجش.

الأحمر ينزل من كل أنحاء رأسه كالدماء.

هل اكتفيت؟ هل تشعر أنك أحسن؟

ثم التفت وبدأ يهبط التل.

تركت دموعي تنهمر غزيراً وأنا أتمايل إلى الأمام والوراء على ركبتي.

ماذا سأفعل معك، حسان؟ ماذا سأفعل معك؟ ولكن بينما جفت دموعي، ونزلت التل، عرفت الجواب على ذلك السؤال.

أصبح عمري ثلاثة عشر سنة ذاك الصيف من سنة ١٩٧٦، آخر صيف من السلام تحياه أفغانستان، فترت الأمور بيني وبين بابا. أعتقد أن هذا بدأ بعد تعليقي الغبي ذاك اليوم عندما كنا نزرع التوليب، عن جلب خدم جدد. ندمت على قولي هذا ـ فعلاً ندمت ـ ولكن أعتقد أنه حتى لو لم أفعل، استراحتنا السعيدة كانت ستصل إلى نهاية، ربما ليس بهذه السرعة، ولكن كانت ستنتهي.

مع نهاية الصيف، صوت الملعقة والشوكة في الصحن حل مكان أحاديث العشاء، وعاد بابا ينسحب إلى مكتبه بعد العشاء ويغلق الباب. وعدت أنا إلى الإبحار في حافظ وخيَّام وقضم أظافري حتى اللحم .

أكتب القصص، احتفظ بها في مخبأ تحت سريري، ربما، طلب بابا مني ثانية أن أقرأ له.

شعار بابا في إقامة الحفلات كان: ادع العالم كله وإلا فليست حفلة. أذكر وأنا أبحث في قائمة المدعوين قبل أسبوع من عيد ميلادي، لم أعرف ثلاثة أرباع المدعوين الأربعمئة. عدا الكاكات والكالات الذين سيجلبوا لي هدايا ويهنئوني بإكمالي الثلاثة عشر سنة، عندها أدركت أنهم لم يكونوا قادمين من أجلي فعلاً، كان عيد ميلادي، لكنني عرفت من كان نجم العرض.

لأيام، البيت كان مزدحماً بالموظفين الذي عينهم بابا لتجهيز المكان. كان هناك صلاح الدين الجزار، الذي حضر ومعه عجل وخروفين في شاحنة، رافضاً أن يدفع بابا سعر أي من الثلاثة. ذبح الحيوانات بيديه في الباحة قرب شجرة الصفصاف، الدم جيد للشجرة، أذكره يقول بينما غرق العشب حول الشجرة بالأحمر. رجال لا أعرفهم تسلقوا أشجار السنديان بشرائط تحوي لمبات صغيرة وأمتار من حبال الكهرباء، آخرون جهزوا عشرات الطاولات في الباحة، يضعون غطاء على كل منها. في الليلة السابقة للحفلة الكبيرة، صديق بابا ديل محمد، الذي يملك مطعم كباب في شار - إي - ناو أتى إلى المنزل مع أكياس من البهارات وكالجزار ديل محمد أو ديلو - كما يناديه بابا - رفض أن يدفع له لخدماته، قال أن بابا قدَّم الكثير لعائلته. كان رحيم خان من همس لي بينما ديلو يملح اللحوم، أن بابا أقرضه المال ليفتح مطعمه، رفض بابا أن يعيد له ديلو المال، إلى أن ظهر يوماً أمام البيت وهو يقود سيارته البينز وأصر أنه لن يذهب إلى أن يأخذ بابا ماله.

أعتقد أنه كيفما نظرت إليها، أو على الأقل الطريقة التي يحكم بها على الحفلات، كان عيد ميلادي المتواضع نجاحاً هائلاً، لم أر في حياتي البيت مكتظاً هكذا، مدعوين مشروباتهم في أيديهم، يتحدثون في الردهات، يدخنون على الدرجات، يجلسون عند الأبواب، يجلسون أينما وجدوا مكاناً، على مقاعد المطبخ، في البهو حتى تحت

الدرج، في الباحة الخلفية كانوا يختلطون تحت الأضواء الزرقاء، الحمراء والخضراء التي تغمز من خلال الأشجار، وجوههم كانت تنير بجانب ضوء الشعلات الموضوعة في كل مكان، بنى بابا منصَّةً على الشرفة يطل على الحديقة، وزرع مكبرات صوت حول الباحة. أحمد زاهير كان يعزف على الأكورديون ويغني على المنصَّة في زحمة الأجساد التي ترقص.

اضطررت أن أحيي جميع الضيوف بنفسي - تأكد بابا بنفسه أنني أقوم بهذا - لا أحد يجب أن يعلق في اليوم التالي أنه ربى ولداً بلا أخلاق، قبلت مئات الخدود، حضنت غرباء. وشكرتهم لهداياهم. آلمني وجهي من شدة الابتسامة المرسومة عليه. كنت واقفاً مع بابا في الباحة قرب البار عندما قال أحدهم عيد ميلاد سعيد أمير، كان آصف وأهله. أبو آصف، محمود، كان رجلاً قصيراً، نحيلاً ببشرة داكنة ووجه ضيق. أمه تانيا كانت امرأة صغيرة الحجم، عصبية، تبتسم وتطرف بعينها كثيراً، أصبح آصف يقف بين الاثنين الآن، يبتسم. أعلى من الاثنين، وذراعاه يستريحان على كتفيهما، ثم قادهما باتجاهنا كأنه الذي أحضرهما هنا. كأنه هو الأب وهما الأطفال، موجة من الدوار مرت بي، شكرهم بابا للحضور، لقد انتقيت هديتك بنفسي، قال آصف، طرفت عينا تانيا ونقلت نظرها من آصف إلي، وابتسمت بلا إقناع، ثم رمشت. تساءلتُ إن لاحظ بابا ذلك.

هل ما زلت تلعب كرة القدم، آصف جان؟ قال بابا.

كان دائماً يريدنا أن نصبح أصدقاء أنا وآصف. ابتسم آصف، كانت حقيرة الطريقة التي حاول أن يبدو لطيفاً بها، بالطبع كاكا جان.

جناح أيمن كما أذكر؟

بالحقيقة، أصبحت لاعب وسط متقدم هذه السنة، قال آصف، يمكنك هذا من التسجيل أكثر، سنلعب ضد الميكرورايان الأسبوع القادم، يجب أن تكون مباراة جيدة، لديهم لاعبين جيدين، هز بابا برأسه، أتعلم؟ كنت ألعب وسط متقدم عندما كنت صغيرا.

أراهن أنك لا زلت تستطيع ذلك إن أردت، قال آصف وغمز بابا.
رد بابا الغمزة، أرى أن أباك قد علمك طرقه المشهورة عالمياً بالمدح، ولكز أباه بمرفقه الذي كاد أن يقع، ضحك محمود ضحكة مقنعة بقدر ما كانت ابتسامة تانيا.
وفجأة تساءلت، إن كان ابنهما قد أخافهما بطريقة ما.
حاولت أن أغتصب ابتسامة، ولكن كل ما استطعت القيام هو رفع جوانب فمي بطريقة بلهاء.
نقل آصف عينيه نحوي، والي وكمال هنا أيضاً، لم يكونا ليفوتا عيد ميلادك مهما كان. قال، ضحكة لئيمة كانت تدور تحت وجهه.
هززت رأسي بصمت.
خططنا للعب الكرة الطائرة غداً في منزلي، قال آصف، ربما تنضم إلينا واجلب حسان إن أردت.
يبدو هذا ممتعاً، قال بابا وقد أشرق وجهه، أليس كذلك أمير؟
لا أحب الكرة الطائرة، تمتمت وأنا أرى السعادة تختفي من عيني بابا.
صمت مزعج تلا ذلك.
أعتذر آصف جان، قال بابا وهو يهز كتفيه.
آلمني اعتذاره عني.
لا، لا يهم، قال آصف، ولكنها دعوة مفتوحة أمير جان على كل حال، سمعت أنك تحب أن تقرأ لذا جلبت كتاباً لك، أحد المفضلين لدي. مد هدية ملفوفة لي، عيد ميلاد سعيد.
كان يرتدي كنزة قطنية بأكمام زرقاء وبربطة عنق حمراء وصدرية سوداء لامعة.
ويضع عطراً ثقيلاً، وشعره مصففاً بعناية للوراء، كان يبدو حلم كل الأهالي.
قوي، طويل، حسن الهندام، وذو أخلاق حسنة، لديه الموهبة ونظراته القوية، بدون ذكر سرعة بديهته في المزاح مع الراشدين. لكن

عيناه خانتاه أمامي، عندما نظرت فيهما، المديح الكاذب. أظهر غضباً يختفي تحته.

ألن تأخذها أمير؟ كان بابا يقول

ها؟

هديتك، قال كأنه يمتحنني، آصف جان يعطيك هدية.

أوه، قلت، أخذت الهدية من آصف وخفضت نظري. تمنيت لو كنت وحيداً في غرفتي، مع كتبي، بعيداً عن كل هؤلاء الناس.

حسن؟ قال بابا

ماذا؟

تكلم بابا وبصوت خفيض. هذا الصوت الذي يتكلم به كلما أحرجته أمام العامة.

ألن تشكر آصف جان؟ لطفٌ منك أن تفعل .

تمنيتٍ لو يتوقف عن تلقيبه بهذا. كم مرة قال لي هذا، أمير جان؟

شكراً، قلت. أم آصف نظرتٍ إلي كأنها تريد أن تقول لي شيئاً، لكنها لم تفعل، انتبهت أن أحداً من أهل آصف لم يقل كلمة. وقبل أن أحرج نفسي وبابا أكثر من هذا - ولأبتعد عن آصف وموقفه - ابتعدت وأنا أقول شكراً لحضوركم.

وجدت طريقي بين حشد المدعوين وخرجت من البوابة الرئيسية، على بعد بيتين من المنزل، هناك أرض قاحلة كبيرة.

سمعت بابا يقول لرحيم خان أن قاضياً قد اشتراها، وأن مهندساً معمارياً يقوم بالعمل على التصميم الآن.

لكن الآن، الأرض كانت عارية، إلا من الأوساخ، الحجارة والأعشاب الضارة.

مزقت الورق الذي يغطي هدية آصف، وضعت الكتاب تحت ضوء القمر، كان عن حياة هتلر. رميته على الأعشاب.

اتكأت على سور الجيران وانزلقت على الأرض. جلست هكذا في الظلام لفترة. ركبتاي مدفونتان في صدري، ناظراً إلى النجوم، منتظرا الليل لينتهي.

ألا يجب أن تكون هناك لتسلي ضيوفك؟ صوت مألوف قال، كان رحيم خان يمشي بجانب السور متجهاً نحوي.

لا يحتاجوني لذلك، بابا هناك، أتذكر؟ قلت.

الثلج في كأسه تحرك محدثاً صوتاً عندما جلس بقربي.

لم أعلم أنك تشرب.

يبدو أنني أفعل، قال، وهو يلكزني بمرفقه مازحاً، ولكن فقط في المناسبات الهامة جداً.

ابتسمت، شكراً.

مد شرابه إلي ثم أخذ رشفة، أشعل سيجارة من تلك السجائر الباكستانية غير المفلترة التي يدخنها هو وبابا دائماً، هل أخبرتك أنني كدت أن أتزوج مرة؟

حقاً؟ قلت وأنا أبتسم قليلاً من فكرة زواج رحيم خان.

دائماً فكرت به كاليد اليمنى لبابا. مرشدي في الكتابة. صديقي، الشخص الذي لا ينسى أدباً أن يجلب لي تذكارات (ساوغات) عندما يعود من أي رحلة خارج البلد. لكن زوج؟ أب؟

هز رأسه، هذا صحيح، كنت في الثامنة عشر، اسمها كان حومايرا. كانت هازارا، ابنة خادم جارنا. كانت جميلة كباري (دمية)، شعر بني خفيف، عيون عسلية كبيرة... كانت تضحك بطريقة، لا زلت أسمعها أحياناً.

هز كأسه، كنا نلتقي بالسر في بستان التفاح الذي يملكه أبي، دائماً بعد منتصف الليل عندما يذهب الجميع للنوم. كنا نمشي تحت الأشجار وأمسك أنا بيدها... هل تشعر بالإحراج، أمير جان؟

قليلاً، قلت.

لن يقتلك، قال وهو ينفخ الدخان من فمه، على كل حال، كان لدينا هذا الحلم، أننا سنقيم عرساً عظيماً وفخماً، وندعو أقرباءنا وأصدقاءنا من كابول قندبار. سأبني لنا بيتاً كبيراً أبيض محاطاً بأسوار عالية ونوافذ كبيرة. سنزرع أشجار الفاكهة في الحديقة وكل أنواع الورود، سنملك مرجاً لأولادنا كي يلعبوا فيه، في أيام الجمعة، بعدالصلاة في الجامع، سيجتمع الجميع في بيتنا للغداء، سنأكل في الحديقة تحت أشجار الكرز، نشرب الماء العذب من البئر، بعدها الشاي مع الحلويات بينما نشاهد أطفالنا يلعبون مع أولاد عمهم.

أخذ رشفة كبيرة من كأسه، سعل، لو رأيت النظرة على وجه أبي عندما أخبرته، أمي غابت عن الوعي، أخواتي رشقن وجهها بالماء، وضعن المروحة أمام وجهها ونظرن إلي كأنني نحرت رقبتها، أخي جلال ذهب ليجلب بندقية الصيد لكن أبي أوقفه. ضحك رحيم خان بحرارة، كنا حومايرا وأنا ضد العالم، وسأخبرك هذا أمير جان، في النهاية، سينتصر العالم، هكذا تسير الحال.

ماذا حدث؟

في اليوم نفسه، وضع أبي حومايرا وعائلتها في شاحنة وأبعدهم إلى هازاراجات. لم أرها بعد ذلك أبداً.

أنا آسف، قلت.

أعتقد أنه كان أفضل، رغم ذلك، قال رحيم خان وهو يهز كتفيه، كانت ستتعذب. عائلتي لم تكن لتقبل بها كفرد، لا تأمر شخصاً أن يلمّع حذاءك في يوم وتناديه أخي في اليوم التالي. نظر إلي، أتعلم، تستطيع أن تخبرني أي شيء تريد، أمير جان، أي وقت.

أعلم، قلت بصوت غير واثق.

نظر إلي لوقت طويل كأنه ينتظر، عيناه السوداوان تبحثان عن سر لم يباح بيننا، للحظة، كنت سأخبره كل شيء، ولكن ماذا سيفكر عندها؟ سيكرهني، وسيكون محقاً.

تفضل، أعطاني شيئاً، كنت سأنسى، عيد ميلاد سعيد.

كان دفتراً بنياً بحروف من الحرير، لمست بيدي الخيوط الذهبية اللون على حروفه، شممت الجلد، لقصصك، قال.

كنت سأشكره عندما انفجر شيء وومضات من النار أضاءت السماء.

ألعاب نارية!

أسرعنا عائدين إلى البيت ووجدنا جميع الضيوف واقفين في الحديقة، ناظرين إلى السماء، الأطفال صاحوا وقفزوا مع كل قرقعة، و"هوووش" صفر الناس وصفقوا كلما أزت شعلة وانفجرت في باقة من النار، كلما مرت ثواني قصيرة، كانت الحديقة تضيء بومضات مفاجئة من الأحمر، الأخضر والأصفر.

في إحدى هذه الومضات القصيرة، رأيت شيئاً لن أنساه ما حييت، حسان يقدم الشراب لآصف ووالي من صينية فضية، خفت الضوء، فرقع، ثم ومضة أخرى من ضوء برتقالي، آصف يضحك وهو يلكز حسان في صدره، ثم - شكراً لله - ظلام.

- 9 -

جالساً في منتصف غرفتي الصباح التالي، مزقت علب الهدايا واحدة بعد أخرى. لا أدري حتى لمَ تكبدت هذا العناء، نظرت إليهم نظرة كئيبة ورميتهم في زاوية الغرفة، كانت الهدايا تتكوم في الزاوية: كاميرا إلكترونية، راديو، سكة قطار كهربائية - والعديد من المظاريف التي تحتوي على المال. أعلم أنني لن أصرف المال ولن أستمع إلى الراديو والقطار الإلكتروني لن يسير أبداً على سكته في غرفتي. لم أرغب بأي منها، كانت كلها أموالاً ملوثة بالدماء: بابا لم يكن ليقوم بحفلة كهذه لي لو لم أنتصر بالبطولة. أعطاني بابا هديتين، الأولى ستكون بالتأكيد موضع حسد كل طفل في الحي، سكوين ستينغراي جديدة، ملكة كل الدراجات. يعدون على أصابع يد واحدة الأطفال الذين يملكون ستينغراي جديدة في كل كابول. والآن أصبحت واحداً منهم، كان لديها مقود عال مع مسكات من المطاط ومقعدها على شكل الموزة المشهور، أشعة العجلة كانت بلون الذهب وجسم الدراجة كان أحمر، كلون التفاح الحلو. أوِ الدم.

أي ولد آخر كان ليأخذها فوراً في نزهة حول الحي. ربما كنت سأقوم بالمثل قبل عدة أشهر.

أعجبتك؟ قال بابا، وهو يتكئ على باب غرفتي، ضحكت ببلاهة وقلت "شكراً" سريعة.

تمنيت لو استطعت أن أقول أكثر من هذا.

يمكننا أن نأخذها في دورة حول الحي، قال بابا داعياً. لكن دعوة من نصف قلبه فقط.

ربما لاحقاً، أشعر بالتعب قليلاً. قلت.

أكيد، قال بابا.

بابا؟

نعم؟

شكراً على الألعاب النارية. شكرته ولكن أيضاً بفتور.

استرح قليلاً. قال بابا وهو يمشي إلى غرفته.

الهدية الثانية التي أعطاني بابا إياها ـ ولم ينتظرني لأفتحها ـ كانت ساعة يد، بزجاج أزرق وعقارب ذهبية على شكل ضربات البرق. لم أجربها حتى، رميتها فوق كومة الألعاب في الزاوية، الهدية الوحيدة التي لم أرمها كانت دفتر رحيم خان الجلدي. كانت الوحيدة التي لم أشعر أنها ملوثة بالدماء.

جلست على حافة سريري، قلبت الدفتر بين يدي، فكرت في ما قاله لي رحيم خان عن حومايرا. كيف أن ترحيلها من قبل أبيه كان للأفضل، كانت ستتعذب .كما عندما يعلق جهاز الإسقاط الضوئي الذي يملكه كاكا هومايون على صورة، نفس الصورة بقيت تومض في عقلي مرة تلو الأخرى، حسان، رأسه في الأرض، يقدم الشراب لآصف ووالي.

ربما هذا أفضل، يخفف من عذابه وعذابي أيضاً. بالحالتين هناك شيء أصبح واضحاً، أحدنا يجب أن يرحل.

لاحقاً عصر ذلك اليوم. أخذت السكوين في دورتها الأولى والأخيرة. درت بها حول الحي مرتين ثم عدت. قدتها في الممر إلى الباحة الخلفية حيث كان حسان وعلي بنظفان آثار الليلة الماضية، كؤوس البلاستيك، مناديل وسخة وزجاجات صودا فارغة ومرمية في الباحة. كان علي يرتب الكراسي، يضعهم على طوال الجدار. رآني ولوح لي.

سلام، علي. قلت وأنا ألوح له بدوري.

رفع إصبعه، طالباً مني الانتظار، ومشى إلى كوخه، بعد لحظة، خرج و بيده شيء.

لم تسنح الفرصة لي ولحسان البارحة لنعطيك هذه، قال وهو يعطيني علبة.

إنها متواضعة ولا تليق بك، أمير آغا، ولكن نتمنى أن تعجبك رغم ذلك. عيد ميلاد سعيد. شعرت بشي يخرج من حنجرتي بصعوبة.

شكراً لك، علي. قلت، تمنيت لو لم يشتريا لي أي شيء.

فتحت العلبة، كان فيها كتاب شاهناماه جديد، بغلاف سميك وصورٍ ملونة لامعة تحت المقاطع. هنا فيراتغيس تنظر إلى ابنها المولود حديثا كاي كوسراد، هنا ألفراسيهاب على حصانه. سيفه مرفوع، يقود جيشه، وبالطبع، روستام يطعن ابنه طعنة قاتلة، سوهراب المحارب.

إنه جميل، قلت.

قال علي: أخبرني حسان نسختك قديمة ومهترئة، وبعض الصفحات كانت ناقصة. كل الصور مرسومة باليد بقلم من الحبر، أضاف بفخر. ناظراً إلى كتاب لا هو ولا ابنه يستطيعان قراءته.

هذا جميل، قلت، وكان كذلك.

وكما توقعت، لم يكن رخيصاً، أردت أن أقول لعلي أنني أنا وليس الكتاب من كان لا يستحق. ركبت الدراجة.

اشكر حسان بالنيابة عني، قلت.

انتهيت وأنا أرمي الكتاب فوق كومة الهدايا في زاوية غرفتي. ولكن ظلت عيناي تنظران إليه، لذا دفنته تحت كل الهدايا.

قبل أن أذهب للنوم تلك الليلة، سألت بابا إن كان قد وجد ساعتي الجديدة.

في الصباح التالي، انتظرت في غرفتي إلى أن انتهى علي من تنظيف طاولة الفطور في المطبخ، غسل الصحون، ومسح الرفوف.

نظرت من نافذة غرفتي وانتظرت إلى أن ذهب علي وحسان لشراء حاجيات المنزل من البازار، وهما يدفعان عربة اليد أمامهما، ثم أخذت ظرفين من المال وساعتي، وخرجت على أصابع قدمي. توقفت أمام غرفة بابا وتنصت، كان هناك منذ الصباح الباكر يقوم ببعض

الاتصالات، كان يتحدث مع أحدهم عن شحنة سجاد من المتوقع وصولها الأسبوع القادم. نزلت إلى الطابق السفلي، قطعت الحديقة، ودخلت إلى كوخ حسان وعلي، رفعت شرشف حسان ووضعت ساعتي وحفنة من النقود تحته.

انتظرت ثلاثين دقيقة أخرى ثم طرقت باب بابا وقلت ما رجوت أن تكون الأخيرة بين سلسلة طويلة من الكذبات المخجلة.

من نافذة غرفتي، راقبت علي وحسان يدفعان العربة المحملة باللحمة، الخبز، الفواكه والخضار في الممر. رأيت بابا يخرج من البيت ويمشي نحو علي. تحدثا بكلام لم أسمعه، أشار بابا إلى البيت وهز علي رأسه، ثم انفصلا. عاد بابا إلى البيت ولحق علي بحسان إلى الكوخ.

بعد دقائق قليلة، طرق بابا باب غرفتي، قال: سنجلس جميعاً ونحل هذا الأمر.

ذهبت إلى مكتب بابا، جلست على الصوفا الجلدية، بعد ثلاثين دقيقة أو أكثر انضم إلينا حسان وعلي، كانا يبكيان، عرفت من عيونهما الحمراء المنتفخة، وقفا أمام بابا، يداً بيد، تساءلت متى وأين أصبحتُ قادرا على إحداث هذا القدر من الألم.

قال بابا مباشرة، هل سرقت المال، هل سرقت ساعة أمير، حسان؟

رد حسان بكلمة واحدة، بصوت ضعيف أجش، نعم.

انتفضت كأن أحداً صفعني على وجهي، سقط قلبي من مكانه وكنت سأنطق بالحقيقة، ثم فهمت، كانت هذه آخر تضحية من حسان لأجلي. لو قال لا، كان بابا ليصدقه، لأننا نعرف جميعاً أن حسان لا يكذب أبداً، وإن صدقه بابا، سأصبح أنا المتهم، وعلي أن أشرح وستنكشف الحقيقة، ولن يسامحني بابا أبداً. وهذا قادني إلى فهم شيء آخر. عرف حسان، عرف حسان، عرف أني رأيت كل ما حدث في الزقاق، أني وقفت هناك ولم أفعل شيئاً، عرف أنني خنته ومع ذلك ها هو ينقذني مرة أخرى، ربما للمرة الأخيرة. أحببته في تلك اللحظة، أكثر مما أحببت أي شخص في حياتي، وأردت أن أخبرهم أنني الأفعى

في العشب، الوحش في البحيرة. لم أكن أستحق هذه التضحية. كنت كاذباً مخادعاً ولصاً، كنت سأقول. ولكن جزءاً مني كان سعيداً، سعيداً أن كل شيء سينتهي قريباً، سيطردهما بابا، سيكون هناك بعض الألم، لكن الحياة ستستمر. أردت هذا، أن أكمل حياتي، أن أنسى، أن أبدأ صفحة جديدة، أردت أن أصبح قادراً على التنفس، لكن بابا صعقني بقوله، أنا أغفر لك. أغفر؟ ولكن السرقة هي الخطيئة الوحيدة التي لا يمكن غفرانها. الخطيئة الأكبر بين كل الخطايا. عندما تقتل رجلاً، فأنت تسرق حياة، تسرق حق الزوجة بزوج، تسرق أباً من أولاده. عندما تكذب، تسرق حق شخص في الحقيقة. عندما تغش، تسرق حق العدالة. ليس هناك شر كالسرقة. ألم يجلسني بابا على حضنه ويقول لي هذه الكلمات؟ إذا كيف يسامح حسان هكذا؟ وإن غفر بابا هذا، لماذا؟ لم يستطع أن يغفر لي أنني لم أكن الابن الذي أراد؟ لماذا؟

نحن راحلان، آغا صاحب، قال علي.

ماذا؟ قال بابا واللون يختفي من وجهه.

لا نستطيع أن نعيش هنا بعد الآن، قال علي.

ولكني غفرت له، علي، ألم تسمع؟ قال بابا.

حياتنا هنا مستحيلة، آغا صاحب، نحن راحلان، قرب علي حسان منه، وضع ذراعه حول كتفه. كانت حركة دفاعية وعرفت ممن كان علي يحميه؟

رمقني علي وفي وجهه البارد، نظرته غير المسامحة، رأيت أن حسان قد أخبره. أخبره كل شيء. عما قام به آصف وأصدقاؤه، عن الطائرة. عني. الغريب أنني كنت سعيداً أن هناك من يعرف حقيقتي.. تعبت من التظاهر.

لا تهمني الساعة أو المال، قال بابا، ذراعاه مفتوحتان وراحتا يديه للأعلى، لا أفهم لمَ تصرّ على الرحيل، ماذا تعني بمستحيل؟

أنا آسف آغا صاحب، لكن حقائبنا قد حزمت، لقد قررنا هذا.

وقف بابا، الحزن باد على وجهه، علي: ألم أعطك الكثير؟ ألم أكن جيداً معك ومع حسان؟ أنت الأخ الذي لم أحصل عليه، علي، أنت تعرف هذا. أرجوك لا تفعل.

لا تجعل هذا أصعب مما هو عليه، آغا صاحب، قال علي، فمه تجعد، للحظة، اعتقدت أنني رأيت نظرة اشمئزاز، عندها فهمت عمق الألم الذي سببته، سواد الحزن الذي للجميع، لدرجة أنه حتى وجه علي الجامد لم يستطع إخفاء حزنه، أجبرت نفسي على النظر إلى حسان، لكنه كان ينظر إلى الأسفل، كتفاه للأسفل، إصبعه يداعب خيطاً نسل من بنطاله القصير.

كان بابا يتوسل الآن، قل لي السبب على الأقل، يجب أن أعرف!

لم يخبر علي بابا، كما لم يحتج عندما اعترف حسان بالسرقة. لن أعرف حقاً لماذا، لكنني استطعت تخيلهما في ذلك الكوخ القاتم، يبكيان، وحسان يرجو علي ألا يشي بي. لكني لم أستطع معرفة السبب الذي جعله يحافظ على وعده.

أتستطيع إيصالنا إلى محطة الباص؟

أمنعك أن تقوم بهذا! انفجر بابا، هل تسمعني؟ أمنعك!

مع احترامي، لا تستطيع منعي من القيام بأي شيء، آغا صاحب، قال علي، نحن لا نعمل عندك بعد الآن.

أين ستذهب؟ سأل بابا، وصوته يتكسر.

هازاراجات.

إلى ابن عمك؟

نعم، هل توصلنا إلى محطة الباص، آغا صاحب؟

عندها رأيت بابا يقوم بشيء لم أره يقوم به من قبل، لقد بكى، أخافني هذا قليلاً، رؤية شخص كبير يشهق. الآباء لا يبكون .

أرجوك، كان بابا يقول.

لكن علي كان قد خرج من الباب، وحسان وراءه.

لن أنسى الطريقة التي قال بها بابا ذلك. الألم في صوته والخوف.

في كابول، كان من النادر أن تمطر في الصيف، السماء زرقاء، بعيدة وكبيرة، الشمس كمكواة حديدية تحرق رقبتك. الجداول حيث كنت وحسان نرمي الحجارة طوال الربيع جفت. الناس يذهبون إلى الجوامع لركعات العصر العشرة، وينسحبون إلى أي مكان ظليل يستطيعون النوم فيه، ينتظرون نسيم أول الليل البارد. الصيف يعني أياماً مدرسية طويلة من التعرق في ألبسة ضيقة ومحكمة، صفوف بتهوية تعيسة، تتعلم فيها حفظ آيات من القرآن، تصارع صعوبات النطق، تلك الكلمات العربية المهلكة، تعني التقاط الذباب بيديك عندما يكون المولى ملتفتاً إلى اللوح، والنسيم الساخن يجلب معه رائحة الخراء من الحمام الخارجي قبالة الباحة، اللعب بالرمل حول عمود السلة البائس الوحيد.

لكنها أمطرت ذاك اليوم، أخذ بابا علي وحسان إلى محطة الباص. ضرب الرعد، ملوناً السماء بلون الحديد الرمادي. في دقائق كانت الأمطار تهطل بغزارة، الصوت الثابت للماء وهو يهطل كان يطن في أذني.

عرض بابا عليهما أن يوصلهما إلى باميان بنفسه، لكن علي رفض.

خلال نافذتي الغارقة بالمياه، شاهدت علي يحمل الحقيبة الوحيدة التي تحوي كل ممتلكاتهما إلى سيارة بابا المنتظرة خارج البوابات. حسان كان يحمل شرشفاً، مطوياً بعناية ومربوطاً بحبل على ظهره، ترك كل ألعابه خلفه في الكوخ الفارغ، وجدتهم في اليوم التالي، كومة في زاوية كما الهدايا في غرفتي، حبات المطر انزلقت على نافذتي، رأيت بابا يطفئ المحرك الذي كان مشتغلاً، ذهب إلى جانب السائق، انحنى إلى الداخل، وقال شيئاً لعلي في المقعد الخلفي، ربما محاولة أخيرة ليغير رأيه، تحدثا هكذا فترة. بابا غارق في المطر، ويده على سطح السيارة، لكن عندما وقف، رأيت من كتفيه المتهدلين أن الحياة التي عرفتها منذ ولدت قد انتهت. دخل بابا السيارة، أضاء الأنوار الأمامية، لو كان هذا أحد الأفلام الهندية التي اعتدت مشاهدتها مع حسان، لكان هذا

الجزء الذي أركض فيه خارجاً، قدماي العاريتان تتخبطان في الماء، ألحق بالسيارة وأنا أصيح بها أن تتوقف. أخرج حسان من السيارة وأخبره أنني آسف، آسف جداً، دموعي تمتزج بحبات المطر، نحضن بعضنا تحت المطر. لكن هذا لم يكن فيلماً هنديا. كنت آسفاً، لكنني لم أبك ولم ألحق السيارة.

راقبت سيارة بابا تخرج من المنزل آخذة معها الشخص الذي كانت أول كلمة نطقها اسمي، ألقيت نظرة أخيرة على حسان متهالكاً في المقعد الخلفي قبل أن ينعطف بابا يساراً عند المنعطف الذي لعبنا فيه (مازات) مرات لا تحصى، عدت للوراء. لم أعد أرى إلا المطر خلال نافذتي التي بدت كالفضة المصهورة.

ـ 10 ـ

آذار، ١٩٨١

امرأة شابة جلست قبالتنا، كانت ترتدي فستاناً أخضر، وشالاً أسود محكماً حول وجهها ليحميها من برد الليل، كانت تبدأ بالدعاء كلما ترنحت الشاحنة أو تعثرت بحجر، كانت (بسم الله!) تقطع سكون الشاحنة كلما ارتجت واهتزت.

زوجها رجل ضخم الجثة يرتدي سروالاً ضيقاً (باغي) وتوربان بزرقة السماء، يهز مهد طفله الرضيع بيد، ويسبح بمسبحته بيده الحرة، شفتاه تحركتا بصلاة صامتة، كان هناك آخرون، حوالي اثني عشر بالمجمل، من ضمنهم بابا وأنا، جالسين وحقائبنا بين أرجلنا، محصورين بين هؤلاء الغرباء في الصندوق المعدني المغلق لشاحنة روسية قديمة. كانت تدور منذ غادرنا كابول الثانية صباحاً، لم يقل بابا شيئاً، لكنني عرفت أنه منتبه لدوار السفر بالسيارة الذي أشعر به كمظهر آخر من مظاهرضعفي، رأيت ذلك من وجهه المحرج في المرتين اللتين شعرت فيهما بالغثيان لدرجة أن اضطررت للإقياء، عندما سألني ذو المسبحة إن كنت أشعر بالغثيان، قلت، ربما.

نظر بابا بعيداً، طرق الرجل نافذة السائق وسأله أن يتوقف، لكن السائق، كريم ـ وهو رجل صغير بشرته داكنة وعظامه بارزة، وشاربه صغير ـ هز رأسه، نحن قريبون جداً من كابول، قل له أن يتحلى بالصبر. تذمر بابا بصوت خفيض، أردت أن أقول له أنني آسف. ولكن فجأة بدأت بالاقياء، درت للوراء، رفعت نافذة الصندوق، وقئت بجانب الشاحنة، خلفي، كان بابا يعتذر من المسافرين الآخرين، كأن الغثيان جريمة. كأنه لم يكن عادياً أن تشعر بالغثيان وأنت في الثامنة عشر. تقيأت مرتين بعدها قبل أن يوافق كريم على التوقف. كي لا

أوسخ شاحنته، الآلة التي يقتات منها، كريم كان مهرب أشخاص - كان عملاً مربحاً جداً آنذاك، كان يهرب الأشخاص من كابول المحتلة إلى بر الأمان في باكستان، كان يأخذنا إلى جلال أباد، حوالي ١٧٠ كيلومتر جنوب شرق كابول، حيث أخوه توور، الذي يملك شاحنة أكبر مع شحنة أخرى من المهاجرين، كان ينتظرنا ليأخذنا خلال ممر خيبر إلى بيشاوار. كنا على بعد عدة كيلومترات غرب شلالات ماهيبار عندما توقف كريم بجانب الطريق، ماهيبار التي تعني السمك الطائر - كانت قمة عالية بهاوية شديدة الانحدار تطل على مصنع تحويل الكهرباء الذي بناه الألمان لحساب أفغانستان في ١٨٦٧.

مررنا بها أنا وبابا مئات المرات في طريقنا إلى جلال أباد، مدينة أشجار الصفصاف، وحقول قصب السكر حيث يذهب الأفغان في العطل في فصل الشتاء إلى هناك.

قفزت من مؤخرة الشاحنة وترنحت ماشياً إلى جانب الطريق. فمي مليء بالقيء، علامة دلتني أن المزيد قادم. وقفت عند حافة المنحدر الذي يطل على الوادي العميق المختفي بالظلام، انحنيت، يداي على ركبتي، وانتظرت، في مكان ما، اهتز غصن، نعقت بومة، الريح، خفيفة وباردة، طقطقت جذوع الأشجار، وحركت الشجيرات التي وقعت أوراقها إلى المنحدر. في الأسفل، كان الهديرالخفيف للماء الجاري خلال الوادي.

واقفاً على كتف الطريق، فكرت في الطريقة التي غادرنا المنزل فيها حيث عشت حياتي كلها، كأننا ذاهبين للغداء، صحون الكوفتا مكومة في المغسلة في المطبخ، الغسيل في السلة بالبهو، الأسرة غير مرتبة، بدلات بابا الرسمية معلقة في الخزانة، الأقمشة التي تزين الجدران مازالت مكانها، وكتب أمي مازالت في مكتب بابا. علامات رحيلنا كانت بسيطة، صورة زفاف والديَّ اختفت وكذلك الصورة المضحكة لجدي ونادر شاه واقفين فوق الغزال المقتول. بعض الثياب من الخزانة، دفتري الجلدي الذي أهداني إياه رحيم خان منذ خمس سنين مضت.

في الصباح، جلال الدين، خادمنا السابع خلال خمس سنين، سيعتقد غالبا أننا ذهبنا في نزهة مشياً أو في السيارة، لم نخبره. لا تستطيع أن تثق بأي شخص في كابول بعد الآن.

ـ للحصول على جائزة أو تحت التهديد كان الناس يشون ببعضهم، حي على حي، ولد على أب، أخ على أخ، خادم على سيد، صديق على صديق، خطر لي المغني أحمد زاهير، الذي عزف على الأكورديون في عيد ميلادي الثالث عشر. ذهب هو وبعض أصدقائه في نزهة بالسيارة، ووجد أحدهم لاحقاً جثته على جانب الطريق، ورصاصة وضعت في رأسه من الخلف. الرفاق، كانوا في كل مكان، وقسموا كابول إلى مجموعتين: أولئك الذين يسترقون السمع على الآخرين، والذين لا يقومون بذلك. المشكلة كانت أن لا أحد كان يدري من ينتمي إلى من، ملاحظة صغيرة للخياط بينما أنت تقيس بذة قد تدخلك إلى الزنزنات في بوليه ـ تشاركي. تذمر حول حظر التجول للجزار والشيء الثاني الذي تدركه، أنت خلف القضبان تنظر إلى فوهة كلاشنكوف. حتى على طاولة العشاء، في خصوصية بيتهم، كان على الناس أن يتحدثوا بطريقة محسوبة. الرفاق كانوا في الصفوف أيضاً: يعلمون الأطفال أن يتجسسوا على آبائهم، إلى ماذا يستمعون، من يخبرون.

ماذا كنت أفعل على هذا الطريق في منتصف الليل؟ كان يجب أن أكون في الفراش، تحت غطائي، كتاب بصفحات على شكل أذن الكلب بجانبي. لابدَّ أني أحلم، بالتأكيد أحلم. غداً صباحاً سأستيقظ، أنظر من النافذة: لا جنود روس عابسون على الأرصفة، لا دبابات تتجول في طرق مدينتي، مدافعها تدور كأصابع الاتهام. لا شظايا، لا حظر تجول، لا حاملات جنود الجيش الروسي تقطع البازار، ثم، خلفي، سمعت بابا وكريم يناقشان الطريقة التي سيصلان بها إلى جلال أباد مع سيجارة.

كريم كان يطمئن بابا أن أخيه يملك شاحنة كبيرة من نوعية ممتازة، وأن الرحلة إلى بيشاوار ستكون روتينية.

يستطيع أن يأخذكما هناك وعيناه مغمضتان، قال كريم. سمعته يقول كيف أنه وأخيه يعرفان الجنود الروس والأفغان الذين يعملون عند نقاط التفتيش.

كيف أنهم قاموا باتفاقية (تضمن الربح للطرفين).

هذا لم يكن حلماً ـ وكأنها إشارة لي للتأكد ـ مرت طائرة ميغ فجأة وهي تملأ السماء بصوتها. رمى كريم بسيجارته ورفع سلاحاً من خصره، وصوب نحو السماء كأنه يطلق النار. ثم بصق ولعن الميغ. تساءلت أين حسان الآن. تقيأت على بعض الأعشاب، كتم زئير الميغ الذي يصم الآذان صوت تقيأي وسعالي.

توقفنا عند نقطة التفتيش في ماهيبار بعد خمس وعشرين دقيقة. نزل كريم من الشاحنة ليحيي الأصوات المقتربة. أقدام تطحن الحصا، كلمات بودلت، مختصرة وخفيضة، صوت ولاعة. "سبا سيبا".

صوت ولاعة ثان، ضحك شخص، صوت ضحك حاد جعلني أقفز، يد بابا شدتني للأسفل من فخذي، توقف الضحك وأصبح غناءً. بكلام متداخل ولحن مخرب، أغنية زفاف أفغانية قديمة،

قادمة مع لهجة روسية غليظة.

أهيستا بورو، ماه ـ إي ـ مان، أهيستا بورو.

امش على مهل، قمري اللطيف، امش على مهل.

كعوب الأحذية طرقت الإسفلت، أحدهم فتح باب الصندوق وثلاثة وجوه ظهرت، أحدها كان كريم، الآخرين كانا جنوداً أحدهما أفغاني والثاني كان روسياً بشوشاً، بوجه كوجه البولدوغ، سيجارته متدلية من جانب فمه. خلفه، قمر بلون العظام معلق في السماء. كريم والجندي الأفغاني تبادلا حديثاً مختصراً بالباشتوني. التقطت قليلاً منه ـ شيء عن حظ توور السيء. الجندي الروسي أقحم وجهه في مؤخرة الشاحنة، كان يهمهم أغنية الزفاف ويقرع بأصابعه على مؤخرة

الشاحنة. حتى في الضوء الضعيف للقمر، رأيت النظرة في عينيه وهو يقلب نظره من راكب إلى آخر. برغم البرد كان العرق ينضح من حاجبيه، توقفت عيناه عند المرأة التي ترتدي الشال الأسود. تحدث بالروسية إلى كريم دون أن يزيح نظره عنها. رد عليه كريم باقتضابٍ بالروسية، رد الروسي باقتضاب أكبر. قال الجندي الأفغاني شيئاً أيضاً، بصوت خفيض مقنع، لكن الجندي الروسي صاح بشيء جعل الاثنين ينتفضا. شعرت ببابا يشد على قبضتيه، سعل كريم، أخفض رأسه، قال أن الجندي يريد نصف ساعة مع السيدة في نهاية الشاحنة، شدت المرأة الشال بإحكام حول وجهها وبدأت بالبكاء. الرضيع الجالس في حضن زوجها بدأ بالبكاء أيضاً. وجه زوجها شحب كلون القمر في السماء، وقال لكريم أن يسأل السيد الجندي الصاحب أن يظهر بعض الرحمة، ربما لديه أخت أو أم وربما زوجة أيضاً.

استمع الروسي إلى كريم ثم نبح ببعض الكلمات.

إنه السعر الذي يجب دفعه ليتركنا نمر. قال كريم وهو غير قادر على النظر في عيني الزوج.

لكننا دفعنا سعرا عادلاً، لقد دفع له مال أكثر من كاف. قال الزوج.

تحدث كريم والجندي الروسي.

يقول... يقول أن كل سعر عليه ضريبة.

هنا وقف بابا، كان دوري كي أشده للأسفل من فخذه. لكن أبي أزاحني، وأبعد رجله. عندما وقف، حجب ضوء القمر.

أريد أن أسأل هذا الرجل شيئاً، قال بابا، متحدثاً إلى كريم، لكنه كان ينظر مباشرة إل الضابط الروسي. اسأله أين خجله؟

تحدثنا. يقول أننا في حالة حرب، ليس هناك ما هو مخجل في الحرب.

قل له أنه مخطئ، الحرب لا تنفي الأمانة، إنما تطلبها. أكثر من وقت السلم.

أيجب عليك أن تكونِ بطلاً دائماً؟ فكرت، وقلبي ينبض بعنف. ألا تستطيع أن تتنحى جانباً لمرة؟ لكني أعرف أنه لا يستطيع. لم يكن هذا من طبيعته. المشكلة كانت، طبيعته كانت ستقتلنا جميعاً.

قال الجندي الروسي شيئاً لكريم، وابتسامة تعلو شفتيه.

آغا صاحب، قال كريم، هؤلاء الروس ليسوا مثلنا، إنهم لا يفهمون شيئاً عن الاحترام، الشرف.

ماذا قال؟

قال أنه سيستمتع بوضع رصاصة في مؤخرتك تقريباً كما... توقف كريم وهز برأسه نحو المرأة الشابة التي رأت نظرة الحارس. رمى الجندي سيجارته غير المنتهية وأخرج سلاحه من قرابه.

إذاً هنا سيموت بابا، فكرت، هكذا سيحدث الأمر، تلوت صلاة تعلمتها في المدرسة.

قل له أني سأتلقى ألف رصاصة قبل أن أترك قلة اللياقة هذه تحدث. قال بابا. ذهب عقلي إلى ذاك اليوم الشتائي منذ ست سنين مضت، أنا، أحدق إلى زاوية ذاك الزقاق. كمال ووالي مثبتين حسان أرضاً. عضلات مؤخرة آصف تتصلب ثم ترتخي. محركاً وركه بعنف للأمام والخلف.

أي بطلٍ كنت يومها، قلق على الطائرة الورقية. أحياناً، كنت أتساءل أيضاً إن كنت ابن بابا.

الروسي ذو وجه البولدوغ رفع سلاحه.

بابا، اجلس، أرجوك. قلت وأنا أشد كم قميصه، أظن أنه يعني فعلاً ما يقول.

صفع بابا يدي، ألم أعلمك أي شيء؟ صرخ بي.

ثم التفت إلى الجندي الضاحك، قل له أن يصيب مني مقتلاً في تلك الطلقة الأولى، لأني إن لم أسقط. سأمزقه إرباً. لعن الله أباه!

ضحكة الجندي الروسي لم تهتز عندما سمع الترجمة. أزاح صمام الأمان من السلاح، صوب الاسطوانة إلى صدر بابا. وقلبي ينبض في حنجرتي، دفنت وجهي بين يدي. زأر السلاح.

انتهى الأمر. أنا في الثامنة عشر ووحيد، ليس لي شخص آخر في الحياة. بابا مات وعلي الآن أن أدفنه، أين أدفنه؟ أين أذهب بعدها؟

لكن هذه العاصفة من الأفكار نصف المكتملة في عقلي انتهت عندما فتحت عيني ووجدت بابا مازال واقفاً. رأيت جندياً روسياً آخر ومن ماسورة سلاحه الموجه للسماء كان الدخان يخرج. الجندي الذي كان سيطلق النار علي بابا كان قد أعاد سلاحه إلى قرابه. كان يحرك رجليه. لم أشعر يوماً برغبة في البكاء والضحك معاً أكثر من الآن. الجندي الروسي الآخر. ذو شعر رمادي ورتبة عالية، تحدث إلينا بفارسية مكسرة. اعتذر عن تصرف رفيقه، روسيا ترسلهم الى هنا ليقاتلوا، قال، لكنهم أولاد فقط، وعندما يأتون إلى هنا، يجدون متعة في تعاطي المخدرات. وأعطى الضابط الأصغر نظرة حسرة كأنها صادرة عن أب خجل من تصرف ابنه غير اللائق.

هذا الآن منتشي من المخدرات، أحاول منعه.. لوح سامحاً لنا بالذهاب، لحظات بعدها، وكنا نكمل طريقنا. سمعت ضحكة ثم صوت الجندي الأول، متلعثم وبلحن مخرب يغني أغنية الزفاف القديمة، بقينا صامتين حوالي الربع ساعة قبل أن يقف زوج المرأة الشابة فجأة ويقوم بشيء رأيت الكثير من قبله يقومون به: قبل يد بابا.

حظ توور السيء، ألم أسمع شيئاً عن هذا في ماهيبار؟

وصلنا إلى جلال أباد قبل حوالي ساعة من شروق الشمس، أرشدنا كريم إلى بيت مكون من طابق واحد عند تقاطع طريقين ترابيين. محددين ببيوت أخرى ذات طابق واحد، أشجار الأكاسيا ومتاجر مغلقة. رفعت قبة معطفي من البرد بينما أسرعنا داخل البيت، جارين حوائجنا، لسبب ما أذكر أنني شممت رائحة فجل لحظة أصبحنا داخل المكان المعتم، كانت غرفة معيشة عارية.

أقفل كريم الباب الأمامي، وأغلق الستائر. ثم أخذ نفساً عميقاً وأخبرنا الأخبار السيئة.

أخوه توور لا يستطيع أخذنا إلى بيشاوار. يبدو أن محرك شاحنته انفجر الأسبوع الماضي ولا يزال توور ينتظر قطع الغيار.

الأسبوع الماضي؟ صرخ أحدهم. إن كنت تعلم هذا، لم أحضرتنا إلى هنا؟

رأيت حركة من زاوية عيني، ثم شيئاً يسرع قاطعاً الغرفة، الشيء اللاحق الذي رأيته كان كريم وهو يرمى بعنف إلى الجدار، رجلاه معلقتان على ارتفاع قدمين من الأرض، وحول عنقه يد بابا.

سأخبرك لماذا، قال بابا، لأنه أخذ أجرته على دوره في الرحلة. هذا كل ما يهمه. كان كريم يصدر أصوات اختناق.والزبد يخرج من زاوية فمه.

ضعه أرضاً، آغا، ستقتله. قال أحد الركاب.

هذا ما أنوي القيام به. قال بابا. الذي لا يعرفه أحد من الموجودين أن بابا لم يكن يمزح. لون كريم كان يتحول إلى الأحمر وهو يركل برجليه. ظل بابا يخنقه إلى أن رجته الأم الشابة التي طلبها الجندي الروسي. رجته أن يتركه.

تهالك كريم على الأرض وترنح يقاتل ليتنفس عندما تركه بابا أخيراً. غرقت الغرفة في سكون، منذ أقل من ساعتين تطوع بابا ليتلقى رصاصة وهو يدافع عن شرف امرأة لا يعرفها. الآن تقريباً كان سيخنق رجلاً حتى الموت. وكان ليقوم بهذا بسعادة لولا رجاء نفس المرأة.

صوت أتى من الباب المقابل، لا، ليس الباب المقابل، من تحت.

ما هذا؟ سأل أحدهم.

فارّون آخرون، همهم كريم من بين أنفاسه المجهدة، في القبو.

منذ متى هم هنا؟ قال بابا وهو يقف فوق كريم.

منذ أسبوعين؟

اعتقدت أنك قلت أن الشاحنة تعطلت الأسبوع الماضي.

فرك كريم حنجرته.

من الممكن أن هذا كان الأسبوع الذي سبقه. قال.

متى؟

ماذا؟

متى ستأتي القِطع؟ زأر بابا، انتفض كريم، لكنه لم يقل شيئاً.

كنت سعيداً لوجود الظلمة، لم أرغب برؤية النظرة المتوحشة على وجه بابا.

رائحة نتنة لشيء رطب، كعفن الخبز، نخزت فمي اللحظة التي فتح فيها كريم الباب الذي يقود إلى درجات متكسرة تقود إلى القبو، مشينا في صف واحد، أنّت الدرجات تحت ثقل بابا، واقفاً في القبو البارد، شعرت بأني مراقب من عيون ترمش في الظلام.

رأيت أشكالاً تزدحم حول الغرفة. خيالاتهم مرمية على الجدران من الضوء الضعيف لمصباحي كيروسين. همهمة خفيضة أصبحت مسموعة في القبو، تحت صوت قطرات الماء التي تنزل من مكان ما، وصوت آخر، وشيء آخر، صوت صرير. تنهد بابا خلفي ورمى الحقائب.

قال لنا كريم أن الشاحنة لن تحتاج أكثر من يومين قصيرين لتعمل، بعدها سنكون في طريقنا إلى بيشاور، إلى حريتنا، إلى الأمان.

ظل القبو موطننا أسبوعاً كاملاً، وبعد الليلة الثالثة، اكتشفت مصدر أصوات الصرير، الجرذان.

حالما اعتادت عيناي على الظلام، عددت حوالي الثلاثين مهاجراً. جلسنا كتفاً إلى كتف على طول الجدران، أكلنا الكراكرز، الخبز مع التمر، التفاح.

في الليلة الأولى، صلى جميع الرجال معاً. أحدهم سأل بابا لم لا ينضم إليهم، الله سينقذنا جميعا، لم لا تصلي له؟

تنشق بابا قبضة من نشوقه، مد رجليه، ما سينقذنا الآن هو محرك ذو ثمانية سلندرات وكاربوريتور جيد. أسكت هذا الباقين إلى الأبد حول مسألة الله.

لاحقاً تلك الليلة، اكتشفت أن اثنين من المختبئين معنا كانا كمال وأبيه. هزني هذا كفاية، رؤية كمال يجلس في القبو على بعد خطوات مني، لكن عندما أتى وأباه وجلسا بقربنا، ورأيت وجه كمال، رأيته فعلاً... كان ذابلاً ـ ببساطة ليس هناك كلمة أخرى لوصفه.

نظرته كانت فارغة، ليس هناك شيء في عينيه يدل على تعرفه على أي شيء، كتفاه مقوستان، وخداه غائران لدرجة أنهما تعلقا بالعظام تحتهما.

أباه، الذي كان يملك سينما في كابول كان يخبر بابا كيف أن رصاصة طائشة، قبل ثلاثة أشهر، أصابت زوجته في صدرها وقتلتها. ثم أخبر بابا عن كمال. لم أسمع إلا القليل: كان يجب ألا أتركه يذهب وحيداً.. دائماً وسيم، أنت تعرف.. أربعة منهم.. حاول أن يقاوم.. يا إلهي.. وجدته.. دامياً هناك.. سرواله.. لم يتحدث بعدها... فقط نظرات ضياع.

لم يكن هناك شاحنة، أخبرنا كريم بعد أن أمضينا أسبوعاً في ذلك القبو المليء بالجرذان. الشاحنة لم تكن قابلة للإصلاح، هناك خيار آخر، قال كريم، وصوته يعلو بين الأنات والآهات. ابن عمه يملك شاحنة وقود وقد هرب فيها الناس مرتين. هو الآن في جلال أباد وعلى الأغلب أنها تتسع لنا جميعاً. وافق الجميع إلا زوجين عجوزين.

غادرنا تلك الليلة، بابا وأنا، كمال وأبوه، الآخرون: كريم وابن عمه، رجل بوجه مسطح أصلع اسمه عزيز، ساعدانا في الدخول إلى خزان، واحداً تلو الآخر.

صعدنا إلى مؤخرة الشاحنة وتسلقنا السلم، ثم انزلقنا داخل خزان الوقود. أذكر بابا، تسلق نصف السلم ثم قفز إلى الأرض، أمسك بعلبة نشوقه، أفرغها، وأمسك بحفنة من التراب من منتصف الشارع،

قبل التراب، ووضعه في العلبة، ووضعها في جيب قميصه، ملتصقة بقلبه.

أي ذعر هذا، تفتح فمك. تفتحه حتى يؤلمك، تأمر رئتيك أن تستنشقا الهواء الآن. تحتاج الهواء، تحتاجه الآن. لكن مجاري الهواء تتجاهل الأمر، تنهار، تضيق وتشد على صدرك. ثم تجد نفسك تتنفس من قشة، يغلق فمك، تضغط على شفتيك وكل ما تستطيع القيام به هو صوت نقيق مزعج. تهتز يداك وترتجف، من مكان ما، سد ينكسر ويفيض بعرق بارد، يسبح جسمك فيه، تريد أن تصرخ، ولكن عليك أن تتنفس لتصرخ.

القبو كان مظلماً. خزان الوقود كان حالك السواد، نظرت يميناً، شمالاً، إلى الأعلى والأسفل، لوحت بيدي أمام عيني، ولم أر ما يدل على الحركة، رمشت، رمشت ثانية. لا شيء على الإطلاق. هناك شيء في الهواء. كان سميكاً جداً. كأنه صلب. الهواء ليس صلباً. أردت أن أمد يدي وأحطم الهواء إلى قطع صغيرة، وأدفعه داخل أنفي.

ورائحة الغازولين. شعرت بعيني تحترقان من غازاته، كأن أحداً رفع رموشي وفركهم بالليمون. احترق أنفي مع كل نفس أخذته. يمكن أن تموت في مكان كهذا، فكرت، صرخة كانت قادمة، قادمة، قادمة...

ثم، معجزة صغيرة حصلت، شد بابا طرف كنزتي وشيء أضاء في الظلام، ضوء! ساعة يد بابا، كنت خائفاً جداً أن أخسر الضوء لدرجة أني لم أجرؤ أن أرمش.

أصبحت أعرف ما يحيط بي، سمعت تنهيدات وصلوات غير مفهومة، سمعت طفلاً يبكي، أمه هدأته كي يصمت. عطس أحدهم، وآخر لعن **الشوراوي**.

تمايلت الشاحنة من جانب لآخر، أعلى وأسفل. الرؤوس ضربت بالحديد.

فكر بشيء جميل، همس بابا في أذني، شيء سعيد.

شيء جميل، شيء سعيد. تركت عقلي يتجول، تركته يأتي.

بعد ظهيرة الجمعة في باغمان، حقل كبير مفروش بالعشب مرقط بشجيرات التوت المزهرة. أنا وحسان واقفين بين الأعشاب، أنا أشد الحبل و الاسطوانة تدور بين يدي حسان المجروحتين. عيوننا مرفوعة إلى الطائرة في السماء. لم نتفوه بكلمة واحدة. لا لأنه ليس هناك ما نقوله. بل لأننا غير مضطرين لذلك ـ هكذا تكون الحال بين الأشخاص الذين رضعوا من نفس الصدر. نسيم الريح يحرك العشب. حسان يترك الاسطوانة تدور بحرية. ترتفع الطائرة، تهبط، ثم تصبح ثابتة. ظلالنا ترقص على العشب. من مكان ما بعد الجدار القليل الارتفاع، في النهاية الأخرى للحقل. نسمع ضحكاً وأحاديثاً وسقسقة الماء في الينبوع، وموسيقى. شيء قديم ومألوف، أعتقد أنها يا مولى على أوتار الربابة. أحدهم ينادي أسماءنا، يقول أنه وقت الشاي، والكاتو.

لم أذكر أي شيء كان، أو أي سنة أيضاً. عرفت فقط أن هذه الذكرى عاشت داخلي.

تذكار لا يموت عن ماض جيد، ضربة فرشاة ملونة فوق الرمادي، على اللوحة القاحلة التي أصبحت حياتنا.

بقية تلك الرحلة ذكريات غير مكتملة تذهب وتأتي. أغلبها أصوات وروائح، طائرات ميغ تزأر فوق رؤوسنا، رشقات رصاص. حمار ينهق بالقرب، أصوات الأجراس في أعناق الغنم الثاغي. حجارة تتكسر تحت عجلات الشاحنة، طفل ينوح في الظلام. رائحة الغازولين، القيء والخراء.

ما أذكره بعدها هو الضوء المعمي للأبصار في الصباح الباكر بينما خرجت من الشاحنة، أذكر أني رفعت رأسي نحو السماء. أنظر وعيوني شبه مغمضة، أتنفس كأن العالم بدأ يخلو من الهواء، استلقيت إلى جانب الطريق الترابي قرب خندق صخري، نظرت إلى سماء الصباح الرمادية، شاكراً لوجود الضوء، شاكراً لكوني حي.

نحن في باكستان، أمير. قال بابا، كان يقف فوقي. يقول كريم أنه سيتصل بباص ليأخذنا إلى بيشاور.

تقلبت على صدري، لا أزال مستلقياً على التراب البارد، رأيت حقائبنا على جانبي أرجل بابا ـ من بين الرقم (٨) بين ساقي بابا. رأيت الشاحنة تتوقف على جانب الطريق. والمهاجرين الآخرين يخرجون من الشاحنة، وراءهم، رأيت الطريق يتكسر من خلال حقول تبدو كشراشف مرتبة تحت السماء الرمادية وتختفي خلف التلال، على طول الطريق، قرى قريبة صغيرة تبدو كأنها معلقة على قمة منحدرٍ حرقته الشمس.

عادت عيناي إلى حقائبنا. جعلتاني حزيناً على بابا. بعد كل ما بنى، خطط، قاتل لأجله، قلق عليه، حلم به. هذه كانت خلاصة حياته، ابن مخيب للآمال وحقيبتان.

أحدهم كان يصرخ، لا، ليس يصرخ، يعول.

رأيت الجميع يحتشدون في دائرة، سمعت أصواتهم القلقة، العويل تحول إلى صوت حنجرة تتمزق. سارعت أنا وبابا إلى جماعة المتفرجين، ودفعناهم لكي نشق طريقاً لنا، كان أبو كمال يجلس مصالباً رجليه في منتصف الدائرة وهو يهز أماماً وخلفاً، يقبل وجه ابنه الشاحب.

إنه لا يتنفس! طفلي لا يتنفس! كان يصرخ.

جسم كمال الميت كان على حضن أبيه، يده اليمنى متدلية ومرتخية، ترقص على إيقاع اهتزاز جسد الأب.

ابني! إنه لا يتنفس! ربي. ساعده ليتنفس!

ركع بابا على ركبتيه ووضع ذراعه على كتفه، لكن أبو كمال أبعده ونظر شذراً إلى كريم الذي كان يقف مع ابن عمه. ما حدث بعدها كان سريعاً وقصيرا جدا من أن يسمى شجارا. صرخ كريم صرخة مفاجئة ووقع على ظهره. رأيت ذراعاً تضرب، قدماً تركل. وبلحظةكان أبو كمال واقفا وبيده سلاح كريم.

لا تقتلني! صرخ كريم.

لكن قبل أن نستطيع القيام بأي شيء، حشر أبو كمال السلاح في فمه. لن أنسى صوت الانفجار، أو الضوء واللون الأحمر، ترنح ووقع على جانب الطريق.

ـ 11 ـ

فريمونت، كاليفورنيا
الثمانينيات

أحب بابا فكرة أميركا، كان العيش في أميركا ما أعطاه التفاؤل.

أذكر نزهاتنا خلال حديقة بحيرة إليزابيث في فريمونت، على بعد بضعة شوارع من شقتنا، نراقب الأولاد في تدريب البيسبول، فتيات صغيرات يضحكن على أراجيح الملاعب، كان بابا ينيرني بآرائه السياسية خلال تلك النزهات، بمحاضراته التي لا تنتهي.

كان يمقت جيمي كارتر الذي لقبه بـ (بيغ توث كريتين) الديموقراطي ذو السن الكبيرة.

في ١٩٨٠، عندما كنا لا نزال في كابول، أعلنت الولايات المتحدة أنها ستقاطع الأولومبياد في موسكو، (وا وا!) صرخ بابا بقرف، بريجنيف يكحل عيون الأفغان وكل أكلة البندق هؤلاء يستطيعون القول أنني لن آتي سابحاً في حوضك.

بابا كان مقتنعاً بأن جيمي كارتر ساعد الشيوعية بغير قصد أكثر مما فعل ليونيد بريجنيف.

إنه ليس قادراً على قيادة بلده، إنه كطفل لا يستطيع القيادة ووضعوه خلف مقود كاديلاك جديدة، ما تحتاجه أميركا ويحتاجه العالم هو رجل قاس، رجل يحسب له حساب، رجل يتصرف عوضاً عن أن يضرب على يديه كالنساء، هذا الرجل أتى في شخصية رونالد ريغان. وعندما ظهر رونالد ريغان على التلفاز ولقب الشوراوي بإمبراطورية الشر، خرج بابا واشترى صورة للرئيس الضاحك وهو يرفع إبهامه. أطر الصورة وعلقها في البهو بقرب صورته القديمة تلك،

بالأبيض والأسود بربطة عنقه الصغيرة يصافح الملك زاهير شاه. أغلب جيراننا في فريمونت كانوا سائقي باصات، رجال شرطة، عمال في محطات بنزين، أمهات غير متزوجات ينعمن بالرفاه. بالضبط النوع من عمال الأشغال الشاقة، الذين سيتعذبون قريباً من الوسادة التي ضغطتها الريغانية على وجوههم.

بابا كان الجمهوري الوحيد في البناء.

لكن دخان منطقة الخليج أثّر على بصره، ضجيج السير أصابه بآلام في الرأسٍ، والتلوث جعله يسعل، الفاكهة لم تكن جيدة كفاية، الماء ليس نقياً، أين تلك الأشجار والبساتين الواسعة؟

لسنتين، حاولت أن أجعل بابا يسجل في دورات التقوية باللغة الإنكليزية.

لكنه بصق على الفكرة، ربما سألفظ "cat" والأستاذ سيعطيني نجمة صغيرة كي أركض إلى البيت وأتباهى بها أمامك. كان يسخر.

في يومٍ أحد من ربيع ١٩٨٣ ، دخلت إلى متجر كتب صغير يبيع أكياساً ورقية مستعملة، بقرب سينما الأفلام الهندية غرب تقاطع شارع أمتراك مع جادة فريمونت.

قلت لبابا أني لن أستغرق أكثر من خمس دقائق فهز كتفيه. كان يعمل في محطة البنزين واليوم عطلته. رأيته يتمشى خلال جادة فريمونت ويدخل إلى (سريع وسهل) متجر بقالية صغير يديره زوج فيتنامي، السيدة نغيين،التي كانت مصابة بالباركنسون وزوجها الذي أجرى عملية لتبديل وركه.

الآن هوعبارة عن ستة ملايين دولار متنقلة، كانت تقول لي دائماً ضاحكة بفمها الخالي من الأسنان، تذكر ستة ملايين دولار، أمير.

ثم يكشر السيد نغيين، ، ويتظاهر بأنه يركض بحركة بطيئة.

كنت أقلب صفحات نسخة مستعملة من ألغاز مايك هامر.

عندما سمعت صراخاً وصوت زجاج يتكسر. رميت الكتاب وأسرعت قاطعاً الطريق، فوجدت آل نغيين خلف المنضدة، ملتصقان

بالحائط، وجهاهما شاحبان، ومستر نغيين يضع ذراعه حول زوجته، وعلى الأرض، برتقال، مجلة ممزقة، علبة لحمة مكسورة، وقطع زجاج عند قدمي بابا، تبين أن بابا كان لا يحمل مالاً معه ثمناً للبرتقال، فكتب لمستر نغيين شيكاً، فسأله مستر نغيين أن يظهر هويته.

يريد أن يرى رخصتي، قال بابا بالفارسية، منذ سنتين ونحن نشتري فاكهته الملعونة، ونضع المال في جيوبه، وابن الكلب يريد رؤية رخصتي!

بابا، الأمر ليس شخصياً، قلت وأنا أبتسم لآل نغيين، من المفروض أن يسألوك أن تريهم هويتك.

لا أريدك هنا، قال مستر نغيين وهو يضم زوجته، ويشير إلى بابا بيده.

ثم نظر إلي، أنت شاب لطيف، لكن أبوك، إنه مجنون، ليس مرحب به بعد الآن.

هل يظنني لصاً؟ قال بابا وصوته يرتفع.

كان الناس قد تجمعوا في الخارج، يراقبون ما يحصل، أي نوع من البلاد هذه؟ لا أحد يثق بأحد!

سأطلب الشرطة، قالت السيدة نغيين وهي تكشر وجهها، أخرج أو أطلب الشرطة.

أرجوك، سيدة نغيين، لا تطلبي الشرطة، سآخذه إلى البيت، فقط لا تطلبي الشرطة، أوكي؟ أرجوك؟

خذه إلى البيت، فكرة جيدة، قال مستر نغيين وعيناه لم تبارحا بابا من خلف نظارته السميكة.

قدت بابا إلى الأبواب، ركل مجلة في طريقه، وبعد أن جعلته يقسم ألا يعود إلى هناك، عدت إلى المتجر واعتذرت من آل نغيين، قلت أن أبي يمر بوقت عصيب، أعطيت السيدة نغيين رقم هاتفنا وعنواننا، وقلت لها أن تقدر الأضرار، أرجوك اتصلي بنا فور معرفتك، سأدفع ثمن كل شيء سيدة نغيين، أنا آسف جداً، اخذت السيدة نغيين الورقة

مني وهزت رأسها. كانت يداها ترتجفان أكثر من العادة، جعلني هذا غاضباً من بابا، لتسببه في جعل امرأة عجوز ترتجف هكذا.

لا يزال أبي يتأقلم مع الحياة في أميركا، قلت كمحاولة للتبرير، أردت أن أخبرهم أننا في كابول، كنا نكسر جذع شجرة ونستعمله كبطاقة ائتمان. كنت وحسان نأخذ العود الخشبي إلى صانع الخبز، كان يحفر بسكينه خطاً على عودنا، خط لكل رغيف خبز يعطينا إياه من بين لهب التنور، في نهاية الشهر كان بابا يدفع له على عدد الخطوط التي على العود، هكذا كنا نتعامل، بلا أسئلة ولا هويات.لكنني لم أفعل.

شكرت مستر نغيين لعدم اتصاله بالشرطة، أخذت بابا إلى البيت، عبس ودخن على الشرفة بينما طبخت الأرز مع يخنة رقبة الدجاج.

سنة ونصف مرت منذ حطت أقدامنا الأرض الأميركية، وبابا لا يزال يحاول التأقلم.

أكلنا بصمت تلك الليلة، بعد لقمتين، دفع بابا صحنه بعيداً، نظرت إليه، أظافره طويلة وسوداء من زيت المحرك، براجمه مجروحة، رائحة محطة البنزين ـ الغبار، العرق والغازولين على ثيابه. كان بابا كأرمل تزوج ثانية، ولكنه لم يستطع أن ينسى زوجته الميتة، يشتاق إلى حقول قصب السكر في جلال أباد، والحدائق في باغمان. يحن إلى الناس يدخلون ويخرجون من بيته، المشي في بازار الشور وتحية الناس الذين يعرفونه ويعرفون والده وجده، أشخاص لهم نفس السلف، أشخاص يتقاطع ماضيهم مع ماضيه.

بالنسبة لي، أميركا كانت مكاناً لأدفن ذكرياتي، بالنسبة لبابا، مكاناً ليحزن على ذكرياته.

ربما من الأفضل أن نعود إلى بيشاور، قلت وأنا أراقب الجليد يطفو في كأسي.

أمضينا ستة اشهر في بيشاور ننتظر مكتب الهجرة كي يعطينا تأشيرات، شقتنا المظلمة ذات غرفة النوم الواحدة كانت تفوح برائحة الجوارب المتسخة ومخلفات القطط، لكننا كنا محاطين بأشخاص نعرفهم

ـ على الأقل بابا يعرفهم. كان يدعو كلٍ الجيران في البهو على العشاء، أغلبهم أفغان ينتظرون تأشيراتهم. أحياناً كان يجلب أحدهم طبلة وآخر هارمونيوم. يُصب الشاي وأي شخص كان لديه صوت مقبول كان يغني حتى طلوع الشمس فتتوقف الموسيقى ويعم المكان بالتصفيق.

كنت أكثر سعادة هناك، بابا. كانت أقرب إلى الوطن. قلت

بيشاوار جيدةٍ لي، لكن ليست لك. الوضع ليس سيئاً جداً بالنسبة لي. قال، قاصداً منذ أصبح المدير النهاري لمحطة البنزين، لكني رأيت الطريقة التي يتأوه ويفرك فيها معصميه في أيام العطل، كيف يقطر عرقاً وهو يمد يده إلى زجاجة الحرقة بعد كل وجبة.

على كل لم نأت هنا من أجلي.

وضعت يدي على يده، يد الطالب، ناعمة ونظيفة، على يده المضناة، خشنة ومليئة بالجروح. فكرت في كل الشاحنات، سكك القطارات والدراجات التي اشتراها لي في كابول، والآن... أميركا، هدية أخيرة لأمير.

بعد حوالي الشهر من وصولنا إلى أميركا. وجد بابا عملاً في جادة واشنطن كمساعد في محطة بنزين يملكها مهاجر أفغاني ـ كان قد بدأ يبحث عن عمل في اليوم الذي وصل فيه ـ ستة أيام في الأسبوع. كان يداوم اثنا عشر ساعة، يضخ البنزين، يسجل السيارات، يغير الزيت ويغسل النوافذ. كنت أجلب له الغداء وأجده يبحث عن علبة سجائره بينما زبون ينتظر على الجانب الآخر من طاولة الزيت المتسخة، وجهه شاحب ومجهد تحت الضوء المبهر، الجرس الإلكتروني فوق الباب كان يرن كلما دخلت، فينظر إلي بابا، يبتسم ووجهه ينضح بالتعب.

في نفس اليوم الذي بدأ فيه العمل، ذهبت وبابا إلى مكتب ضابط الأهلية في سان خوسيه. السيدة دوبينز كانت امرأة سوداء سمينة، عيناها ترمشان كل الوقت، وابتسامة بالية من كثرة الاستخدام. أخبرتني مرة أنها تغني في الكنيسة. وأعتقد أنها صادقة إذ أن لها صوت يجعلني أفكر بالحليب الدافئ والعسل، رمى بابا بطاقات الطعام على

مكتبها، شكراً ولكني لا أريدها، قال بابا، أنا أعمل دائماً، في أفغانستان أعمل، وفي أميركا أعمل. شكراً جزيلاً لك سيدة دوبينز، لكني لا أقبل المال المجاني.

رمشت السيدة دوبينز وأخذت بطاقات الطعام، نظرت الي ،إلى بابا كأننا نمازحها أو أننا نتلاعب بعقلها كما اعتاد حسان أن يقول.

أقوم بهذا العمل منذ خمسة عشر سنة، ولم يفعل أحد هذا من قبل. قالت.

وهكذا، أنهى بابا تلك اللحظات المذلة عند صندوق المال، وتخلص من أكبر مخاوفه، أن يراه أفغاني يشتري الطعام بأموال الإحسان. ثم خرج من المكتب كرجل شفي من مرض خبيث.

في ذاك الصيف، سنة ١٩٨٣ ، تخرجت من الثانوية وعمري عشرين سنة، كنت أكبر خريج يرمي قبعته في ملعب الفوتبول. أذكر أنني أضعت بابا بين زحمة العائلة، وفلاشات الكاميرات، والأردية الزرقاء، وجدته قرب خط العشرين ياردة، يديه في جيوبه، كاميرا معلقة في رقبته، يختفي ويظهر خلف الناس الموجودين بيننا، فتيات بالأزرق يصرخن ويتعانقن ويبكين. أولاد يضربون كفهم بكفوف آبائهم، لحية بابا بدأت تشيب، وشعر رأسه بدأ يتساقط، و...ألم يكن أطول في كابول؟ كان يرتدي بذته البنية - بذته الوحيدة، البذة ذاتها التي يرتديها في الأعراس الأفغانية والجنازات - وربطة العنق الحمراء التي اشتريتها له في عيد ميلاده الخمسين. رآني، ولوح بيده، ابتسم وأشار لي أن أضع قبعة التخرج، وأخذ صورة لي مع برج ساعة المدرسة الخلفي ابتسمت له - بطريقة ما - كان يومه أفضل من يومي، مشى باتجاهي، ووضع ذراعه حول رقبتي، قبل جبهتي، أنا فخور أمير، قال، عيناه كانتا تلمعان وهو يقول لي ذلك، سعدت من كوني في مكان المتلقي لهذه النظرة.

أخذني إلى مطعم كباب أفغاني في هايوورد تلك الليلة، وطلب الكثير، الكثير من الطعام. وأخبر المالك أن ابنه ذاهب إلى الجامعة في

الخريف، جادلته قليلاً بهذا الشأن قبل أن أتخرج. وأخبرته بأني أريد أن أحصل على عمل أساعده به، وأجمع بعض المال، وربما أذهب إلى الجامعة السنة المقبلة. لكنه رماني بإحدى نظرات بابا الجليدية وتبخرت الكلمات على لساني.

بعد العشاء، أخذني بابا إلى بار مقابل للمطعم. كان المكان مظلماً، والرائحة اللاذعة للبيرة - التي طالما كرهتها - كانت تفوح من كل مكان، رجال يلبسون قبعات بيسبول يلعبون البلياردو، سحابات من دخان السجائر تحوم حول الطاولات الخضراء، تظهر تحت الضوء الخافت، نظرنا حول المكان، بابا في بذته البنية وأنا في ثيابي غير المرتبة ومعطفي الرياضي، جلسنا عند البار، قرب رجل عجوز، وجهه المجعد يبدو بلا لون. أشعل بابا سيجارةٍ وطلب لنا البيرة.

الليلة أنا سعيد جداً، أعلن كأنه يتحدث مع نفسه وكأنه يخبر الجميع بنفس الوقت، الليلة أشرب مع ابني وكأس أخرى لصديقي هنا أرجوك. قال وهو يربت على ظهر العجوز.

رفع الأخ العجوز قبعته وابتسم، لم يكن لديه أسنان علوية. أنهى بابا كأسه في ثلاث رشفات وطلب أخرى، شرب ثلاثة كؤوس قبل أن أجبر نفسي على شرب ربع كأسي، بحلول هذا، كان بابا قد طلب سكوتش للعجوز وكؤوس أخرى لحوالي أربعة من لاعبي البلياردو، صافحه الرجال وربتوا على ظهره، شربوا بصحته، أحدهم أشعل سيجارته، أرخى بابا ربطة عنقه وأعطى العجوز مقدار قبضة من الأرباع وأشار إلى مشغل الأغاني، قل له أن يضع أغانيه المفضلة. قال لي، هز العجوز رأسه وحيًّا بابا.

وفوراً، ملأت موسيقى الكونتري المكان، وهكذا، أقام بابا حفلة.

وقف فجأة، رفع كأسه، وأوقع نصفه على الأرضية، ثم صرخ: تباً لروسيا! ضحك جميع من في البار، فاشترى بابا كأساً" أخرى للجميع. عندما ذهبنا، كان الكل آسفون لرؤيته يغادر.

كابول، بيشاوار، هايوورد، بابا القديم نفسه. فكرت وأنا أبتسم.

قدت بنا عائدين للبيت في سيارة بابا البويك سينشوري الصفراء القديمة، غلب النعاس بابا ونحن في الطريق، وبدأ بالشخير، كجاك ماهر، شممت رائحة التبغ والكحول عليه، رائحة زكية وأخرى لاذعة، لكنه استيقظ عندما أوقفت السيارة وقال بصوت أجش، لا تتوقف حتى نهاية الحي.

لماذا، بابا؟

فقط اذهب، جعلني أتوقف في النهاية الجنوبية للطريق. مد يده إلى معطفه وأعطاني مفتاحا.

هاك، قال وهو يشير إلى السيارة التي أمامنا. كانت فورداً قديمة، طويلة وعريضة، لونها غامق، لم أستطع تمييزها تحت ضوء القمر.

تحتاج لطلاء، وسأجعل أحد الشباب في المحطة يضع لها صدامات جديدة، لكنها تمشي.

أخذت المفاتيح مصعوقاً، نظرت إلى السيارة.

ستحتاجها لتذهب إلى الجامعة، قال.

أخذت يده، ضغطت عليها، انهمرت عيناي بالدموع، كنت سعيداً للظلال التي غطت وجهينا.

شكراً بابا.

خرجنا من البويك وركبنا الفورد، كانت غراند تورينو لونها أزرق بلون البحر، قال بابا.

قدتها حول الحي أجرب الكوابح، الراديو، إشارة الالتفاف، وأوقفتها في موقف بنايتنا وأطفأت المحرك.

تشكورات، بابا جان، قلت متمنياً أن أشكره أكثر، أخبره كم تأثرت بهذا العمل اللطيف، كم أقدر كل ما قام به لأجلي، وكل ما يزال يقوم به، لكنني علمت أني سأحرجه، تشكورات قلت بدلا عن ذلك.

ابتسم وانحنى للخلف، ملقياً رأسه على المسند، جبهته تلمس السقف تقريباً، لم نقل شيئاً. فقط جلسنا في الظلام، نستمع إلى طقات

المحرك وهو يبرد، عويل صفارة إنذار في البعيد، ثم قرب بابا رأسه مني.

أتمنى لو كان حسان معنا اليوم، قال

زوج من الأيادي الحديدية أطبقت على رقبتي عند سماع اسم حسان، أنزلت زجاج النافذة، منتظراً لكي تتركني تلك القبضة.

سأسجل في الجامعة في الخريف، أخبرت بابا في اليوم الذي تلا تخرجي، كان يشرب الشاي المثلج ويمضغ بذور الكاروامom، علاجه الموثوق لوجع الرأس المستمر.

أعتقد أنني سأتخصص في اللغة الإنكليزية، قلت وأنا أتنهد في داخلي، منتظرا جوابه.

الإنكليزية؟

الكتابة الإبداعية.

فكر في ما قلت، أخذ رشفة من كأسه.

قصص تعني، ستكتب قصصاً.

نظرت إلى قدمي.

يدفعون لك لأجل هذا، كتابة القصص؟

إن كتبت جيداً، قلت، وإن اكتشفني أحد.

ما هي إمكانية حدوث هذا، أن تكتشف؟

إنه يحدث. قلت

هز رأسه، وماذا ستفعل إلى تصبح جيداً وتجد من يكتشفك؟ كيف ستكسب المال؟ إذا تزوجت، كيف ستعيل خانمك؟

لم أستطع رفع عيني والنظر في عينيه.

سأجد... عملا.

أووه، قال، وا وا! إذاً، إن فهمت قصدك، ستدرس لعدة سنوات لتحصل على شهادة، بعدها ستجد عملاً تافها كعملي، عمل تستطيع أن تجد مثله بسهولة اليوم، وتبقى على احتمال بسيط أن شهادتك ربما

تجعلك تكتشف... يوماً. أخذ نفساً عميقاً وشرب كأسه، قال شيئاً عن كلية الطب، كلية الحقوق و(العمل الحقيقي).

احترقت وجنتاي وغمرني الإحساس بالذنب. الذنب من إطلاق العنان لنفسي على حساب فرحته، على حساب أظافره السوداء، ومعصميه اللذين يؤلمانه، لكنني وقفت مكاني، قررت، لن أضحي لأجل بابا أكثر. آخر مرة قمت بهذا، لعنت نفسي طول الحياة.

تنهد بابا، وهذه المرة، رمى قبضة من بذور الكاروامومم في فمه.

أحياناً كنت أجلس خلف مقود الفورد، أنزل النوافذ، وأقود لساعاتٍ، من الخليج الشرقي إلى الخليج الجنوبي، إلى أعلى بينيسولا وعودةً، قدت في الطريق المحددة بحقول القطن في حي فريمونت حيث أناس لم يصافحوا يوماً ملوكاً، عاشوا في بيوت مدقعة بالفقر، بنوافذ مكسورة حيٍّ يتسرب من سياراته القديمة كسيارتي الزيت على الطرق السوداء، أسيجة رمادية مغلقة على حدائق خلفية في حينا، ألعاب، إطارات مهترئة وزجاجات بيرة محيت ماركاتها من القدم مرمية على مروج صغيرة غير منظمة، قدت بقرب حدائق بأشجار كبيرة تفوح منها رائحة البول، وبجانب متاجر كبيرة كفاية لتحوي خمس مسابقات بوزكاشي، قدت التورينو إلى هضاب لوس ألتوس. توقفت قرب أملاك بنوافذ ملونة وأسود فضية تحمي البوابات، بيوت بنوافير كبيرة تزين الممرات، ولا فورد تورينو، بيوت تجعل من بيت بابا في وزير أكبر خان يبدو ككوخ الخدم.

كنت أستيقظ باكراً أيام السبت وأقود جنوباً على الطريق السريع رقم ١٧، أضغط على الفورد خلال الطريق التي تمر من الجبال إلى سانتا كروز. كنت أتوقف عند المنارة القديمة وأنتظر شروق الشمس، أجلس في سيارتي وأراقب الضبابٍ يقترب من البحر. في أفغانستان، لم أر المحيط إلا عبر السينما، جالساً في الظلام قرب حسان، تساءلت دائماً إن كان صحيحاً ما قرأت، أن هواء البحر له رائحة الملح. قلت لحسان أنه يوماً ما سنمشي على شاطئ مليء بالأعشاب، نغرق أقدامنا

في الرمال، ونراقب الماء يتراجع من خلال أصابعنا، أول مرة رأيت فيها المحيط الهادي، كنت سأبكي، كان ضخماً وأزرقاً كما في شاشات السينما في طفولتي.

أحياناً في بداية الليل، كنت أوقف سيارتي وأمشي في الممر على أحد الطرق السريعة، وجهي مضغوط على السياج وأحاول أن أعد الأضواء الخلفية العابرة، ماداً نظري إلى أقصاه، بي أم دبليو، ساب، بورش، سيارات لم أرها أبداً في كابول، حيث أغلب الناس يقودون فولغات روسية، سيارات أوبل قديمة، أو بايكانات إيرانية.

مرت سنتان تقريباً منذ قدومنا إلى الولايات المتحدة، ولا زلت أتعجب من حجم هذا البلد، ضخامته، خلف كل طريق سريع هناك آخر، خلف كل مدينة مدينة أخرى، تلال خلف الجبال وجبال خلف التلال، وخلف هؤلاء، مدن أخرى وأشخاص آخرون. قبل الاحتلال الروسي بوقت طويل، قبل أن تحترق القرى وتدمر المدارس، قبل أن تزرع الألغام بذور موت ويدفن الأولاد تحت أكوام الحجارة، أصبحت كابول مدينة أشباح بالنسبة لي، مدينة أشباح مشقوقي الشفة. أميركا كانت مختلفة، أميركا كانت نهراً لا يتوقف، لا يهتم بالماضي. أستطيع أن أخوض في هذا النهر، وأترك ذنوبي تغرق في القاع، أترك الماء يأخذني بعيداً، مكان بلا أشباح، بلا ذكريات وبلا أخطاء.

إن لا لشيء إلا هذا، عشقت أميركا.

في الصيف التالي، صيف ١٩٨٤، الصيف الذي أصبحت فيه في الحادية والعشرين، باع بابا سيارته البويك واشترى باصاً مهترئاً من نوع فولكس واغن ٧١ بخمسمئة وخمسين دولار من أفغاني يعرفه منذ زمن بعيد، كان مدرس علوم بالثانوية في كابول، استفاق جميع الجيران عصر ذاك اليوم، بينما دخل الحي والمحرك يطلق أصوات انفجارات متقطعة، والعادم يخرج أصوات (ضراط) متواصلة.

أطفأ بابا المحرك وترك الباص يتهادى بصمت إلى موقفنا الخاص. غرقنا في مقاعدنا وضحكنا حتى نزلت الدموع على خدودنا، وكان مهماً أن نتأكد أن لا أحد يشاهدنا .

كان الباص خردة مهترئة من الحديد الصدئ بنوافذ مكسورة وضع مكانها أكياسٌ قاتمة سوداء، دواليب مهترئة وفرشات المقاعد ممزقة لدرجة أن النوابض ظاهرة للعيان. لكن المدرس السابق أكد لبابا أن المحرك ومعدل السرعة يعملان بشكل جيد، ولقول الحق، لم يكن يكذب في هذا.

أيام السبت، كان بابا يوقظني عند الفجر، وبينما يلبس كنت أبحث في الجرائد المحلية وأضع دوائر حول إعلانات التنزيلات المنزلية.

نضع طريقنا الذي سنسلكه، فريمونت، يونيون سيتي، نيو آرك وهايوورد أولاً، بعدها سان خوسيه، ميلبيتاس، ساني فايل. وكامبل إذا سمح الوقت.كان يقود بابا الباص وهو يرتشف الشاي الساخن من الترمس وكنت أخبره أين يذهب. كنا نتوقف عند أماكن التنزيلات ونشتري التحف الرخيصة التي لم يعد يريدها أصحابها، ونساوم على آلات الخياطة القديمة، دمى باربي بعين واحدة، مضارب تنس خشبية، جيتارات بأوتار ناقصة ومكانس كهربائية قديمة. وبحلول العصر، نكون قد ملأنا الباص بالبضائع المستعملة، وفي صباحات الأحد الباكرة، كنا نقود إلى سوق الخردوات في سان خوسيه خارج بيرشيا، نستأجر مكاناً ونبيع الخردة بأرباح صغيرة: اسطوانة شيكاغو اشتريناها بربع دولار اليوم السابق، قد تباع بدولار أو أربعة أحياناً، آلة خياطة متداعية من نوع سينجر اشتريناها بعشر دولارات قد تباع بعد المساومة بخمسة وعشرين دولار.

مع نهاية ذاك الصيف، احتلت العائلات الأفغانية قسماً كاملاً من سوق الخردوات، الموسيقى الأفغانية كانت مسموعة في الممرات، كان هناك تقليد للتعامل بين الأفغان في السوق: تحيي الشخص الآخر، تدعوه إلى أكل البطاطا (البولاني) أو البعض الكابولي، وتتحدثان،

تقدم (تاسالي) التعازي لموت أب، تهنئ بطفل جديد، ثم تهز رأسك حزناً عندما يصل الحديث إلى أفغانستان والروس - وهو حتماً سيصل - لكنك لا تتحدث عن أيام السبت، لأنه يمكن أن يظهر أن هذا الشخص هو الشخص ذاته الذي كدت أن تجعله ينحرف عن الطريق السريع كي تسبقه إلى مكان بيع واعد. الشيء الوحيد الذي كان منتشراً أكثر من الشاي في تلك الأكشاك هو الثرثرة الأفغانية. سوق الخردوات كان المكان الذي تشرب فيه الشاي والكولتشاس مع اللوز وتعرف ابنة من انفصلت عن خطيبها لتهرب مع حبيبها الأميركي. من كان بارتشاي (شيوعي) في كابول، ومن اشترى بيتاً (بالمال الذي جناه من تحت الطاولة) بينما كان ما يزال ينعم بالرفاهية. شاي، سياسة، فضائح. مكونات آحاد الأفغان في سوق الخردوات.

كنت أبيع في الكشك أحياناً بينما يتسكع بابا بين الأكشاك، يداه موضوعتان باحترام على صدره، يحيي الناس الذين عرفهم من كابول، ميكانيكيون وخياطون يبيعون معاطف صوف يدوية الصنع وخوذات ركوب صدئة، سفراء سابقون، جراحون عاطلون عن العمل، بروفيسورات جامعة. في أحد صباحات الأحد في تموز ١٩٨٤، بينما جهز بابا الكشك. اشتريت كوبي قهوة من المطعم، وعدت لأجد بابا يتكلم مع رجل أكبر، ذو مظهر مميز، وضعت الكوبين على الصادم الخلفي للباص، بجانب لاصق انتخابات الـ ٨٤، فيها بوش وريغان.

أمير، قال بابا وهو يشير إلي: هذا السيد الجنرال، السيد إقبال تاهيري، كان جنرالا مكرماً في كابول، كان يعمل لوزارة الدفاع.

تاهيري. لم كان هذا الاسم مألوفاً؟

ضحك الجنرال كرجل اعتاد الذهاب إلى حفلات رسمية، حيث يضحك مسايراً النكات الباهتة التي يطلقها الأشخاص المهمون. كان لديه شعراً ناعماً لونه رمادي فضي مسرح للخلف من جبهته الناعمة المسمرة، وخصلات بيضاء تنسدل على حاجبيه الكثين. كان يضع

عطراً ويرتدي بزة بلون الحديد مؤلفة من ثلاث قطع. تلمع من عدة أماكن، والسلسلة الذهبية الخاصة بساعة الجيب معلقة من صدريته.

تقديم مبالغ به، قال، كان صوته عميقاً ورائقاً.

سلام، باتشيم. (مرحباً يا ولدي)

سلام، جنرال صاحب. قلت وأنا أصافح يده.

يداه الرفيعتان تخفيان قبضة محكمة كأن الفولاذ موجود تحت بشرته الرطبة.

سيصبح أمير كاتباً عظيماً، قال بابا.

كان لدي اعتراضاً كبيراً على ما قال.

لقد أنهى سنته الأولى في الجامعة وحصل على امتياز في كل مواده.

ماشاء الله، قال الجنرال تاهيري، هل ستكتب عن وطننا، التاريخ ربما؟ اقتصاد؟

أنا أكتب خيال. قلت وأنا أفكر في عشرة قصصٍ تقريباً كتبتها في الدفتر الجلدي الذي أهداني رحيم خان إياه متسائلاً لم انتابني الخجل في حضور هذا الرجل.

آه، قاص حكايات. قال الجنرال، حسناً، يحتاج الناس إلى قصص كي تشغلهم في هذه الأوقات العصيبة.

وضع يده على كتفِ بابا ونظر إلي، بالحديث عن القصص، أبوكِ وأنا اصطدنا الدرَّج معاً في يوم صيفي بجلال أباد، قال، كان وقتاً رائعاً، إن كنت أذكر جيدا، أثبت أبوك أن له عيناً ثاقبة في الصيد كما في العمل.

ركل بابا مضرب تنس خشبي على المشمع بإبهام رجله، أي عمل.

ابتسم الجنرال تاهيري بحزن ولباقة، ارتفع صدره بتنهيدة وربت بلطف على كتف بابا.

قال، الحياة "تستمر". ثم نظر إلي، نحن الأفغان ميالون للمبالغة، باتشيم، وقد سمعت الكثير من الحمقى يتفوهون بالأعمال العظيمة التي سيقومون بها، لكن أبوك من القلة التي تستحق ما وصل إليه.

هذا الخطاب الصغير بدا لي كما بدت بزته: مستعملة كثيراً ولامعة بشكل غير طبيعي.

أنت تعطيني فوق حقي، قال بابا.

لا، قال الجنرال وهو يميل رأسه إلى الجانبين ويضغط يده على صدره ليظهر التعاطف.

الأولاد والفتيات عليهم أن يعرِفوا إرث أهلهم، ثم نظر إلي: هل تقدِّر أباك، باتشيم؟ هل تقدره حقاً؟

بالاي، جنرال صاحب، نعم، قلت متمنياً لو أنه لا يخاطبني بطفلي.

تهاني إذاً، أنت في منتصف الطريق لتصبح رجلاً، قال بلا أي مزاح أو سخرية. المديح الدال على الغطرسة المعتادة.

بادار جان، لقد نسيت الشاي. صوت امرأة شابة كانت تقف خلفنا، بورك نحيل جميل،و شعر مخملي أسود كالفحم، ترمس مفتوح وكأس في يدها، رمشت عيناي، تسارعت نبضات قلبي، كان لديها حاجبان كثان يتلامسان في المنتصف كالجناحين المقوسين لطائر يطوف في السماء. والأنف المقوس الناعم الذي تملكه أميرات فارس القديمة - ربما كانت تاهمينا زوجة روستام ووالدة سوهراب من ملحمة شاهناماه. عيناها بلون البندق ومظللتان برموش طويلة، التقتا بعيني، توقفتا للحظة، ثم ابتعدتا.

أنت لطيفة جداً عزيزتي، قال الجنرال تاهيري، وهو يأخذ الكأس منها.

قبل أن تذهب، لاحظت وحمة بنية على شكل هلال على بشرتها فوق خط الفك. مشت إلى فان رمادية قائمة على بعد كشكين ووضعت الترمس في الداخل. مال شعرها إلى جنب واحد عندما ركعت على ركبتيها بين علب من الإسطوانات القديمة والأكياس الورقية.

ابنتي، ثريا جان. قال جنرال تاهيري وهو يأخذ نفساً عميقاً كمن يريد أن يغير الموضوع. ثم نظر إلى ساعته حسنٌ، حان وقت الذهاب والتجهز لليوم.

تبادل هو وبابا القبل على الخد وصافح يدي بيديه الاثنتين، أتمنى لك التوفيق في الكتابة، قال وهو ينظر إلى عيني تماماً، عيناه الزرقاوتان الشاحبتان لم تظهرا شيئاً مما يفكر فيه.

أمضيت باقي اليوم وأنا أحاول أن أشجع نفسي وأنظر نحو الفان الرمادية.

تذكرت في طريق العودة، كنت متأكداً أني سمعت ذاك الاسم قبل الآن، ألم يكن هناك كلام عن ابنة تاهيري؟ قلت لبابا محاولاً التحدث بشكل عادي.

أنت تعرفني، قال بابا، يتحول الحديث إلى ثرثرة فأمشي مبتعداً.

كان يقود الباص على مهل خلال الطابور الخارج من سوق الخردوات.

لكن كان هناك حديث، أليس كذلك؟ قلت.

لمَ تسأل؟ قال وهو ينظر إلي بخجل.

هززت كتفي وقاتلت ابتسامة كي تظهر، فقط فضول، بابا.

حقاً، أهذا كل شيء؟ قال، و عيناه تنظران بخبث إلى عيني، هل تركت شيئاً داخلك؟

أبعدت نظري، أرجوك بابا.

ابتسم وهو يخرج الباص من السوق.

اتجهنا إلى الطريق السريع ٦٨٠، قدنا بصمتٍ لفترة.

كل ما سمعته أنه كان بحياتها رجل ما مرةً... ولكن "لم تجر الأمور بشكل جيد". قال بوقار كأنه يخبرني بأنها مصابة بسرطان الثدي.

أووه.

اسمع، إنها فتاة طيبة، تعمل بجد ولطيفة. لكن لا كهاستيغارس. لا عرسان طرقوا باب الجنرال بعدها، تنهد بابا، قد يكون هذا غير

عادل، لكن ما يحدث في أيام قليلة، وأحياناً يوم واحد حتى، يستطيع تغيير اتجاه المرء كل حياته، أمير. قال.

مستلقياً على سريري تلك الليلة، فكرت بوحمة ثريا تاهيري التي تشبه الهلال، أنفها المعقوف بلطف، والطريقة التي ملكت عيناها البراقتان عيني، اضطرب قلبي من التفكير بها، ثريا تاهيري، أميرة أحلامي.

- 12 -

أفغانستان، يلدا

هي الليلة الأولى من شهر جاد. الليلة الأولى من الشتاء، والليلة الأطول من السنة. كما اعتدت وحسان أن نسهر حتى وقت متأخر تلك الليلة، أرجلنا مدفونة كما اعتدنا، تحت الكرسي، بينما علي يرمي قشر التفاح على الموقد ويخبرنا القصص القديمة عن السلاطين واللصوص لكي نقطع وقت أطول ليلة. من علي تعلمت عن اليلدا، أن فراشات العث ترتبك وترمي نفسها على الشموع، ذئاب تصعد الجبال باحثة عن الشمس، أقسم علي أنك إذا أكلت البطيخ تلك الليلة لن تشعر بالعطش طوال الصيف التالي.

عندما أصبحت أكبر، قرأت في كتب الشعر أن اليلدا: الليلة الخالية من النجوم، تعذب العشاق بإجبارهم على السهر متحملين الليل اللامنتهي، منتظرين الشمس لتشرق وتأتي بمحبوبهم معها. بعد أن قابلت ثريا تاهيري، كل ليلة من الأسبوع أصبحت يلدا بالنسبة لي. وعندما يأتي صباح الأحد، أنهض من سريري، صورة ثريا وعيناها البنيتان في رأسي، في باص بابا أعد الأميال حتى أرى قدمها العارية، ترتب صناديق بطاقات الإنسيكلوبيديا الصفراء، كعباها الأبيضان على الإسفلت، أساور فضية تهتز حول معصميها الرشيقين، أفكر في ظل شعرها على الأرض عندما ينزلق عن ظهرها ويتعلق كستار مخملي، ثريا، أميرتي الفارسية: شمس صباحي بعد اليلدا.

كنت أخترع أعذاراً كي أمشي في الممر - والتي تقبلها بابا جميعاً بابتسامة متواطئة - وأمر بجانب كشك تاهيري، ألوح للجنرال الذي يرتدي دائما بذته الرمادية التي تلمع بشكل غير طبيعي، ويلوح لي بدوره، كان يقف أحياناً من على كرسيه ونتحدث قليلا: عن

كتاباتي، الحرب، صفقات اليوم. وكنت أجبر عيني ألا تشردا بعيداً، ألا تبحثان عن مكان ثريا حيث تجلس تقرأ كتاباً. أودع الجنرال وأحاول ألا أتهدل وأنا أمشي مبتعداً.

أحياناً، كانت تجلس وحيدة عندما يذهب الجنرال لواجب آخر من التواصل الاجتماعي، وكنت أمر بجانبها، متظاهراً بعدم معرفتها، لكنني ميت كي أفعل. وأحياناً كانت مع امرأة في منتصف العمر أقرب إلى أن تكون كبيرة في السن منها إلى الشابّة ببشرة شاحبة وشعر مصبوغ بالأحمر. وعدت نفسي بأني سأتحدث إليها قبل نهاية الصيف، لكن المدارس فتحت مجددا، واحمرت الأوراق، اصفرت ثم سقطت، أمطار الشتاء هطلت وأيقظت أوجاع مفاصل بابا، أوراق صغيرة ظهرت على الأشجار، وما زلت لا أملك الجرأة كي أنظر مباشرة إلى عينيها.

الحصص الربيعية انتهت في أواخر أيار ١٩٨٥. تفوقت في كل موادي. الأمر الذي كان معجزة صغيرة باعتبار أني كنت أجلس في المحاضرات وأنا أفكر في التقوس اللطيف لأنف ثريا.

ثم، في أحد حار من ذلك الصيف، كنت وبابا في سوق الخردوات، جالسين في كشكنا، نروح عن وجهينا بأوراق الجرائد، برغم الشمس الحارقة، السوق كان مكتظاً والمبيعات في أحسن أحوالها ـ كانت لا تزال الثانية عشرة والنصف لكننا كنا قد بعنا بما يقارب ١٦٠ دولار.

وقفت، تمطيت، وسألت بابا إن كان يريد زجاجة صودا.

قال أنه سيكون ممتنا.

كن حذراً، أمير. قال بينما بدأت بالمشي.

من ماذا، بابا؟

أنا لست أحمقاً، فلا تلعب دور الغبي معي.

لا أعلم عمَّ تتحدث.

تذكر هذا، قال بابا مشيراً إلي، الرجل باشتوني إلى العظم، لديه نانغ وناموس*.

فقط سأجلب لنا الصودا.

فقط لا تحرجني، هذا كل ما أطلبه.

لن أقوم بهذا. الله! بابا.

أشعل بابا سيجارة وعاد يروح عن نفسه.

مشيت باتجاه المحل. ثم انعطفت يميناً نحو كشك التيشيرتات، حيث بخمس دولاراتٍ تستطيع شراء وجه المسيح، إلفيس، جيم موريسون، أو الثلاثة معاً، مطبوعة على تيشيرت نايلوني، موسيقى المارياتشي كانت تلعب في المكان، شممت رائحة المخلل واللحم المشوي.

نظرت إلى الفان الرمادية. قرب الكشك الذي يبيع المانغو. كانت وحدها، تقرأ، بفستان صيفي أبيض يصل إلى الكاحل وصندل مفتوح من الأمام. شعرها مرفوع للوراء ومتوج بكعكة على شكل زهرة التوليب، أردت أن أمشي بجانب الكشك كالعادة، وفكرت أني قمت بهذا، إلا أنني وجدت نفسي فجأة أقف عند الكشك محدقاً في ثريا من خلال المكاوي الحديدة وربطات العنق القديمة، نظرت إلي.

سلام، قلت، أنا آسف . لم أقصد إزعاجك.

سلام.

هل السيد الجنرال هنا اليوم؟ قلت، وأذناي تحترقان، عاجزاً عن النظر إلى عينيها.

لقد ذهب في ذاك الاتجاه، قالت مشيرة إلى يمينها.

انزلقت الإسوارة إلى كوعها، فضة على أخضر الزيتون.

هل تتكرمين بإخباره بأنني مررت لأحييه؟ قلت.

سأفعل.

شكراً، قلت، أوه واسمي أمير، إن كنت بحاجة لتعرفي كي تخبريه، أنني مررت، لـ... أحييه.

---

* نانغ وناموس: شرف وكبرياء، عقيدة الرجال الباشتونيين، خصوصاً عندما تتعلق بملاحقة زوجة أو ابنة.

نعم.
نقلت رجلي، سعلت، سأذهب الآن، عذراً على الإزعاج.
لا، لم تزعجني.
أوه، جيد. هززت رأسي وابتسمت نصف ابتسامة.
سأذهب الآن، ألم أقل هذا؟ (كودا حافظ)، (كودا حافظ).
بدأت بالمشي، توقفت والتفت، وقلت قبل أن تذهب جرأتي، هل أستطيع سؤالك عما تقرأين؟
رمشت.
حبست أنفاسي، فجأة، شعرت بأن العيون المراقبة لأفغان السوق تحولت نحونا. تخيلت الصمت يهبط، شفاه تتوقف في منتصف الكلام، رؤوس تلتفت، عيون تضيق باهتمام شديد، ما هذا؟ حتى تلك النقطة، حوارنا كان يعتبر استعلاماً محترماً، رجل يسأل عن مكان رجل آخر، لكنني سألتها سؤالاً، وإذا أجابت، سنكون.. حسناً، سنكون نتحدث.
أنا "مجرد" شاب عازب، وهي امرأة غير متزوجة، امرأة بماض، لا أقل، هذا الأمر ينزلق بخطورة إلى حافة كونه مادة للثرثرة وأفضل أنواعها.
الألسنة السامة ستنفث سمها. عليها تحمل حرق هذا السم، ليس أنا ـ كنت مدركاً تماماً للمعايير الأفغانية التي تفضل جنسي.
لن يقال: هل رأيته يتحدث معها؟ لكن وووي؟ هل رأيت كيف لم تتركه يذهب؟ كم هي من (مطاردة)!
حسب المعايير الأفغانية، سؤالي كان مباشراً، وبه، عريت نفسي وزرعت بعض الشك حول اهتمامي بها، ولكني كنت رجلا، وكل ما كنت أخاطر به هو أن أجرح كبريائي، والجروح تشفى، بينما السمعة لا تشفى، هل ستكون على قدر جرأتي.
قلبت الغلاف كي أراه. مرتفعات ويذرنغ.
هل قرأته؟ قالت.

هززت رأسي وأنا أشعر بنبضات قلبي تصل إلى عيني.
قصة حزينة.
القصص الحزينة تصنع كتباً جيدة. قالت.
بالفعل.
سمعت أنك تكتب.
كيف عرفت؟ تساءلت إن كان أبوها قد أخبرها، ربما سألت، لكنني أبعدت السيناريوهين فوراً، الآباء والأبناء يتحدثون براحة عن النساء، لكن الفتيات الأفغانيات - لا يوجد فتاة أفغانية محترمة وشريفة - على الأقل، تستعلم من أبيها عن شاب، ولا أب، خصوصاً باشتوني، ذو نانغ وناموس، يناقش أحوال (مجرد)، إلا إذا كان الشاب موضوع السؤال (كاستيغار) عريساً، قام بالشيء المحترم وأرسل أباه ليطرق الباب.
سمعت نفسي أقول وأنا غير مصدق، هل ترغبين بقراءة إحدى قصصي؟
سيكون هذا لطيفاً، قالت.
شعرت بعدم راحتها الآن، رأيت ذلك من الطريقة التي بدأت عيناها تنظران من جنب لآخر، ربما خوف من حضور الجنرال، تساءلت ماذا سيقول إن وجدني أتحدث لهذه الفترة غير اللائقة مع ابنته.
ربما سأحضر لك أحدها يوماً، قلت، كنت سأقول أكثر عندما أتت المرأة التي كنت أراها أحياناً مع ثريا ماشية في الممر حاملة كيساً بلاستيكياً مليئاً بالفواكه.
عندما رأتني راحت عيناها تنطان من ثريا إلي، ثم ابتسمت.
أمير جان، تسعدني رؤيتك. قالت وهي تفرغ الكيس على الطاولة، والعرق يتساقط من حاجبيها، شعرها الأحمر الذي يحيط رأسها كالخوذة، لمع تحت ضوء الشمس - استطعت رؤية أجزاء من جمجمتها، الأماكن التي بدأ شعرها يخف ويتساقط، كان لديها عينين صغيرتين خضراوتين مدفونتين في وجهها الدائري كالملفوفة، أسنان متباعدة

وأصابع صغيرة كالنقانق، وقلادة معلقة فيها كلمة الله ذهبية على صدرها، السلسلة محفورة بين التجاعيد والمنحدرات داخل بشرتها.

أنا أجمل، أم ثريا جان؟.

سلام، كالا جان. قلت، محرجاً، كما أكون دائماً مع الأفغان، إذاً إنها تعرفني وأنا ليس لدي فكرة من تكون.

كيف حال أبوك؟ قالت.

جيد، شكراً لك.

أتعلم؟ جدك، السيد غازي القاضي، عمه وجدي كانا أولاد عم، قالت، فكما ترى، نحن أقارب. ابتسمت من بين أسنانها المتباعدة ولاحظت أن الجانب الأيمن من فمها هابط قليلاً، عادت عيناها للتنقل بيني وبين ثريا.

سألت بابا مرة لم لم تتزوج ابنة الجنرال تاهيري.

لا خطّاب، قال بابا، لا خطّاب جيدين، صحح. لكنه لم يقل أكثر. بابا يعلم خطورة (الحديث العاطل) وما قد يؤثر به على حظوظ الشابات في زواج حسن، الرجال الأفغان، خصوصاً الذين ينتمون لعائلات معروفة، كانوا مخلوقات متقلبة، همسة هنا، تلميح هناك، ويطيرون كالعصافير المذعورة، لذا أتت الأعراس وذهبت ولم يغني أحد (أهيستا بورو) لثريا. لم يلون أحد يدها بالحنة، لم يحمل أحد قرآناً فوق طرحتها، وكان الجنرال تاهيري من رقص معها في كل زفاف. والآن، هذه المرأة، هذه الأم، ذات القلب الحزين، ابتسمت والأمل في عينيها. شعرت بالذل من موقف القوة الذي حصلت عليه، وذلك بسبب أني ربحت يانصيب الجينات الذي حدد جنسي. لم أستطع أبداً قراءة الأفكار في عيني الجنرال، لكني كنت أعلم هذا عن زوجته: إن كنت سأحصل على خصم في هذا الموضوع - مهما كان (هذا) - لن تكون هي.

اجلس أمير جان، قالت، ثريا، اجلبي له كرسياً، باتشيم، واغسلي له إحدى هذه الدراقات، إنهم حلوين وطازجين.

لا ، شكراً لك. قلت ، يجب أن أذهب ، أبي ينتظر.

أوه؟ قالت خانم تاهيري ، مندهشة بوضوح أنني قمت بالأمر اللائق برفضي للدعوة.

إذا ، خذ هذا ، على الأقل. وضعت مقدار حفنة من ثمار الكيوي وبعض الدراقات في كيس ورقي ، أصرت أن آخذها ، احمل سلامي إلى أبيك وعد لترانا ثانية.

سأفعل ، شكراً لك كالا جان. قلت. من زاوية عيني ، رأيت ثريا تنظر بعيدا.

اعتقدت أنك ستجلب لنا الصودا ، قال بابا وهو يأخذ كيس الدراق مني ، كان ينظر إلي بجدية ومزاح بنفس الوقت.

بدأت باختراع شيء ما ، لكنه ، قضم دراقة وهز رأسه ، لا تتعب نفسك أمير ، فقط تذكر ما قلت.

تلك الليلة في السرير ، تذكرت كيف رقصت انعكاسات الشمس في عيني ثريا ، الأودية الرائعة التي تحدد عظم التروقة لديها ، أعدت محادثتنا عشرات المرات في رأسي ، هل قالت : سمعت أنك تكتب ، أو سمعت أنك كاتب؟ أيهما؟ رميت الشراشف عني وحدقت في السقف ، مرعوباً من فكرة الليالي الست الطويلة والمرهقة حتى أراها ثانية.

بقيت على هذه الحال عدة أسابيع ، أنتظر الجنرال ليذهب في جولة ، ثم أمر بجانب كشك التاهيري ، إذا كانت خانم تاهيري هناك ، كانت تعرض علي الشاي والكولتشا وتتحدث عن كابول في الأيام القديمة ، والناس الذين عرفناهم ، التهاب مفاصلها. بلا شك ، لاحظت أن ظهوري يترافق دائماً مع غياب الجنرال ، لكنها لم تبد ذلك.

أوه ، لقد ذهب الآن. كانت تقول ، كنت أفضل وجودها ، وليس فقط بسبب طرقها المحببة : كانت ثريا تشعر براحة أكبر ، تتحدث أكثر بوجود أمها ، كأن وجودها أياً كان ما يحدث بيننا يقلل من حديث الناس ويحمينا وبالطبع هذا لن يكون مشرعا بالنسبة للجنرال.

في أحد الأيام، كنت وثريا وحدنا في كشكهم، نتحدث، كانت تخبرني عن المدرسة، وكيف أنها كانت تعمل على دروسها الهامة في كلية أولون في فريمونت.

في ماذا ستختصين؟

أريد أن أصبح مدرسة، قالت.

حقاً، لماذا؟

دائماً رغبت بهذا، عندما كنا في فرجينيا، أصبحت مدرسة مؤهلة، والآن ادرس في المكتبة العامة ليلة واحدة في الأسبوع، أمي كانت مدرسة أيضاً، علمت الفارسية والتاريخ في ثانوية زارغونا للفتيات في كابول.

رجل يرتدي ثياب صيد عرضَ ثلاثة دولارات لربطة من الشموع سعرها خمسة دولارات. أعطته ثريا إياها، ووضعت النقود في علبة حلوى صغيرة تحت قدميها.

ثم نظرت إلي بخجل، أريد أن أخبرك قصة، قالت، لكني محرجة قليلاً.

أخبريني.

إنها سخيفة نوعاً ما.

أخبريني، أرجوكِ.

ضحكت، حسناً، عندما كنت في الصف الرابع في كابول، استخدم أبي امرأة اسمها زيبا لتساعد في أعمال المنزل، كان لديها أخت في إيران، في مدينة مشهد، وبما أن زيبا كانت أمية، فكانت تطلب مني أن اكتب رسائل لأختها بين الحين والآخر، وعندما ترد أختها، كنت أقرأ رسالتها لزيبا.

في أحد الأيام، سألتها إن كانت ترغب في تعلم القراءة والكتابة، ابتسامة عريضة غطت وجهها، وبرقت عيناها، وقالت أنها ستحب ذلك كثيراً، فأصبحنا نجلس على طاولة المطبخ بعد أن أنهي فروضي المدرسية وأعلمها الأبجدية. أسترق النظر إليها أحياناً وأنا أكتب دروسي

وأراها في المطبخ، تحرك اللحم في طنجرة البخار وقلم بيدها لتقوم بوظيفة الأبجدية التي أعطيتها إياها الليلة السابقة.

على كل، بعد أقل من سنة، أصبحت زيبا تستطيع قراءة كتب الأطفال، كنا نجلس في الباحة وتقرأ لي حكايات دارا وسارا ببطء، ولكن بشكل صحيح، وبدأت تخاطبني بالمعلمة ثريا، ضحكت ثانية، أعلم أن هذا يبدو طفولياً، لكن المرة الأولى التي كتبت فيها زيبا حرفها، علمت أنه ليس هناك شيء آخر أريد أن أصبحه. كنت فخورة جداً بها وشعرت بأني قمت بشيء يستحق التعب لأجله، هل تفهمني؟

نعم قلت كذبت، فكرت كيف كنت أستخدم ثقافتي لأسخر من حسان، كيف كنت أغيظه عندما لا يعرف الكلمات الصعبة.

أبي يريدني أن أدخل كلية الحقوق، أمي دائماً ترمي كلاماً عن كلية الطب، لكني سأصبح معلمة، لا يعود بالكثير من المال، لكنه ما أريد.

أمي كانت معلمة أيضاً.

أعلم. قالت، أخبرتني أمي. احمر وجهها عندما قالت هذا، بسبب هذا الجواب استنتجت أن (الأحاديث مع أمير) تأخذ حيِّزاً بينهم عندما لا أكون موجوداً. أخذ هذا مني مجهوداً هائلاً كي أمنع نفسي من الابتسام.

جلبت لك شيئاً. أخرجت بعض الأوراق الملفوفة من جيبي الخلفي، كما وعدت. وأعطيتها إحدى قصصي.

أوه، لقد تذكرت. قالت وهي تضيء سعادة، شكراً لك!

لم أحصل على الوقت لأسجل هذا داخلي، أنها خاطبتني بـ (تو) لأول مرة بدلاً من الصيغة الرسمية (شوما). لأن ابتسامتها اختفت فجأة، وراح اللون من وجهها، وحدقت عينيها في شيء خلفي.

التفت، فأصبحت وجهاً لوجه مع الجنرال تاهيري.

أمير جان، كاتبنا القصصي الملهم، ما هذا الشرف. قال وهو يبتسم من طرف فمه.

سلام، سيد جنرال. قلت بصعوبة. مشى أمامي، باتجاه الكشك، يوم جميل، أليس كذلك؟ قال.

إبهامه في جيب صدره، واليد الأخرى ممدودة نحو ثريا، أعطته الأوراق، يقولون أنها ستمطر هذا الأسبوع، من الصعب تصديق ذلك، أليس كذلك؟ رمى الأوراق الملفوفة في سلة النفايات، التفت إلي ووضع يده برفق على كتفي، مشينا بضع خطوات سوية.

أنت تعلم، باتشيم، لقد أصبحت معجبا بك. أنت ولد صادق، أنا أعلم هذا، لكن - تنهد ولوح بيده. حتى الأولاد الصادقين يحتاجون التذكير أحياناً، لذا من واجبي أن أذكرك أنك بين أقرانك هنا في سوق الخردوات. توقف، عيناه اللتان لا تحملان تعبيراً حفرت عيناي.

أترى، كل شخص هنا قاص حكايات. ابتسم، مظهراً أسنانه المتساوية تماماً، انقل تحياتي لأبيك، أمير جان. أنزل يده وابتسم ثانية.

ما المشكلة؟ قال بابا وهو يأخذ مال امرأة عجوز ثمناً لحصان حجري.

لا شيء، قلت.

جلس على التلفاز القديم، وأخبرته على أي حال.

آخ، أمير. قال متنهداً.

كما اتضح، لم أضطر للتفكير كثيراً بما حدث، لأنه لاحقاً ذاك الأسبوع، أصيب بابا ببرد.

بدأ بسعال متقطع متبوعاً بشهقات، توقفت الشهقات لكن السعال استمر. كان يمد يده إلى منديله، المحشور في جيبه، ألحيت عليه كي يذهب إلى الطبيب، لكنه كان يبعدني دائما، كان يكره الأطباء والمشافي. على علمي، المرة الوحيدة التي ذهب فيها بابا إلى طبيب كانت المرة التي أصيب فيها بالملاريا في الهند.

ثم، بعد أسبوعين، وجدته يسعل مخرجاً كميات من الدم مع البلغم في الحمام.

منذ متى وهذا يحدث معك؟ قلت.

ماذا على العشاء؟ قال دون اكتراث.

سآخذك إلى الطبيب.

مع أن بابا كان مديراً في محطة البنزين، المالك لم يقم بتأمينه صحياً، وبابا، في تهوره المعهود، لم يصر. لذا أخذته إلى مستشفى المقاطعة في سان خوسيه. الطبيب الشاحب ذو العينين المنتفختين الذي رآنا، عرف عن نفسه كمقيم في السنة الثانية بالكلية.

يبدو أصغر منك، وأكثر مرضاً مني. قال بابا متذمراً.

أرسلنا المقيم إلى الأسفل كي نقوم بصورة بالأشعة السينية لصدر بابا. وعندما نادتنا الممرضة ثانية، كان المقيم يملأ بياناً. خذ هذه إلى المكتب الرئيسي، قال مخربشاً بسرعة.

ما هي؟ قلت.

إحالة.

خربشة، خربشة.

لماذا؟

العيادة الرئوية.

ما هي؟

اختلس نظرة إلي، رفع نظارته، وبدأ يخربش ثانية. لديه بقعة على رئته اليمنى، أريدهم أن يفحصوها.

بقعة؟ قلت، فجأة، أصبحت الغرفة صغيرة جداً.

سرطان؟ أضاف بابا بلهجة عادية.

محتمل، هناك شك بهذا على كل حال. تمتم الطبيب.

هل تستطيع إخبارنا المزيد؟ سألت.

ليس فعلاً، أحتاج لفحص (CAT) أولاً، ثم رؤية طبيب الرئة.

أعطاني الإحالة.

قلتَ أن أباك مدخن، صحيح؟

نعم.

هز رأسه، نقّل نظراته بيني وبين بابا. سيتحدثون إليكم بعد أقل من أسبوعين.

أردت سؤاله كيف بحق الله يريدني أن أعيش مع تلك الكلمة (شكوك) لأسبوعين كاملين. كيف يريدني أن آكل، أعمل، أدرس؟ كيف يمكنه إرسالي إلى البيت مع هذه الكلمة؟ أخذت الإحالة وأعطيتها للمكتب الرئيسي.

تلك الليلة، انتظرت حتى نام بابا، طويت شرشفاً واستخدمته كسجادة صلاة.

مصوباً رأسي نحو الأرض رددت آيات نصف منسية من القرآن ـ آيات جعلنا المولي نحفظها عن ظهر قلب في كابول ـ وطلبت اللطف من رب لست متأكداً من وجوده. حسدت المولى، حسدته على إيمانه وثقته.

مر أسبوعان ولم يتصل أحد، وعندما اتصلت بهم، أخبروني أنهم فقدوا الإحالة. هل أنا متأكد من إعطائي إياها لهم؟ قالوا أنهم سيتصلون خلال ثلاثة أسابيع أخرى.

أقمت الجحيم وساومت على الثلاثة أسابيع إلى أسبوع لفحص الـ (CAT) وأسبوعين لرؤية الطبيب.

الزيارة إلى الدكتور شنايدر، مختص الرئة، كانت تمر بشكل جيد إلى أن سأله بابا عن أصله، وقال الدكتور شنايدر، روسيا.

فقد بابا عندها السيطرة عليٍ نفسه.

اعذرنا، دكتور، قلت جارا بابا إلى الردهة. ابتسم الدكتور شنايدر، وقف قبالة النافذة والسماعة ما تزال بيده.

بابا، قرأت سيرة الدكتور شنايدر الذاتية في غرفة الانتظار. لقد ولد في ميتشيغان، ميتشيغان! إنه أميركي، أميركي، أكثر بكثير مما سنصبح عليه أنا وأنت يوماً.

لا يهم أين ولد، إنه روسي، قال بابا مكشراً كأنها كلمة بذيئة، أهله روس، أجداده روس، أقسم برأس أمك أني سأكسر ذراعه إن حاول لمسي.

أهل الدكتور شنايدر هربوا من شوراوي. ألا ترى؟ لقد هربوا!

لكن بابا لم يسمع أياً من هذا. أحياناً أعتقد أن الشيء الوحيد الذي أحبه كما أحب زوجته المتوفية كان أفغانستان، وطنه السابق، كنت سأصرخ من الانزعاج، لكنني تنهدت والتفت إلى الدكتور شنايدر.

آسف، دكتور، لن يمر الأمر بسلام.

طبيب الرئة الثاني، دكتور أماني، كان إيرانياً ووافق بابا.

دكتور أماني، رجل لطيف الحديث بشارب أعوج وشعر رمادي كعرف الأسد. أخبرنا أنه نظر إلى نتائج فحص الـ (CAT) وأن عليه أن يقوم بإجراء يسمى (تنظير القصبات) ليأخذ كتلة من الرئة للفحص، وأعطانا موعداً الأسبوع التالي. شكرته وساعدت بابا لنخرج من المكتب مفكراً أن علي أن أعيش أسبوعاً كاملاً مع هذه الكلمة الجديدة (كتلة)، كلمة مشؤومة أكثر من (مشكوك به).

تمنيت لو كانت ثريا معي.

تبين أنه كالساتان، السرطان له عدة أنواع.

سرطان بابا كان (سرطان الخلية الشوفانية) في حالة متأخرة. غير قابل للاستئصال.

سأل بابا الدكتور أماني أن يعطيه تشخيصاً.

عض الدكتور أماني على شفته، مستخدماً الكلمة (قبر).

هناك العلاج الكيماوي بالطبع، قال، لكنه سيخفف فقط من الحالة.

ماذا يعني هذا؟ سأل بابا.

تنهد دكتور أماني، هذا يعني أنه لن يغير النهاية، سيؤخرها فقط.

هذا جواب واضح. دكتور أماني. شكراً لك على ذلك. قال بابا، لكن لا علاج كيماوي لي.

كانت تعلوه نفس النظرة المصممة التي كانت عليه يوم رمى بطاقات الطعام على مكتب السيدة دوبينز.

لكن بابا ـ

لا تتحداني أمام الملأ، أمير، أبداً. من تظن نفسك؟

المطر الذي تحدث عنه جنرال تاهيري في سوق الخردوات تأخر بضعة أسابيع. لكن عندما خرجنا من عيادة دكتور أماني، رمت السيارات ماءً ساخراً على الأرصفة. أشعل بابا سيجارة ودخن كل الطريق إلى السيارة وكل الطريق إلى البيت.

بينما كان يدخل المفتاح في باب الردهة.

قلت: أتمنى لو تعطي العلاج الكيماوي فرصة، بابا.

أعاد المفاتيح إلى جيبه، وجرني من تحت المطر. تحت مظلة البناء المخططة. أمسكني من صدري باليد التي تحمل السيجارة.

يكفي! لقد اتخذت قراري.

ماذا عني، بابا؟ ماذا علي أن أفعل؟ قلت وعيناي مغرورقتان.

نظرة احتقار ملأت وجههِ الذي يسبح بالمطر. نفس النظرة التي كان يرمقني بها عندما كنت طفلاً وأقع وأجرح ركبتي وأبكي.

كان البكاء الذي جلبها وقتها، والبكاء جلبها الآن.

أنت في الثانية والعشرين من العمر، أمير! إنك رجل راشد! أنت... فتح فمه، أغلقه، ثم فتحه ثانية.

أعاد النظر بما سيقوله. فوقنا، كان المطر يطرق على المظلة الحجرية.

ماذا سيحدث لك، تقول؟ كل تلك السنين، هذا ما كنت أحاول أن أعلمك، كيف لا تحتاج أن تسأل هذا السؤال.

فتح الباب، التفت إلي، وشيء آخر، لا أحد يعرف بهذا، هل تسمعني؟ لا أحد، لا أريد شفقة أحد.

ثم اختفى في الردهة المعتمة. أمضى باقي اليوم يدخن أمام التلفاز، لا أعلم من كان يتحدى.

أنا؟ دكتور أماني؟ أو ربما الله الذي لم يؤمن به قط؟

لفترة، حتى السرطان لم يبعد بابا عن سوق الخردوات.

كنا نقوم بجولاتنا على أماكن المزادات في أيام السبت. بابا السائق وأنا المرشد. ثم نعرض ما اشتريناه أيام الأحد، مصابيح نحاسية، قفازات بيسبول، جاكيتات تزلج منزوعة السحاب.

كان بابا يحيي معارفه من وطنه القديم وأنا أساوم المشترين على دولار أو اثنين، كأن أياً من هذا لا يهم.

كأن اليوم الذي سأصبح يتيماً فيه لا يقترب إنشاً مع كل إغلاق لسوق الخردوات.

أحياناً، كان الجنرال تاهيري وزوجته يمران على بابا.

الجنرال، الدبلوماسي دائما، كان يحييني بابتسامة ويصافحني بكلتا يديه. لكن كان هناك تحفظ أكثر في سلوك خانم تاهيري، تحفظ لا تكسره إلا بالسر. ابتسامات هنا وهناك، ونظرات اعتذار مخفية باتجاهي عندما يكون الجنرال غير منتبه.

أذكر تلك المرحلة من (المرة الأولى)، المرة الأولى التي أسمع بابا يئن في الحمام، المرة الأولى التي أجد فيها دماً على وسادته. لأكثر من ثلاث سنين وبابا يدير محطة البنزين ولم يتغيب يوماً بداعي المرض، مرة أولى أخرى.

بحلول الهالووين تلك السنة، أصبح بابا يجهد تماماً بحلول عصر السبت لدرجة أنه ينتظرني خلف عجلة القيادة بينما أساوم على الخردة، وبحلول عيد الشكر، أصبح يتعب قبل الظهيرة. عندما بدأت الجزازات تظهر على المروج أمام البيوت، والثلج غطى أشجار التنوب، أصبح بابا يبقى في البيت وأقود أنا الفولكس واغن في البينيسولا.

أحياناً في سوق الخردة، كان المعارف الأفغان يرمون ملاحظات حول خسارته للوزن.

في البداية، كانت مديحاً. حتى أنهم سألوه عن سر حميته. لكن الاستفسارات والمديح توقفا عندما لم يتوقف عن خسارة الوزن، عندما ظلّت الباوندات تهبط، وتهبط. عندما أطبق خداه على فكيه وذابت عظام رقبته. وعيناه انحسرتا في محجريهما.

ثم، في يوم أحد لطيف، بعد رأس السنة بقليل، كان بابا يبيع غطاء مصباح لرجل فليبيني سمين بينما كنت أبحث عن دثار لأغطي رجليه به.

هي! يا أخ، هذا الرجل بحاجة للمساعدة! قال الرجل الفليبيني بنبرة منذرة، التفت ورأيت بابا على الأرض. وذراعاه تهتزان بعنف.

كوماك! صرخت (فليساعدني أحد!) ركضت نحو بابا، كان الزبد يغطي فمه، البصاق الرغوي يغطي لحيته. عيناه المقلوبتان لا ترى فيهما إلا البياض.

هرع الناس إلينا، سمعت أحدهم يقول (مات) وآخر يصرخ (اطلبوا ٩١١).

سمعت ركضاً.

اسودت السماء بينما احتشد الجمع حولنا.

تحول لون بصاق بابا إلى الأحمر، كان يعض لسانه.

ركعت بجانبه، وأمسكت بذراعيه وقلت، أنا هنا بابا، أنا هنا، ستكونٍ على ما يرام، أنا هنا. كأنني أستطيع إخراج فايروسات التشنج خارجاً. أقنعهم بتركه لحاله. شعرت برطوبة عند ركبتي، كان بابا يبول على الأرض، (شش)، بابا جان، أنا هنا، ابنك هنا.

الطبيب الأصلع تماماً ذو اللحية البيضاء. أخرجني من الغرفة.

أريد أن أنظر إلى فحوص الـ (CAT) معك. قال ووضع الأفلام في صندوق عرض في البهو وأشار بجانب الممحاة من قلم رصاص إلى صور سرطان بابا.

كشرطي يري رصاصات القاتل إلى عائلة الضحية.

بدا دماغ بابا في هذه الصور كجزء من حبة بندق كبيرة، مثقب بأشكال رمادية تشبه كرات التنس.

كما ترى، انتشر السرطان. قال، عليه أن يأخذ الستيروئيدات كي يخفف الالتهاب في دماغه وأدوية لإيقاف الانتشار. وأنصح باستخدام العلاج الإشعاعي، هل تعرف ما يعني هذا؟

قلت أني أعرف، أصبحت خبيراً في أمور السرطان.

حسن إذاً، قال وهو ينظر إل جهاز النداء، على الذهاب، لكن يمكنك أن تتصل بي إن كان لديك أي سؤال.

شكراً لك.

أمضيت الليلة جالساً على كرسي قرب سرير بابا.

في الصباح التالي، غرفة الانتظار في آخر البهو كان محتشدة بالأفغان، الجزار من نيو آرك. مهندس عمل مع بابا في الميتم. اصطفوا واطمأنوا على حال بابا بنبرة خفيضة. متمنين له شفاء سريعاً. كان بابا مستيقظ عندها. مترنح وتعب، لكن مستيقظ.

في منتصف الصباح. أتى الجنرال تاهيري وزوجته، ثم تبعتهم ثريا. نظرنا إلى بعض، ثم أشحنا نظرنا في نفس الوقت.

كيف حالك، صديقي؟ قال جنرال تاهيري وهو يأخذ يد بابا.

أشار بابا إلى المصل المعلق بيده، ابتسم قليلا، وابتسم له الجنرال.

لم يكن عليكم أن تتعبوا أنفسكم، كلكم. قال بابا.

لم نتعب أ نفسنا.

لا تعب على الإطلاق، الأهم، هل أنت بحاجة لأي شيء؟ قال جنرال تاهيري. أي شيء؟ اسألني كما تسأل أخاً.

تذكرت شيئاً قاله بابا عن الباشتون مرة.

ربما نكون عنيدين وأعلم أننا متكبرون لأبعد الحدود. لكن، في ساعة الحاجة، صدقني أنه لن تريد شخصاً بجانبك أكثر من باشتوني.

هز بابا رأسه على الوسادة. قدومك أضاء عيني.

ابتسم الجنرال وشد على يده.

كيف حالك، أمير جان؟ هل تحتاج أي شيء؟

الطريقة التي كان ينظر بها إلي، اللطف في عينيه...

لا، شكراً لك. جنرال صاحب، أنا... شيء صعد إلى حنجرتي واغرورقت عيناي بالدموع. خرجت متثاقلاً من الغرفة.

بكيت في البهو، قرب صندوق العرض، حيث رأيت الليلة السابقة وجه القاتل.

فتح باب بابا، خرجتٍ ثريا من غرفته، ووقفت قربي، كانت ترتدي بلوزة رمادية وجينزاً.

أردت أن أجدٍ الراحة بين ذراعيها.

أنا آسفة جداً، أمير. قالت، كلنا عرفنا أن هناك خطب ما، لكن لم يكن لدينا أي فكرة عن هذا.

مسحت عيني بكم قميصي، لم يرد أن يعرف أحد.

هل تحتاج أي شيء؟

لا، حاولت الابتسام، وضعت يدها على يدي، لمستنا الأولى، أخذتها، وضعتها على وجهي، عيني، ثم تركتها.

من الأفضل أن تعودي للداخِل، أو سيأتي أبوك وراءك.

ابتسمت وهزت رأسها. فعلاً، والتفت لتذهب.

ثريا؟

نعم؟

سعيد لقدومك. هذا يعني... العالم بالنسبة لي.

خرِّجوا بابا من المشفى بعد يومين، وأحضروا متخصص يسمى معالج الأورام بالأشعة ليقنع بابا بالحصول على العلاج، رفض بابا، حاولوا التكلم إلي كي أقنعه، لكني رأيت النظرة على وجه بابا، فشكرتهم ووقعت على استماراتهم، وأخذت بابا إلى البيت في فوردي التورينو.

تلك الليلة، كانٍ بابا مستلقياً علىٍ الأريكة، وشرشف صوفي يغطيه، جلبت له شاياً ساخناً ولوزاً محمصاً.

عقدت يدي حول ظهره ورفعته بسهولة شديدة. شعرت بعظام كتفه كجانح عصفور تحت أصابعي. رفعت الشرشف إلى أعلى صدره حيث الأضلاع مددت بشرته الرقيقة الشاحبة.

هل تريد شيئاً آخر، بابا؟

لا ، باتشيم ، شكراً.

جلست بقربه ، إذاً ، أتساءل إن كنت تستطيع أن تقوم بخدمة لي إن لم تكن مجهداً كثيراً.

ماذا؟

أريدك أن تذهب (كاستيغاري)، أريد أن أطلب من الجنرال تاهيري يد ابنته.

توسعت شفتا بابا الجافتان في ابتسامة (بقعة خضراء على الورقة الذابلة).

متأكد؟

أكثر من أي شيء آخر.

فكرت ملياً بالأمر؟

بالاي ، بابا.

إذاً أعطني الهاتف ، ودفتر ملاحظاتي الصغير.

رمشت ، الآن؟

متى إذاً؟

ابتسمت ، أوكي ، أعطيته الهاتف ودفتر ملاحظاته الأسود ، حيث خربش هواتف أصدقائه الأفغان.

بحث عن اسم تاهيري ، طلب الرقم ، قرب المستقبل من أذنه ، كان قلبي يدور في صدري.

جميلة جان؟ السلام عليكم. قال ، وقدم نفسه ، توقف.

أفضل بكثير، شكراً لك ، كان قدومكم كريماً جداً ، استمع لفترة ، هز رأسه ، سأذكر هذا ، شكراً لك ، هل الجنرال صاحب في البيت؟ توقف ، شكراً لك.

ثم نظر إلي ، أردت أن أضحك لسبب ما ، أو أصرخ.

قربت حرف كفي من فمي وعضضت عليه. ضحك بابا من أنفه.

جنرال صاحب ، السلام عليكم.. نعم ، أفضل كثيراً.. بالاي.. أنت لطيف جداً. جنرال صاحب. اتصلت لأسأل إن كان ممكناً أن أزورك

وخانم تاهيري صباح الغد، لأمر شريف.. نعم.. الساعة الحادية عشر جيدة. إلى ذلك الوقت. كودا حافظ. أغلق السماعة. نظرنا إلى بعضنا، غرقت في الضحك، انضم بابا لي.

وضع بابا بعض الماء على شعره وسرحه للوراء. ساعدته في ارتداء قميص أبيض وعقدت له ربطة عنقه، رابطاً الإنشين من الفراغ بين زر القبة ورقبة بابا. فكرت في كل المساحات الفارغة التي سيتركها بابا عند موته، ثم جعلت نفسي أفكر في شيء آخر. هو لم يمت، ليس بعد. وهذا يوم للأفكار الجيدة. جاكيت بذته البنية، البذة التي ارتداها عند تخرجي، معلقة عليه ـ ذاب الكثير من بابا حتى يستطيع ملأها. كان علي أن أطوي الأكمام.

وانحنيت كي أعقد أربطة حذائه.

كان آل التاهيري يعيشون في بيت ذو طابق واحد في أحد المناطق الرئيسية في فريمونت المعروفة بأكثرية أفغانية. له نوافذ ملونة، وسقف مائل، وشرفة أمامية.

فان الجنرال الرمادية كانت متوقفة في الممر.

ساعدت بابا ليخرج من الفورد، ثم عدت وراء المقود، انحنى عند النافذة.

كن في البيت، سأتصل بك بعد ساعة من الآن.

أوكي، بابا، قلت، حظاً سعيداً.

ابتسم.

ذهبت بالسيارة، في المرآة الخلفية، كان بابا يعرج في طريقه إلى بيت الجنرال ليقوم بواجب أبوي أخير.

بقيت أخطو حول غرفة المعيشة في الشقة منتظراً اتصال بابا.

١٥ خطوة طولا، وعشر خطوات ونصف عرضاً.

ماذا إن قال الجنرال لا؟ ماذا إن كرهني؟

بقيت أذهب إلى المطبخ وأنظر إلى ساعة الفرن.

رن الهاتف قبل الظهر بقليل، كان بابا.

جسن؟

وافق الجنرال.

تنفست الصعداء، جلست، كانت يدي ترتجفان.

وافق؟

نعم، لكن ثريا جان فوق في غرفتها، تريد أن تكلمك قبل ذلك.

أوكي.

قال بابا شيئاً لأحد ثم أغلق السماعة.

أمير؟ صوت ثريا.

سلام.

وافق أبي.

أعلم، قلت، وضعت السماعة على الأذن الأخرى، كنت أبتسم.

أنا سعيد جداً لدرجة أني لا أعرف ماذا أقول.

أنا سعيدة أيضاً، أمير، أنا... لا أصدق أن هذا يحدث.

ضحكت، أعلم.

اسمع، قالت، أريد أن أخبرك شيئاً، شيء يجب أن تعرفه قبل...

لا أريد أن أعرف.

يجب أن تعرف، لا أريد أن نبدأ وهناك أسرار بيننا وأفضل أن تسمع هذا مني.

إذا كان هذا سيريحك، أخبريني، لكنه لن يغير شيئاً.

كان هناك صمت طويل على الجانب الآخر.

عندما عشنا في فيرجينيا، هربت مع رجل أفغاني، كنت في الثامنة عشر وقتها.. ثائرة.. غبية، و.. كان مدمناً.. عشنا سوية حوالي الشهر، كل الأفغان في فيرجينيا كانوا يتحدثون عن هذا.

وجدنا أبي في النهاية، ظهر على الباب.. وجعلني أعود للبيت. كنت في حالة هيستيرية، أصرخ قائلة أني أكرهه... على كل، عدنا للبيت و.. كانت تبكي، معذرة.

سمعتها تضع السماعة جانباً، تنفخ أنفها.

آسفة، عادت. بدا صوتها أجش.

عندما عدت للبيت، كان على وجهِ أمي أثر ضربة، الجانب الأيمن من وجهها كان مشلولاً و.. شعرت كثيراً بالذنب، لا تستحق هذا.

نقلنا بابا إلى كاليفورنيا بعد هذا بوقت قليل.

وكيفَ علاقتك مع أبيك الآن؟ قلت.

دائماً كان لنا خلافاتنا، لا زلنا، لكنني ممتنة أنه جاء لأجلي ذلك اليوم. أعتقدِ فعلاً أنه آت لأجلي ذاك اليوم. أعتقد فعلاً أنه أنقذني. توقفت قليلاً. إذاً، هل يزعجك ما أخبرتك إياه؟

قليلاً. قلت. كنت أدين لها بالحقيقة في هذا.

لا أستطيع أن أكذب وأقول لها أن كبريائي (افتخاريٍ) لم يجرح أبداً أنها عاشرت رجلاً، بينما لم آخذ امرأة إلى الفراش أبدا. أزعجني هذا قليلاً، لكنني فكرت في الأمر كثيراً الأسابيع السابقة قبل أن أسأل بابا أن يذهب إلى كاستيغاري وفي النهاية كان السؤال الذيل لا يفارقني: كيف يمكنني، أنا من بين كل الناس، أن أعاقب شخصاً على ماضيه.

هل يزعجك كفاية كي تغير رأيك؟

لا، ثريا، ليس حتى قليلاً. قلت، لا شيء مما قلت يغير شيئاً، أريد أن نتزوج.

انفجرت ثريا بالبكاء.

حسدتها، سرها أصبح معلناً، لقد تعاملت معه، فتحت فمي وكنت سأخبرها كيف خنت حسان، كذبت، أزحته من طريقي، وحطمت علاقة عمرها أربعين سنة بين بابا وعلي، لكني لم أخبرها، علمت أن هناك كثيراً من الأشياء كانت ثريا فيها شخصاً أفضل مني.

الشجاعة كانت أحدها فقط.

- 13 -

وصلنا إلى بيت التاهيري المساء التالي، ليتقدم والدي لخطبتها رسمياً، كان علي أن أركن الفورد على الجهة المقابلة، لأن ممرهم كان مزدحماً بالسيارات. كنت أرتدي بذة زرقاء بلون البحر اشتريتها اليوم السابق بعد أن أعدت بابا إلى البيت من الكاستيغاري، نظرت إلى نفسي في المرآة الخلفية.

تبدو كوشتيب، وسيم، قال بابا.

شكراً، بابا. هل أنت بخير؟ هل تشعر أنك قادر على هذا؟

قادر على هذا؟ هذا أسعد يوم في حياتي، أمير. قال مبتسماً بتعب.

استطعت سماع أحاديث من الجهة الأخرى للباب، ضحك وموسيقى أفغانية خافضة - بدت كغزل كلاسيكي لأوستاد ساراهانغ. قرعت الجرس. نظر وجه من خلال ستائر نافذة البهو ثم اختفى.

لقد وصلوا! سمعت صوت امرأة تقول.

توقفت الأحاديث، أحدهم أطفأ الموسيقى، وفتحت خانم تاهيري الباب، السلام عليكم، قالت ببهجة.

كانت قد غيرت لون شعرها، مرتدية فستاناً أنيقاً أسود يصل حتى الكاحل، عندما دخلت إلى البهو، دمعت عيناها.

لا زلت على الباب وأنا أبكي منذ الآن، أمير جان. قالت.

طبعت قبلة على يدها، كما أوصاني بابا اليوم السابق، قادتنا خلال ردهة مضيئة إلى غرفة المعيشة، على الجدران الخشبية رأيت صور الناس الذين سيصبحون عائلتي الجديدة: خانم تاهيري شابة بشعر مرفوع فوق رأسها بشكل دائري، الجنرال - وشلالات نياغارا في الخلفية. هانم تاهيري في فستان طويل والجنرال في جاكيت بطيات ضيقة وربطة عنق نحيلة، شعر كثيف أسود: ثريا، على وشك ركوب قاطرة

خشبية، تلوح بيدها وتضحك. الضوء ينعكس عن التقويم الفضي لأسنانها، صورة للجنرال يلمع في لباسه العسكري الكامل، يصافح الملك حسين، ملك الأردن، لوحة لزاهير شاه.

كانت غرفة المعيشة مزدحمة بحوالي خمسة وعشرين مدعواً يجلسون على كراس مصفوفة على طول الجدران، عندما دخل بابا، وقف الجميع، درنا حول الغرفة، بابا يقود ببطء وأنا خلفه، نصافح ونحيي المدعوين، الجنرال ـ مازال في بذته الرمادية ـ عانق بابا، وبلطف ربت كل منهما على ظهر الآخر، قالا سلاماتهما بنبرة خفيضة، عانقني الجنرال بشدة وابتسم كأنه يخبرني : الآن، هذه هي الطريقة الصحيحة ـ الطريقة الأفغانية ـ للقيام بهذا، باتشيم. وقبلنا بعضنا ثلاث مرات على الخد.

جلسنا في الغرفة المزدحمة، بقرب بعض، قبالة الجنرال وزوجته، تحول تنفس بابا إلى لهاث خفيف، وبقي يمسح العرق عن جبهته ورأسه بمنديله. رآني أنظر إليه، فاغتصب ابتسامة مجهدة، أنا بخير، قال بلا صوت.

حفاظاً على التقاليد، لم تكن ثريا حاضرة.

لحظات قصيرة من الحديث ودردشات النميمة تلت إلى أن سعل الجنرال، عندها، غرقت الغرفة بصمت ونظر الكل إلى يديه باحترام، هز الجنرال رأسه لبابا، سعل بابا بدوره. عندما بدأ، لم يستطع أن يتحدث بجمل كاملة دون أن يتوقف ليتنفس.

جنرال صاحب، خانم جميلة جان.. بتواضع كبير، ابني وأنا.. أتينا إلى بيتكم اليوم. أنتم.. ناس شرفاء.. من عائلات مميزة وذات سمعة معروفة و.. نسب رفيع، أتيت بأكبر احترام.. والتقدير العظيم لكم، لأسماء عائلتكم، وذكرى.. أسلافكم. توقف، التقط أنفاسه، مسح حاجبه.

أمير جان هو ابني الوحيد... طفلي الوحيد، وقد كان ابناً جيداً لي، أتمنى أن يثبت... استحقاقه للطفكم، أطلب أن تشرفوا أمير جان وأنا... وتقبلوا ابني في عائلتكم.

هز الجنرال رأسه باحترام.

يشرفنا الترحيب بابنك كشخص في عائلتنا، قال، سمعتك تسبقك، كنت المعجب المتواضع بك في كابول وأبقى كذلك اليوم. نحن نشعر بالفخر أن عائلتك وعائلتنا ستصبحان واحدة.

أمير جان، بالنسبة لك، أرحب بك في بيتي كابن، كزوج ابنتي التي هي نور عيني. ألمك سيكون ألمنا، سعادتك ستكون سعادتنا، أتمنى أن تنظر إلى خالتك جميلة وأنا كأهلك، وأنا أدعو لك ولثريانا الرائعة بالسعادة، كلاكما تحظيان بمباركتنا.

صفق الجميع، ومع هذه الإشارة، التفتت كل الرؤوس إلى الردهة، اللحظة التي كنت أنتظرها، ظهرت ثريا في نهايتها، مرتدية لباساً تقليدياً أفغانياً لونه نبيذي مذهل، بأكمام طويلة وزركشات ذهبية. وضع بابا يده بيدي وشد عليها، انفجرت خانم تاهيري في الدموع. ببطء، أتت ثريا نحونا، تتبعها مرافقات من الفتيات الصغيرات، قريباتها، قبلت يد أبي وجلست قربي أخيراً، وعيناها تنظران للأسفل. وارتفع صوت التصفيق.

بحسب التقاليد، على عائلة ثريا القيام بحفلة الخطوبة (شيريني - كوري)، أو احتفال أكل الحلويات، تتبع بعدها فترة الخطوبة التي تستمر بضعة أشهر، بعدها الزفاف الذي يقوم به بابا، كلنا وافقنا على أن نتخطى الشيريني - كوري والكل يعلم السبب، لدرجة أنهم لم يضطروا لقوله. لم يكن بابا يملك بضعة شهور بعد في هذه الحياة، لم نخرج ثريا وأنا وحدنا فترة التحضيرات للزفاف بما أننا لم نكن قد تزوجنا بعد، ولم نقم حتى بالشيريني - كوري، كان ذلك يعتبر غير لائق، لذا كنت أذهب إلى بيت التاهيري مع بابا للعشاء. أجلس قبالة

ثريا على الطاولة متخيلاً كيف سيكون شعوري عندما تضع رأسها على صدري، أشم شعرها، أمارس الحب معها.

دفع بابا خمساً وثلاثين ألف دولار، تقريباً كل ما جمعه ، لأجل الأوروسي (حفل الزفاف).

استأجر قاعة مآدب أفغانية كبيرة في فريمونت - الرجل الذي يملكها يعرف بابا من كابول وأعطاه حسماً استثنائياً. دفع بابا للتشيلاس، ربطات زفافنا المتماثلة، وللخاتم الألماسي الذي انتقيته، اشترى توكسيدو، والبذة الخضراء التقليدية للنيكا (احتفال القسم).

بالنسبة لكل التحضيرات المجنونة لليلة الزفاف - التي أغلبها بإشراف خانم تاهيري وصديقاتها لحسن الحظ. أذكر فقط عدة لحظات منها، أذكر النيكا، كنا نجلس على الطاولة، أنا وثريا في حللنا الخضراء - لون الإسلام، لكن أيضاً لون الربيع والبدايات الجديدة. ارتديت بذة، ثريا (المرأة الوحيدة على الطاولة) ارتدت فستاناً طويل الأكمام وحجاباً، بابا، الجنرال تاهيري (يرتدي توكسيدو هذه المرة)، وعدة أعمام لثريا كانوا موجودين أيضا.

أنا وثريا كنا ننظر للأسفل، بوقار واحترام، نأخذ نظرات خاطفة إلى بعض. سأل المولى الشهود وقرأ من القرآن. قلنا عهودنا، وقعنا الوثائق. أحد أعمام ثريا من فيرجينيا، شريف جان، أخ خانم تاهيري، وقف وسعل، كانت ثريا قد أخبرتني أنه عاش في الولايات المتحدة لأكثر من عشرين سنة، يعمل في (INS)، ومتزوج من امرأة أميركية، وكان شاعراً أيضاً، رجل صغير الجثة، وجهه كوجه العصفور، وشعر ناعم.

قرأ قصيدة طويلة مهداة لثريا مكتوبة بعجل على أوراق فندق.

واه، واه شريف جان! قال الكل عندما انتهى.

أذكر نفسي أمشي نحو المسرح، مرتدياً توكسيدو الآن، وثريا ترتدي (باري) وحجاب أبيض، أيدينا مربوطة ببعضها. بابا يعرج بجانبي، الجنرال وزوجته بجانب ابنتهم، يتبعنا الأعمام، العمات، وأولاد العم.

تبعونا بينما مضينا خلال القاعة، قاطعين بحراً من المدعوين والتصفيق، نرمش على فلاشات الكاميرات، أحد أولاد عم ثريا، ابن شريف جان، رفع قرآناً فوق رأسينا بينما أهدينا أغنية الزفاف، أهيستا بورو ارتفعت من مكبرات الصوت، الأغنية التي غناها الجندي الروسي في نقطة تفتيش ماهيبار، الليلة التي تركنا فيها كابول.

اصنع الصباح مفتاحاً وارمه في البئر
امض برفق، قمري الجميل، امض برفق
اجعل شمس الصباح تنسى شروقها
امض برفق، قمري الجميل، امض برفق

أذكرنا جالسين على الصوفا، الموضوعة على المسرح كعرش، يد ثريا بيدي، بينما ثلاثمئة وجه أو أكثر يحدقون بنا. قمنا بالـ (أيينا ماسشاف) حيث يعطونا مرآة ويرمون ستاراً فوق رأسينا، كي نخلو لبعض وننظر إلى انعكاس الآخر في المرآة.

ناظراً إلى وجه ثريا الباسم في تلك المرآة، في الخصوصية التي لن أنساها تحت الستار، همست للمرة الأولى أني أحبها. احمرار بلون الحنة غطى وجهها.

أتصور صحوناً ملونة من كباب التشوبان، شوليه ـ غوشتي، والأرز بالبرتقال، أرى بابا بيننا على الصوفا، يبتسم، أذكر رجال سابحين بالعرق يرقصون الأتان التقليدية في دائرة، يقفزون، يدورون أسرع وأسرع مع الإيقاع المحموم للطبلة، حتى ترك الدائرة الأغلبية من الإجهاد. أذكر أني تمنيت لو كان رحيم خان موجوداً، وأذكر أني تساءلت إن كان حسان قد تزوج أيضاً، و وجه من رأى في المرآة تحت الستار؟ يدمن تلك المغطاة بالحنة أمسك؟

قرابة الثانية بعد منتصف الليل، انتقلت الحفلة من القاعة إلى شقة بابا، وزع الشاي مرة أخرى ولعبت الموسيقى إلى أن اتصل الجيران بالشرطة لاحقاً تلك الليلة، ولم يبق الا ساعة لشروق الشمس،

والمدعوون ذهبوا أخيراً، استلقينا أنا وثريا معاً للمرة الأولى. كل حياتي كنت بين الرجال، تلك الليلة، اكتشفت للمرة الأولى حنان المرأة.

كانت ثريا التي اقترحت أن تنتقل لتعيش مع بابا وأنا.

اعتقدت أنك ربما تريدين أن نملك مكاننا الخاص، قلت.

وكاكا جان مريض هكذا؟ ردت، عيناها أخبرتاني أن هذه ليست طريقة لبدء زواج.

قبلتها، شكراً لك.

كرست ثريا نفسها للعناية بأبي، كانت تصنع خبزه المحمص والشاي في الصباح، وتساعده للقيام من السرير، تعطيه مسكناته، تغسل ثيابه، تقرأ له القسم الخارجي من جريدة الأخبار عصر كل يوم، تطبخ له طبقه المفضل، بطاطا الشوروا، مع أنه بصعوبة كان يستطيع أكل بضعة ملاعق، وتأخذه كل يوم في نزهة قصيرة حول الحي، وعندما أصبح طريح الفراش، كانت تقلبه على أحد جنبيه كل ساعة كي لا يؤلمه السرير.

في أحد الأيام، عدت إلى البيت من الصيدلية جالباً حبات المورفين لبابا، وعندما أغلقت الباب، لمحت ثريا تخفي شيئاً تحت غطاء بابا.

هي، رأيتك! ماذا تفعلان أنتما الإثنان؟ قلت

لا شيء، قالت ثريا مبتسمة.

كاذبة، رفعت غطاء بابا، ما هذا؟ قلت، مع أني فور التقاطي للدفتر الجلدي، عرفت، لمست الدرزات الذهبية بأصابعي، تذكرت الألعاب النارية تلك الليلة التي أهداني رحيم خان الدفتر فيها، ليلة ميلادي الثالث عشر. شعلات تئز وتنفجر في باقات من الأحمر، الأخضر والأصفر.

لم أتخيل أنك تكتب هكذا. قالت ثريا.

جر بابا رأسه من على الوسادة، أنا جعلتها تقوم بذلك، أتمنى أن لا يزعجك هذا.

أعدت الدفتر لثريا وتركت الغرفة.

كره بابا رؤيتي أبكي.

بعد شهر من الزفاف، آل تاهيري، شريف، زوجته سوزي والعديد من عمات ثريا أتوا إلى شقتنا للعشاء.

أعدت ثريا سابزي تشاللو - زر أبيض مع السبانخ ولحم الغنم. بعد العشاء، شربنا جميعاً الشاي الأخضر ولعبنا الورق في مجموعات من أربعة. ثريا وأنا لعبنا مع شريف وسوزي على طاولة القهوة، قرب الأريكة حيث استلقى بابا تحت غطاء صوفي. راقبني أمزح مع شريف، راقبني وثريا نشبك أصابعنا مع بعضنا، شاهدني أرفع خصلة نافرة عن وجهها. استطعت رؤية ابتسامته الداخلية، واسعة كسماء كابول في الليالي التي ترتعش فيها أشجار الصفصاف ويعلو صوت الجداجد في الحدائق.

قبل منتصف الليلة بقليل، سألنا بابا أن نساعده كي يذهب إلى الفراش. وضعت وثريا ذراعيه حول أكتافنا، ووضعنا ذراعينا حول ظهره. عندما وضعناه في الفراش.

طلب منا أن ننحني كلانا، وقبل كلاً منا.

سأعود مع المورفين وكأس الماء، كاكا جان. قالت ثريا.

ليس الليلة، قال، ليس هناك ألم الليلة.

أوكي. قالت وأحكمت وضع الغطاء.

أغلقنا الباب.

لم يستيقظ بابا أبداً.

امتلأت المواقف عند المسجد في هايوورد. على المساحة العشبية الخالية خلف البناء، سيارات وشاحنات متوقفة في صفوف غير منتظمة. كان على الناس القيادة ثلاثة أو أربعة شوارع شمال المسجد كي يجدوا مكاناً لركن سياراتهم. قسم الرجال في المسجد كان غرفة مربعة كبيرة، مغطاة بسجادات أفغانية وفرش رقيقة موضوعة في خطوط متوازية

. دخل الناس إلى الغرفة، تاركين أحذيتهم عند المدخل، جلسوا متربعين على الفرش. رتل المولى سوراً من القرآن على المايكروفون.

جلست عند الباب، المكان التقليدي لعائلة الراحل. جلس الجنرال تاهيري بجانبي.

خلال الباب المفتوح، استطعت رؤية صفوفٍ من السيارات تتوقف، الشمس تغمز على نوافذها، أنزلوا ركاباً، رجالاً يرتدون بذات سوداء، نساء مكسوات بثياب سوداء، رؤوسهن مغطاة بالحجاب الأبيض التقليدي.

بينما ترددت كلماتٍ من القرآن في الغرفة، فكرت في القصة القديمة عن بابا يصارع دباً أسوداً في بالوتشيستان.

صارع بابا الدببة طوال حياته، خسارته زوجته الشابة، تربيته لابن بمفرده، تركه لأرضه المحبوبة، وطنه، فقره، كرامته. في النهاية أتى دب لم يستطع هزيمته. لكن حتى عندها، خسر بشروطه.

بعد كل جولة من الدعوات، مجموعات من المعزين اصطفوا وحيوني في طريقهم للخارج، بدافع الواجب فقط، صافحت أيديهم. لا أعرف الكثير منهم تقريباً، ابتسمت بداعي الأدب، شكرتهم لتمنياتهم، استمعت لكل ما قالوه عن بابا.

... ساعدَني كي أبني البيت في تايماني...

... باركه الله...

... لحين لم يعدٍ لدي أحد ألجأ إليه ، أقرضٍني...

... وجد عملاً لي... لم يكن يعرفني تقريباً...

... كأخٍ لي...

مستمعاً إليهم، أدركت كم كنت أنا، ماذا كنت أنا. لقد عُرّفت ببابا والعلامات التي تركها في حياة الناس، كل حياتي كنت (ابن بابا). والآن، رحل، لن يستطيع بابا أن يريني الطريق بعد الآن: علي أن أجده بنفسي، التفكير بهذا أرعبني.

في وقت سابق، في موقع الدفن في قسم صغير للمسلمين في المقبرة، راقبتهم ينزلون بابا في الحفرة، تجادل المولى ورجل آخر حول الآيات الصحيحة الواجب قراءتها في موقع الدفن، كان من الممكن أن تتحول

لشيء بشع لو لم يتدخل الجنرال تاهيري، اختار المولى آيات وقرأها، وهو ينظر إلى الرجل الآخر بازدراء. راقبتهم يرمون المجروف الأول من التراب في القبر، ثم ذهبت. مشيت إلى الجانب الآخر من المقبرة، وجلست في ظل شجرة قيقب حمراء.

الآن، أنهى آخر المعزين واجباتهم وأصبح المسجد خالياً إلا من المولى الذي ينزع قابس المايكروفون ويضع قرآنه في علبة خضراء. خرجت والجنرال إلى شمس بعد الظهيرة، نزلنا الدرجات، مارين برجال يدخنون في جماعات. سمعت بعضاً من أحاديثهم، مباراة كرة قدم في يونيون سيتي نهاية الأسبوع المقبل، مطعم أفغاني جديد في سانتا كلارا، الحياة تستمر منذ الآن، تاركة بابا خلفها.

كيف أنت، باتشيم؟ قال الجنرال تاهيري.

شددت على أسناني وحبست الدموع التي هددتني طوال اليوم.

سأبحث عن ثريا، قلت.

أوكي.

ذهبت إلى قسم النساء في المسجد، كانت ثريا واقفة على الدرجات مع أمها وسيدتان تعرفت عليهما بشكل مبهم يوم الزفاف، أشرت لثريا، فقالت شيئاً لأمها ثم أتت.

نستطيع أن نتمشى؟

بالطبع، أخذت يدي.

مشينا بصمت في طريق حجري ملتو محدد بصفين من الشجيرات القصيرة. جلسنا على مقعد وراقبنا زوجين كبيرين راكعين قرب قبر على بعد عدة صفوف ويضعان باقة أقحوان عند حجر الرأس.

ثريا؟

نعم؟

سأفتقده.

وضعت يدها على حضني، التشيلا الخاصة ببابا لمعت في أصبعها، خلفها، استطعت رؤية المعزين ببابا يقودون باتجاه جادة ميشين، قريباً سنذهب أيضاً، ولأول مرة، سيبقى بابا وحيدا.

قربتني ثريا منها، وأخيراً أتت الدموع.

بما أنني وثريا لم نمر بمرحلة الخطوبة، أكثر ما عرفته عن آل تاهيري، عرفته بعد زواجي بعائلتهم، على سبيل المثال، علمت أن الجنرال يعاني مرة كل شهر من الشقيقة التي تدوم أسبوعاً.

عندما تضرب أوجاع الرأس، يذهب الجنرال إلى غرفته، يتعرى، يطفئ الضوء، يقفل الباب، ولا يخرج حتى ينتهي الألم. وكان لا يسمح لأحد بالدخول، لا يسمح لأحد بقرع الباب، أخيراً، كان يخرج، مرتدياً حلته الرمادية ثانية، تفوح منه رائحة النوم وحشية السرير. عيناه منتفختان وشرايين عينه بارزة.

علمت من ثريا أنه وخانم تاهيري ينامان في غرفتين منفصلتين على مدى ما تذكر.

علمت أنه يمكن أن يصبح تافهاً، كما عندما يأكل قضمة من الكورما التي صنعتها خصيصاً، ينهر، ويبعده عنه. سأصنع شيئاً آخر، تقول تاهيري خانم، لكنه يتجاهلها، يعبس ويأكل الخبز والبصل، كان هذا يجعل ثريا تغضب وأمها تبكي، قالت لي ثريا أنه يتناول أدوية للكآبة، علمت أنه بقي يعيش وعائلته برخاء ولم يحصل على عمل في الولايات المتحدة مفضلا صرف شيكات الحكومة على الحط من شأنه بعمل ليس مناسباً لرجل في مكانته ـ وأنه وجد في سوق الخردوات هواية فقط، طريقة للاجتماع برفاقه الأفغان.

آمن الجنرال أنه عاجلا أم آجلاً، ستتحرر أفغانستان، ستستعاد المونارتشي، وستطلب خدماته ثانية، لذا، كان كل يوم يشع في بذته الرمادية، ينظف ساعة جيبه، وينتظر.

علمت أن خانم تاهيري ـ التي أصبحت أدعوها كالا جميلة الآن ـ كانت يوماً معروفة في كابول بصوتها الساحر. رغم أنها لم تحترف أبداً الغناء.

كان لديها الموهبة لتغني ـ كما علمت ـ الفلوكلور، الغزل، حتى الراغا، الذي كان عادة منطقة سيطرة الرجال. لكن بقدر ما كان الجنرال يقدر الاستماع للموسيقى ـ وكان يمتلك مجموعة هامة من كاسيتات الغزل القديمة لمغنين هنود وأفغان ـ كان مقتنعاً أنه من الأفضل تركها لأولئك المنحدرين من عائلات أقل رفعة.

وهكذا كان عدم غنائها أمام العامة أحد شروط الجنرال كي يتزوجوا، أخبرتني ثريا أن أمها أرادت أن تغني في زفافنا، أغنية واحدة فقط، لكن الجنرال حدجها بواحدة من تلك النظرات ودفنت المسألة.

كالا جميلة تلعب اليانصيب مرة كل أسبوع وتشاهد جوني كارسون كل ليلة. كانت تقضي أيامها في الحديقة، ترعى ورودها، الجيرانيوم، عروق البطاطا والأوركيد.

عندما تزوجت ثريا، أخذت الورود وجوني كارسون المقعد الخلفي، أصبحت البهجة الجديدة لحياة كالا جميلة، على عكس الجنرال الحذر، وأخلاقه الدبلوماسية ـ لم يصحح لي عندما بقيت أدعوه جنرال صاحب ـ لم تخف كالا جميلة كم عشقتني، لسبب وحيد، استمعت إلى قائمتها المبهرة من الأمراض، شيء أعار له الجنرال أذناً صماء منذ زمن طويل، أخبرتني ثريا أنه منذ أن أصيبت بسكتة، كل خفقة لقلبها هي ذبحة قلبية، وكل مفصل يؤلمها هو التهاب المفاصل، وكل رمشة عين هي سكتة أخرى، أذكر أول مرة أرتني كالا جميلة كتلة في رقبتها.

سأتغيب غداً، وآخذك إلى الدكتور. قلت

فابتسم الجنرال وقال: هذا يمكن أيضاً أن يغلق كتبك للأبد، باتشيم. جداول خالتك الطبية كأعمال رومي، تأتي على أجزاء.

ليس فقط أنها وجدت مستمعاً لأحاديثها الشخصية عن المرض. كنت متأكداً تماماً أنني إن حملت سلاحاً وذهبت إلى معركة قتل، سأظلُّ منتفعاً من حبها الذي لا شك فيه. لأنني طردت من قلبها مرض الحزن، أرحتها من أعظم مخاوف كل أم أفغانية: أن لا يوجد كاسيغار شريف يطلب يد ابنتها، أن ابنتها ستبقى وحيدة، بلا زوج، بلا أطفال، كل امرأة تحتاج زوجاً، حتى وإن قتل الأغنية داخلها.

ومن ثريا علمت تفاصيل ما حدث في فيرجينيا، كنا في زفاف ابن عم ثريا، شريف، الذي يعمل لـ (INS)، كان يزوج ابنه لفتاة أفغانية من نيو آرك. كان الزفاف في ذات القاعة التي، قبل ستة شهور، ثريا وأنا قمنا بالأوروسي خاصتنا.

كنا نقف بين حشد من المدعوين، نشاهد العروس تتلقى خواتماً من عائلة العريس، عندما سمعنا حديث امرأتين في منتصف العمر، لم تنتبها لوجودنا خلفهما: كم هي جميلة العروس، قالت إحداهما، انظري إليها، جميلة جداً، كالقمر.

نعم، قالت الأخرى، وطاهرة أيضاً، عفيفة، بلا (بوي فريندز).

أعلم، أقول لك أن الولد كان محقاً بعدم زواجه بابنة عمه.

انهارت ثريا في الطريق إلى البيت، ضغطت بشدة على المكابح وأوقفت الفورد تحت ضوء الشارع في جادة فريمونت.

ليست مشكلة، قلت وأنا ألاعب شعرها، من يهتم؟

ليس عدلاً، بحق الجحيم. صرخت.

انسي... ليس مهماً.

أولادهم يخرجون إلى الكباريهات باحثين عن اللحم، ويجعلون فتياتهم حوامل، وينجبون أولاداً خارج نطاق الزواج، ولا أحد يقول شيئاً، اللعنة، أوه، إنهم رجال يستمتعون بوقتهم! أخطئ مرة واحدة وفجأة، الكل يتحدث عن النانغ والناموس، وعلي أن أفرك وجهي بها كل حياتي.

مسحت دمعة نزلت على فمها، فوق وحمة الولادة تماماً.

لم أخبرك، قالت، وهي تمسح عينيها. لكن أبي ظهر ومعه سلاح تلك الليلة، قال... له... أن في المخزن طلقتين، واحدة له والأخرى لنفسه إذا لم أعد إلى البيت. كنت أصرخ، أشتمه بكل الكلمات. أقول له أنه لا يستطيع أن يحبسني للأبد، وأنني أتمنى لو كان ميتاً، انطلقت الدموع من عينيها مرة أخرى. قلت ذلك فعلا، تمنيت لو كان ميتاً. عندما أعادني إلى البيت، رمت ماما ذراعيها حولي، كانت تبكي أيضاً، قالت لي أشياء لم أستطع فهم شيء منها لأنها كانت تدمج كلماتها وتدغمها بطريقة سيئة جدا.

لذا، أخذني أبي إلى غرفة نومي وأجلسني مقابل (الدورسوار)، وأعطاني زوجا من المقصات وطلب مني بهدوء أن أقص كل شعري، راقبني بينما قمت بهذا.

لم أخرج من البيت لأسابيع، وعندما خرجت، سمعت همسات أو تخيلت ذلك في كل مكان أذهب إليه، كان هذا منذ أربع سنين، وثلاثة آلاف ميل من هنا وما زلت أسمعهم.

اللعنة عليهم، قلت.

أطلقت ثريا صوتاً بدا كنصف شهقة ونصف ضحكة.

عندما أخبرتك عن هذا على التليفون ليلة الكاستيغاري، كنت متأكدة أنك ستغير رأيك.

لا يمكنني، ثريا.

ابتسمَت وأخذت يدي.

أنا محظوظة جداً أنني التقيتك، أنت مختلف جداً عن أي رجل أفغاني أعرفه.

دعينا لا نتحدث عن هذا ثانية، أوكي؟

أوكي.

قبلتها على خدها وبينما كنت أقود السيارة تساءلت لم أنا مختلف. ربما لأنني ربيت من قبل رجال، لم أكبر وحولي نساء، ولم أعرف القيود المبالغ بها التي يعاملهن بها المجتمع الأفغاني، ربما لأن بابا كان أباً

أفغانياً غير عادي، ليبرالياً عاش حياته بقوانينه الخاصة، سياسياً استثنائياً استبعد العادات الاجتماعية، وعاش بما رآه مناسباً، لكن أعتقد أن الجزء الأكبر من السبب أني لم أهتم بماضي ثريا، أنني أملك نفسي. وأعلم كل شيء عن الندم.

بعد موت بابا بقليل، انتقلت وثريا إل شقة بغرفة نوم واحدة في فريمونت على بعد شوارع قليلة من بيت الجنرال وكالا جميلة. أهل ثريا اشتروا لنا أريكة من الجلد البني، وطقماً من صحون الميكاسا كهدية البيت الجديد، أعطاني الجنرال هدية إضافية، آلة كتابة نوع (IBM) جديدة، في العلبة، ووضع ملاحظة مكتوبة بالفارسية:

أمير جان، أرجو أن تكتشف العديد من الحكايات على هذه المفاتيح.

جنرال إقبال تاهيري.

بعت باص بابا الفولكس فاغن، ولليوم، لم أعد إلى سوق الخردوات. كنت أقود إلى قبره كل جمعة، وأحياناً أجد باقات لا تزال يانعة من الفريسياس عند حجر الرأس وأعلم أن ثريا كانت هنا.

انغمسنا أنا وثريا في روتين ـ والعجائب الثانوية ـ للحياة الزوجية. تشاركنا في الفراش والجرابات، نقرأ الجريدة الصباحية سوية، هي تنام على الجانب الأيمن من الفراش، أنا أفضل الأيسر، كانت تحب الوسادات الرقيقة، أنا أحب القاسية، تأكل حبوب الفطور جافة كالمقبلات، ثم تتبعها بالحليب. حصلت على قبول في جامعة سان خوسيه ذاك الصيف، وتخصص في الإنكليزية، حصلت على عمل حراسة في مستودع أثاث في ساني فايل، كان العمل مملاً بشكل قاتل لكن نعمته المنقذة كانت هامة جداً، فبعد أن يذهب الجميع عند السادسة مساء والظلال تبدأ زحفها عبر الممرات، بين الأرائك المكومة إلى السقف، كنت أخرج كتابي وأقرأ.

كان مكتب باينسول ـ سينتيد لذاك المستودع حيث بدأت روايتي الأولى.

انضمت ثريا إلي في جامعة سان خوسيه السنة التالية مخيبة أمل والدها في طريق التعليم.

لا أدري لم تضيعي مواهبك هكذا؟ قال الجنرال في ليلة على العشاء. هل علمت، أمير جان، أنها حصلت على (A) في كل موادها في الثانوية؟ التفت إليها، فتاة ذكية مثلك تستطيع أن تصبح محامية، مختصة بالسياسة، وانشاءالله، عندما تتحرر أفغانستان، تستطيعين أن تساعدي في كتابة الدستور الجديد، سيكون هناك حاجة للشبان الأفغان الموهوبين مثلك، حتى أنهم ربما يعرضوا عليك منصباً وزارياً، نظراً لاسم عائلتك.

استطعت رؤية ثريا تكتم غيظها.

أنا لست فتاة، أنا امرأة متزوجة، وعلى كل، سيحتاجون معلمين أيضاً.

أي شخص يستطيع أن يعلم.

هل هناك المزيد من الأرز، مادار؟ قالت ثريا.

بعد أن استأذن الجنرال ليلاقي بعض الأصدقاء في هايوورد، حاولت كالا جميلة أن تنصح ثريا.

إنه يقصد الخير، قالت، يريدك أن تكوني ناجحة.

كي يستطيع أن يتبجح عن ابنته المحامية أمام أصدقائه، ميدالية أخرى للجنرال. قالت.

هراء ما تقوليه.

ناجحة، تمتمت ثريا، على الأقل أنا لست مثله، جالسة بينما الآخرون يقاتلون الشوراوي، منتظراً الغبار كي يهدأ ليستطيع الدخول ويأخذ نصبه الحكومي الأنيق. ربما التعليم لا يدر الكثير من المال، لكنه ما أريد القيام به! إنه ما أحب، وإنه أفضل بكثير من كل الثروات، على فكرة.

عضت كالا جميلة على لسانها، إذا سمعك تقولين هذا، لن يتحدث إليك بعدها.

لا تقلقي، قالت ثريا، وهي ترمي منديلها على الصحن، لن أجرح كبرياءه الغالي.

في صيف ١٩٨٨، قبل انسحاب السوفييت من أفغانستان بستة أشهر، أنهيت روايتي الأولى، رواية (أب - ابن) تجري في كابول، مكتوبة بغالبها على الآلة الكاتبة التي أهداني إياها الجنرال. بعثت رسائل طلب لأكثر من عشر وكالات وصعقت في أحد أيام آب عندما فتحت صندوق البريد ووجدت طلباً من وكالة نيويوركية للنص الكامل، بعثته اليوم التالي، قبلت ثريا النص المغلف بعناية وأصرت كالا جميلة أن نمرره تحت القرآن، قالت أنها ستقوم بنذر لي، عهد أن تذبح نعجة وتوزع اللحم على المحتاجين إن قبل كتابي.

أرجوكي، بلا نذر، كالاجان، قلت وأنا أقبل وجهها، فقط امنحي الصدقة، أعط المال لشخص محتاج، (أوكي)، بلا قتل نعجة.

بعد ستة أسابيع، اتصل رجل اسمه مارتين غرينوولت من نيويورك وعرض أن يتولى إدارة أعمالي.

لم أخبر آحداً إلا ثريا.

فقط لأن لدي مدير أعمال لا يعني أني سأنشر الكتاب، إذا باع مارتين الرواية، عندها سنحتفل.

بعد شهر، اتصل مارتين، وأعلمني أني سأصبح روائياً مشهوراً، عندما أخبرت ثريا، لم تتوقف عن الصراخ، أقمنا عشاء احتفالياً مع أهل ثريا تلك الليلة، صنعت كالا جميلة كوفتا مع أرز أبيض مع فيرني أبيض. الجنرال - عيناه مبللتان بالدموع - قال أنه فخور بي.

بعد ذهاب الجنرال تاهيري وزوجته، احتفلت وثريا بزجاجة ميرلوت مكلفة اشتريتها في الطريق إلى البيت، الجنرال لم يوافق على شرب النساء للكحول، ولم تشرب ثريا في حضوره.

أنا فخورة جداً بك، قالت وهي ترفع كأسها، كاكا كان سيكون فخوراً أيضاً.

أعلم، قلت، وأنا أفكر في بابا، متمنياً لو يستطيع رؤيتي.

لاحقاً تلك الليلة، بعد أن نامت ثريا ـ دائماً كان النبيذ يجعلها نعسة ـ وقفت على الشرفة، وتنفست هواء الصيف المنعش، فكرت في رحيم خان وتلك الملاحظة التي كتبها لي بعد أن قرأ أول قصصي، وفكرت في حسان، يوماً ما، انشاء الله، ستصبح كاتباً عظيماً، قال مرة، والناس حول العالم سيقرؤون قصصك. هناك خير كثير في حياتي، سعادة كثيرة، تساءلت إن كنت أستحق أياً منها.

نشرت الرواية في صيف سنة ١٩٨٩ وأرسلني الناشر في جولة تروج للكتاب إلى خمس مدن، أصبحت نجماً صغيراً في المجتمع الأفغاني.

تلك كانت السنة التي أنهى فيها الشوراوي انسحابهم من أفغانستان، كان يجب أن يكون وقت مجد للأفغان، بدلاً من ذلك، استعرت الحرب، هذه المرة بين الأفغان المجاهدين، والحكومة التي يقودها جراء السوفييت برئاسة نجيب الله، بقي المهاجرون الأفغان يهربون إلى باكستان، تلك كانت السنة التي انتهت فيها الحرب الباردة، السنة التي هدم فيها جدار برلين، كانت سنة تيانانمين سكوير، وفي وسط هذا كله، كانت أفغانستان منسية، والجنرال تاهيري، الذي استيقظت آماله بعد خروج السوفييت، عاد إلى تنظيف ساعة جيبه.

تلك كانت أيضاً السنة التي بدأنا فيها أنا وثريا نحاول الإنجاب. فكرة الأبوة فيضٌ من المشاعر داخلي، وجدتها مرعبة، منعشة، مثبطة وآخذة للأنفاس، كلها في نفس الوقت. أي نوع من الآباء سأكون، تساءلت، أردت أن أكون مثل بابا، ولم أرد. لكن مضت سنة، ولم يحدث شيء. مع كل دورة شهرية، كانت ثريا تصبح متجهمة أكثر، عديمة الصبر أكثر، أكثر عصبية، لكن عندها، كثرت مزحات كالا جميلة، ككو ديغا! إذاً! متى سأغني ألاهو للناواسا الصغير؟ الجنرال، الباشتوني أبداً، لم يقل شيئاً ـ قيامه بذلك يعني اعترافه بوجود فعل

جنسي بين ابنته ورجل، حتى لو كان الرجل متزوجاً بها منذ أكثر من أربع سنين.

لكن عيناه كانتا تبرقان عندما تغيظنا كالا جميلة بشأن الطفل.

أحياناً، قديحتاج الأمر فترة من الوقت، قلت لثريا

السنة ليست فترة، أمير! قالت بصوت عصابي لا يمت لها بصلة، هناك أمرٌ سيء، أعلم هذا.

إذاً، لنرى دكتور.

دكتور روزين، رجل بكرش خفيف، وجهه ممتلئ وصغير، أسنانه متساوية، تحدث بلكنة شرق أوروبية غير واضحة، سلوفاكية ربما، كان لديه شغفاً بالقطارات ـ كان مكتبه مليئاً بالكتب التي تتحدث عن تاريخ السكك: موديلات القاطرات، رسومات قطارات تسير على السكك عبر تلال خضراء، أو على جسور.

ولافتة فوق مكتبه تقول: الحياة قطار، اصعد.

وضع خطة لنا، أنا سأفحص أولاً.

سهل فحص الرجال، قال، وأصابعه تدق على مكتبه الماهوجاني.

قضيب الرجل كعقله، بسيط، قليلة هي المفاجآت، أنتم السيدات.. حسن، فكر الله كثيراً في كيفية صنعكم. تساءلت إن كان يقول هذا لكل الأزواج.

لحظة، قالت ثريا.

ضحك د.روزين، كانت ضحكة قصيرة متقطعة لكنها صادقة، أعطاني بطاقة دخول للمخبر، وأنبوباً من البلاستيك، أعطى ثريا طلباً لبعض فحوص الدم الروتينية، صافحناه، أهلاً بكم على متن القطار، قال بينما مشى معنا حتى الباب.

مررت بألوان طائرة

الشهور التي تبعت كانت سحابة من الفحوص على ثريا، حرارة الجسم، فحوص دم لكل هرمون، فحوص بول، شيء يسمى (فحص مخاطية الرحم)، فحوص فوق صوتية، فحوص دم أخرى وفحوص

بول أخرى، خضعت ثريا لإجراء اسمه (هيستيرو سكوبيٍ) أدخل د. روزين مكبراً داخل رحم ثريا وأخذ نظرة إليه، لم يجد شيئاً.

المبولات نظيفة، أعلن، وهو يخلع قفازاته المطاطية، تمنيت لو يتوقف عن تسميتها هذا. لم نكن تواليتات، عندما انتهت الفحوص. شرح لنا أنه لا يستطيع تحديد سببٍ عدمٍ قدرتنا على الإنجاب، و، كما هو واضح، لم يكن هذا غريباً جداً، كان يسمى (عقم غير معروف السبب).

ثم أتت مرحلة العلاج، جربنا دواء اسمه كلوميفين، و(HMG)، سلسلة من الأبر أعطتها ثريا لنفسها.

عندما فشل هذا، نصحنا د. روزين بالتنشيط الصناعي.

وصلتنا رسالة لبقة من شركة تأميننا، ترجو لنا أفضل الحظ، وتندب عدم قدرتها على دفع الكلفة.

استخدمنا الدفعة التي حصلت عليها من روايتي.

الـ (IFV) أثبت طوله، دقته، إحباطه وفشله الذريع.

بعد شهور من الجلوس في غرف الانتظار، نقرأ مجلات كربة المنزل الجيدة والقارئ المجتهد، بعد ارتداء عدد لا ينتهي من الأردية الورقية، وغرف الفحص الباردة والمعقمة، المضاءة بأنوار الفلوروسين، الإذلال المتكرر من نقاش كل تفصيل في حياتنا الجنسية مع غرباء تماماً، عدنا إلى د. روزين وقطاراته.

جلسنا قبالته، طرق على مكتبه بأصابعه، واستخدم الكلمة (تبني) للمرة الأولى، بكت ثريا كل الطريق إلى البيت، صرحت ثريا بالأخبار لأهلها في عطلة الأسبوع التالية لزيارتنا الأخيرة للدكتور روزين. كنا نجلس على مقاعد للنزهات في الباحة الخلفية في بيت التاهيري، نشوي التراوت ونشرب اللبن (دوغ). كان مساء مبكراً من آذار ١٩٩١. كانت كالا جميلة قد روت الأزهار وخصوصاً زهور العسل الجديدة، امتزجت رائحة عطورهم برائحة السمك المشوي.

ولمرتين للآن، قامت من كرسيها لتمسح شعر ثريا وتقول، الله يعلم أفضل، باتشيم، ربما لم يكن هذا مقدرا.

بقيت ثريا تنظر إلى يديها، كانت متعبة، أعلم، متعبة من هذا كله، قال الدكتور أننا نستطيع أن نتبنى، تمتمت.

ارتفع رأس جنرال تاهيري عند سماعه هذا، أغلق غطاء الشواية، حقاً؟

قال أنه خيار، قالت ثريا.

كنا قد تحدثنا في البيت عن التبني، ثريا كانت مشوشة بأفضل الأحوال، أعلم أنه يبدو سخفاً وربما تكبُّرا. قالت لي في الطريق إلى بيت أهلها، لكن ليس بيدي حيلة، حلمت دائماً أني سأحمله بين يدي وأنا أعلم أن دمي غذاه لتسعة شهور، أني سأنظر في عينيه يوماً وأتفاجأ برؤيتك أو رؤيتي، أن الطفل سيكبر وله ابتسامتك أو ابتسامتي، بدون هذا... هل هذا خاطئ؟

لا، قلت.

هل هذا أناني؟

لا، ثريا.

لأنه إن كان ما تريده حقاً...

لا، قلت، إن كنا سنقوم بهذا، يجب أن لا يكون لدينا أي تردد بالأمر، وأن نكون متفقين على هذا، بغير هذه الطريقة لن يكون الأمر عادلا للطفل.

أراحت رأسها على النافذة ولم تقل شيئاً آخر طوال الطريق.

جلس الآن الجنرال قربها، باتشيم، هذا... التبني، لست متأكداً أنه لنا نحن الأفغان.

نظرت ثريا إلي بنظرة متعبة وتنهدت.

لسبب وحيد، يكبرون ويريدون معرفة أهلهم الطبيعيين، قال، لا تستطيعين لومهم، أحيانا، يتركون البيت حيث جاهدت سنيناً لتؤمني

احتياجاتهم كي يجدوا الأشخاص الذين أعطوهم الحياة. الدم شيء قوي، باتشيم، لا تنسي هذا.

لا أريد الحديث عن هذا بعد الآن. قالت ثريا.

سأقول شيئاً واحداً فقط. قال.

استطعت معرفة أنه بدأ يتحمس، كنا على وشك أن نتلقى واحداً من خطاباته.

خذي أمير جان، هنا، كلنا نعرف أبوه، أنا أعرف جده من كابول وجد جده قبله، أستطيع أن أجلس هنا وأخبرك عن أسلافه كلهم إن أردت، لهذا عندما أبوه - رحمه الله - أتي كاستيغاري، لم أتردد، وصدقيني، أبوه لم يكن ليقبل أن يطلب يدك لو لم يعلم من أي جذر أتيت، الدم شيء قوي، باتشيم، وعندما تتبني، لا تعلمين دم من تدخلين إلى بيتك. الآن، لو كنت أميركية، لن يهم هذا، الناس هنا يتزوجون للحب، اسم العائلة والأسلاف ليس لها وزن، لذا يتبنون، بما أن الطفل بصحة جيدة، فالجميع سعداء لكننا أفغان، باتشيم.

هل السمك جاهز؟ قالت ثريا، ركز الجنرال عيناه عليها، ربت على ركبتها، فقط كوني سعيدة، لديك صحتك ولديك زوج جيد.

ما رأيك، أمير جان؟ قالت كالا جميلة.

وضعت كأسي على الحافة حيث صف من زهور الجيرانيوم تشرب الماء. أظن أني متفق مع جنرال صاحب.. بثقة أكبر، هز الجنرال رأسه وعاد إلى الشواية.

كل منا كان لديه أسبابه لعدم التبني، ثريا لها أسبابها، للجنرال أسبابه، وكان سببي هذا، ربما شيء، شخص، مكان، قرر منعي من الأبوة بسبب ما قمت به، ربما كان هذا عقابي، وربما فقط هكذا... لم يكن من المقدر لنا هذا. كما قالت كالا جميلة.

أو ربما، كان مقدراً ألا يكون.

بعدها بشهرين، استخدمنا دفعة روايتي الثانية ودفعنا قسطاً لمنزل فيكتوري جميل بغرفتي نوم في مرتفعات بيرنال سان فرانسيسكو،

سطح البيت كان مدبباً، أرض من الخشب القاسي، ساحة خلفية صغيرة تنتهي بمنطقة للشواء ومكان لحمامات الشمس، ساعدني الجنرال في طلاء الجدران.

أنت خالة جميلة كثيراً لانتقالنا مسافة ساعة، خصوصاً منذ اعتقدت أن ثريا تحتاج كل الحب والدعم الذي من الممكن تقديمه ـ غافلة عن الحقيقة أن اهتمامها المبالغ به وشفقتها التي لا تحتمل كان السبب في جعل ثريا تنتقل.

أحيانا، وثريا تنام بجانبي، أستلقي في السرير وأستمع إلى الباب البلاستيكي يتأرجح مع النسيم، وحفيف الأوراق في الباحة، تقريباً، استطعت أن أشعر بالفراغ في رحم ثريا. كأنه شيء حي يتنفس، تسلل إلى زواجنا، ذاك الفراغ، إلى ضحكاتنا، وإلى ممارستنا للحب، وفي وقت متأخر من الليل، في ظلام غرفتنا، أشعر به يخرج من ثريا ويجلس بيننا، و ينام، كطفل حديث الولادة.

- 14 -

حزيران، ٢٠٠١

وضعت السماعة وحدقت بها طويلاً، لم أنتبه كم أصبحت الغرفة هادئة إلى أن أجفلت بصرخة من أفلاطون، كانت ثريا قد أخفضت صوت التلفاز.

تبدو شاحباً، أمير، قالت من الكنبة، نفس الكنبة التي أعطانا إياها أهل ثريا كهدية بالشقة الأولى، كانت مستلقية عليها ورأس أفلاطون مرتاح على صدرها. رجلاها مدفونتان تحت الوسادات، كانت تشاهد بعين سبق الـ (PBS) الخاص عن مشكلة الذئاب في مينيسوتا، وعين على مقالات طلابها من صف المدرسة الصيفية التي تعلم فيها، تعلم في نفس المدرسة منذ ست سنين للآن. جلست، وانزلق أفلاطون عن الأريكة، كان الجنرال من أعطى كلبنا الكوكر سبانيل اسمه، الفارسي لبلاتو، لأنه، قال الجنرال، إذا نظرت جيداً ومطولاً إلى عيني الكلب السوداوان، ستقسم بأنه يفكر في أفكار حكيمة.

كان هناك بعض السمنة، فقط لمحة منها تحت ذقن ثريا، السنين العشر الماضية ذهبت بانحناءات وركها بعض الشيء، ولونت بعض خصلات شعرها الأسود الفحمي بالرمادي، لكنها لازالت تملك وجه أميرة رائعة الجمال، بحاجبيها اللذين يشبهان جناحي عصفور يطير، وأنف منحوت كحرف من الكتابات العربية القديمة.

تبدو شاحباً، قالت ثريا ثانية. وهي تضع الأوراق على الطاولة.

يجب أن أذهب إلى باكستان.

وقفت ثريا متفاجئة. باكستان؟

رحيم خان مريض جداً. قبضة ضربتني عميقاً وأنا أقول هذه الكلمات.

شريك عمل كاكا القديم؟ لم تقابل رحيم، لكنني أخبرتها عنه، هززت رأسي.

أوه، قالت، أنا آسفة جداً، أمير.

كنا مقربين، قلت، عندما كنت طفلاً، كان الراشد الوحيد الذي أفكر به كصديق.

تصورته وبابا يشربان الشاي على مكتب بابا، ثم يدخنان قرب النافذة، روائح عطور ممتزجة تأتي مع النسيم الذي يهب من الحديقة ويرفع عمودين من الدخان.

أذكر أنك أخبرتني هذا، قالت ثريا، توقفت... ما هي المدة التي ستبقى فيها هناك؟

لا أعلم، يريد أن يراني.

هل...

نعم، إنها آمنة. سأكون بخير، ثريا. كان هذا السؤال الذي أرادت سؤاله منذ البداية.

خمس عشرة سنة من الزواج حولتنا لقارئي أفكار. سأذهب في جولة.

هل أذهب معك؟

لا، أفضل أن أكون وحدي.

قدت إلى حديقة البوابة الذهبية، ومشيت على طول بحيرة سبريكلز على الجانب الشمالي من الحديقة، كان بعد الظهيرة مشمس، تلألأت أشعة الشمس على الماء، حيث عشرات من القوارب الصغيرة أبحرت مدفوعةٍ بنسيم سان فرانسيسكوٍ المنعش. جلست على مقعد، راقبت رجلاً يرمي الكرة إلى ابنه، مخبراً إياه أنه لا يجب أن يرمي الكرة منٍ جنب يده، بل يرميها من فوق كتفه، نظرت للأعلى، ورأيتٍ زوجاً من الطائرات الورقية، حمراء بأذيال زرقاء، تطيران عالياً فوق الأشجار على الطرف الغربي من الحديقة، فوق طواحين الهواءٍ، فكرت بشيء قاله رحيم خان قبل أن تنتهي المكالمة. شيء قاله عرضاً، كتداعيات فكرة، أغلقت عيني، ورأيته على الطرف الآخر من الخط

المتقطع، رأيته وشفاهه مفتوحتان بالكاد، رأسه مائل إلى جنب، ومرة أخرى شيء في عينيه السوداوين العميقتين أشار إلى سر غير مباح بيننا، إلا أنني الآن علمت أنه يعلم، أنّ شكوكي كانت صحيحة كل تلك السنين، علم بشأن آصف، الطائرة الورقية، المال، الساعة هدية بابا. لقد علم منذ البداية.

تعال، هناك طريقة لتصبح جيداً ثانية. قال رحيم خان قبل أن تنتهي المكالمة مباشرة، قالها عرضا، كتداعيات فكرة، طريقة لتصبح جيداً ثانية.

عندما عدت للبيت كانت ثريا تتحدث مع أمها على الهاتف.

لن يتأخر، مادار جان، أسبوع، ربما اثنان... نعم، أنت وبادار جان تستطيعان البقاء معي...

قبل سنتين، كسر الجنرال وركه الأيمن، كان قد أصيب بإحدى حالات الشقيقة ثانية، وهو يخرج من غرفته بعد انتهائها. عيناه مليئتان بالعمش، وهو يشعر بالدوار، تعثر بحافة السجادة، صرخ صرخة جعلت كالا جميلة تركض من المطبخ، (بدت كجاروو) عصا ممسحة تنقسم نصفين. كم كانت تحب قول هذا، رغم أن الدكتور قال أنه من المستبعد أن تكون قد سمعت شيئاً كهذا، ورك الجنرال الممزق، وكل التعقيدات التي تبعتها، ذات الرئة، تسمم الدم، الإقامة المطولة في مركز الرعاية. توقفت أحاديث كالا جميلة الطويلة عن صحتها، وبدأت أخرى عن الجنرال، كانت تخبر أي شخص يستمع إليها أن الدكاترة أخبروهم أنه بدأ يصاب بالفشل الكلوي، لكنهم لم يروا كليات أفغان من قبل، أليس كذلك؟ كانت تقول بفخر.

ما أذكره أكثر من أي شيء عن إقامة الجنرال في المستشفى هو كيف كانت كالا جميلة تنتظر الجنرال لينام، وتغني له أغاني أذكرها من أيام كابول، على راديو بابا القديم.

ضعف الجنرال - والوقت - خففا من الحدة بينه وبين ثريا، أصبحا يتمشيان سوية، يتناولان الغداء أيام السبت، وأحيانا، كان الجنرال

يحضر صفوفها، يجلس في آخر مقعد في الصف، مرتدياً بزته الرمادية المشعة، مبتسماً، ويسجل ملاحظات.

تلك الليلة، استلقيت وثريا على السرير، ظهرها مضغوط على صدري، ووجهي مدفون في شعرها.

أذكر عندما كنا ننام وجهاً لوجه، نتبادل قبلاً هادئة، ونهمس لبعضنا إلى أن نغلق عيوننا، نتهامس عن أصابع صغيرة ناعمة، ابتسامات أولى، كلمات أولى، الخطوات الأولى، لا زلنا أحياناً نفعل، لكن الهمسات كانت عن المدرسة، كتابي الجديد، ضحكة حول لباس مضحك لشخص في حفلة. ممارستنا للحب لا تزال جيدة، وأحياناً أفضل من جيدة، لكنني أشعر بالراحة في بعض الليالي أني انتهيت منها، لأكون حراً في أن أشرد بعيداً وأنسى - حتى لو لفترة قصيرة - عبثية ما قمت به، لم تقل هذا أبداً، لكنني أعلم أن ثريا شعرت هكذا أحياناً، في تلك الليالي، كل منا يبتعد إلى طرفه من السرير ويفسح لخلاصه الخاص أن يأخذ مكانه، خلاص ثريا كان النوم، خلاصي، كما كان دائماً، كتاب.

استلقيت في الظلام الليلة التي اتصل فيها رحيم خان، وتابعت الأشعة الفضية للقمر على الحائط، وفي لحظة معينة، ربما قبل الفجر بقليل، استسلمت للنوم.

حلمت بحسان يركض في الثلج، حاشية تشابانه الأخضر مجرورة وراءه، الثلج يتحطم تحت حذائه المطاطي الأسود، كان يصيح بصوت عال: لأجلك... ألف مرة أخرى!

بعدها بأسبوع، جلست في مقعد قرب النافذة على رحلة طيران باكستان العالمية، أراقب عاملان في المطار يرفعان مكابح عجلات الطائرة. أقلعت الطائرة من المطار، وأصبحنا في الجو، نقطع الغيوم، أرحت رأسي على النافذة، وانتظرت، بصبر فارغ، النوم.

ـ 15 ـ

لثلاث ساعات بعد أن حطت طائرتي في بيشاوار كنت أجلس في كرسي ممزق في المقعد الخلفي لتاكسي مليئة برائحة الدخان، سائقي ـ الذي لا يتوقف عن التدخين ـ رجل كثير العرق، صغير الجثة، عرّف عن اسمه (غلام)، يقود بلا انتباه وبتهور ، يتفادى الاصطدامات في آخر لحظة، هذا كله بدون ذكر تقيؤه المتواصل للكلمات، فظيع ما يحدث لبلدك، يار، الأفغان والباكستانيون كالأخوة، المسلمون يجب أن يساعدوا المسلمين كي... وضعت نفسي على نظام هز الرأس.

تذكرت بيشاوار جيداً من الأشهر التي قضيتها وبابا هناك في ١٩٨١.

كنا ذاهبين غرباً على طريق جامرود، من خلال كانتومينت وبيوتها الباذخة عالية الأسوار، ضجيج المدينة الذي أراه حولي ذكرني بنسخة أكثر ضجيجاً وازدحاماً من كابول التي عرفتها، خصوصاً الكوتشيه ـ مورغا، بازار الدجاج، حيث اعتدنا أنا وحسان أن نشتري البطاطا مع الصلصة وماء الكرز.

كانت الطرقات مليئة بركاب الدراجات الهوائية، متجولين، ريشكوزات تنفخ دخاناً أزرق، كلها تدور في متاهة من الطرقات والأزقة الضيقة، بائعون ملتحون يلفون أنفسهم بأغطية خفيفة من جلد الحيوان، يبيعون مظلات مصابيح، سجادات، وشاحات ومنحوتات نحاسية في صفوف من الأكشاك الصغيرة الملتصقة ببعضها، كانت المدينة تضج بالأصوات: صرخات الباعة ترن في أذني ممزوجة بموسيقى هندية، فرقعة الريكشوزات، وأصوات الأجراس المعلقة في أعناق الأحصنة التي تجر العربات، روائح غنية، بعضها جميل والبعض الآخر ليس كثيراً، تأتيني من النافذة، رائحة الباكورا المبهرة والنيهاري

التي أحبها بابا كثيراً ممزوجة بلذعات أدخنة الديزل، العفن، النفايات والغائط.

بعد الأبنية الحمراء لجامعة بيشاوار، دخلنا منطقة أشار لها سائقي الثرثار بمنطقة الأفغان. رأيت محلات حلويات وبائعي سجاد، أكشاك كباب، أطفال متسخي الأيدي يبيعون السجائر، مطاعم صغيرة، خرائط لأفغانستان مرسومة على النوافذ ـ كلهم يأخذون معونات من وكالات الإغاثة. كثير من أخوتك في هذه المنطقة، يار، يفتحون أعمالاً، لكن أغلبهم فقراء للغاية. طرقع لسانه وتنهد، على أي حال، أصبحنا قريبين.

فكرت في المرة الأخيرة التي رأيت فيها رحيم خان في ١٩٨١.

أتى ليودعنا في الليلة التي هربنا فيها أنا وبابا من كابول.

أذكره وبابا يتعانقان في البهو، وبكيا قليلاً.

عندما وصلنا بابا وأنا إلى الولايات المتحدة، بقي على اتصال مع رحيم خان، كانا يتحدثان أربع أو خمس مرات في السنة، وأحياناً، كان يضعني بابا على السماعة. آخر مرة تحدثت فيها إلى رحيم خان كانت بعد موت بابا بقليل. وصلت الأخبار إلى كابول واتصل، تحدثنا بضع دقائق فقط إلى أن قطع الاتصال.

توقف السائق عند بناء ضيق على منعطف مزدحم حيث يتقاطع طريقان رئيسيان، دفعت للسائق، أخذت حقيبتي ومشيت إلى باب منحوت عليه رموز معقدة: كان للبناء شرفات خشبية ونوافذ مفتوحة ـ من معظمها يتدلى غسيل ليجف تحت أشعة الشمس. صعدت السلالم ذات الصرير إلى الطابق الثاني، داخل بهو مظلم إلى آخر باب على اليمين، تحققت من العنوان على ورقة من أوراق المحطة، بيدي طرقت، ثم، شيء مصنوع من جلد وعظام يتظاهر أنه رحيم خان فتح الباب.

بدأني بالقول :أستاذ كتابة إبداعية في جامعة سان خوسيه كان يقول عن الكليشات: تجنبهم كالطاعون. ثم يضحك على نكتته،

ويضحك الصف معه، لكني دائماً اعتقدت أن الكليشات لديها خصوصيتها، لأنها غالباً، تكون دقيقة تماماً، لكن الذكاء في الكليشات مغطى بطبيعة القول ككليشيه، على سبيل المثال، الفيل في الغرفة (لا شيء يمكن أن يصف بدقة أكثر لحظات اجتماعي برحيم خان).

جلسنا على سجادة من القش مفروشة من الجدار إلى النافذة التي تطل على الشارع الضاج بالحركة في الأسفل.

سقطت الشمس على الأرض وصنعت مثلثاً من الضوء على السجادة الأفغانية.

كرسيين قابلين للطي موضوعين على الحائط وساموفار نحاسي صغير في الزاوية المقابلة، صببت لنا الشاي منه.

كيف عثرتِ عليٍ؟ سألته.

ليس صعباً إيجاد شخص في أميركا، اشتريت خريطة للولايات، واتصلت بالاستعلامات، وسألت عن المدن في شمال كاليفورنيا، قال، شيء رائع رؤيتك كرجل بالغ.

ابتسمت ووضعت ثلاث قطع سكر في كأسي، هو يحب شايه أسوداً وبلا سكر، تذكرت.

لم تحن لبابا الفرصة كي يخبرك لكني تزوجت منذ خمس عشرة سنة.

الحقيقة كانت، أن السرطان في دماغ بابا جعله كثير النسيان، وغير مكترث.

أنت متزوج؟ ممن؟

اسمها ثريا تاهيري، فكرت فيها في البيت، قلقة علي، كنت سعيداً أنها ليست وحيدة.

تاهيري... ابنة من هي؟

أخبرته، لمعت عيناه، أوه نعم، أذكر الأب، أليس الجنرال تاهيري المتزوج بأخت شريف جان؟ ماذا كان اسمها...

جميلة جان.

بالاي! قال، مبتسماً، عرفت شريف جان من كابول، قبل أن ينتقل إلى أميركا بوقت طويل.

أصبح يعمل للـ (INS) منذ سنوات، يحل كثيراً من قضايا الأفغان.

هاي، تنهد، هل لديك وثريا جان أولاد؟

لا.

أوه، شرب شايه دفعة واحدة ولم يطلب أن أملأ كأسه.

رحيم خان كان دائماً واحداً من أكثر الناس الذين عرفتهم غريزية، أخبرته كثيراً عن بابا، عمله، سوق الخردوات، وكيف في النهاية، مات سعيداً، أخبرته عن جامعتي، كتبي - أربع روايات منشورة لي وقتها. ابتسم عندها، وقال أنه دائماً كان مؤمناً بموهبتي. أخبرته أني كتبت قصة قصيرة في الدفتر الجلدي الذي أعطاني إياه، لكنه لم يذكره.

حتمياً، انتقل الحديث إلى طالبان.

هل الوضع سيء كما أسمع؟ قلت.

لا، أسوأ، أسوأ بكثير، قال، لا يسمحون للمرء أن يكون إنساناً، أشار إلى ندبة فوق عينه اليمنى، وقد حفرت أخدوداً في حاجبه الكثيف، كنت في مباراة كرة قدم في استاد غازني ١٩٩٨، كابول ضد مزارشريف، أعتقد، وبالمناسبة ليس مسموحاً للاعبين أن يلبسوا الشورتات، عري غير لائق، أعتقد. ضحك ضحكة متعبة، على كل سجل كابول هدفاً والرجل بجانبي هتف بصوت عال، فجأة، صديق ملتح شاب كان يمشي بين الممرات، ثمانية عشر سنة على الأكثر عمره، مشى نحوي وضربني بسبطانة الكلاشنكوف.

قم بهذا ثانية، وسأقطع لسانك، حمار عجوز! قال

فرك رحيم خان الندبة بإصبع ملتو، كنت كبيراً كفاية لأكون جده، كنت أجلس هناك، والدم يتدفق من وجهي، أعتذر لابن الكلب ذاك.

صببت له المزيد من الشاي، أخبرني رحيم خان أشياء أخرى كنت أعرف معظمها.

أخبرني أنه ـ كما اتفق مع بابا ـ عاش في بيت بابا منذ ١٩٨١. كنت أعرف هذا.

(باع) بابا البيت لرحيم خان قبل فرارنا من كابول بقليل، رأى بابا الوضع آنذاك هكذا، مشاكل أفغانستان كانت توقف مؤقت لطريقتنا في الحياة ـ أيام الحفلات في البيت والرحلات إلى باغمان ستعود بالتأكيد، لذا أعطى البيت لرحيم خان ليعتني به حتى ذاك اليوم.

أخبرني رحيم خان أنه، عندما سيطرت قوات اتحاد شمال الأطلسي على كابول بين ١٩٩٢ إلى ١٩٩٦، احتلت قوى مختلفة مناطق مختلفة من كابول، إذا ذهبتَ من مقاطعة شار ـ إي ـ ناو إلى كارتيه ـ باروان لتشتري سجادة، فأنت تخاطر بأن تصاب بطلقة قناص أو أن يفجرك صاروخ ـ بعد أن تقطع كل نقاط التفتيش، هكذا كان الوضع، أنت مضطر لفيزا كي تنتقل من حي لآخر، لذا بقي الناس في بيوتهم، يصلّون كي لا يصيب الصاروخ التالي بيتهم، اخبرَني أن الناس فتحوا ثغرات في جدران بيوتهم وأصبحوا ينتقلون من شارع لآخر من ثغرة لأخرى. في مناطق أخرى، كان الناس ينتقلون في أنفاق تحت الأرض.

لماذا لم ترحل؟ قلت.

كانت كابول وطني وما زالت، أتذكر الشارع الذي يذهب من بيتك إلى الكيشلا (الثكنات العسكرية) قرب مدرسة الاستقلال؟

نعم، كان الطريق المختصر للمدرسة، تذكرت اليوم الذي قطعناه أنا وحسان وأغاظ الجنود حسان عن أمه. بكى حسان في السينما لاحقاً، ووضعت ذراعي حوله.

عندما دخل الطالبان وطردت قوات التحالف من كابول، رقصت في ذلك الشارع، قال رحيم خان، وصدقني، لم أكن وحدي. كان الناس يحتفلون في تشامان، في ديه ـ مازانغ يحييون قوات طالبان في الشوارع، يصعدون على دباباتهم ويتصورون معهم. كان الناس متعبين من القتال المتواصل، متعبين من الصواريخ، الرصاص و الانفجارات، متعبين من مشاهدة غولبادين ومجموعاته يقتلون أي شيء يتحرك،

التحالف دمر كابول أكثر من الشوراوي، لقد دمروا ميتم أبيك، هل علمت هذا؟

لماذا، قلت، لماذا يدمرون ميتماً؟

تذكرت نفسي أجلس خلف بابا يوم افتتاح الميتم، أطارت الريح قبعته الكاراكول، وضحك الجميع، ثم وقفوا وصفقوا عندما أنهى كلمته، والآن هو كومة من الركام فقط، كل المال الذي أنفقه بابا، كل تلك الليالي التي أمضاها يصمم هندسة الميتم، كل تلك الزيارات إلى موقع البناء كي يتأكد أن كل حجر، كل عمود في مكانه...

تدمير وقائي، قال رحيم خان، لا تريد أن تعلم، أمير جان، كيف كان البحث بين ركام الميتم، كان هناك قطع من أجسام أطفال... لذا، عندما أتت طالبان... اعتبرناهم أبطالاً. قال رحيم خان، السلام أخيراً.

نعم، الأمل أمر غريب، السلام أخيراً، لكن ما الثمن؟

سعلة عنيفة أمسكت برحيم خان وهزته للأمام والخلف، عندما بصق في منديله، كان دماً، رأيت أنه وقت جيد كأي وقت لمخاطبة الفيل المجهد في الغرفة الصغيرة معنا.

كيف حالك؟ سألت، أقصد حقاً، كيف حالك؟

أموت، حقيقة. قال بصوت مخنوق. جولة أخرى من السعال، المزيد من الدم في المنديل، مسح فمه، ثم مسح العرق عن حاجبه، واختلس نظرة إلي. عندما هز رأسه، علمت أنه قرأ السؤال التالي على وجهي.

ليس كثيراً، تنفس.

كم؟

هز كتفيه، سعل ثانية، لا أظن أني سأرى نهاية هذا الصيف، قال.

دعني آخذك معي، أستطيع أن أجد طبيباً جيداً لك، يكتشفون علاجات جديدة كل الوقت، هناك أدوية جيدة وعلاجات تجريبية، تستطيع أن تسجل في أحدها...

كنت أداهن، أعلم ذلك، لكنه كان أفضل من البكاء، الذي كنت سأبدأ به على الأغلب.

أصدر صوتاً يشبه الضحك، أظهر سناً مفقوداً، كانت أكثر الضحكات التي سمعتها تعباً.

أرى أن أميركا حقنتك بالأمل الذي جعلها عظيمة جداً، هذا جيد جداً، نحن أشخاص سوداويون، نحن الأفغان، ألسنا غالباً، نمرغ أنفسنا كثيراً في الغامكهوري والشفقة على النفس؟ نستسلم للخسارة، للعذاب، نقبلها كحقيقة في الحياة، حتى نراها ضرورية، زينداغي ميغزارا، نقول، الحياة تستمر، لكني لا أستسلم للقدر هنا، أنا براغماتي هكذا، لقد ذهبت للعديد من الدكاترة الجيدين هنا، وكلهم أجابوني بنفس الجواب، أنا أثق بهم وأصدقهم.

هناك شيء يسمى إرادة الله.

هناك فقط ما تفعله وما لا تفعله. قلت

ضحك رحيم خان، تبدو كأبيك تماماً الآن، أشتاق له كثيراً، لكنها إرادة الله، أمير جان، إنها فعلاً هكذا.

توقف قليلاً، على كل، هناك سبب آخر لطلبي حضورك، أردت أن أراك قبل ذهابي، نعم، لكن هناك شيء آخر.

أي شيء؟

أنت تعلم أني عشت في بيت أبيك بعد رحيلكما؟

نعم.

لم أكن وحدي، عاش حسان هناك معي.

حسان. قلت، متى كانت المرة الأخيرة التي لفظت فيها اسمه؟

تلك الشوكات القديمة الحادة من الذنب غارت داخلي مرة ثانية، كأن لفظي اسمه كسر رقية، حررها كي تعذبني ثانية، فجأة، أصبح الهواء في شقة رحيم خان الصغيرة سميكاً جدا، حاراً جداً، غنياً كثيرا برائحة الطريق.

فكرت بالكتابة لك وإخبارك قبل الآن، لكني لم أكن متأكداً انك تريد أن تعرف، هل كنت مخطئاً؟

الحقيقة كانت لا، الكذبة كانت نعم، أخذت مكاناً بينهما، لا أعلم.

سعل بقعة ثانية من الدم في المنديل، عندما أمال رأسه ليبصق رأيت بقع القرحة المتقشرة على جبهته، أحضرتك إلى هنا لأني أريد أن أطلب شيئاً منك، سأسألك أن تقوم بشيء لي، لكن قبل هذا، أريد أن أخبرك عن حسان، هل تفهم؟

نعم، هممهمت.

أريد أن أخبرك عنه، أريد أن أخبرك كل شيء، ستنصت؟

هززت رأسي.

شرب رحيم خان بعض الشاي، أراح رأسه على الجدار، ثم تحدث.

- 16 -

كان هناك الكثير من الأسباب لأذهب إلى هازاراجات وأجد حسان في ١٩٨٦، السبب الأكبر، فليغفر لي الله، أني كنت وحيداً، فبحلول تلك السنة، أغلب أصدقائي وأقاربي، إما قتلوا أو هربوا من البلد إلى باكستان أو إيران. لم أعد أعرف أحداً في كابول تقريباً، الكل هرب من المدينة التي عشت فيها حياتي كلها. كنت أتمشى في مقاطعة كارتيه - باروان - حيث كان بائعي البطيخ يمضون وقتهم في الأيام القديمة، أتذكر تلك المنطقة؟ - ولا أتعرف على أحد، لا أحد لأحييه، لا أحد لأجلس معه (للتشاي) لا أحد لأتشارك الحكايات معه، فقط جنود روس يحرسون الطرقات، لذا، نهاية، توقفت عن الذهاب إلى المدينة، كنت أمضي أيامي في بيت أبيك في المكتب، أقرأ كتب أمك القديمة، أستمع إلى الأخبار، أشاهد الدعايات الشيوعية على التلفاز، ثم أصلي الناماز، أطبخ شيئاً، آكل، أقرأ أكثر، أصلي ثانية، ثم أذهب إلى السرير، أستيقظ في الصباح، أصلي، أعيد الكرة مرة ثانية، ومع التهاب مفاصلي، أصبح أصعب علي الحفاظ على المنزل، ركبتي وظهري كانا يؤلماني دائماً - أستيقظ في النهار وتأخذ مني ساعة كي أحل التصلب من مفاصلي، خصوصاً في أوقات الشتاء، لم أرد أن أترك بيت أبوك يتداعى، لقد أمضينا جميعاً أوقاتاً جيدة في ذاك المنزل، الكثير من الذكريات، أمير جان. لم يكن عدلاً... أباك صمم المنزل بنفسه، لقد عنى الكثير له، وعلى كل، أنا وعدته أن أهتم به عندما رحلتما إلى باكستان، لم يبق غيري والمنزل... قمت بما في استطاعتي. حاولت أن أسقي الأشجار كل يومين أو أكثر، أقص العشب، أهتم بالورود، أصلح الأشياء التي تحتاج الإصلاح، لم أكن رجلاً شاباً وقتها، لكن رغم ذلك، ربما كنت قادراً على التدبر، على الأقل لفترة

ليست بالقصيرة، لكن عندما وصلتني أخبار موت أبيك... للمرة الأولى، شعرت بوحدة قاتلة في ذاك المنزل، فراغ لا يحتمل، لذا، في أحد الأيام، ملأت البويك بالوقود، وقدت إلى هازاراجات، تذكرت أنه، بعد أن صرف علي نفسه من المنزل، أخبرني أبوك أن علي وحسان انتقلا إلى قرية صغيرة خارج باميان، لعليّ ابن عم هناك كما تذكرت. لم أكن أملك فكرة إن كان حسان لا يزال هناك، إن كان أحد يعرف عنه حتى أو عن مكانه. فقد مضت عشرٍ سنوات منذ رحل علي وحسان عن بيت أبيك، حسان سيكون رجلاً بالغاً في ١٩٨٦، اثنتين وعشرين، ثلاث وعشرين سنة، إن كان حياً حتى، لأن ـ الشوراوي، فليتعفنوا في الجحيم لما فعلوه بوطننا، قتلوا الكثير من شبابنا، لا أحتاج لإخبارك هذا. لكن، لرحمة الله، وجدته هناك، لم يأخذ مني هذا إلا القليل من البحث ـ كل ما قمت به كان سؤال بعض الأسئلة في باميان وأشار الناس إلى القرية، لا أذكر حتى اسمها، أو حتى إن كان لها اسم. لكن أذكر أنه كان يوماً صيفياً حاراً، وكنت أقود على طريق ترابي سيء، لاشيء على الجانبين إلا شجيرات معكوفة طبختها الشمس، جذوع شجيرات ملتفة، وعشب جاف يبدو كالقش. مررت بجثة حمار ميت يتعفن على جنب الطريق، ثم لففت منعطفاً، وفي منتصف تلك الأرض القاحلة رأيت تجمعاً من البيوت الطينية، خلفها لا يوجد شيء، إلا سماء لا تنتهي، وجبال كأسنان متباعدة، أخبرني الناس في باميان أني سأجده بسهولة ـ هو يعيش في البيت الوحيد في تلك القرية الذي يملك حديقة محاطة بالأسوار. السور الطيني، قصير ومليء بالثقوب، كان يضيق على البيت الصغير ـ الذي لم يكن إلا كوخاً جيداً بأحسن الأحوال ـ أطفال حفاة يلعبون في الطريق، يضربون كرة تنس مهترئة بعصا، أخذوا يحدقون بي عندما أوقفت السيارة. طرقت على الباب الخشبي، ودخلت إلى باحة صغيرة جداً بالكاد تتسع لبقعة توت بري جاف وشجرة ليمون عارية: كان هناك تاندور في الزاوية تحت ظل شجرة أكاسيا، ورأيت رجلاً منحن قبالتها. كان يضع العجينة على

لوح خشبي كبير، ويضربها بجدران التاندور، رمى العجينة عندما رآني، كان عليَّ أن أمنعه عن تقبيل يدي.

أريد أن أنظر إليك، قلت.

ابتعد خطوة، أصبح طويلاً جداً ـ وقفت على رؤوس أصابعي ولم أصل إلا لذقنه. شمس باميان قسَّت بشرته، وجعلتها داكنة أكثر مما أذكر، وكان قد خسر بعضاً من أسنانه الأمامية، وبعض الشعر المتناثر على ذقنه، عدا عن ذلك، كان لديه نفس العينين الخضراوين الضيقتين، الندبة على شفته العليا، ذاك الوجه الدائري، الابتسامة المحببة، كنت ستعرفه أمير جان، أنا متأكد من هذا.

دخلنا إلى البيت، كان هناك امرأة هازارية شابة بشرتها فاتحة، تخيط شالاً في زاوية الغرفة، كانت تحفة للعيان. هذه زوجتي، رحيم خان، قال حسان بفخر، اسمها فارزانا جان. كانت امرأة خجولة مهذبة لدرجة أنها تحدثت بصوت بصعوبةٍ يصل إلى مستوى الهمس، ولم ترفع عينيها البندقيتين لتلتقيا بعيني. لكن الطريقة التي كانت تنظر بها إلى حسان، كأنه يجلس على عرش الآرغ.

متى سيأتي الطفل؟ قلت بعد أن جلسنا جميعاً على الأرض الطينية. لم يكن هناك شيء في الغرفة، فقط سجادة مهترئة، بعض الصحون، زوج من الفرش وفانوس.

هذا الشتاء، انشاءالله. قال حسان، أنا أعدو كي يأتي ولداً ليحمل اسم أبي.

بالحديث عن علي، أين هو؟

نظر حسان إلى الأرض، أخبرني أن علي وابن عمه ـ الذي كان يملك هذا المنزل ـ قتلهما لغم أرضي قبل سنتين خارج باميان.

لغم أرضي، هل من طريقة أفغانية أكثر للموت، أمير جان؟ ولسبب مجنون ما، أصبحت متأكداً تماماً أن رجل علي اليمنى ـ التي أصابتها الغرغرينا ـ هي التي خانته أخيراً ودعست على ذاك اللغم.

لقد آلمني كثيراً سماع موت علي، أبوك وأنا ترعرعنا سوية كما تعلم، وكان علي معه منذ أذكر.

أذكر عندما كنا جميعاً صغاراً، السنة التي أصابت بها الغرغرينا علي، وكاد أن يموت. أبوك كان يمشي حول البيت كل يوم باكياً.

أعدت لنا فارزانا الشوروا مع البازلاء، اللفت والبطاطا. غسلنا أيدينا وغمرنا الخبز الطازج من التاندور في الشوروا - كانت الوجبة الأفضل التي تناولتها منذ عدة أشهر.

عندها سألت حسان أن ينتقل إلى كابول معي، أخبرته عن المنزل، كيف لم أعد أستطيع أن أهتم به. أخبرته أني سأدفع له جيداً، أنه وخانمه سيرتاحان، نظرا إلى بعضهما ولم يقولا شيئاً. لاحقاً، بعد أن غسلنا أيدينا وجلبت لنا فارزانا العنب، قال حسان أن القرية هي وطنه الآن، أنه وفارزانا صنعا حياة هنا، وباميان قريبة جداً، نحن نعرف الناس هنا، اعذرني رحيم خان، أتمنى أن تفهم.

بالطبع، قلت، ليس هناك شيء لتعتذر عليه، أنا أفهم.

كنا نشرب الشاي بعد الشوروا عندما سأل عنك حسان، أخبرته أنك في أميركا، لكني لا أعلم كثيراً غير هذا، كان لدى حسان العديد من الأسئلة عنك. هل تزوجت؟ هل لديك أطفال؟ كم أصبح طولك؟ هل لا زلت تطير الطائرات وتذهب إلى السينما؟ هل كنت سعيداً؟ قال أن لديه صديق قديم، معلم فارسية عجوز في باميان علمه القراءة والكتابة، إذا كتب لك رسالة، هل أمررها لك؟ هل أعتقد أنك ستكتب له رداً؟ أخبرته ما أعرفه عنك من الاتصالات القليلة مع أبيك، لكن غالباً لم أعرف كيف أجيبه، ثم سألني عن أبيك، عندما أخبرته، دفن وجهه بين يديه وانفجر بالبكاء، بكى كطفل صغير كل الليل.

أصرَّا أن أمضي الليلة هناك، أعدت فارزانا مكاناً لي وتركت لي كأساً من ماء البئر في حال عطشت.

كل الليل، سمعتها تهمس لحسان، وسمعته يتنهد.

في الصباح، أخبرني حسان أنه وفارزانا قررا الانتقال معي إلى كابول.

لم يكن علي القدوم هنا، قلت، كنت محقاً حسان جان، لديك زينداغي (حياة) هنا، كان صلفاً مني أظهر هكذا، وأسألك أن تترك كل شيء، وأنا الذي يجب أن يطلب السماح.

ليس لدينا الكثير لنتركه، رحيم خان. قال حسان. كانت عيناه لا تزالا حمراوتان ومنتفختان.

سنذهب معك، ونساعدك في الاهتمام بالمنزل.

هل أنت متأكد تماماً؟

هز رأسه ثم أخفضه، آغا صاحب كان كأب ثان لي... فليرحمه الله.

جمعا أغراضهما في وسط بعض الحرامات وربطا الزوايا، وضعنا الحزمة في البويك. وقف حسان عند عتبة المنزل ورفع القرآن، قبلناه جميعاً ومررنا من تحته، ثم رحلنا إلى كابول.

أذكر بينما كنت أقلع، التفت حسان وأخذ نظرة أخيرة إلى منزلهما.

عندما وصلنا إلى كابول، اكتشفت أنه ليس لدى حسان أي نية في الانتقال إلى المنزل.

لكن كل هذه الغرف فارغة، حسان جان، لن يعيش أحد فيها. قلت.

لكنه لم يقبل، قال أنها مسألة احترام. نقل هو وفارزانا أغراضهما إلى الكوخ في الباحة الخلفية، حيث ولد، رجوتهما أن ينتقلا إلى إحدى غرف الضيوف في الأعلى، لكن حسان لم يكن ليسمع شيئاً من هذا.

ماذا سيعتقد أمير آغا؟ قال لي. ماذا سيفكر عندما يرى أني أخذت مكانه في المنزل؟ ثم حداداً على أبيك، ارتدى حسان السواد أربعين يوماً. لم أرد ذلك، لكنهما قاما بكل الطبخ، كل التنظيف، حسان كان يهتم بالورود في الحديقة، ينقع الجذور، يقطف الأوراق الصفراء، ويزرع شجيرات الورد، طلا الجدران في المنزل، مسح غرفاً لم ينم فيها

أحد منذ سنين، ونظف حمامات لم يستحم أحد فيها، كأنه يستعد لعودة شخص.

أتذكر الجدار خلف صف الذرة الذي زرعه أبوك، أمير جان؟ ماذا كنتما تطلقان عليه، جدار الذرة المريضة، دمر صاروخ قسماً كاملاً منه في منتصف الليل، بداية ذاك الخريف، حسان أعاد بناءه بيديه، حجر فوق حجر، إلى أن وقف كاملاً ثانية، لا أعرف ماذا كنت سأفعل لو لم يكن هناك. لاحقاً ذاك الخريف، أنجبت فارزانا طفلة قبل موعدها. قبل حسان وجه الطفلة الخالي من الحياة، ودفناها في الحديقة الخلفية، قرب شجيرات التوت، غطينا القبر الصغير بأوراق شجر الحور. ألقيت صلاة على روحها، بقيت فارزانا في الكوخ كل اليوم تنوح، يفطر القلب صوت نواح الأم، أمير جان، أدعو الله أن لا تعرفه أبدا.

خارج أسوار ذاك البيت، كانت الحرب ثائرة، لكن ثلاثتنا في بيت أبيك صنعنا ملجأً لنا.

بدأ يضعف نظري في أواخر الثمانينات، لذا كان حسان يقرأ لي كتب أمك. كنا نجلس في الصالة، قرب الموقد، ويقرأ لي حسان من ماسناوي أو خيام، بينما تطبخ فارزانا في المطبخ. وكل صباح، كان حسان يضع وردة على القبر الصغير قرب شجيرات التوت.

في بداية سنة ١٩٩٠، حملت فارزانا ثانية. في السنة نفسها، في منتصف الصيف، طرقت امرأة مغطاة ببرقع بلون السماء على البوابات في الصباح. عندما ذهبت إلى البوابات، كانت تتمايل قدميها كأنها ضعيفة جداً لتستطيع أن تقف حتى، سألتها ماذا تريد، لكنها لم تجب.

من أنت؟ قلت، لكنها فقط انهارت في منتصف الممر.

صرخت على حسان كي يساعدني في حمَلها إلى داخل البيت، إلى غرفة المعيشة، حيث مددناها على الصوفا وخلعنا عنها البرقع، تحته، وجدنا امرأة بلا أسنان، بشعر يميل إلى الرمادي وبقع بنية على ذراعيها، بدت كأنها لم تأكل منذ أيام، لكن أسوء شيء كان وجهها، أحد ما استخدم سكينه عليه و... أمير جان، الجروح كانت مغطية

وجهها، أحدها ذهب من عظم الخد إلى الجبهة، ولم يترك عينها اليسرى معه، كانت مشوهة، رطبت حاجبيها بقطعة مبللة بالماء، ففتحت عينيها، أين حسان؟ همست.

أنا هنا. قال حسان. وأخذ يدها بيده وضغط عليها، انتقلت عينها السليمة إليه.

لقد مشيت طويلاً ومسافة طويلة جداً لأرى إن كنت جميلاً كما تبدو في أحلامي، أنت كذلك، حتى أكثر. وضعت يده على وجهها المشوه.

ابتسم لي أرجوك.

ابتسم حسان، فبكت المرأة العجوز. ابتسامتك آتية مني، هل أخبرك أحد هذا؟ ولم أحضنك حتى، فليسامحني الله، لم أحضنك حتى.

لم ير أحد منا صنوبر منذ هربت مع فرقة المغنين والراقصين في سنة ١٩٦٤، بعد أن أعطت الحياة لحسان، لم ترها أنت أبداً أمير، لكن في شبابها، كانت متعة للعين، كان لديها عينان ذابلتان ومشية قادت الرجال إلى الجنون. لم يكن يمر أحد في الطريق، رجل أو امرأة، ويستطيع أن ينظر إليها مرة فقط. والآن...

أفلت حسان يدها وطار خارج البيت، ذهبت وراءه لكنه كان سريعاً جداً. رأيته يركض على التلة حيث كنتما تلعبان، أقدامه تركلان غيوماً من الغبار، تركته، جلست مع صنوبر كل اليوم بينما انقلب لون السماء من الأزرق الساطع إلى الأرجواني.

حل الليل وشع ضوء القمر على الغيوم، وحسان لم يعد بعد، بكت صنوبر وهي تقول أن عودتها كانت خطأ، ربما أسوأ من رحيلها، لكني جعلتها تبقى.

سيعود حسان، كنت أعلم.

عاد في اليوم التالي، متعباً ومنهكاً، كأنه لم ينم الليل كله. أخذ يد صنوبر بيديه الاثنتين وقال لها أنها تستطيع البكاء إن أرادت، لكنها لا تحتاج لذلك، هي في بيتها الآن، في البيت مع عائلتها، ولمس الندوب

على وجهها، مرر يده خلال شعرها. اهتم حسان وفارزانا بها إلى أن استعادت صحتها، يطعمانها ويغسلان لها ثيابها. أعطيتها واحدة من غرف الضيوف في الأعلى. أحياناً، كنت أنظر من النافذة إلى الباحة وأشاهد حسان وأمه يركعان سوية، يقطفان البندورة أو يشذبان شجيرة ورد، يتحدثان.

كانا يعوضان كل تلك السنين الفائتة، أعتقد، على ما أعلمه، لم يسألها أين كانت أو لماذا رحلت، وهي لم تقل له. أعتقد أن بعض القصص لا تحتاج أن تقال.

كانت صنوبر القابلة التي ولدت ابن حسان ذاك الشتاء من عام ۱۹۹۰، لم تكن قد بدأت تثلج بعد، لكن رياح الشتاء كانت تعصف خلال الباحات، تقصف الورود وتصارع الأوراق.

أذكر صنوبر خارجة من الكوخ، حاملة حفيدها، ملفوفاً بغطاء صوفي. وقفت تحت السماء الرمادية، الدموع تبرق، تنهمر على خديها، الريح الواخزة كالأبر تنفخ في شعرها، وهي ممسكة بذاك الطفل كأنها لا تريد أن تتركه أبداً. ليس هذه المرة، وضعته بين يدي حسان، الذي وضعه بين يدي ورتلت آية الكرسي في أذن الطفل الصغير.

سموه سوهراب، على اسمِ البطلِ المفضل لحسان من الشاهناماه كما تعلم، أمير جان. كان طفلاً جميلاً، حلو كالسكر، أمير جان.

أصبح مركز وجودها، كانت تخيط الملابس له، تصنع له الألعاب من قطع الخشب، الخرق والعشب الجاف، عندما التقط الحمى، بقيت مستيقظة كل الليل، وبقيت هكذا ثلاثة أيام، وحرقت الإزفاند له على مقلاة كي تبعد النازار (العين الشريرة). عندما كان سوهراب في الثانية، أصبح يناديها ساسا، كان لا يمكن التفريق بينهما.

عاشت لتراه يصبح في الرابعة، ثم، في أحد الصباحات، فقط لم تستيقظ . كانت تبدو هادئة، في سلام، كأن الموت لم يعد مهماً الآن.

دفناها في المقبرة على التلة، قرب شجرة الرمان، وتلوت عليها صلاة أيضاً. الخسارة كانت قاسية على حسان أن تخسر ما تملك أقسى من أن لا تملك أبداً. لكنها كانت أصعب على سوهراب الصغير. الذي بقي يمشي حول المنزل يبحث عن ساسا، ثم تعرف كيف هم الأطفال، ينسون بسرعة. حدث هذا في سنة ١٩٩٥ حيث كان الشورواي قد هزموا منذ زمن وكابول أصبحت لمسعود، راباني والمجاهدين. القتال الدامي بين الأطراف أصبح شرساً، ولا أحد كان متأكداً إن كان سيعيش ليرى نهاية اليوم. آذاننا اعتادت على صوت القذائف المتساقطة، ودمدمة الرصاص، وعيوننا على رؤية الرجال ينبشون الجثث من بين الركام.

كابول في تلك الأيام، أمير جان، كانت أقرب ما تكون إلى الجحيم على الأرض، ليرحمنا الله. تعلقت كثيراً بذاك الطفل - رأيته يخطو خطوته الأولى، سمعته يتمتم كلماته. منطقة وزير أكبر خان لم تكن تهاجم كثيراً، لذا لم يكن الحال سيىء عندنا كما هو في بعض الأحياء الأخرى. خصوصاً عندما يهدأ إطلاق الصواريخ قليلاً، ويخف القتال.

كان حسان يأخذ سوهراب إلى حديقة الحيوان ليرى الأسد مرجان، أو إلى السينما، علمه حسان التصويب بالمقلاع، ولاحقاً، عندما أتم الثامنة، أصبح سوهراب قاتلاً بها: كان يستطيع أن يقف على الشرفة ويصيب كوز صنوبر موضوع على سطل في منتصف الباحة. علمه حسان القراءة والكتابة - ابنه الأول. كنت أشتري لسوهراب كتباً للأطفال من المكتبة قرب سينما الحديقة - لقد دمروها الآن - وكان يقرأها بالسهولة التي كنت أجلبها له، كان يذكرني بك، كيف كنت تعشق القراءة في صغرك، أمير جان، أحياناً، كنت أقرأ له في الليل، ألعب الأحاجي معه، أعلمه خدع الورق. أفتقده كثيراً.

في الشتاء، كان حسان يأخذ إبنه لمطاردة الطائرات الورقية، لم يكن هناك مسابقات طائرات كثيرة كما سابقاً - لا أحد كان يشعر بالأمان خارج بيته لوقت طويل - لكن بقي هناك القليل من المسابقات المتفرقة.

كان حسان يحمل سوهراب على كتفيه ويخب في الطريق، يلاحقان الطائرات، يصعدون الأشجار حيث سقطتٍ الطائرات.

تذكر، أمير جان، كم كان حسان جيداً في مطاردة الطائرات؟ كان لا يزال بنفس المقدرة. في نهاية الشتاء، كان حسان وسوهراب يعلقان الطائرات التي ركضا لأجلها على الجدران، في البهو الرئيسي، كأنها لوحات.

أخبرتك أننا جميعاً احتفلنا في عام ١٩٩٦ عندما دخلت طالبان وأنهت القتال اليومي. أذكر عودتي إلى البيت تلك الليلة، رأيت حسان في المطبخ يستمع إلى الراديو. كان في عينيه نظرة غريبة، سألت ما المشكلة، هز رأسه، فليساعد الله الهازارا الآن، رحيم خان صاحب، قال.

انتهت الحرب، حسان، قلت: سيكون هناك سلام، انشاءالله، سعادة وهدوء. لا مزيد من الصواريخ، لا مزيد من القتل، لا مزيدٍ من الجنازات! لكنه أطفأ الراديو وسألني إن كان يستطيع أن يجلب شيئاً لي قبل أن ينام.

بضعة أسابيع لاحقة، منعت طالبان مسابقات الطائرات، وبعدها بسنتين، في ١٩٩٨، ذبحوا الهازارا في مزار شريف.

- 17 -

مدَّ رحيم خان رجليه ببطء، واتكأ على الجدار العاري بطريقة متعبة كشخص كل حركة يقوم بها تطلق سهاماً من الألم. في الخارج، كان حمار ينهق، وشخص يصيح بشيء بالإيدرو.

كانت الشمس قد بدأت تغيب، تشع بالأحمر من خلال الفتحات بين الأبنية.

أصابتني ثانية، فظاعة ما قمت به ذاك الشتاء والصيف الذي تلاه. رنت الأسماء في رأسي: حسان، سوهراب، علي، فارزانا وصنوبر. سماع رحيم خان يلفظ اسم علي كمن وجد اسطوانة قديمة لم يسمعها من سنوات. بدأ اللحن يعزف فوراً: من أكلت اليوم، بابالو؟ من أكلت اليوم بابالو ذي العينين الغبيتين؟ حاولت أن أستعيد وجه علي المجمد. أن أرى عينيه الهادئتين، لكن الوقت يمكن أن يكون جشعاً جدا. أحياناً يسرق كل التفاصيل من الأشياء، هل مازال حسان في المنزل الآن؟ رفع رحيم خان رأسه إلى شفتيه الجافتين ورشف رشفة، ثم بحث عن ظرف من جيب صدره وأعطاني إياه، لك.

مزقت الظرف المغلق، داخله، وجدت صورة حديثة ورسالة مطوية. حدقت بالصورة لدقيقة كاملة. رجل طويل يرتدي توربانا أبيض وتشابان أخضر مخطط، وقف مع طفل صغير أمام زوج من البوابات الحديدية، الشمس ساطعة من اليسار، ملقية ظلاً على نصف وجهه المدور، كان يحدق مبتسماً بالكاميرا، مظهراً زوجاً من الأسنان الأمامية المفقودة.

حتى في هذه الصورة الباهتة، أظهر الرجل إحساساً بالثقة بالنفس، بالراحة. كان هذا في الطريقة التي وقف بها. رجلاه متباعدتان قليلا، ذراعاه متقاطعتان براحة على صدره، رأسه مائل قليلاً نحو الشمس،

لكن الأهم، كانت الطريقة التي كان يبتسم بها. ناظراً نحو الصورة، ربما يستنتج المرء أنه رجل يرى أن العالم كان جيداً معه. كان رحيم خان محقاً، كنت سأعرفه لو التقيته في الطريق. وقف الطفل الصغير، عارياً، ذراع ملفوفة حول فخذ الرجل، رأسه الحليق يرتاح على ورك أبيه. كان يحدق مبتسماً أيضاً. فتحت الرسالة، كانت مكتوبة بالفارسية، لم تُنس نقطة أو فاصلة، الكلمات مصفوفة جيداً - خط اليد كان يبدو كخط الأولاد بأناقته. بدأت أقرأ:

بسم الله الرحمن الرحيم

أمير آغا، أعمق احتراماتي.

فارزانا جان، سوهراب وأنا ندعو أن تصلك هذه الرسالة وأنت بصحة جيدة بضوء نعمة الله.

أرجوك أوصل شكري إلى رحيم خان صاحب لحملها لك، أنا مليء بالأمل أن أحمل يوماً رسالة منك بيدي وأقرأ عن حياتك في أميركا، ربما صورة منك ستكون نعمة لعيوننا.

لقد أخبرت فارزانا جان وسوهراب الكثير عنك. كيف كبرنا سوية، نلعب معاً، نركض في الشوارع. لقد ضحكنا على كل قصص الأذى الذي كنا نسببه!

أمير آغا.

آسفاً أخبرك أن أفغانستان (طفولتنا) ماتت منذ زمن بعيد، الخير رحل عن الأرض ولا يمكنك الهروب من القتل، دائماً القتل، في كابول، الخوف في كل مكان، في الشوارع، في الأسواق، إنه جزء من حياتنا هنا.

أمير آغا

السفاحون الذين يحكمون وطننا لا يهتمون بالإنسان. أمس، صاحبت فارزانا جان إلى البازار لشراء بعض البطاطا والخبز، فسألت البائع عن سعر البطاطا، لكنه لم يسمعها، أعتقد أن لديه أذناً صماء. لذا سألته بصوت أعلى، وفجأة شاب طالباني ركض وضربها على

فخذها بعصاه. ضربها بقوة لدرجة أنها وقعت. كان يصرخ عليها ويلعن قائلاً أن وزارة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا تسمح للنساء بالتحدث بصوت عال. لديها كدمة أرجوانية على رجلها منذ أيام، لكن ماذا يمكنني أن أفعل غير أن أقف وأشاهد زوجتي تضرب؟ إذا قاتلت، ذلك الكلب وبلا شك سيسعده أن يضع رصاصة في رأسي! ثم ماذا سيحدث لسوهراب؟ الشوارع مليئة كفاية باليتامى وكل يوم أشكر الله أنني حي، ليس لأني أخاف الموت، لكن لأن زوجتي لديها زوج، وإبني ليس يتيماً.

أتمنى لو ترى سوهراب، إنه طفل جيد، رحيم خان صاحب وأنا علمناه القراءة والكتابة كي لا يكبر غبياً كأبيه. ليتك تراه كيف يضرب بالمقلاع!

آخذ سوهراب حول كابول أحياناً وأشتري له الحلوى، لازال هناك رجل قرد في شار - إي - ناو وإذا صادفناه، أدفع له كي يقوم برقصة القرد لسوهراب.

يجب أت تراه كيف يضحك! نذهب كثيراً إلى المقبرة على الهضبة. أتذكر كيف كنا نجلس بظل شجرة الرمان ونقرأ من الشاهناماه؟ الجفاف أقحل الهضبة والشجرة لم تنتج منذ سنين، لكني وسوهراب لا نزال نجلس تحت ظلها وأقرأ له من الشاهناماه، لا أحتاج لإخبارك أن مقطعه المفضل هو الذي يحمل اسمه، روستام وسوهراب. قريباً سيصبح قادراً أن يقرأ من الكتاب بنفسه، أنا فخور ومحظوظ جداً به.

أمير آغا

رحيم خان صاحب مريض جداً. يسعل كل اليوم وأرى الدم على أكمامه عندما يمسح فمه، لقد خسر الكثير من الوزن وأتمنى لو يأكل من الشوروا والأرز اللذين تطبخهما له فارزانا جان. يأكل ملعقة أو اثنتين وأعتقد أنه يأكلهما مجاملة لفارزانا جان. أنا قلق جداً على هذا الرجل الغالي وأدعو له كل يوم، هو ذاهب إلى باكستان في اليومين

المقبلين ليستشير بعض الأطباء هناك وانشاء الله، سيعود بأخبار جيدة، لكن في سرِّي، أنا خائف عليه.

أخبرنا سوهراب أنا وفارزانا جان أن رحيم خان صاحب سيكون بخير، ماذا يمكن أن نفعل؟ هوٍ في العاشرة فقط ويعشق رحيم خان صاحب. علاقتهما حميمية جدا، كان رحيم خان صاحب يأخذه إلى البازار ويشتري له بالونات وبسكويتة لكنه أصبح ضعيفاً جداً على هذا الآن.

أحلم كثيراً مؤخراً، أمير آغا، البعض كوابيس، كجثث معلقة في ملاعب كرة القدم والعشب مغطى بالدماء، أستيقظ منها لاهثاً والعرق يهطل مني، مع هذا، غالباً، أحلم بأشياء جيدة، وأحمد الله على هذا. أحلم أن رحيم خان صاحب سيتحسن، أحلم أن ابني سيكبر ويصبح شخصاً جيداً، حراً وهاماً، أحلم أن ورود اللاولا ستزهر في شوارع كابول ثانية وموسيقى الربابة ستملأ البيوت والطائرات الورقية ستطير في السماء. وأحلم أن تعود يوماً إلى كابول لتزور أرض طفولتنا، إذا قمت بهذا، ستجد صديقاً قديماً وفياً، ينتظرك.

فليكن الله معك دائماً.

حسان

قرأت الرسالة مرتين، طويتها، نظرت إلى الصورة لدقيقة أخرى، ثم وضعتها في جيبي. كيف حاله؟ سألت.

كتبت الرسالة منذ ستة شهور، قبل يومين من رحيلي إلى بيشاوار، قال رحيم خان، أُخذت الصورة قبل يوم من رحيلي. بعد وصولي إلى بيشاوار بشهر، وصلني اتصال من أحد الجيران في كابول، أخبرني هذه القصة: بعد أن رحلت بقليل، انتشرت الشائعات أن عائلة هازارية تعيش وحدها في بيت كبير في وزير أكبر خان، أو هكذا ادعت طالبان، زوج من موظفي طالبان الرسميين أتيا ليتحققا ويستجوبا حسان واتهماه بالكذب عندما أخبرهما أنه يعيش معي رغم أن الكثير من الجيران، وأحدهم الذي اتصل بي، دعموا قصة حسان.

قال الطالبانيان أنه كاذب وسارق ككل الهازارا وأمراه أن يخرج عائلته من المنزل بحلول المغيب، احتج حسان، لكن الجار قال أن الطالبانيان كانا ينظران إلى المنزل مثل ـ كيف قالها؟ ـ نعم، كالذئاب تنظر إلى قطيع من الخراف، قالا لحسان أنهما سينتقلان إلى البيت ليحفظاه لحين عودتي، احتج حسان ثانية لذا أخذاه إلى الشارع ـ

لا، تنفست.

وأمراه أن يركع.

لا، رباه، لا.

وأطلقا النار على مؤخرة رأسه.

لا.

أتت فارزانا صائحة وهاجمتهما.

لا

أطلقا النار عليها أيضاً ـ دفاع عن النفس، ادعيا لاحقاً ـ

كل ما استطعته هو أن أهمس، لا، لا، لا. مرة تلو الأخرى، بقيت أفكر بذاك اليوم في ١٩٧٤، في غرفة المستشفى، بعد الجراحة لشفة حسان، بابا، رحيم خان، علي وأنا كنا نتهادى حول سرير حسان، نراقبه يفحص شفته الجديدة في المرآة. الآن، كل من كانٍ في تلك الغرفة ميت، أوٍ يحتضر إلا أنا، ثم رأيت شيئاً آخر، رجلاً يرتدي معطفاً عسكرياً، يضغط ماسورة الكلاشنكوف على مؤخرة حسان، تردد الانفجار خلال شارع بيت أبي، سقط حسان على الإسفلت. حياته الوفية تخرج ببساطة وبلا مقاومة من جسده كما تطير الريح الطائرات الورقية التي اعتاد ملاحقتها.

انتقلت طالبانٍ إلى البيت، قال رحيم خان، الذريعة كانت أنهم طردوا محتالاً، قضية قتل حسان وفارزانا أغلقت على أنها دفاعاً عن النفس. لم يقل أحد كلمة حولها، غالباً بسبب الخوف من طالبان، أعتقد. لكن أحداً لن يخاطر بشيء لأجل زوجٍ من الخدم الهازارا.

ماذا فعلوا بسوهراب؟ سألت، شاعراً بالتعب، بالجفاف في حلقي.

موجة سعال أمسكت برحيم خان، وبقيت فترة طويلة، عندما رفع رأسه أخيراً، وجهه كان أحمرا وشرايين عينه ظاهرة للعيان. سمعت أنه في ميتم في مكان ما في كارتيه ـ سيه. أمير جان ـ ثم سعل ثانية. عندما توقف، بدا أكبر مما كان عليه منذ عدة دقائق، كأنه يشيخ مع كل موجة سعال.

أمير جان طلبتك هنا لأني أردت أن أراك قبل أن أموت، لكن هذا ليس كل شيء.

لم أعلق، أعتقد أني عرفت ما كان سيقول.

أريدك أن تذهب إلى كابول. وأن أن تجلب سوهراب إلى هنا. قال.

صارعت لأجل الكلمات اللازمة، لم أكن قد واجهت الحقيقة أن حسان مات.

اسمعني أرجوك، أعرف زوجاً من الأميركانيين هنا في بيشاور، زوج وزوجة اسمهما توماس وبيتي كولد ويل، إنهما كاثوليك يديران منظمة خيرية صغيرة بتبرعات خاصة. غالب عملهما يتمحور حول إيواء وإطعام الأطفال الأفغان الذين فقدوا أهلهم. لقد رأيت المكان، إنه نظيف وآمن ويهتمون فيه بالأطفال بشكل جيد. السيد والسيدة كولد ويل شخصان لطيفان. لقد أخبراني أنهما سيرحبان بسوهراب في بيتهما و ـ

رحيم خان، لا يعقل أن تكون جاداً.

الأطفال هشون، أمير جان. كابول مكان مليئة بالأطفال المكسورين ولا أريد أن يصبح سوهراب أحدهم.

رحيم خان لا أريد الذهاب إلى كابول، لا أستطيع ! قلت.

سوهراب ولد موهوب. نستطيع أن نقدم له حياة جديدة هنا، أمل جديد، أشخاص سيحبونه. توماس آغا رجل جيد وبيتي خانم لطيفة جداً. يجب أن ترى كيف يعاملون الأيتام.

لماذا أنا؟ لم لا تدفع لشخص هنا كي يذهب؟ سأدفع له إن كانت مسألة مال.

إنها ليست مسألة مال، أمير! زأر رحيم خان، أنا رجل أموت ولن أقبل أن أهان! لم يكن الأمر يتعلق بالمال معي، تعلم هذا، ولماذا أنت؟ أعتقد أننا نحن الاثنان نعلم لماذا يجب أن تكون أنت، أليس كذلك؟

لم أرغب أن أفهم التعليق، لكنني فهمته، فهمته كله بشكل جيد.

لدي زوجة في أميركا، منزل، عمل وعائلة. كابول مكان خطير، تعلم هذا، وستجعلني أخاطر بكل شيء لأجل... توقفت

أتعلم، قال رحيم خان، ذات مرة، عندما لم تكن موجوداً، كنا نتحدث أنا وأبوك. وتعلم كم كان يقلق عليك في تلك الأيام، أذكر أنه قال لي: رحيم، ولد لا يدافع عن نفسه يصبح رجلاً لا يدافع عن أي شيء. أتساءل، هل هذا ما أصبحته؟

أسقطت نظري على الأرض.

ما أطلبه منك أن تحقق أمنية عجوز يموت، قال بوقار.

لقد قامر بهذا التعليق. لعب أفضل أوراقه، أو هذا ما ظننت عندها. علقت كلماته في الصمت بيننا. لكن المهم أنه عرف ما يقول، بينما في الغرفة وأنا الكاتب كنت أبحث عن الكلمات المناسبة

أخيراً، استقريت على هذا.

ربما كان بابا محقاً.

آسف أن تعتقد هذا، أمير.

لم أستطع أن أنظر إليه، وأنت ألا تعتقد هذا؟

لو اعتقدت هذا لما طلبت منك القدوم إلى هنا.

لعبت بخاتم زواجي، دائماً ما اعتقدت أني شخص مهم جداً، رحيم خان.

ودائماً كنت قاسياً على نفسك، تردد، لكن هناك شيء آخر، شيء لا تعرفه.

أرجوك، رحيم خان.

صنوبر ليست زوجة علي الأولى.

الآن نظرت إليه.

كان متزوجاً قبلها، لامرأة هازارية من منطقة جاهوري. كان هذا قبل أن تولد بكثير، تزوجا لثلاث سنوات.

ما علاقة هذا بأي شيء؟

تركته بلا أولاد، بعد ثلاثة سنوات، وتزوجت رجلاً في كوست، وأنجبت له ثلاث فتيات، هذا ما أحاول إخبارك إياه.

بدأت أفهم ما يلمح إليه . لكن لم أرد سماع الباقي.

لدي حياة جيدة في كاليفورنيا، بيت فيكتوري جميل، بسطح ذو قبة، زواج جيد، مهنة كتابة واعدة، أقرباء يحبوني، لا أحتاج أياً من هذا الخراء.

كان علي عقيماً، قال رحيم خان.

لا لم يكن، هو وصنوبر أنجبا حسان، أليس كذلك؟ أنجبا حسان.

لا ليس كذلك، قال رحيم خان.

نعم كذلك!

لا، ليس كذلك، أمير.

من إذاً.

أعتقد أنك تعرف.

شعرت كرجل يتدحرج على قمة شديدة الانحدار، يتعلق بشجيرات العليق ويخرج خالي اليدين. كانت الغرفة تتقافز للأعلى والأسفل، تتمايل من جنب لجنب.

هل عرف حسان؟ قلت من خلال شفاه كأنها ليست شفاهي.

أغلق رحيم خان عينيه وهز رأسه نافياً.

أيها الأوغاد، تمتمت، وقفت، أيها الأوغاد الملعونين!

اجلس، أرجوك. قال رحيم خان.

كيف أمكنك أن تخفي هذا عني؟ عنه؟ انحنيت نحوه.

فكر أرجوك، أمير جان، كان وضعاً مخزياً، كان الناس سيتحدثون، كل ما ملكه الرجل وقتها، كل ما هو، كان شرفه، اسمه، وإن تحدث

الناس... لم نستطع إخبار أحد، تستطيع تفهُّم هذا بالطبع. مد يده نحوي ولكني أبعدتها، واتجهت نحو الباب.

أمير جان، أرجوك لا ترحل.

فتحت الباب والتفت إليه، لماذا؟ ماذا يمكنك أن تقول لي، أنا في الثامنة والثلاثين من عمري وأكتشف الآن أن حياتي كلها كذبة تافهة كبيرة! ماذا يمكنك أن تقول لتحسن الوضع؟ لاشيء، ولا شيئاً ملعوناً! ومع هذا، خرجت من الشقة.

- 18 -

كانت الشمس تغرب تاركة السماء ملوثة ببقع من الأرجوان والأحمر. مشيت في الطريق الضيق، المزدحم لأبتعد عن شقة رحيم خان. كان الطريق خطاً ملتوياً في متاهة من الأزقة المليئة بالمتسكعين والدراجات الهوائية والريكشوزات، لائحات معلقة على المنعطفات، تعلن عن الكوكاكولا والسجائر، ملصقات فيلم لوليوود تعرض صور ممثلات فائقات الجمال يرقصن مع رجال وسيمين في حقول من الزهور.

دخلت إلى مقهى تملأه سحابة كبيرة من الدخان وطلبت فنجاناً من الشاي. ملت للوراء على الكرسي وفركت وجهي. ذاك الإحساس بالانزلاق إلى هاوية كان قد بدأ يختفي. عوضاً عن ذلك، شعرت كرجل استيقظ في بيته، ووجد كل الأثاث قد تغير ترتيبه. لذا، كل شيء بدا غريباً الآن، مختلفاً عما يعرفه، وعليه أن يعيد تقييم محيطه، ويؤقلم نفسه.

كيف لم أفهم؟ الإشارات كانت أمامي كل الوقت، كيف لم أرها حتى الآن: طلب بابا الدكتور كومار ليصلح شفة حسان، عدم نسيان بابا لعيد ميلاد حسان. تذكرت اليوم الذي كنا نزرع فيه التوليب، عندما سألته إن كان قد فكر يوماً باستئجار خدم جدد، حسان لن يذهب إلى أي مكان، صرخ. هو باق هنا معنا، حيث ينتمي. هذا بيته، ونحن عائلته.

لقد بكى، بكى، عندما أعلن أنه وحسان مغادرين.

وضع النادل فنجان الشاي أمامي. حيث تتقاطع أرجل الكرسي على شكل (X) كان هناك حلقة من البراغي النحاسية، كل منها بحجم حبة البندق، واحدة منها كانت منحلة قليلا، فشددتها. تمنيت لو أنني أستطيع إصلاح حياتي بنفس السهولة. شربت الشاي الأسود الذي لم

أشربه منذ سنين، وحاولت التفكير في ثريا، بالجنرال وكالا جميلة، بالرواية التي لم تنته. حاولت أن أراقب السيارات تتهادى على الطريق، الناس يدخلون ويخرجون من محلات الحلويات. حاولت الاستماع إلى موسيقى (الكاوالي) على الراديو الموضوع على الطاولة المقابلة، أي شيء، لكني بقيت أرى بابا ليلة تخرجي، يجلس في الفورد التي أهداني إياها للتو، تفوح منه رائحة البيرة وهو يقول، أتمنى لو كان حسان معنا الليلة.

كيف استطاع أن يكذب علي كل تلك السنين؟ على حسان؟ لقد أجلسني على حضنه عندما كنت صغيراً، نظر مباشرة إلى عيني وقال، هناك خطيئة واحدة فقط، وهي السرقة... عندما تكذب، فأنت تسرق حق شخص بالحقيقة. ألم يقل تلك الكلمات لي؟ والآن، بعد خمس عشرة سنة من دفني إياه. عرفت أن بابا كان سارقاً، وسرقة من أسوأ الأنواع، لأن الأشياء التي سرقها كانت مقدسة: مني الحق في معرفة أنَّ لي أخاً، من حسان هويته، ومن علي شرفه، نانغه، ناموسه.

بقيت الأسئلة تتدافع في رأسي: كيف استطاع بابا أن ينظر في عيني علي؟ كيف استطاع علي أن يعيش في ذاك المنزل، يوماً بعد يوم، عالماً أن شرفه قد دنس من قبل سيده، في أسوأ من يمكن أن يدنس شرف الأفغاني فيه؟ وكيف سأعيد التفكير في صورة بابا التي طبعت في رأسي منذ زمن بعيد، وهو في بذته البنية، يعرج على ممر بيت التاهيري ليطلب يد ثريا؟

هذا أحد الكليشات التي كان معلم الكتابة الإبداعية ليسفهها: كالأب، كالابن، لكنه صحيح، أليس كذلك؟ كما بدا، أني وبابا متشابهان أكثر مما عرفت، لقد خنا الأشخاص المستعدين للتضحية بحياتهم لأجلنا، وهنا أتى هذا الإدراك: أن رحيم خان لم يطلبني هنا لأكفر عن خطاياي فقط، بل خطايا بابا أيضاً.

قال رحيم خان أني دائماً كنت قاسياً على نفسي، لكني تساءلت، صحيح أنني لم أجعل علي يدوس على ذاك اللغم، ولم آتي بطالبان

إلى المنزل كي يقتلوا حسان، هل كان صعباً كثيراً تخيل أن الأمور كانت لتكون مختلفة لو لم أقم بذلك؟ ربما بابا كان أتى بهما معنا إلى أميركا، ربما حسان كان الآن يملك منزلاً له الآن. عمل، عائلة، حياة في بلد لا أحد يهتم فيها بكونه هازارا. حيث أغلب الناس لا يعلمون حتى ما يعني هازارا، ربما لا، لكن ربما.

لا أستطيع الذهاب إلى كابول، قلت لرحيم خان، لدي زوجة في أميركا، وطن، عمل، وعائلة. ولكن كيف يمكنني أن أوضب أمتعتي وأعود للبيت وأفعالي جعلت حسان يخسر فرصة الحصول على نفس الأشياء؟

تمنيت لو لم يتصل بي رحيم خان، تمنيت لو تركني أعيش كذبتي، لكنه اتصل بي، وما كشفه رحيم خان غيَّر الكثير من الأشياء. جعلني أرى كيف أن حياتي كلها، قبل شتاء ١٩٧٥ بكثير، منذ أن كانت تلك المرأة الهازارا التي تغني ترعاني. كانت دائرة من الكذبات، الخيانات... والأسرار.

هناك طريقة لتعود جيداً مرة أخرى. طريقة لإنهاء هذه الدائرة.

بإنقاذ طفل صغير، يتيم، ابن حسان، الضائع في مكان ما في كابول.

على الريكشو في طريق العودة إلى شقة رحيم خان، تذكرت بابا يقول أن المشكلة أن أحداً قام بكل القتال عني دائماً، كنت في الثامنة والثلاثين، شعري بدأ يتساقط وقد خطه الشيب، ومؤخراً اكتشفت بعض التجاعيد حول عيني، لقد أصبحت أكبر الآن، لكني ربما لست كبيراً كفاية لأقوم بقتالي بنفسي، لقد كذب بابا حول الكثير من الأشياء كما تبين، لكنه لم يكذب بهذا.

نظرت إلى الوجه المستدير في الصورة ثانية، كيف سقطت الشمس عليه، وجه أخي، لقد أحبني حسان مرة، أحبني كما لم ولن يحبني

أحد ثانية. هو ميت الآن، لكن جزءاً صغيراً منه ما زال يعيش، في كابول، ينتظر.

وجدت رحيم خان يصلي الناماز في زاوية الغرفة، لم يكن أكثر من ظل منحن نحو الشرق قبالة سماء حمراء. انتظرته لينتهي، ثم أخبرته أني ذاهب إلى كابول، أخبرته أن يكلم الكالدويل في الصباح.

سأصلي لك، أمير جان. قال.

- 19 -

ثانية، غثيان السيارة، مع الوقت الذي مررنا به في اللافتة التي تقول ممر خيبر يرحب بكم، بدأ اللعاب يتدفق في فمي، شيء داخل معدتي تقلب بشكل مزعج. فريد، سائقي، نظر إلي ببرود، لم يكن هناك تعاطف في عينيه.

هل نستطيع إنزال النافذة؟ سألت.

أشعل سيجارة وحشرها بين الإصبعين الباقيين في يده اليسرى، اليد التي يضعها على المقود، مبقياً عينيه السوداوين على الطريق، انحنى فريد للأمام، أمسك بمسكة النافذة الموضوعة بين قدميه، وأعطاني إياها، وضعتها في مكانها وأدرتها منزلاً النافذة.

نظرة باردة أخرى من فريد، هذه كانت مع لمحة من العداوة الدفينة، وعاد لتدخين سيجارته. لم يكن قد قال أكثر من عشر كلمات منذ غادرنا حصن جمرود.

تاشاكور، تمتمت، حانياً رأسي خارج النافذة، تاركاً هواء العصر البارد يضرب وجهي.

القيادة خلال الأرض المضطربة عند ممر خيبر، متمايلاً بين جروف من الصخر والكلس، كانت كما تذكرت تماماً - أنا وبابا مررنا من هذه التضاريس المتكسرة في ١٩٧٤، القحل، الجبال المكشوفة تجلس على طول المنحدرات العميقة وترتفع في قمم شاهقة، حصون قديمة، أسوار طينية مهدمة، مغطاة بمخلفات الحيوانات. حاولت أن أبقي عيني على الهيندو كوش المغطاة بالثلوج على الجهة الشمالية، لكن كلما هدأت معدتي قليلاً، تخض السيارة مرة أخرى جالبة موجة جديدة من الغثيان.

جرب أن تأكل ليمونة.

ماذا؟

ليمون، جيد للغثيان. قال فريد، دائماً أجلبه معي لهذه الرحلة.

لا، شكراً لك. قلت. فكرة إضافة الأسيد إلى معدتي زادت غثياني أكثر.

هز فريد كتفيه، ليست كالأدوية الأميركية الغالية، أعلم، فقط علاج قديم علمتني إياه أمي.

لم أرد أن أخسر فرصة حديثه لي، بهذه الحالة ربما يجب أن تعطيني واحدة.

أمسك بكيس ورقي من المقعد الخلفي وأعطاني نصف ليمونة، أكلتها، انتظرت بضع دقائق.

معك حق، أشعر أني أفضل. كذبت. كأفغاني، علمت أنه كان من الأفضل أن أكون بائساً من أن أكون فظاً، واغتصبت ابتسامة ضعيفة.

خدعة وطنية قديمة، لا حاجة للأدوية الباهظة الثمن، قال، لهجته كانت مليئة بالثقة. نفض سيجارته وألقى على صورته نظرة رضى في المرآة الخلفية.

كان من الطاجيك، رجل داكن البشرة، نحيف، بوجه حفره الزمن، أكتاف ضيقة، ورقبة طويلة تتوسطها تفاحة آدم بارزة لا تبدو من لحيته الكثيفة إلا عندما يلتفت. كان يرتدي مثلي، رغم أني أعتقد فعلاً أن العكس كان صحيحاً. غطاء صوفي خشن ملفوف حول بيرهان ـ تومبان رمادي ومعطف. على رأسه، لبس بوكالاً بنياً مائلاً قليلاً على الجنب، كالبطل الطاجيكي أحمد شاه مسعود ـ الذي يلقبه الطاجيكيون بأسد بانجشير.

كان رحيم خان من عرفني إلى فريد في بيشاوار. أخبرني أن فريد في التاسعة والعشرين، رغم أنه يملك وجهاً منهكاً ومليئاً بالتجاعيد لرجل أكبر بعشرين سنة. ولد في مزار شريف وعاش هناك إلى أن نقل أباه عائلته إلى جلال أباد عندما كان فريد في العاشرة. في الرابعة عشر انضم هو وأبوه إلى الجهاد ضد الشوراوي وقاتلا في وادي بانجشير لسنتين إلى

أن مزق رصاص الهيليكوبتر الرجل الأكبر إلى أشلاء. كان لدى فريد امرأتين وخمسة أطفال.

كان لديه سبعة، قال رحيم خان ونظرة حزينة تعلو وجهه، فقد خسرفتاتيه الصغيرتين في انفجار لغم أرضي قبل عدة سنوات، نفس الانفجار الذي خسر به أصابع قدميه وثلاثة أصابع من يده اليسرى. بعدها، نقل زوجتيه وأطفاله إلى بيشاور.

نقطة تفتيشٍ، تذمر فريد.

ملت قليلاً على مقعدي، ذراعيَّ معقودتان أمام صدري، ناسياً للحظة الغثيان. لكن لم يكن علي القلق، اثنان من الميليشا الباكستانية اقتربا من اللاند كروزر المهترئة، أخذا نظرة سريعة إلى الداخل، ولوحا لنا أن نمضي قدماً. كان فريد على أول قائمة التحضيرات التي قمنا بها أنا ورحيم خان، قائمة تضمنت تحويل دولارات إلى كالدارات وأوراق أفغانية. كسائي وبوكالي ـ السخرية في الأمر أني لم أرتد أياً منها عندما عشت في أفغانستان ـ صورة حسان وسوهراب، وأخيراً، ربما الشيء الأهم: لحية صناعية سوداء تصل إلى الصدر ـ صديقة للشريعة ـ أو على الأقل، صورة طالبان عن الشريعة. عرف رحيم خان شخصاً في بيشاور تخصص في صناعتها، أحياناً، للصحفيين الغربيين الذين غطوا الحرب. أرادني رحيم خان أن أبقى أياماً أخرى، لنغطي كل التفاصيل. لكنني علمت أن علي المغادرة بأسرع وقت ممكن، كنت خائفاً أن أغير رأيي. كنت خائفاً أن أتراجع، أعيد النظر، أتعقل وأقنع نفسي بعدم الذهاب، كنت خائفاً أن جاذبية حياتي في أميركا ستشدني إليها، أن أسحب عائداً إلى ذلك النهر الكبير العظيم وأترك نفسي أنسى. أن أترك الأشياء التي عرفتها في الأيام السابقة تغرق إلى القاع. كنت خائفاً أن أترك المياه تحملني بعيدا عما يجب علي القيام به. عن حسان. عن ماضيَّ الذي عاد ينادي. ومن هذه الفرصة الأخيرة للتكفير. لذا رحلت قبل أن يكون هناك أي احتمال لهذا. بالنسبة لثريا، احتمال إخبارها أني ذاهب

إلى أفغانستان لم يكن قائماً. إذا أخبرتها ستحجز على أول طائرة إلى باكستان.

قطعنا الحدود، رأيت علامات الفاقة في كل مكان. على جانبي الطريق، رأيت سلاسلاً من القرى الصغيرة هنا وهناك، كدمى مرمية بين الصخور، منازل وأكواخ طينية مهدمة، مؤلفة من أقلٍ من أربع أخشاب وثياب ممزقة كسقف. رأيت أطفالاً يرتدون أسمالا يلاحقون كرة قدم خارج الأكواخ. بعدها بعدة أميال، رأيت جماعة من الرجال المستلقين، كصفوف من الغربان على جثة دبابة روسية قديمة محترقة. الريح تداعِب أطراف الأغطية المرمية عليهم. خلفهم، امرأة ببرقع بني تحمل قدراً طينياً كبيراً على كتفها، على طريق ترابية، نحو بعض البيوت الطينية.

غريب. قلت.

ماذا؟

أشعر كسائح في وطني. قلت، ناظراً إلى راع يقود ستة من الماعز على جنب الطريق.

هز فريد كتفه، رمى سيجارته وقال، ما زلت تفكر في هذا المكان على أنه وطنك؟

أعتقد أن جزءاً مني سيظل يظن هذا دائماً. قلت، بطريقة دفاعية أكثر مما أردت.

بعد عشرين سنة من الحياة في أميركا، قال وهو يبتعد بالشاحنة عن حفرة بحجم البطيخة.

هززت رأسي، لقد ترعرعت في أفغانستان.

هز كتفيه ثانية.

لماذا تقوم بهذا؟

لا تهتم. تمتم.

لا، أريد أن أعرف، لماذا تقوم بهذا؟

في المرآة الخلفية، رأيت شيئاً يلمع في عينيه.

أحقاً تريد أن تعرف؟ قال، دعني أتخيل، آغا صاحب، على الأغلب عشت في بيت كبير من طابقين أو ثلاثة مع باحة خلفية جميلة، زرعها البستاني لديكم بالورود وأشجار الفاكهة. كلها بوابات، بالطبع، قاد أبوك سيارة أميركية. كان لديكم خدم، على الأغلب هازارا. استأجر والداك عمالاً لديكور المنزل، للحفلات الفاخرة اللذان يقومان بها، كي يأتي أصدقاءهما ليشربوا ويتفاخروا عن رحلاتهم إلى أوروبا أو أميركا، أقسم بعيني ولدي البكر أن هذه المرة الأولى التي ترتدي بوكالاً بها. ابتسم بخبث، كاشفاً أسناناً مهترئة، هل اقتربت؟

لماذا تقول هذه الأشياء؟

لأنك أردت أن تعرف، بصق، أشار إلى رجل عجوز تغطيه أسمال يتثاقل على طريق ترابي. حزمة كبيرة من القش مربوطة على ظهره، هذه أفغانستان، آغا صاحب. هذه أفغانستان التي أعرف، أنت؟ لقد كنت دائماً سائحاً هنا، لكنك لم تدرك هذا فقط.

حذرني رحيم خان أن لا أتوقع ترحيباً حاراً في أفغانستان من أولئك الذين بقوا وقاتلوا في الحروب.

أنا آسف من أجل أبيك، أنا آسف من أجل بناتك، وآسف على يدك.

هذا لا يعني شيئاً لي. قال وهو يهز رأسه، لماذا عدت على كل حال؟ لتبيع أرض بابا؟ تأخذ المال وتهرب عائداً إلى أمك في أميركا؟

أمي ماتت وهي تلدني. قلت.

تنهد وأشعل سيجارة أخرى. لم يعلق بشيء.

توقف.

ماذا؟

توقف، اللعنة! قلت، أشعر بالإقياء.

خرجت من الشاحنة بينما هي تتوقف على جانب الطريق.

في العصر، تغيرت التضاريس من قمم حرقتها الشمس وجروف خطرة، إلى مساحات أكثر اخضراراً، أكثر وحشية.

الممر الرئيس مر من لاندي كوتال خلال منطقة شينواري إلى لاندي كانا. ودخلنا أفغانستان من خلال توركام.

أشجار صنوبر تحدد الطريق، أقل مما أذكر وأغلبها عاريه، لكنه كان جيداً رؤية الأشجار بعد بشاعة ممر خيبر. كنا نقترب من جلال أباد، حيث سيستضيفنا أخ لفريد لليلة.

لم تكن الشمس قد غربت تماماً عندما دخلنا جلال أباد، عاصمة ولاية نانغارهار، مدينة عرفت يوماً بفواكهها وطقسها الدافئ. قاد فريد بجانب الأبنية والبيوت الحجرية في مركز المدينة، لم يكن هناك أشجار نخيل بقدر ما أذكر، وبعض البيوت أصبحت جدراناً بلا سقف وركاما من الطين.

انعطف فريد نحو طريق غير معبَّد وأوقف اللاند كروزر عند بالوعة صرف جافة.

خرجت من الشاحنة، تمددت، وأخذت نفساً عميقاً.

في الأيام القديمة، كانت الريح تزحف في السهول المسقية حول جلال أباد حيث يزرع المزارعون قصب السكر، ويتلقح هواء المدينة برائحة عذبة، أغلقت عيني وانتظرت الرائحة، لم تأت.

هيا بنا، قال فريد بعدم صبر. مشينا الطريق الترابي بجانب بعض أشجار الحور العارية على صف من الجدران الطينية المتهدمة. قادني فريد إلى بيت من طابق واحد متهدم وطرق على الباب الخشبي.

امرأة شابة بعينين خضراوين بلون المحيط ووشاح أبيض ملتف حول وجهها خرجت، رأتني أولاً، انتفضت، رأت فريد فأضاءت عيناها.

سلام عليكم، كاكا فريد.

سلام، مريم جان. رد فريد وأعطاها شيئاً حرمني إياه كل اليوم: ابتسامة دافئة. طبع قبلة على جبهتها. ابتعدت المرأة الشابة عن الطريق، تنظر إلي مترددة بينما تبعت فريد إلى داخل البيت الصغير.

السقف الطيني كان قريباً من الأرض، الجدران الترابية كانت عارية بالكامل، الضوء الوحيد أتى من زوج من المصابيح في إحدى الزوايا. خلعنا أحذيتنا، ومشينا على حصيرة قشية تغطي الأرض. على جنب أحد الجدران، جلس ثلاثة أطفال عاقدي الأرجل، على فرشة مغطاة بغطاء ممزق من الجوانب. رجل طويل ملتح بأكتاف عريضة وقف ليحيينا. تعانق هو وفريد وقبلا بعضهما على الخد.

قدمه فريد لي على أنه وحيد، أخوه الأكبر.

من أميركا، قال لوحيد، مشيراً بإبهامه نحوي.

تركنا وحدنا وذهب ليحيي الأولاد.

جلس وحيد معي بجانب الجدار قبالة الأولاد، الذين كمنوا لفريد وتسلقوا أكتافه. برغم احتجاجاته.

أمر وحيد أحد الأولاد أن يجلب لي غطاء آخر لأرتاح أكثر على الأرض، وطلب من مريم أن تجلب لي بعض الشاي. سألني عن الرحلة من بيشاوار، القيادة عند ممر خيبر، أتمنى أن الدوزد لم يتعرضوا لكما، قال.

كان ممر خيبر منطقة مشهورة بتضاريسها كما بقطاع الطرق الذين يستخدمون تلك التضاريس لسرقة المسافرين. قبل أن أستطيع الإجابة غمزني وقال بصوت عال، بالطبع ولا دوزدي سيضيع وقته على سيارة ببشاعة سيارة أخي.

صارع فريد أصغر الأولاد الثلاثة على الأرض ودغدغه على أضلاعه بيده الجيدة. غرغر الطفل وركل.

على الأقل أملك سيارة. ضحك فريد. كيف حمارك هذه الأيام؟

حماري مركبة أفضل من سيارتك.

كار كارا ميشناساه. رد فريد، تحتاج حماراً لتعرف واحداً.

ضحك الجميع وانضممت لهم. سمعت أصوات إناث من الغرفة المقابلة. استطعت رؤية نصف الغرفة من مكان جلوسي، مريم وامرأة

أكبر ترتدي حجاباً بنياً ـ أغلب الظن أنها أمها ـ كانتا تتحدثان بصوت خافتٍ وتصبان الشاي من إبريق في (ترمس).

إذاً، ماذا تفعل في أميركا، أمير آغا؟ سأل وحيد.

أنا كاتب، قلت.

اعتقدت أني سمعت فريد يضحك بصوت خافت.

كاتب؟ قال وحيد واضحة عليه المفاجأة.

هل تكتب عن أفغانستان؟

حسناً، لقد كتبت، لكن منذ فترة بعيدة، روايتي الأخيرة، فصل من الرماد، كانت عن بروفيسور جامعة ينضم إلى عشيرة من الغجر بعد أن يجد زوجته في الفراش مع أحد طلبته. لم يكن كتاباً سيئاً، بعض النقاد قالوا أنه كتاب جيد، وأحدهم استخدم الكلمة (مشوِّق)، لكن فجأة شعرت بالخجل منه. تمنيت أن لا يسألني وحيد عنه.

ربما يجب أن تكتب عن أفغانستان ثانية. قال وحيد، تخبر بقية العالم ماذا تفعلٍ طالبان في وطننا.

حسناً، أنا لست... أنا لست هذا النوع من الكتَّاب فعلاً.

أوه، قال وحيد وهو يهز رأسه ووجنتيه تحمران قليلاً.

أنت تعرف أفضل، بالطبع، ليس لي أن أقترح...

عندها، دخلت مريم وامرأة أخرى إلى الغرفة مع زوج من الأقداح وترمس على صينية صغيرة.

وقفت احتراماً، ضغطت يدي على صدري، وحنيت رأسي.

السلام عليكم، قلت.

المرأة، التي لفت الحجاب حول رأسها جيداً الآن، حنت رأسها أيضاً، سلام. ردت بصوت مسموع بصعوبة.

لم تنظر إلى عيني، فقط صبت الشاي بينما كنت واقفاً.

وضعت المرأة الكأسٍ الحارٍ أمامي وخرجت من الغرفة. قدماها الحافيتان لم تصدرا صوتاً أبداً.

بينما اختفت. جلست ورشفت الشاي الأسود الثقيل. كسر وحيد أخيراً الصمت الثقيل الذي تبع.

ماذا أعادك إلى أفغانستان؟

ما يعيدهم جميعاً، أخي العزيز؟ قال فريد متحدثاً لوحيد، لكن نظرته المحتقرة لم تفارقني.

هس! قال وحيد بحدة.

دائماً الشيء نفسه، قال فريد، بيع هذه الأرض، بيع ذاك المنزل، جمع المال والهرب كفأر، العودة إلى أميركا، إنفاق المال على رحلة عائلية إلى مكسيكو.

فريد! زأر وحيد.، أولاده، وحتى فريد، انتفضوا ،

هل نسيت أخلاقك! هذا بيتي! أمير آغا ضيفي الليلة، ولن أسمح لك بعدم احترامه هكذا!

فتح فريد فمه، ليقول شيئاً، أعاد التفكير ولم يقل شيئاً. ضرب الحائط، تمتم شيئاً تحت أنفاسه ووضع رجله المشوهة فوق رجله الجيدة. عيناه المتهمتان لم تفارقاني.

اعذرنا، أمير آغا. قال وحيد، منذ الطفولة وفم أخي يسبق عقله بخطوتين.

إنه خطأي، فعلاً. محاولاً الابتسام تحت نظرة فريد المحدقة، لم أشعر بالإهانة. كان يجب أن أشرح له لم أتيت إلى أفغانستان. لست هنا لأبيع أملاكاً. أنا ذاهب إلى كابول لأجد طفلاً.

طفل! ردد وحيد.

نعم، أخرجت الصورة من جيبي، رؤية صورة حسان ثانية أحدثت اضطراباً جديداً لموته. كان علي أن أبعد عيني عنها. أعطيتها لوحيد، الذي نظر بإمعان للصورة. نظر للصور ثم إلي.

هذا الولد؟

هززت رأسي.

هذا الولد الهازارا.

نعم.
ماذا يعني لك؟
أباه عنى الكثير لي، إنه الرجل في الصورة، إنه ميت الآن.
رمش وحيد، هل كان صديقاً لك؟
غريزتي كانت تقول نعم، كأنه، على مستوى عميق، أردت أن أحفظ سر بابا. لكن كان هناك الكثير من الكذبات لأضيف أخرى.
كان أخي غير الشقيق. بلعت ريقي، أضفت، أخي غير الشقيق وغير الشرعي. لففت قدح الشاي ولعبت بيده.
لم أقصد أن أتطفل.
لم تتطفل. قلت.
ماذا ستفعل به؟
سأعيده إلى بيشاوار. هناك أشخاص سيهتمون به.
أعاد لي وحيد الصورة وأراح يده الضخمة على كتفي.
أنت رجل شريف، أمير آغا، أفغاني حقيقي.
شعرت بالذل داخلي.
أنا فخور باستضافتك ببيتنا الليلة. قال وحيد، شكرته وانتهزت الفرصة لأنظر إلى فريد. كان ينظر للأسفل الآن. يلعب بالحافات المهترئة للحصيرة القشية.

بعدها بقليل، أحضرت مريم وأمها وعائين ساخنين من شوروا الخضار ورغيفين من الخبز.
نأسف أننا لا نستطيع أن نقدم لك اللحم. قال وحيد. فقط طالبان تستطيع أن تشتري اللحم الآن.
يبدو لذيذاً، قلت، وكان هكذا. عرضت عليه، على الأطفال لكنهم كانوا قد أكلوا قبل وصولنا.
رفعنا أكمامنا أنا وفريد، أغرقنا الخبز بالشوروا وأكلنا بأيدينا.

بينما أكلت، لاحظت أطفال وحيد، ثلاثتهم نحيفين بوجوه معجونة بالتراب، وشعر بني قصير تحت قلنسواتهم، يختلسون النظر إلى ساعة يدي الرقمية. أصغرهم همس شيئاً بأذن أخيه، هز أخوه رأسه. لم يبتعد نظره عن ساعتي، أكبر الأطفال ـ أعتقد أنه في الثانية عشر ـ هز للأمام والخلف، نظره ملتصق برسغي.

بعد العشاء، بعد أن غسلت يدي بالماء الذي صبته مريم من وعاء طيني. طلبت إذن وحيد كي أعطي أولاده هدية. قال لا، لكن عندما أصريت، قبل بتردد.

فككت الساعة وأعطيتها لأصغرهم. تمتم، تاشاكور غير مسموعة.

تعطيك الوقت في أي مدينة في العالم، قلت له. هز الأطفال رؤوسهم بأدب، ممررين الساعة بيدهم، يأخذون الدور بلبسها. لكنهم فقدوا الاهتمام بها وفورا جلست الساعة وحيدة على الحصيرة القشية.

كان يجب أن تخبرني، قال فريد لاحقاً.

كنا مستلقيين بجانب بعضنا على الحصائر القشية التي مدتها زوجة وحيد لنا.

أخبرك ماذا؟

لم أتيت إلى أفغانستان. كان صوته قد فقد تلك الخشونة التي سمعتها منذ اللحظة التي التقيته بها.

لم تسأل. قلت.

كان يجب أن تخبرني.

لم تسأل.

أدار رأسه نحوي، لف ذراعه حول رأسه، ربما سأساعدك في إيجاد هذا الطفل.

شكراً لك، فريد. قلت

كان خطأً مني أن أفترض.

تنهدت. لا تقلق، كنت صائباً أكثر مما تعرف.

يداه مربوطتان خلف ظهره بحبل معقود يقطع لحم رسغيه، عيناه مربوطتان بقطعة ثياب سوداء، راكع على الطريق، على حافة بالوعة عفنة المياه، رأسه مرمي بين كتفيه. ركبتاه على الأرض القاسية تدميان من تحت ثيابه، بينما اهتز في صلاة. الوقت في آخر العصر وظله الطويل يتمايل للأمام والخلف على القحل. يتمتم شيئاً من تحت أنفاسه، أقترب. ألف مرة أخرى، يتمتم، لأجلك... ألف مرة أخرى. للأمام والخلف يهتز، يرفع وجهه، أرى ندبة على شفته العليا.

لم نكن وحدنا.

أرى السبطانة أولاً، ثم الرجل الذي يقف خلفه، طويل يرتدي معطفاً عسكرياً وتورباناً أسود، وهو ينظر للأسفل إلى الرجل المعصوب العينين بعينين لا تظهران إلا فراغاً أجوفاً واسعاً. يأخذ خطوة للوراء ويرفع السبطانة، يضعها خلف رأس الرجل الراكع، للحظة، ضوء الشمس الذي يختفي يلمع على الحديد.

تزأر البندقية بصوت يصم الآذان. ألاحق السبطانة، أرى الوجه خلف غيمة الدخان التي تتصاعد من الفوهة، أنا الرجل في المعطف العسكري.

أستيقظ، وصرخة عالقة في حنجرتي.

خرجت، وقفت تحت أشعة القمر نصف المكتمل ونظرت إلى السماء المزينة بالنجوم. أصوات أغصان في الظلام وريح تهب بين الأشجار، كانت الأرض باردة تحت قدمي العاريتين. وفجأة، لأول مرة منذ قطعنا الحدود، شعرت أنني عدت، بعد كل تلك السنين، أنا في وطني ثانية، أقف على تربة أسلافي، على هذه التربة تزوج جدي الأكبر امرأته الثالثة قبل موته بسنة بداء الكوليرا الذي ضرب كابول في ١٩١٥، أنجبت له ما عجزت عنه زوجتاه السابقتان، ابن أخيراً. على هذه التربة، ذهب جدي في رحلة صيد مع الملك نادر شاه واصطاد غزالاً. أمي ماتت على هذه التربة، وعلى هذه التربة، قاتلت لأحظى بحب أبي.

جلست على جدار إحدى البيوت الطينية. الصلة التي شعرت بها فجأة للأرض القديمة... فاجأتني. لقد غبت كفاية لأنسى وأكون منسياً. لدي بيت في أرض قد تكون في مجرة أخرى بالنسبة للأشخاص النائمين على الجانب الآخر للجدار المستلقي عليه. اعتقدت أني نسيت هذه الأرض. لكني لم أفعل ، و في ضوء القمر، شعرت بأفغانستان تهمهم تحت قدمي. ربما أفغانستان لم تنسني أيضاً.

نظرت إلى الغرب، وشعرت بروعة أن في كل مكان على هذه الجبال، كابول ما تزال موجودة، موجودة فعلاً، ليست ذكرى قديمة. وقصة في الصفحة ١٥ من سان فرانسيسكو كرونيكل. في مكان على هذه الجبال في الغرب نامت المدينة حيث أخي ذو الندبة على شفته وأنا لاحقنا الطائرات. في مكان هناك. الرجل المعصوب من حلمي مات ميتة عبثية، . مرة على تلك الجبال، قمت بخيار، والآن، بعد ربع قرن، ذاك الخيار أعادني إلى هذه التربة.

كنت على وشك العودة للداخل عندما سمعت أصواتاً من داخل المنزل. عرفت صوت وحيد بينها.

لم يتبق شيء للأطفال.

نحن جياع، لكننا لسنا برابرة! إنه ضيف! ماذا كان علي أن أفعل؟ قال بصوت خافت.

- لإيجاد شيء غداً، بدت كأنها على وشك البكاء.

ماذا أطعم ...

مشيت على رؤوس أصابعي مبتعداً. فهمت الآن لِمَ لمْ يبد الأطفال أي اهتمام بالساعة، لم يكونوا يحدقون بها أبداً، كانوا يحدقون بطعامي.

قلنا وداعاتنا باكراً في صباح اليوم التالي، قبل أن أصعد إلى اللاند كروزر، شكرت وحيد لحسن ضيافته، فأشار إلى البيت الصغير خلفه، هذا بيتك. قال، أطفاله الثلاثة كانوا يقفون في الباب، يراقبوننا.

الأصغر كان يرتدي الساعة ـ كانت معلقة حول معصمه الصغير.

نظرت في المرآة الجانبية بينما أقلعت السيارة، وقف وحيد محاطاً بأولاده في غيمة من الغبار الذي أحدثته الشاحنة. خطر لي أنه، في عالم آخر، هؤلاء الأطفال لن يكونوا بهذا الجوع كي يلاحقوا السيارة.

في وقت سابق ذاك الصباح، عندما كنت متأكداً أن لا أحد ينظر، قمت بشيء فعلته منذ ست وعشرين سنة، وضعت مقدار قبضة من المال تحت الفرشة.

- 20 -

حذرني فريد. حذرني. لكن، كما تبين، كان تحذيره هباء.

كنا نقود على طريق مليئة بالحفر تصل من جلال أباد إلى كابول. آخر مرة لي على هذا الطريق كنت في صندوق شاحنة مغطاة في الاتجاه المعاكس. كاد بابا أن يقتل من قبل ضابط روسي سكران، يغني. جعلني بابا غاضباً جداً تلك الليلة، خائفاً جداً، وأخيراً، فخوراً جداً.

الرحلة بين كابول وجلال أباد، رحلة تكسر العظام خلال ممر يتمايل بين الصخور، أصبحت أثراً الآن، أثر حربين. قبل عشرين سنة، رأيت بعضاً من الحرب الأولى بعيني. تذكارات متجهمة كانت منثورة على طول الطريق: جثث دبابات روسية محترقة، شاحنات عسكرية مقلوبة متروكة للصدأ، جيب روسية محطمة على جانب الجبل. الحرب الثانية، شاهدتها على شاشة التلفاز، والآن، أراها من خلال عيني فريد. دائراً بلا فائدة حول الحفر في وسط الطريق المتكسر، كان فريد رجلاً . أصبح أكثر حديثاً منذ ليلتنا في بيت وحيد. جعلني أجلس بجانبه، وأصبح ينظر إلي عندما يحدثني، وحتى ابتسم، مرة أو اثنتين.

مناوراً المقود بيده المشوهة، أشار إلى القرى المكونة من أكواخ طينية على طول الطريق حيث عرف أشخاصاً منذ سنين مضت، أغلبهم، قال، إما ميت أو نازح في مخيمات في باكستان. وأحياناً، الأموات أكثر حظاً. قال. أشار إلى البقايا المتحطمة والمتفحمة لقرية صغيرة. كانت خصلة سوداء صغيرة على جنب الطريق، جدران بلا أسقف الآن. رأيت كلباً ينام بجانب إحدى تلك الجدران. كان لدي صديق هناك، كان ميكانيكياً بارعاً، ويضرب على الطبلة أيضاً. قتلته طالبان وعائلته وحرقوا القرية.

مررنا بالقرية المحترقة ولم يتحرك الكلب.

في الأيام القديمة، الرحلة من جلال أباد إلى كابول كانت تأخذ ساعتين، ربما أكثر قليلاً، أخذت منا أنا و فريد أكثر من أربع ساعات لنصل. وعندما وصلنا... حذرني فريد بعد مرورنا بسد ماهيبار.

كابول لم تعد كما تتذكرها.

هكذا أسمع.

نظرة إلي فريد نظرة تقول السمع ليس كالرؤية. وكان هذا صحيحاً. لأنه عندما بدت كابول أمامنا، كنت متأكداً، متأكداً تماماً أن فريد قد أخذ منعطفاً خاطئاً في مكان ما، لا بد أن فريد رأى تعبير الذهول على وجهي: وهو ينقل الأشخاص من وإلى كابول، لا بد أنه أصبح معتادا على هذا التعبير على وجوه أولئك الذين لم يروا كابول منذ زمن بعيد.

ربت على كتفي، عودة حميدة. قال بأسى.

أنقاض ومتسولون في كل مكان، هذا ما رأيت. أذكر المتسولين في الأيام القديمة ـ دائماً كان يحمل بابا مالاً زيادة في جيبه لهم. لم أره يوما يرفض بائعاً متجولاً. الآن، يتربصون عند كل منعطف، يرتدون أسمالاً ممزقة من الخيش، أيدي أكلتها التربة ممدودة لقطعة مال. والمتسولون أغلبهم أطفال الآن، بوجوه نحيفة متجهمة، بعضهم لا يزيد عمره عن خمسة أو ستة. يجلسون في أحضان أمهاتهم اللواتنييرتدين البرقع على جانب فتحات الصرف الصحي، عند زوايا الطريق المزدحمة، ومرتلين (باكشيش، باكشيش) وشيء آخر، شيء لم ألحظه على الفور: تقريباً لا أحد منهم جلس مع رجل، الحروب جعلت الآباء سلعة نادرة في أفغانستان.

كنا نقود غرباً نحو مقاطعة كارتيه ـ سيه. على ما أذكره، أنه طريق رئيسي في السبعينيات: جدة مايووند، شمال نهر كابول الجاف. على التلال في الجنوب وقف جدار المدينة القديم المتداعي، شرقه كان حصن بالا هيسار ـ المعلم الأثري الذي احتله سيد الحرب دوستوم في ١٩٩٢ ـ على ساحة جبل شيرداروازا، نفس الجبال التي منها أمطرت قوات

المجاهدين كابول بالصواريخ بين ١٩٩٢ و١٩٩٦ ، مسببين أغلب الدمار الذي أشاهده الآن. ساحة الشيرداروازا امتدت على طول الطريق الغربي. أذكر أنه من الجبال كان إطلاق (التوبيه تشاشت)، مدفع الظهيرة.

كان يطلق كل يوم ليعلن وقت الظهيرة، وأيضاً ليشير إلى نهاية ضوء النهار خلال شهر رمضان. كنت تستطيع سماع زئير المدفع في كل المدينة تلك الأيام.

كنت معتاداً على القدوم هنا إلى جدة مايووند عندما كنت صغيراً، تمتمت. كان هناك محلات هنا وفنادق، أضواء نيون ومطاعم. كنت أشتري الطائرات الورقية من رجل عجوز يدعى صافيو، كان يملك محل طائرات صغير قرب مركز البوليس القديم.

مازال مركز البوليس موجودا. قال فريد، ليس هناك نقص في البوليس في هذه المدينة. لكنك لن تجد طائرات ورقية أو محلات طائرات في جدة مايووند أو أي مكان آخر في كابول. ولت تلك الأيام.

تحولت جدة مايووند إلى قلعة رمل عملاقة. الأبنية التي لم تنهار تماماً تقف منتظرة الانهيار، وحفر في السقوف، وجدران اخترقتها شظايا الصواريخ، شوارع كاملة تحولت إلى ركام. رأيت لافتة ضربتها رصاصة على زاوية من الركام تقول (اشرب، كوكاكو.)

رأيت أطفالاً يلعبون على أنقاض بناء بلا نوافذ بين قطع الحجارة والقرميد. ركاب دراجات هوائية وعربات تجرها البغال تدور حول الأطفال، كلاب مشوهة، وأكوام من الحطام، غيمة من الغبار تحلق فوق المدينة، على الضفة الأخرى للنهر، غيمة من الدخان ارتفعت في السماء.

أين الأشجار؟ قلت.

قطعها الناس كي يجعلوها حطباً للشتاء. قال فريد، والشوراوي قطعوا الكثير منها أيضاً.

لماذا؟

كان القناصون يختبئون فيها.

موجة من الحزن غمرتني، العودة إلى كابول كانت كمصادفة صديقٍ قديم منسي ورؤية أن الحياة لم تكن جيدة معه، أنه أصبح مشردا ومعدماً.

أبي بنى ميتماً في شار - إي - كونا، المدينة القديمة جنوباً من هنا، قلت.

أذكره، قال فريد. لقد دمر منذ عدة سنين.

هل تستطيع التوقف؟ قلت، أريد أن أمشي هنا قليلاً.

توقف فريد عند شارع خلفي قرب بناء متهدم مهجور بلا باب. كانت هذه صيدلية. تمتم فريد.

بينما خرجنا من الشاحنة، مشينا عائدين إلى جدة مايووند وانعطفنا يميناً متجهين نحو الغرب.

ما هذه الرائحة؟ قلت.

شيء كان يجعل عيني تدمعان.

ديزل. رد فريد، مولدات المدينة تنقطع دائماً، لذا لا تستطيع الاعتماد على الكهرباء، فيستعمل الناس وقود الديزل.

ديزل. أتذكر رائحة هذا الشارع في الأيام القديمة؟

ابتسم فريد: كابوب.

كابوب الحمل. قلت.

الحمل، قال فريد وهو يستلذ بالكلمة في فمه، الأشخاص الوحيدون القادرون على أكل الحمل الآن هم طالبان. شد كمي، بالحديث عنهم...

سيارة كانت تقترب، (دورية اللحى) همهم فريد، كانت هذه المرة الأولى التي أرى فيها الطالبانيون.

رأيتهم على التلفاز، على الإنترنت، في المجلات والجرائد، لكن ها هنا أنا الآن، على بعد أقل من خمسين قدم عنهم. أخبر نفسي أن هذه الطعم المفاجئ في فمي ليس واضحا، خوفاً عارياً. أقنع نفسي أن

لحمي لم ينقبض فجأة ويضغط على عظامي، وأن قلبي لم يكن يضرب بعنف. ها هم، آتون، في كامل مجدهم.

التويوتا الحمراء تهادت بجانبنا، خمسة وجوه رجال شباب يجلسون في الصندوق، الكلاشنكوفات على أكتافهم، كلهم ملتحون ويرتدون توربانات سوداء. أحدهم، رجلٍ داكن البشرة في بداية العشرينيات، بحواجب متصلة كثة يحمل سوطاً في يده ويضربه بإيقاع على جانب الشاحنة. عيناه المتجولتان سقطتا علي، وأمسكتا عيني، لم أشعر بالعري أكثر من هذا في حياتي كلها، ثم بصق الطالباني التبغ من فمه ونظر بعيداً. وجدت أني أستطيع التنفس ثانية. ابتعدت الشاحنة في طريق جدة مايووند، تاركة غيمة من الدخان.

ما هي مشكلتك؟ همس فريد.

ماذا؟

لا تحدق بهم أبداً! هل تفهمني؟ أبداً!

لم أقصد، قلت.

صديقك محق، آغا، يمكنك أيضاً أن تنخس كلباً مسعوراً بعصا. قال أحدهم، هذا الصوت كان لمتسول عجوز يجلس حافي القدمين على درجات بناء مخرم بالرصاص.

كان يرتدي تشاباناً ممزقاً وتورباناً مليئاً بالتراب، عينه اليسرى أظهرت مقلة فارغة، يد مشوهة، أشار في الاتجاه الذي ذهبت فيه الشاحنة الحمراء.

إنهم يقودون في كل مكان، يبحثون، ينتظرون ويتمنون أن ينظرٍ إليهم أحد. عاجلا أم آجلاً، سيخطئ أحدهم، فتقيم الكلاب عيدا وسأم اليوم ينتهي أخيراً والكلٍ يصرخ (الله أكبر!) وفي تلك الأيام عندما لا يهينهم أحد، هناك دائماً عنف عشوائي. أليس كذلك؟

أبق عينيك على قدميك عندما يكون الطالبانيون قريبون. قال فريد.

نصيحة جيدة من صديقك، تدخل المتسول العجوز، نبح سعلة رطبة وبصق في منديل، أعذرني، لكن هل تستطيع الاستغناء عن بعض الأفغانيات؟ تنفس.

يكفي، فلنذهب. قال فريد وهو يسحبني من ذراعي.

أعطيت العجوز مئة ألف أفغانية، ما يقارب الثلاثة دولارات، عندما انحنى ليأخذ المال، رائحته ـ كالحليب الحامض والقدمين اللتين لم تغسلا منذ أسابيع ـ نخرت أنفي وجعلت معدتي تنقلب. أخفى المال في خصره بسرعة، عينه الوحيدة تنظر من جهة لأخرى "عالم من الشكر لإحسانك، آغا صاحب"

هل تعرف أين الميتم في كارتيه ـ سيه؟ قلت.

ليس من الصعب إيجاده، إنه غرب جادة دارولامان، قال، نقل الأطفال من هنا إلى كارتيه ـ سيه بعد أن أصابت الصواريخ الميتم القديم، هذا كان كإنقاذ شخص من قفص الأسد ورميه في قفص النمر.

شكراً لك، آغا، قلت وأنا ألتف لأذهب.

كانت هذه مرتك الأولى، لا؟

عذراً؟

المرة الأولى التي ترى فيها الطالبانيون.

لم أقل شيئاً. هز المتسول العجوز رأسه وابتسم، مظهراً أربعة أو خمسة أسنان متبقية، كلها منخورة وصفراء.

"أذكر المرة الأولى التي رأيتهم يدخلون كابول، يوم سعيد كان! قال، نهاية القتل! واه واه! لكن كما يقول الشاعر: كم بدا الحب رائعاً... ثم أتت المشاكل.

ابتسامة غطت وجهي، أعرف هذا البيت، إنه لحافظ.

نعم، صحيح. قال الرجل العجوز، يجب أن أعرف، كنت أعلمه في الجامعة.

حقاً؟

سعل الرجل العجوز، منذ ١٩٥٨ حتى ١٩٩٦. درست حافظ، خيام، رومي، بيديل، جامي، سعدي. مرة كنت محاضر شرف في طهران، سنة ١٩٧١. حاضرت في سريالية بيديل. أذكر كيف وقف الجميع وصفق، هه! هز رأسه، لكنك رأيت هؤلاء الشباب في الشاحنة، ما القيمة التي سيروها برأيك للصوفية؟

أمي درست في الجامعة. قلت.

وما كان اسمها؟

صوفيا أكرمي.

برقت عيناه تحت حجاب من الدموع.

بذرة الصحراء تبقى، لكن وردة الربيع تتفتح وتشع جمالاً، بنعمة عظيمة، بكرامة عظيمة، بتراجيديا عظيمة.

كنت تعرف أمي؟ سألت وأنا أركع أمام الرجل العجوز.

نعم، عرفتها. قال المتسول العجوز، كنا نجلس ونتحدث بعد الدرس. آخر مرة كانت في يوم ماطر قبل الإمتحانات الأخيرة بقليل، عندما تشاركنا كعكة لوز رائعة سوية. كعكة اللوز والشاي الساخن والعسل. كانت حاملاً بوضوح عندها، وكله جمال زائد عليها، لن أنسى ما قالته لي ذاك اليوم.

ماذا؟ أخبرني أرجوك. دائماً وصف بابا أمي بأوصاف عامة. مثل (كانت امرأة عظيمة) لكن ما تعطشت إليه دائماً كان التفاصيل.

كيف يلمع شعرها تحت ضوء الشمس، مثلجاتها المفضلة، الأغاني التي تحبها، هل كانت تقضم أظافرها؟ أخذ بابا ذكرياته عنها إلى القبر معه.

ربما ذِكر اسمها كان يذكّره بذنبه. بما فعله بعد أن ماتت بوقت قريب، أو ربما الخسارة كانت أكثر مما يحتمل. ألمه عميق جداً. لدرجة أنه لم يستطع الحديث عنها. ربما الاثنان سوية.

قالت أنا خائفة جداً، قلت لماذا؟ قالت لأني أشعر بسعادة غامرة، د.رسول. السعادة بهذا القدر مرعبة. سألتها لماذا؟ قالت، لا يتركوك

سعيداً بهذا القدر إلا إذا كانوا سيأخذون شيئاً منك، وقلت اسكتي، الآن، يكفي سخافة.

أمسك فريد بذراعي، من الأفضل أن نذهب، أمير آغا. قال بلطف، حررت ذراعي،

ماذا أيضاً؟ ماذا قالت أيضاً؟

بريق عينيِّ العجوز انطفأ، أتمنى لو أتذكر لك، لكني لا أذكر، أمك توفت منذ زمن بعيد وذاكرتي ممزقة كهذه الأبنية. أنا آسف.

لكن حتى شيئاً صغيراً، أي شيء.

ابتسم العجوز، سأحاول أن أتذكر وهذا وعد، عد إلي مرة أخرى.

شكراً لك، قلت، شكراً جزيلاً لك. وعنيتها.

الآن أصبحت أعرف أن أمي كانت تحب كعك اللوز مع العسل والشاي الساخن. أنها استخدمت مرة الكلمة (بشكل كبير)، أنها كانت قلقة من سعادتها. لقد عرفت عن أمي من الرجل العجوز في الطريق أكثر مما عرفت من بابا في حياتي.

ونحن نمشي في الطريق عائدين إلى الشاحنة، لم يعلق أي منا على ما يعتبره معظم "غير الأفغانيين" مصادفة غير لائقة، أنّ متسولاً في الطريق عرف أمي، لأننا كلانا عرفنا في أفغانستان، وخصوصاً في كابول، أن هذه السخافة كانت عادية. اعتاد بابا أن يقول، خذ اثنين من الأفغان لم يلتقيا في حياتهم، وضعهما في غرفة لعشر دقائق، وسيكتشفان القرابة الموجودة بينهم.

تركنا العجوز على درجات ذاك البناء، قصدت أن آخذه على عرضه، أن أعود لأرى إن كان قد تذكر قصصاً أخرى عن أمي، لكني لم أره ثانية في حياتي.

وجدنا الميتم الجديد في القسم الشمالي من كارتيه ـ سيه. على طول ضفاف نهر كابول الجاف. كان بناء مسطحاً على شكل ثكنة بجدران مشققة ونوافذ محاطة بألواح خشبية، أخبرني فريد على الطريق أن كارتيه ـ سيه كان أحد أكثر الأحياء تدميراً في الحرب في كابول. و، بينما

خرجنا من الشاحنة، الدليل كان غامراً، الطرق المحفرة التي كانت تمتد على ما يعتبر أكثر بقليل من أنقاض بيوت ومنازل مهجورة. مررنا بسيارة مقلوبة صدئة. جهاز تلفاز بلا شاشة نصف مدفون في الركامٍ، جدار كتب عليه بالأسود (زيندا باد طالبان!)، فلتعش طالبان طويلاً!

رجلٍ نحيل، أصلع بلحية رمادية فتح الباب، كان يرتدي جاكيتاً صوفياً، قلنسوة ونظارة بعدسات مفترقة ترتاح على أنفه. خلف العدسات، عينان صغيرتان كالبازلاء السوداء تنقلتا من فريد إلي.

السلام عليكم. قال.

السلام عليكم، قلت، أريته الصورة.

نحن نبحث عن هذا الطفل.

نظر بسرعة إلِي الصورة، أنا آسف، لم أره في حياتي.

لم تنظر تقريبا إلى الصورة، صديقي. قال فريد، لم لا تأخذ نظرة ثانية؟

لطفاً. أضفت.

أخذ الرجل الصورة، درسها، أعادها إلي، أنا آسف، أعرف كل طفل في هذه المؤسسة وهذا لا يبدو مألوفاً، الآن إذا سمحتم لي، لدي عمل للقيام به. ثم أغلق الباب بالمفتاح.

طرقت على الباب، آغا، آغا، أرجوك افتح الباب. لا نريد أن نؤذيه.

أخبرتك أنه ليس هنا. أتى صوته من الجهة الأخرى، الآن، أرجوك اذهب.

اقترب فريد من الباب، أراح جبهته عليه.

صديقي، نحن لسنا من طالبان. قال بصوت منخفض حذر، الرجل يريد أخذ الطفل إلى مكان آمن.

أتيت من بيشاوار، قلت، صديق جيد لي يعرف زوجاً أميركياً هناك يديرون بيت إحسان للأطفال. شعرت بوجود الرجل على الجهة

الأخرى للباب، شعرت به يقف هناك، يستمع، متردد بين الأمل والشك.

انظر، أعرف أب سوهراب. قلت، كان اسمه حسان، اسم أمه فارزانا، كان يلقب جدته بساسا. هو يعرف القراءة والكتابة وهو جيد بالمقلاع. هناك أمل لإنقاذ لذا الطفل، آغا، طريقة للخروج، أرجوك افتح الباب.

من الجهة الأخرى، صمت.

أنا عمه غير الشقيق. قلت.

مضت لحظة، ثم صوت المفتاح في القفل، عاد وجه الرجل الضيق للظهور، نظر إلي ثم إلى فريد ثم عاد.

كنت مخطئاً في شيء واحد.

ماذا؟

أنه عظيم بالمقلاع.

ابتسمت.

لا نستطيع إبعاده عن ذاك الشيء، يضعه دائماً في خصره أينما ذهب.

قدم الرجل الذي أدخلنا نفسه على أنه زمان، مدير الميتم.

سآخذك إلى مكتبي. قال.

تبعناه خلال ممرات معتمة، متجهمة، حيث أطفال عراة الأقدام يرتدون كنزات بالية يركضون في كل مكان. مشينا بجانب غرف بلا سجاد إلا فرشات ونوافذ مغلقة بمزق من البلاستيك. أسرة حديدية، أغلبها بلا فرش، ملأت الغرف.

كم يتيم يعيش هنا؟ سأل فريد.

أكثر مما نستطيع إيواءه، حوالي المئتين والخمسين. قال زمان، لكنهم ليسوا كلهم يتامى، كثير منهم خسروا آباءهم في الحروب، وأمهاتهم لا يستطعن إطعامهم لأن طالبان لا تسمح للنساء بالعمل. لذا يجلبوهم إلى هنا. قام بإيماءة شاملة بيده، وأضاف بحزن، هذا المكان أفضل من

الشارع، لكن ليس بكثير، لم يبنَ هذا المكان ليحيى الناس فيه، كان مستودع تخزين لشركة سجاد، لذا ليس هناك سخان ماء وتركوا البئر يجف، أخفض صوته، لقد طلبت من الطالبانيين مالاً كي أحفر بئرا أكثر مما أذكر من المرات وكل مرة يهزون مسابحهم ويقولون أنه ليس هناك مال. لا مال. هزئ.

أشار إلى صف من الأسرة على طول الجدار، لا نملك أسرة كافية، ولا نملك فرشاً تكفي الأسرة التي نملك، والأسوأ لا نملك ما يكفي من الأغطية. أشار إلى فتاة تلعب بالحبل مع طفلين آخرين، هل تريان تلك الفتاة؟ الشتاء الماضي، كان على الأطفال مشاركة الأغطية، مات أخوها من النوم في العراء، آخر مرة تحققت، كان لدينا أقل من مخزون شهر من الأرز في المستودع، وعندما ينتهي، على الأطفال أن يأكلوا الخبز والشاي على الفطور والعشاء. لاحظت أنه لم يشر إلى الغداء.

توقف والتفت إلي، هذا ملجأ صغير جداً، تقريباً لا طعام، لا ثياب، لا ماء نظيف، ما أملكه هو للأطفال الذي خسروا طفولتهم، لكن المأساة أنهم المحظوظون. المكان ملسء فوق قدرتنا على الاستيعاب وكل يوم عليَّ رفضأطفال تجلبهنَّ أمهاتهم . اقترب خطوة مني، تقول أنه هناك أملٍ لسوهراب؟ أدعو الله أن لا تكون كاذباً. آغا، لكن... ربما تأخرت كثيرا.

ماذا تعني؟

أبعد زمان نظره، اتبعني.

ما أسماه زمان مكتباً، كان أربع جدران متصدعة عارية، حصيرة على الأرض، طاولة، وكرسيين قابلين للطي. بينما جلست أنا وزمان، رأيت جرذاً رمادياً يخرج رأسه من حفرة في الحائط ويرنو إلى الغرفة. جفلت عندما شم حذائي، ثم حذاء زمان وانطلق عبر الباب المفتوح.

ماذا عنيت أنه ربما فات الأوان؟ قلت.

هل ترغب ببعض الشاي؟ أستطيع صنع القليل.

لا ، شكراً ، أفضل أن نتحدث.

انحنى زمان إلى الخلف وعقد يديه على صدره ، ما سأخبرك إياه ليس ساراً ، دون ذكر أنه ربما خطير جداً.

لمن؟

أنت ، أنا ، وبالطبع ، سوهراب. إن لم يكن فات الأوان منذ الآن.

يجب أن أعرف. قلت.

هز رأسه ، تقول هذا ، لكن أولاً أريد أن أسألك : لأي درجة تريد أن تجد ابن أخيك؟

فكرت في قتالات الشارع التي اشتركنا فيها عندما كنا صغاراً ، كل المرات التي كان حسان يقاتل بها عني ، اثنان ضد واحد وأحياناً ثلاثة. كنت أجفل وأراقب ، أرغب أن أتدخل ، لكن شيئاً داخلي منعني دائماً.

نظرت إلى الممر ، رأيت مجموعة من الأطفال يرقصون في دائرة ، فتاة صغيرة ، رجلها اليسرى مبتورة من تحت الركبة ، تجلس على سجادة مهترئة وتراقب ، تبتسم وتصفق مع الأطفال الآخرين ، رأيت فريد يراقب الأطفال أيضاً ، يده المشوهة معلقة على جنبه ، تذكرت أطفال وحيد و... أدركت شيئاً ، لن أغادر أفغانستان دون أن أجد سوهراب. أخبرني أين هو. قلت ، حدق زمان بعيني ، ثم هز رأسه ، أمسك بقلم رصاص ، وأداره بين أصابعه. أترك اسمي خارج هذا.

أعدك.

طرق الطاولة بالقلم ، رغم وعدك ، أعتقد أني سأعيش لأندم على هذا ، لكن ربما الأمر سيان ، أنا ملعون بأي حال ، لكن إن كان بالإمكان فعل شيء لسوهراب ، سأخبرك ، لأني أصدقك ، لديك نظرة رجل يائس.

بقي صامتاً لوقت طويل.

هناك موظف طالباني رسمي، تمتم، يزور الميتم كل شهر أو اثنين، يجلب معه مالاً، ليس الكثير، لكن أفضل من لا شيء، عيناه القلقتان استقرتا علي، ثم ابتعدتا، عادة يأخذ فتاة.

وأنت تسمح بهذا؟ قال فريد من ورائي، كان يدور حول الطاولة، يطبق على زمان.

ما هو الخيار الذي أملك؟ رد زمان، مبعداً نفسه عن المكتب.

أنت المدير هنا، قال فريد، عملك أن تحمي هؤلاء الأطفال.

ليس هناك شيء أستطيع القيام به لإيقافه.

أنت تبيع الأطفال. صرخ فريد.

اجلس فريد، اتركه ! قلت، لكنني تأخرت.

لأنه فجأة، أصبح فريد على الطاولة، طارت كرسي زمان بينما سقط فريد عليه وثبته إلى الأرض. المدير تحت فريد صاح بصرخات مخنوقة، رجلاه تركلان درج المكتب وأوراق وقعت على الأرض، ركضت حول المكتب ورأيت لم كانت صرخات زمان مخنوقة: كان فريد يخنقه، أمسكت كتفي فريد بكلتي يدي وشددت بقوة، أبعده عنه.

هذا يكفي، صرخت.

لكن وجه فريد أصبح أحمر، شفتاه مضغوطتان، قال، سأقتله ! لا تستطيع إيقافي ! سأقتله ! صرخ.

توقف !

سأقتله ! شيء في صوته أخبرني أني إن لم أتصرف بسرعة سأشهد أول جريمة قتل لي.

الأطفال يشاهدون، فريد، إنهم يشاهدون. قلت.

عضلات كتفه تقلصت تحت قبضتي، وللحظة، اعتقدت أنه سيظل يضغط على رقبة زمان بكل الأحوال، لكنه التفت، رأى الأطفال، كانوا يقفون على الباب، يمسكون بأيدي بعضهم.و بعضهم يبكي، شعرت بعضلات فريد ترتخي، أسقط يديه، وقف على قدميه، نظر إلى زمان وبصق على وجهه ثم مشى إلى الباب وأغلقه.

صارع زمان ليقف على قدميه، مسح شفتيه الداميتين بكمه، مسح البصاق عن خده، وهو يسعل ويصارع ليتنفس. ارتدى قلنسوته، نظاراته، رأى أن العدسات قد انكسرت، فخلعها، دفن وجهه في يديه، لم يقل أحدنا شيئاً لوقت طويل.

أخذ سوهراب منذ حوالي الشهر، قال زمان أخيراً، يداه ما زالتا تحميان وجهه.

تسمي نفسك مدير؟ قال فريد.

أسقط زمان يديه، لم يُدفع لي منذ أكثر من ستة أشهر، أنا مفلس لأني أنفق مدخرات حياتي في هذا الميتم. كل ما ملكته أو ورثته بعته كي يصمد هذا المكان الذي نسيه الله. تعتقد أنه ليس لدي عائلة في باكستان أو إيران؟ كان يمكنني الهرب كالجميع، لكني لم أفعل، لقد بقيت، بقيت لأجلهم. أشار إلى الباب.

إذا منعت عنه طفلاً واحداً، سيأخذ عشرة، لذا أتركه يأخذ واحداً وأترك الحكم لله. أبتلع كبريائي وآخذ ماله الملعون، الدنس، الوسخ، ثم أذهب إلى البازار وأشتري طعاماً للأطفال.

نظر فريد للأسفل.

ماذا يحدث للأطفال الذين يأخذهم؟ سألت.

فرك زمان عينيه بسبابته وإبهامه.

أحيانا، يعودون.

من هو؟ كيف أجده؟ قلت.

اذهب إلى استاد غازي غداً. ستراه عند الاستراحة بين الشوطين، يضع نظارات سوداء، رفع نظارته المكسورة وقلبها بين يديه، أريدكم أن ترحلوا، الأطفال مرعوبين.

رافقنا للخارج.

بينما ابتعدت الشاحنة، رأيت زمان في المرآة الجانبية، واقفاً عند الباب، ومجموعة من الأطفال تحيط به، تمسك بطرف كمه.

لاحظت أنه وضع نظارته المكسورة.

- 21 -

قطعنا النهر وقدنا شمالاً مارين بساحة باشتونستان المكتظة، حيث اعتاد بابا أن يأخذني إلى مطعم خيبر للكابوب، كان البناء ما يزال واقفاً. لكن أبوابه مقفلة. النوافذ محطمة، والحرفين (خ) و(ر) ناقصين. رأيت جثة قرب المطعم، كان هناك شنق. شاب تعلق من نهاية حبل مربوط إلى عمود، وجهه منتفخ وأزرق، الثياب التي ارتداها في آخر أيام حياته، ممزقة، ملطخة بالدماء، لا أظن أن أحداً لاحظه أو حاول إنزاله.

قدنا بصمت خلال الساحة وتوجهنا نحو مقاطعة وزير أكبر خان. أينما نظرت، غيمة من الغبار تغطي المدينة وأبنيتها الحجرية. على بعد بضع شوارع شمال ساحة باشتونستان أشار فريد إلى رجلين يتحدثان بحماسة عند تقاطع طرق مزدحم، أحدهم يعرج على رجل واحدة، رجله الأخرى مبتورة من تحت الركبة، يحمل رجلاً صناعية بين ذراعيه. أتعلم ماذا يفعلون؟ يتساومون على الرجل.

يبيع رجله؟

هز فريد رأسه، تستطيع الحصول على مال وفير لقاءها في السوق السوداء. تطعم أولادك لأسبوعين.

لمفاجأتي، أغلب البيوت في وزير أكبر خان كانت بوضع جيدٍ، الأشجار ما تزال ترتفع عن الأسوار، والطرق مازالت معبدة تقريباً، ليست كتلك الموجودة في كارتيه - سيه.

لوحات إعلانات ممحية، بعضها ملوي ومصاب بالرصاص، لا تزال تشير إلي الطريق.

ليس سيئاً للغاية. قلت.

لا تتفاجأ، أغلب الأشخاص الهامين يعيشون هنا الآن.

طالبان؟
وآخرون. قال فريد.
من أيضاً؟
قادنا داخل شارع عريض بأرصفة نظيفة ومنازل مسورة على الجانبين.
الأشخاص خلف طالبان، الأدمغة الحقيقية لهذه الحكومة، إن كنت تستطيع تسميتها هذا: عرب، شيشان، باكستانيون. قال فريد وأشار إلى الشمال الغربي.
شارع ١٥، ذاك الاتجاه، يسمى ساراك - إي - ميهمانا، شارع الضيوف، هذا ما يسمونهم هنا، ضيوف، أعتقد أنه يوماً هؤلاء الضيوف سيبولون على كامل السجادة.
أعتقد أننا وصلنا! قلت، هناك!، أشرت إلى علامة كانت تقوم بدور الدليل لي عندما كنت طفلاً. إذا تهت، كان بابا يقول، تذكر أن شارعنا هو الذي ينتهي ببيت وردي. البيت الوردي ذو السقف المائل كان البيت الوحيد بذلك اللون في الحي. لا زال موجوداً.
انعطف فريد إلى الشارع، فرأيت بيت بابا فورا.
وجدنا السلحفاة الصغيرة وراء مجموعة من شجيرات التوت البري في الباحة، لا نعرف كيف وصلت هنا ولكننا سعيدين بها أكثر من أن نهتم. طلينا درعها بالأحمر، فكرة حسان، وفكرة جيدة أيضاً، هكذا، لن نضيعها بين الشجيرات، تظاهرنا أننا زوج من الفاتحين الجريئين اللذين اكتشفا وحشاً عملاقاً من قبل التاريخ في أدغال خطرة وعدنا به كي يراه العالم. وضعناها في العربة الخشبية التي بناها علي لحسان الشتاء الماضي هدية عيد ميلاده، تظاهرنا أنها قفص حديدي عملاق. يحمي من أنفاس الوحش النارية! سرنا على العشب وسحبنا العربة خلفنا. حول أشجار التفاح والكرز، التي أصبحت شواهد تناطح السحاب، رؤوس تظهر من آلاف النوافذ لتشاهد مروراً عظيماً، سرنا

على الجسر المقوس الذي بناه بابا قرب أشجار التين: على أنه جسر معلق عظيم يصل بين المدن، والبركة الصغيرة تحت، بحر مزبد.

ألعاب نارية انفجرت على الأبراج المعدنية للجسر وجنود مدرعون حيونا على الجهتين بينما مدافع حديدية عملاقة أطلقت في السماء، السلحفاة الصغيرة تدور داخل الصندوق، جررنا العربة حول الممر الدائري ذي الحجارة الحمراء خارج البوابات الحديدية ورددنا تحيات قادة العالم بينما وقفوا وصفقوا.

نحن حسان وأمير، مغامران مشهوران، وأعظم فاتحي العالم، على وشك أن نقبل ميدالية شرف لرحلتنا الشجاعة.

بحذر، مشيت على الممر حيث خرجت الأعشاب من بين الحجارة المتآكلة. وقفت خارج بوابات منزل أبي، أشعر بأني غريب، وضعت يدي على القضبان الصدئة، أتذكر كيف ركضت من خلال هذه البوابات آلاف المرات، عندما كنت طفلاً. لأسباب لا تهم على الإطلاق الآن، ومع ذلك بدت مهمة جداً عندها. حدقت في الداخل.

امتداد الممر الذي يصل بين البوابات والباحة، حيث أخذنا أنا وحسان أدواراً في السقوط الصيف الذي تعلمنا فيه قيادة الدراجة الهوائية. لم يبد عريضاً أو طويلاً كما أذكره. الإسمنت أصبح متشققاً كما لو ضربه الرعد، وأعشاب خرجت من شقوقه، أغلب أشجار الحور قطعت ـ الأشجار التي تسلقناها أنا وحسان لنعكس ضوء المرآة على بيوت الجيران. والتي بقيت واقفة كانت تقريباً عارية.

جدار الذرة المريضة ما زال موجوداً. رغم أني لم أر ذرة، مريضة أو غير ذلك. على طول الجدار الآن، الطلاء بدأ يبلى وأقسامه بدأت تنفصل، المرج، أصبح بنياً من التراب حيث لم ينبت شيء على الإطلاق.

سيارة جيب كانت تقف في الممر، بدا هذا خطأً فظيعاً، موستانغ بابا السوداء تنتمي إلى ذلك المكان، لسنوات، محرك الموستانغ ذي الثماني سلندرات زأر بالحياة كل صباح وأيقظني من نومي. رأيت أن الزيت قد

اندلق من تحت الجيب ووسخ الممر كفحص بقع الحبر الذي يقوم به الأطباء النفسيون، خلف الجيب، عربة يد فارغة مقلوبة على جنبها، لم أجد أية إشارة عن وجود شجيرات الزهور التي زرعها بابا وعلي على جانب الممر الأيسر، فقط تراب وأعشاب متناثرة.

أطلق فريد الزمور مرتين خلفي. يجب أن نذهب، آغا، سنلفت الانتباه إلينا. قال.

أعطني دقيقة بعد. قلت.

البيت نفسه كان بعيداً عن القصر الأبيض البراق الذي أذكره من طفولتي. بدا أصغر، السقف بدأ يتداعى والمادة اللاصقة بدأت تنفصل، نوافذ غرفة المعيشة، البهو وحمام الضيوف كانت مكسورة، ومرقعة بشكل عشوائي بقطع من البلاستيك أو ألواح خشبية مثبتة بالمسامير.

الطلاء، الذي لمع أبيضاً في القديم، تحول إلى رمادي شبحي وتآكل إلى أقسام، كاشفاً طبقات الحجارة تحته، تداعت الدرجات الأمامية.

ككل شيء في كابول، كان منزل أبي صورة عن عظمة سقطت.

وجدت نافذة غرفتي القديمة، الطابق الثاني، ثالث نافذة جنوب الدرجات الرئيسية للمنزل، وقفت على رؤوس أصابعي، لم أجد شيئاً خلف النافذة إلا ظلالاً.

قبل خمس وعشرين سنة، وقفت خلف تلك النافذة، مطر كثيف يطرق حوافها وأنفاسي ترطب الزجاج، وراقبت حسان وعلي يحملون ممتلكاتهم في صندوق سيارة أبي.

أمير آغا، نادى فريد ثانية.

آت. قلت.

بجنون، أردت الدخول، أردت صعود الدرجات الأمامية حيث اعتاد علي أن يجعلنا نخلع أحذيتنا الثلجية، أردت أن أدخل إلى البهو، وأشم رائحة قشر البرتقال الذي اعتاد عليٌّ على رميه في الموقد ليحترق

مع نشارة الخشب. أجلس في المطبخ، أشرب الشاي مع قطعة من الخبز. وأستمع إلى حسان يغني أغاني الهازارا القديمة.

زمور آخر، مشيت عائداً إلى اللاند كروزر الواقفة على الرصيف، حيث جلس فريد خلف المقود.

يجب أن أرى شيئاً آخر. قلت له.

هل تستطيع أن تسرع؟

أعطني عشرِ دقائق.

اذهب، إذاً. وبينما درت لأذهب، فقط انسى كل شيء، اجعل الأمر أسهل.

أجعل ماذا أسهل؟

أن تمضي وتترك كل شيء وراءك. قال فريد ورمى سيجارته خارج النافذة، ماذا يجب أن ترى أكثر؟ دعني أريحك من هذا العناء، لا شيء تذكره بقي، من الأفضل أن تنسى.

لا أريد أن أنسى بعد الآن، قلت، أعطني عشر دقائق.

لم نكن نتعب أبداً، أنا وحسان، عندما كنا نصعد التلة شمال منزل بابا، كنا نتسابق للوصول إلى القمة أو نجلس على حافة المنحدر حيث هناك مكان جيد لرؤية المطار البعيد.

كنا نراقب الطائرات تقلع وتهبط ثم نركض ثانية.

الآن، عندما وصلت إلى قمة التلة، كل شهيق بدا كتنشق النار، انهمر العرق على وجهي، وقفت لاهثاً، ألم في جانبي. ثم ذهبت أبحث عن المقبرة المهجورة، لم يكن صعباً العثور عليها، كانت ما تزال موجودة، وكذلك شجرة الرمان الهرمة، استلقيت على عتبة البوابة حيث دفن حسان أمه، مفاصل البوابات الحديدية كانت غير موجودة، وأحجار الرأس بادية بصعوبة خلال العشب الكثيف الذي غطى المكان. زوج من الغربان وقفا على جدار المقبرة.

قال حسان في رسالته أن شجرة الرمان لم تثمر منذ سنين، ناظراً إلى الشجرة العارية، شككت أنها ستثمر ثانية.

وقفت تحتها، تذكرت كل المرات التي تسلقناها، راكبين أغصانها، أرجلنا تتأرجح، أشعة ضوء الشمس تنعكس خلال الأوراق وتصنع فسيفساء من الضوء والظل على وجهينا.

الطعم الحلو للرمان ملأ فمي.

ركعت على ركبتي وحففت جذع الشجرة بيدي.. وجدت ما كنت أبحث عنه، ما حفرناه كان قد بدأ يتلاشى، لكنه مازال هناك: أمير وحسان.. سلاطين كابول. لمست الكتابة بأصابعي. بعض السائل لطخ يدي.

جلست عاقداً رجلي عند قدم الشجرة ونظرت جنوباً إلى مدينة طفولتي. في تلك الأيام، قمم الأشجار ظهرت خلف أسوار كل منزل. السماء كانت واسعة وزرقاء، الغسيل يجف في صفوف تومض تحت الشمس، وإذا أصغيت جيداً، كنت تستطيع أن تسمع صوت بائع الفواكه يمر خلال وزير أكبر خان مع حماره: كرز! مشمش! عنب! في أول الليل، كنت تسمع الآذان، دعوة المؤذن للصلاة من المسجد في شار ـ إي ـ ناو.

سمعت زموراً ورأيت فريد يلوح لي. كان وقت الذهاب.

قدنا جنوباً ثانية، عائدين نحو ساحة باشتونستان. مررنا على عدة شاحنات حمراء أخرى بشباب ملتحين مسلحين في الصندوق. لعن فريد تحت أنفاسه كلما مررنا بواحدة.

استأجرت غرفة في فندق صغير قرب ساحة باشتونستان. ثلاث فتيات صغيرات يرتدين فساتين سوداء متطابقة وشالات بيضاء. رجل بنظارات خلف الطاولة، طلب ٧٥ دولار، سعر يفوق الخيال بالنسبة للمكان، لكني لم أمانع. الاستغلال لشراء شاليه في هاواي كان شيئاً، وفعل هذا لإطعام أطفالك شيء آخر. لم يكن هناك ماء ساخنة والتواليت المكسور لم ينزل الماء. فقط سرير حديدي واحد بفرشة مهترئة، وغطاء ممزق، وكرسي خشبية في الزاوية، النافذة التي تطل

على الساحة مكسورة، ولم تبدل، بينما وضعت حقيبتي. لاحظت بقعة من الدم الجاف على الجدار خلف السرير.

أعطيت فريد بعض المال وذهب ليشتري لنا طعاماً، عاد بعدها بقليل بأربع أشياش من الكابوب الساخن. ناناً طازجاً، ووعاء من الأرز الأبيض. جلسنا على السرير، نأكل.

كان هناك شيء لم يتغير في كابول رغم كل شيء، الكابوب مازال شهياً كما أذكره.

تلك الليلة، أخذت السرير واستلقى فريد على الأرض، لافاً نفسه بغطاء آخر. حاسبني صاحب الفندق عليه. لا ضوء يدخل إلى الغرفة إلا ضوء القمر الذي يدخل من النافذة المكسورة.

قال فريد أن صاحب الفندق أخبره أن الكهرباء كانت مقطوعة عن كابول منذ يومين مولده يحتاج إصلاحاً، تحدثنا قليلاً، أخبرني عن طفولته في مزار شريف، في جلال أباد، عن وقت انضمامه وأبيه إلى الجهاد وقتاله الشوراوي في وادي بانجشير. كانا متعبين بلا طعام واضطرا لأكل الجراد كي يبقيا على قيد الحياة. أخبرني عن اليوم الذي قتل رصاص الهيليكوبتر أباه، اليوم الذي سرق فيه لغم الأرض ابنتاه، سألني عن أميركا، أخبرته أنه في أمريكا تستطيع أن تدخل المتجر وتشتري خمسة عشر أو عشرين نوعاً مختلفاً من حبوب الإفطار. اللحم كان دائماً طازجاً والحليب بارد، الفواكه كثيرة والماء نظيف. في كل بيت تلفاز، وكل تلفاز له جهاز تحكم. وتستطيع أن تشتري ساتيلايت إن أردت، وتستقبل أكثر من خمسمئة محطة.

خمسمئة؟ قال فريد بتعجب.

خمسمئة.

ساد الصمت لفترة، وعندما ظننت أنه قد نام، قال لي، آغا، هل سمعت عندما أتت ابنه المولى نصر الدين وشكت أن زوجها قد ضربها؟ استطعت الشعور به يبتسم في الظلام وابتسامة خطت وجهي

أيضاً، لم يكن هناك أفغاني في العالم لا يعرف على الأقل عدة نكت عن المولى الطنان.

ماذا؟

ضربها أيضاً، ثم أرسلها لتقول لزوجها أن المولى ليس أحمقاً: إذا كان السافل سيضرب ابنته، فالمولى سيضرب زوجته بالمقابل.

ضحكت، من النكتة، لكن بالغالب كيف أن الأفغان لم يتغيروا، شنت الحروب، اخترع الإنترنت، ومشى روبوت على سطح المريخ، وأفغانستان مازالت تخبر نكت المولى نصر الدين.

هل سمعت عن المرة التي وضع المولى حقيبة ثقيلة على كتفيه وهو يركب حماره؟ قلت

لا.

أحدهم في الشارع قال له، لم لا تضع الحقيبة على الحمار؟ فقال، سيكون هذا قاسياً، أنا وحدي حمل ثقيل على المسكين.

تبادلنا نكت المولى نصر الدين إلى أن أخبرنا كل ما نعرفه ثم صمتنا ثانية.

أمير آغا؟ قال فريد، موقظاً إياي من النوم.

نعم؟

لم أنت هنا؟ أقصد، لم أنت حقاً هنا؟

أخبرتك.

لأجل الطفل؟

لأجل الطفل.

تقلب فريد على الأرض. يصعب التصديق.

أحياناً أنا نفسي لا أصدق أني هنا.

لا... ما أقصده هو لم هذا الطفل؟ تأتي إلى هنا من أميركا لأجل... شيعي؟

قتل هذا كل الضحك والنعاس داخلي. أنا متعب. قلت، دعنا نأخذ قسطاً من النوم.

تردد شخير فريد فوراً في الغرفة الفارغة، بقيت مستيقظاً. يداي معقودتان على صدري، أحدق في الليل من خلال النافذة المكسورة. أفكر أنه ربما ما قاله الناس عن أفغانستان صحيح. مكان ميؤوس منه.

حشد غفير كان يملأ استاد غازي، عندما مشينا في نفق الدخول، آلاف الناس ملأت شرفات الخرسانات. أطفال يلعبون في الممرات ويلاحقون بعضهم على الدرجات. رائحة الحمص وصلصة البهارات، معلقة في الهواء ممزوجة برائحة الروث والعرق. مشيت وفريد بقرب باعة متجولين يبيعون السجائر، حبات الصنوبر والبسكويت. أمسك ولد هزيل بمرفقي وهمس لي في أذني، سألني إن كنت أريد أن أشتري بعض (الصور المثيرة). مثيرة جداً، آغا. قال، عيناه الحذرتان تنظران من مكان لآخر - مذكرة إياي بفتاة، منذ بضعة سنوات، حاولت أن تبيعني المخدرات في مقاطعة تيندر لوين في سان فرانسيسكو. أظهر الولد جنبا من جيبه وأعطاني نظرة خاطفة على صوره المثيرة: ملصقات أفلام هندية تظهر ممثلات، بكامل ثيابهن بين أذرع رجالهن.

مثيرة جداً، قال ثانية.

لا، شكراً. قلت مكملاً طريقي.

إذا أمسكوا به، سيلقنوه درسا يوقظ أباه من القبر. تمتم فريد.

لم يكن هنا مقاعد مخصصة. بالطبع، لا أحد ليرشدنا بأدب إلى قسمنا، ممرنا، صفنا، ومقاعدنا. لم يكن هناك أبداً، حتى في الأيام القديمة للحكم الملكي. وجدنا منطقة جيدة للجلوس، بجانب خط المنتصف، رغم أنها احتاجت بعض الدفع والركل من جانب فريد. أذكر كم كان عشب الملعب أخضراً في السبعينات عندما كان بابا يأخذني لمباريات كرة القدم. الآن، الملعب في أسوأ حال، كان هناك حفر وكتل في كل مكان، لكن أكثر ما يسترعي الانتباه، كان حفرتين عميقتين عند المرمى الجنوبي. لم يكن هناك عشب أبداً، فقط تراب.

وعندما نزل الفريقان أخيرا إلى الملعب - كلهم يرتدون بيجامات رغم الحر - وبدأ اللعب. أصبح من الصعب ملاحقة الكرة مع سحابات

الغبار التي يركلها اللاعبون. طالبانيون شباب يحملون أسواطاً، يتجولون في الممرات، ويضربون كل من يهتف بصوت عال. خرج اللاعبون بعد صفارة نهاية الشوط الأول. زوج من السيارات الحمراء المتسخة، كتلك التي رأيتها في كل مكان منذ وصلت، دخلتا إلى الملعب من خلال البوابات. وقف الحشد على أقدامه، امرأة ترتدي برقعاً أخضر في صندوق إحداها، ورجل معصوب العينين في الأخرى. مرت السيارتان حول المضمار، ببطء، وكأنه ليستطيع الحشد إلقاء نظرة طويلة. وكان لها التأثير المطلوب، مد الناس رقابهم، أشاروا، وقفوا على رؤوس أصابعهم. قربي، حنجرة فريد كانت تعلو وتهبط بينما تمتم بصلاة تحت أنفاسه. دخلت السيارات الحمراء الملعب، متجهة نحو إحدى جوانبه في غمامتين من الغبار، أشعة الشمس تنعكس عن صندوقيهما. سيارة ثالثة لاحقتهما على جانب الملعب. هذه كانت مليئة بشيء، وفجأة عرفت الغرض من الحفرتين. خلف المرمى، أفرغوا الشاحنة الثالثة، همهم الحشد في ترقب، هل تريد البقاء؟ قال فريد بوقار.

لا، قلت. لم أشعر بحياتي في الرغبة بعدم الوجود في مكان كما شعرت الآن. لكن علينا البقاء.

طالبانيان مع كلاشنكوفات على أكتافهما ساعدا الرجل المعصوب على النزول من الشاحنة الأولى، والاثنان الآخران ساعدا المرأة ذات البرقع، ضعفت ركبتا المرأة تحتها وسقطت على الأرض. رفعها الجنديان ووقعت ثانية، عندما حاولا رفعها ثانية بدأت بالصراخ والركل. لن أنسى، ما دمت أتنفس، صوت تلك الصرخة. كانت صرخة حيوان بري يحاول تحرير رجله العالقة في فخ الدببة. انضم طالبانيان آخران وساعدا بإجبارها على النزول إلى إحدى الحفر التي تصل للصدر. الرجل المعصوب، سمح لهما بهدوء، بإنزاله إلى الحفرة المحفورة له. الآن، فقط جذعا المتهمين برزت من الأرض.

رجل دين بدين أبيض اللحية يرتدي ملابس رمادية وقف قرب المرمى وسعل في المايكروفون.

خلفه، كانت لا تزال المرأة تصرخ. قرأ آيات مطولة من القرآن، صوته الذي يخرج من أنفه انتشر في صمت حشد الملعب. تذكرت شيئاً قاله لي بابا منذ زمن بعيد: بُل على لحى كل أولئك القردة أصحاب الحق، لا يفهمون شيء إلا تحريكٍ مسابحهم وحفظ كتاب بلسان لا يفهمونه حتى، فليرحمنا الله جميعاً إن سقطت أفغانستان بين أيديهم.

عندما انتهت الصلاة، سعل رجل الدين ثانية. أخوتي وأخواتي، قال متحدثاً بالفارسية، صوته كان يرج في الملعب، نحن هنا اليوم كي نطبق الشريعة، نحن هنا اليوم لنطبق العدالة. نحن هنا اليوم لأن إرادة الله وكلمة الرسول محمد، عليه السلام، حيين وبشكل جيد هنا في أفغانستان، وطننا المحبوب. نحن ننصت لما يقوله الله ونحن نطيع لأننا لسنا سوى مخلوقات متواضعة، ضعيفة أمام عظمة الله. وماذا يقول الله؟ أسألكم! ماذا يقول الله؟ يقول لنا أن كل خاطئ يعاقب بما يساوي خطأه. هذه ليست كلماتي، أو كلمات أخوتي. هذه كلمات الله! وأشار بيده الحرة إلى السماء. رأسي كان يطن والشمس أصبحت حارة جداً.

كل خاطئ يجب أن يعاقب بما يساوي خطيئته! أعاد رجل الدين على المكبر، خافضاً صوته، لافظاً كل كلمة ببطء، بطريقة درامية، وما هي العقوبة، أخوتي وأخواتي، التي تساوي خطيئة الزنا؟ كيف سنعاقب أولئك الذين دنسوا قدسية الزواج؟ كيف سنتعامل مع أولئك الذين يبصقون بوجه الله؟ كيف سنرد على أولئك الذين يرمون الحجارة على نوافذ بيت الله؟ سنرمي الحجارة بدورنا! صرخ على المايكروفون كمن يطلق الرصاص. همهمة منخفضة انتشرت بين الحشد.

بجانبي، كان فريد يهز رأسه، ويسمون أنفسهم مسلمين. همس، ثم، خرج رجل طويل ذو كتفين عريضين من الشاحنة، ظهوره أطلق هتافات من بعض المشاهدين. هذه المرة، لم يضرب أحد سوطاً للهتاف

العالي، لباس الرجل الطويل الأبيض المضيء لمع تحت شمس بعد الظهيرة. طرف لباسه تمايل مع النسيم، ذراعاه ممدودتان كالمسيح على الصليب.حيًّا الجمهور بالدوران ببطء دورة كاملة. عندما أصبح قبالة قسمنا، رأيت أنه يضع نظارة داكنة كتلك التي يضعها جون لينون.

لا بد أنه رجلنا. قال فريد.

الطالباني الطويل مشى نحو كومة الحجارة التي أفرغوها من الشاحنة الثالثة. انخفض صوت الضجيج، تحولت إلى صوت أزيز انتشر في الملعب . نظرت حولي ورأيت الجميع يترقب. الطالباني، يبدو بشكل سخيف كرامي البيسبول، رمى الحجر نحو الرجل المعصوب في الحفرة، أصابه في جانب رأسه. صرخت المرأة ثانية. صرخ الحشد، أووه!

أغلقت عيني وغطيت وجهي بيدي. تناغمت (أووه!) المشاهدين مع كل حجر، واستمرت لفترة ثم توقفت. سألت فريد إن كان الأمر قد انتهى، قال لا. فكرت أن حناجر الحشد قد تعبت. لا أعرف كم بقيت هكذا. أعرف أني فتحت عيني عندما سمعت الناس حولي يسألون، مورد؟ مورد؟ هل مات؟

أصبح الرجل في الحفرة خليطاً غير معروف من الدم والأعضاء، رأسه متدلي للأمام، ذقنه على صدره. الطالباني في نظارة جون لينون كان ينظر إلى رجل آخر، يجلس القرفصاء ويرمي حجراً للأعلى والأسفل، كان يضع سماعات على أذنه ويضع المسبار على صدر الرجل في الحفرة. أخرج السماعات من أذنيه وهز رأسه أن لا للطالباني بالنظارات.

أنّ الحشد.

عاد الطالباني إلى كومة الحجارة.

عندما انتهى كل شيء ورميت الجثث الدامية بقرف في الشاحنات ـ كل جثة في شاحنة ـ بعض الرجال برفوش ملئوا الحفر بسرعة، حاول أحدهم أن يغطي بقعة دم برمي التراب عليها. بعد بضع دقائق، دخل الفريقين إلى الملعب، كان الشوط الثاني على الطريق.

موعدنا كان في الثالثة بعض ظهيرة ذلك اليوم. السهولة التي حُدِّد بها الموعد فاجأتني. توقعت تأخير، بضعة أسئلة على الأقل، وربما فحص لأوراقنا. لكني فكرت: كم هي غير رسمية المسائل الرسمية في أفغانستان: كل ما اضطر فريد لفعله هو إخبار أحد الطالبانيين حملة السياط أنه لدينا عمل شخصي لنناقشه مع الرجل بالأبيض. تبادل هو وفريد الكلام، ثم هز الرجل ذو السوط رأسه وصاح بشيء بالباشتو لشاب في الملعب، الذي ركض إلى المرمى الجنوبي حيث الطالباني بالنظارة الشمسية كان يتحدث مع رجل الدين الذي ألقى الخطبة.

يهز رأسه، يقول شيئاً في أذن الساعي. الشاب أوصل الرسالة لنا.

لقد تم الأمر، الساعة الثالثة.

- 22 -

أراح فريد اللاند كروزر عند ممر بيت كبير في وزير أكبر خان، وأوقفها في ظل أشجار الصفصاف التي وقفت فوق أسوار البيت الموجود في الشارع ١٥، ساراك - إي - ميهمانا، شارع الضيوف. جلسنا دقيقة نستمع إلى صوت (تينك، تينك) للمحرك وهو يبرد. لم يقل أي منا شيئاً، مال فريد على مقعده ولعب بالمفاتيح التي مازالت في مكانها. عرفت أنه يجهز نفسه ليقول لي شيئاً.

أعتقد أني سأنتظر في السيارة لأجلك. قال أخيراً. كان في صوته نبرة اعتذار. لم ينظر إلي حتى.

هذا ما عليك القيام به الآن، ربتُّ على ذراعه، لقد قمت لأجلي ما هو أكثر بكثير مما دفعت لك للقيام به، لا أتوقع أن تدخل معي.

لكن تمنيت لو لم يكن علي الدخول وحدي. رغم ما عرفت عن بابا، تمنيت لو كان هنا بجانبي، كان سيدخل محطماً الأبواب ويطلب أن يؤخذ إلى الرجل المسؤول، ويبول على لحية أي من يقف في طريقه. لكن بابا مات منذ زمن طويل، مدفون في قسم الأفغان في مقبرة صغيرة في هايوورد. الشهر الماضي، وضعت وثريا باقة من الأقحوان أمام شاهدة قبره. لقد كنت وحدي.

خرجت من السيارة ومشيت إلى البوابات الخشبية العالية للمنزل.

قرعت الجرس ولم يصدر أي صوت - لا زالت الكهرباء مقطوعة - فطرقت على البوابة. بعدها بلحظة، سمعت أصواتاً حادة من الجهة الأخرى، وزوج من الرجال حاملين كلاشنكوفات فتحا البوابة. نظرت إلى فريد الجالس في السيارة وتمتمت، سأعود. غير متأكد إن كنت سأعود حقاً.

فتشني الرجلان المسلحان من رأسي إلى قدمي، ربتا على رجلي، تحسسا أعضائي، قال أحدهما شيئاً بالباشتو وضحكا سويةً. دخلنا من البوابات ورافقني الحارسين من خلال مرج اعتني به جيداً. صف من الجيرانيوم وشجيرات كثيرة تخط الحائط. بئر قديمة في النهاية الأخرى للباحة. تذكرت كيف أن بيت كاكا هومايون في جلال آباد، فيه بئر كهذا، كالتوأم، فاضلة وكريمة، حيث اعتدت على رمي الحصا فيه، والاستماع لأصواتها. صعدنا بضع درجات ودخلنا إلى بيت كبير ديكوره ليس جيداً. قطعنا البهو - علم أفغاني كبير يغطي أحد الجدران - أخذني الرجلان إلى الأعلى، إلى غرفة بأرائك بخضرة النعناع، وشاشة تلفاز كبيرة في الزاوية.و سجادة صلاة مستطيلة من الميككا معلقة على مسمار في الجدار. أشار الأكبر بين الرجلين إلى الصوفا بسبطانة سلاحه. جلست وتركا الغرفة.

وضعت رجلاً فوق الأخرى، أنزلتها. وضعت يدي المتعرقتين على ركبتي. هل يجعلني هذا أبدو متوتراً؟ عقدت يدي. قررت أن هذا أسوأ فعقدت ذراعي حول صدري. الدم يتصاعد إلى صدغي، شعرت بوحدة قاتلة. الأفكار كانت تحلق في رأسي، لكن لم أرد أن أفكر أبداً، لأن جزءاً واعياً مني علم أن ما زججت به نفسي كان جنوناً. كنت على بعد آلاف الأميال من زوجتي، أجلس في غرفة بدت كزنزانة احتجاز، أنتظر رجلاً رأيته يقتل شخصين في نفس اليوم. كان جنوناً، أسوأ من هذا، كان تصرفاً غير مسؤول. كانت هناك فرصة حقيقية أني سأترك ثرياي بيوا، أرملة، وهي في السادسة والثلاثين، هذا ليس أنت، أمير، جزء مني قال. أنت جبان، هكذا ولدت. وهذا ليس سيئاً كثيراً، لأن الشيء الجيد أنك لم تكذب على نفسك في هذا أبداً. ليس في هذا. لا شيء خاطئ في الجبن إذا أتت مع البصيرة. لكن عندما ينسى جبان من هو... فليساعده الله.

كان هناك طاولة قهوة بجانب الصوفا، قاعدتها كانت على شكل (X)، كرات نحاسية بحجم حبة البندق كانت تثبت البراغي حيث

تقاطعت الأرجل الحديدية. رأيت طاولة كهذه سابقاً، أين؟ وعندها تذكرت: في محل الشاي المزدحم في بيشاوار. تلك الليلة ذهبت أمشي. على الطاولة وعاء من العنب الأحمر. أخذت واحدة ورميتها في فمي. كان علي أن أشغل نفسي بشيء، أي شيء، لأسكت الصوت في رأسي. كان العنب حلواً، أخذت واحدة أخرى، غير مدرك أن هذه ستكون آخر لقمة من الطعام الصلب التي سآكلها لفترة طويلة.

فتح الباب، وعاد الرجلان المسلحان، وبينهما الطالباني الطويل بلباس أبيض، لا زال يرتدي جون لينون الداكنة، يبدو كغورو العصر الحديث.

جلس قبالتي، ووضع يداه على ذراعيه. لوقت طويل. لم يقل شيئاً. فقط جلس هناك، يراقبني. يد تطرق على الكرسي والأخرى تدور مسبحة بحبات زرقاء فيروزية. كان يرتدي معطفاً أسوداً في لباسه الآن، وساعة ذهبية. رأيت بقعة من الدم الجاف على كمه الأيسر. اكتشفت بدهشة كئيبة أنه لم يغير ثيابه بعد الإعدام.

لفترة، طافت يده الحرة في الهواء، وأصابعه الثخينة ربتت شيئاً في الهواء، وقامت بما يشبه ضربات ريشة ببطء، للأعلى وللأسفل، من جانب إلى آخر، كما لو أنه يداعب حيواناً أليفاً غير مرئي. أحد أكمامه ارتفع إلى كتفه ورأيت علامات على ذراعيه - رأيت هذه على مشردين يعيشون في أزقة كئيبة في سان فرانسيسكو - كانت بشرته أكثر شحوبا من الرجلين الآخرين، تقريباً مريضة، وبعض حبات العرق لمعت على جبهته تحت حافة توربانه الأسود. لحيته، تصل إلى الصدر كالآخرين، كان لونها أفتح أيضا.

سلام عليكم، قال.

سلام.

تستطيع التخلص منها الآن، تعرف. قال.

عفوا؟

أشار براحة يده نحو أحد الرجلين ثم أومأ. صوت تمزق، وفجأة، خديّ كانا يُلسعان والحارس يلعب باللحية في يده، وهو يضحك. ضحك الطالباني أيضاً.

واحدة من أفضل ما رأيت منذ فترة. لكنهاهكذا أفضل ،كما أعتقد، أليس كذلك؟

أدار أصابعه، فرقعها، قبضة يده تفتح وتغلق.

إذاً، انشاء الله استمتعت بالعرض اليوم؟

أكان هذا ما حدث؟ قلت وأنا أفرك خدي. آملاً ألا يخونني صوتي ويكشف الرعب الذي انفجر داخلي.

العدالة الشعبية هي أفضل أنواع العروض، أخي. دراما، قلق، والأفضل من هذا، العبرة.

أشعل له الحارس الأصغر سيجارة، ضحك الطالباني، تمتم لنفسه، يداه كانتا ترتجفان حتى كاد أن يسقط السيجارة.

لكن أتريد عرضاً حقيقياً. كان يجب أن تكون معي في مزار، آب ١٩٩٨، كان هذا ما أسميه عرضاً.

عفواً؟

تركناهم في الخارج للكلاب، أتعلم؟

راقبته يتحرك.

وقف، دار حول الصوفا، مرة، مرتين. جلس ثانية، تكلم بدون توقف.

من باب لباب ذهبنا، ندعو الرجال والأولاد ونقتلهم أمام عائلاتهم ليروا. ليتذكروا من هم، أين ينتمون. كان يصرخ بنشوة الآن، أحياناً، كنا نقتحم أبوابهم وندخل إلى بيوتهم. و.. أنا.. أنا أدير فوهة رشاشي الآلي في الغرفة وأطلق وأطلق إلى أن يعميني الدخان. اقترب مني، كشخص على وشك إخبار سر عظيم.

لن تعرف معنى الكلمة (تحرر) إلى أن تقوم بهذا. تقف في غرفة مليئة بالأهداف، تترك الرصاصٍ يطير. بلا شعور بالذنب والندم، عالماً أنك طاهر، جيد وصادق. عالماً أنك تقوم بعمل الله.هذا يأخذ الأنفاس.

قبل مسبحته، أمال رأسه، تذكر هذا، جافيد؟

نعم، آغا صاحب. قال الحارس الأصغر، كيف أنسى؟

كنت قد قرأت عن مذبحة الهازارا في مزار شريف في الجرائد. حدثت بعد أن احتلت طالبان مزار بقليل، إحدى آخر المدن التي سقطت، أذكر ثريا تعطيني المقال على الإفطار، وجهها كان خال من اللون.

من باب لباب، لم نسترح إلا للطعام والصلاة. قال الطالباني، قالها بشغف، كمن يتحدث عن حفلة عظيمة حضرها، تركنا الجثث في الطريق، وإذا حاولت عائلاتهم أن تخرج لتسحب الجثث إلى بيوتهم، كنا نقتلهم أيضاً. تركناهم في الشارع لأيام، تركناهم للكلاب، لحم الكلاب للكلاب. أطفأ سيجارته، فرك عينيه بيديه الضخمتين.

قدمت من أميركا؟

نعم.

كيف حال تلك العاهرة هذه الأيام؟

شعرت برغبة ملحة في الجدال. تمنيت أن تزول.

أبحث عن طفل.

أليس هذا حال الجميع؟ قال. ضحك حملة الكلاشنكوفات، أسنانهم كانت خضراء من الناسوار.

علمت أنه هنا، معك. قلت، اسمه سوهراب.

سأسألك شيئاً، ماذا تفعل مع تلك العاهرة؟ لم لست هنا، مع أخوتك المسلمين، تخدم وطنك؟

لقد غبتٍ فترة طويلة. هذا كل ما استطعت قوله. شعرت برأسي ساخن جداً. ضغطت ركبتي سوية، وأمسكت بمثانتي. التفت الطالباني إلى الرجلين الواقفين عند الباب.

أهذا جواب؟ سألهما.

لا، آغا صاحب. قالا سوية مبتسمين.

أعاد نظره إلي، هز كتفيه، ليس جواباً، يقولان. أخذ سحبة من سيجارته، الأشخاص الذين في محيطي يعتقدون أن التخلي عن الوطن عندما يكون في أمس الحاجة إليك كالخيانة. أستطيع القبض عليك بتهمة الخيانة، هل فكرت في هذا؟ هل يخيفك هذا؟

أنا هنا للطفل فقط.

هل يخيفك هذا؟

نعم.

يجب أن يخيفك. قال، انحنى عائداً إلى الصوفا وأطفأ سيجارته.

فكرت في ثريا، هدأني هذا. فكرت في الوحمة على خدها، طريقة تكوين رقبتها، عينيها المضيئتان. فكرت في ليلة زفافنا، ننظر إلى بعضنا عبر انعكاس المرآة تحت الستار الأخضر وكيف احمرت وجنتاها عندما همست لها أني أحبها. أذكر كيف رقصنا على أغنية أفغانية قديمة، مرة تلو الأخرى، الجميع يشاهد ويصفق، العالم باقة من الورود، الفساتين، التوكسيدوات والوجوه المبتسمة.

كان الطالباني يقول شيئاً.

عفواً؟

قلت هل تريد رؤيته؟ هل تريد رؤية ولدي؟ التوت شفته العليا بسخرية عندما قال تلك الكلمة.

نعم.

غادر الحارس الغرفة، سمعت صوت باب يفتح، سمعت الحارس يقول شيئاً بالباشتو، بصوت قاس. ثم، أصوات أقدام، ورنين أجراس مع كل خطوة. ذكرتني بالرجل القرد الذي اعتدنا أنا وحسان على ملاحقته في شار ـ إي ـ ناو. كنا ندفع له روبية من مصروفنا كي يرقص، الأجراس حول رقبته القردية كان لها نفس الصوت.

ثم، فتح الباب، ودخل الحارس، يحمل ستيريو ـ ميكسر ـ على كتفه. خلفه، طفل يرتدي بيرهان ـ تومبان بلون الزفير الأزرق.

الشبه كان مذهلاً، آخذاً للأنفاس، صورة رحيم خان لم تعطه كامل حقه. كان للطفل وجه أبيه القمري الدائري، ذقنه المعقوفة، أذناه الصدفيتان، ونفس إطار الوجه، كان هذا وجه اللعبة الصينية لطفولتي، الوجه المائل على أوراق اللعب كل أيام الشتاء تلك، الوجه خلف الناموس عندما ننام على سطح منزل أبي في الصيف. كان رأسه حليقاً، عيناه مكحلتان، وخداه يلمعان بأحمر غير طبيعي. عندما توقف في منتصف الغرفة، توقفت الأجراس المربوطة بكاحليه عن الرنين. سقطت عيناه علي، توقفت، ثم ابتعدت، ونظر إلى رجليه العاريتين.

ضغط أحد الحارسين على زر وملأت الموسيقى الباشتونية الغرفة، طبلة هارمونيوم وعويل الديل ـ روبا. أعتقد أن الموسيقى لم تكن خطيئة ما دامت تعزف لآذان الطالبانيين. بدأ الرجال الثلاثة بالتصفيق.

واه، واه! ماشاءالله! هتفوا.

رفع سوهراب ذراعيه والتفت ببطء. وقف على رؤوس أصابعه، ودار بشكل رائع، انهار على ركبتيه، وقف، ودار ثانية، يداه الصغيرتان تمايلتا عند المعصم، فرقعت أصابعه، ومال رأسه من جنب لآخر كالبيندوليوم. ضربت رجلاه الأرض، الأجراس ترن بتناغم تام مع إيقاع الطبلة. أبقى عينيه مغلقتين.

ماشاءالله! هتفوا، شاهباس! برافو! صفر الحارسان وضحكا. الطالباني هز رأسه للأمام والخلف مع الموسيقى. فمه نصف مفتوح في نشوة.

رقص سوهراب في دائرة، عيناه مغلقتان، رقص إلى أن توقفت الموسيقى، رنت الأجراس مرة أخيرة واحدة عندما ضرب رجليه مع آخر نغمة في الأغنية. تجمد في نصف دورة.

بيا، بيا، طفلي. قال الطالباني داعياً سوهراب أن يأتي إليه. ذهب سوهراب، رأسه في الأرض، ووقف بين فخذيه. لف الطالباني ذراعاه حول الطفل.

كم هو موهوب، لا، طفلي الهازارا؟ قال، انزلقت يداه إلى مؤخرة الطفل، ثم للأعلى إلى تحت إبطيه، أحد الحراس لكز الآخر وابتسم، قال لهما الطالباني أن يتركانا.

نعم، آغا صاحب، قالا بينما خرجا.

أدار الطالباني الولد كي يواجهه، وعقد ذراعاه حول بطن سوهراب، وأراح ذقنه على كتف الطفل. نظر سوهراب إلى الأسفل، إلى قدميه. لكنه بقي يسرق نظرات سريعة خجولة إلي. انزلقت يد الرجل أعلى وأسفل بطن الطفل. أعلى وأسفل، ببطء، برفق.

كنت أتساءل، قال الطالباني، عيناه الحادتان كالرصاص تحدقان بي من خلف كتف سوهراب. ماذا حدث لبابالو العجوز، على أي حال؟

ضربني السؤال كمطرقة بين عيني. شعرت باللون يسحب من وجهي، أصبحت رجلاي باردتين خدرتين.

ضحك، ماذا ظننت؟ أنك ستضع لحية زائفة ولن أعرفك؟ هذا شيء من المؤكد أنك لا تعرفه عني: أنا لا أنسى وجهاً أبداً.

مسح شفتيه بأذن سوهراب، وأبقى عينيه علي.

سمعت أن أباك مات، تسك ـ تسك، أردت دائماً أن أتحداه، يبدو أن علي أن أرضى بالضعيف الذي يسمى ابنه. ثم خلع نظارته وصوب عينيه الزرقاوتين القاتلتين على عيني.

حاولت أن أتنفس ولم أستطع. حاولت أن أرمش ولم أستطع. بدت اللحظة سريالية ـ لا. ليس سريالية، سخيفة ـ أخرجتْ الأنفاس مني، جعلت العالم حولي يقف في مكانه. كان وجهي يحترق.

ماذا كان المثل القديم عن القرش السيء؟ هكذا كان ماضيّ. دائماً يعود للظهور. ظهر اسمه من الأعماق، ولم أرغب أن ألفظه. كأنه بالمطلق سأجعله يختفي. لكنه كان هنا، بلحمه، يجلس على بعد أقل من عشرة أقدام عني، بعد كل تلك السنين.

خرج اسمه من شفتي. آصف.

أمير جان.

ماذا تفعل هنا؟ قلت، عالماً كم بدا غبياً سؤالي. رغم ذلك، غير قادر على التفكير بشيء آخر لقوله.

أنا؟ قال وهو يقوس حاجبه، أنا في مكاني. السؤال هو أنت ماذا تفعل هنا؟

أخبرتك. قلت . كان صوتي يرتجف، تمنيت لو لم يفعل، تمنيت لو لم يكن لحمي ينقبض على عظامي.

الولد؟

نعم.

لماذا؟

سأدفع لك من أجله. قلت، أستطيع أن أحول لك المال.

مال؟ قال آصف، تمتم، هل سمعت مرة بروكنغهام؟ غرب أستراليا. قطعة من الجنة، يجب أن تراها. أميال وأميال من الشاطئ. ماء خضراء، سماوات زرقاء. يعيش أهلي هناك. في فيلا على الشاطئ، هناك ملعب غولف خلف الفيلا وبحيرة صغيرة. أبي يلعب الغولف كل يوم. أمي، تفضل التنس ـ يقول أبي أن لديها ضربة خلفية ملعونة. يملكون مطعماً أفغانياً ومتجري جواهر: والعملين ممتازين.

أمسك حبة عنب، وضعها بحب في فم سوهراب.

لذا إذا احتجت للمال سأجعلهم يحولوه لي.

قبل جانب عنق سوهراب. انتفض الطفل قليلاً. أغلق عينيه ثانية.

بجانب هذا. لم أقاتل الشوراوي لأجل المال. ولم أنضم لطالبان للمال أيضاً. هل تريد أن تعرف لم انضممت إليهم؟

شعرت بشفتي جافتين، لعقتهما ووجدت أن لساني قد جف أيضاً.

هل تشعر بالعطش؟ قال آصف، مبتسماً.

لا.

أعتقد أنك عطشان.

أنا بخير. قلت. الحقيقة كانت، أن الغرفة بدت حارة جداً فجأة ـ العرق كان يتصبب من مسامي ويخز بشرتي، و، هل كان هذا يحدث حقاً؟ هل أنا جالس حقاً قبالة آصف؟

كما تريد. قال، على أي حال. أين كنا؟ أوه، نعم. كيف انضممت لطالبان، حسن، كما تذكر، لم أكن من النوع المتدين. لكن يوماً أتتني رؤية. أتتني في السجن. هل تريد أن تسمع؟

لم أقل شيئاً.

جيد، سأخبرك. قال، أمضيت بعض الوقت في السجن في بوليه ـ تشاركي. بعد استلام بابراك كارمال الزمام في ١٩٨٠. انتهيت هناك في إحدى الليلالي، عندما اقتحمت مجموعة من جنود البارتشامي منزلنا وأمروني أنا وأبي بقوة السلاح أن نتبعهم. لم يعط السفلة سبباً، ولم يجيبوا أسئلة أمي. ليس أن هذا غريباً: الكل يعرف أنه ليس للشيوعيين أي رقي. يأتون من عائلات فقيرة بلا أسماء. نفس الكلاب الذين لم يكونوا أهلاً للعق حذائي قبل الشوراوي، يأمرونني الآن بقوة السلاح، علم بارتشامي على طيات معاطفهم، كأنهم يثبتون رأيهم الصغير عن سقوط البرجوازية ويتصرفون كأنهم الراقيون. كان يحدث دائماً، حاصر الأغنياء، ارمهم في السجن وكن مثلاً للرفاق.

على أي حال، كنا محشورين كل ستة في إحدى تلك الزنزانات الصغيرة التي حجم الواحدة منها بحجم البراد. كل ليلة، الكوماندانت، نصف هازارا، نصف أوزباكستاني، رائحته كرائحة حمار عفن. كان يجلس وراء أحد المساجين ويضربه إلى أن ينهمر العرق من وجهه السمين، ثم يشعل سيجارة، يفرقع مفاصله، ويذهب.

الليلة التالية يختار سجيناً آخر. إحدى الليالي، اختارني. لم يكن ليختار وقتاً أسوأ من هذا. كنت أبول الدم لثلاثة أيام، حصى في الكلية، وإن لم تكن قد حدثت معك، صدقني عندما أقول أنه أسوأ ألم يمكن تصوره. كانت أمي مصابة به أيضاً، وأذكر أنها أخبرتني مرة أنها تفضل أن تنجب طفلاً على أن تخرج حصى من كليتها. على أي

حال، ماذا يمكنني أن أفعل؟ جروني إليه وبدأ يركلني. كان ينتعل جزمة تصل إلى الركبة، ومقدمة حديدية يضعها كل ليلة للعبة الركل الصغيرة تلك، استخدمها علي، كنت أصرخ وأصرخ واستمرَّ يركلني، وعندها، فجأة، ركلني على كليتي اليسرى وخرجت الحصوة. بهذه البساطة! أوه، والراحة! ضحك آصف. وصرخت، الله أكبر، وأصبح يركلني بقوة أكبر وبدأت أنا أضحك، فغضب وركلني بقوة أكبر. وكلما ضربني بقوة أكبر، ضحكت بصوت أعلى. رموني عائداً إلى الزنزانة أضحك. بقيت أضحك وأضحك، لأني فجأة عرفت أن هذه إشارة من الله: إنه بجانبي. يريدني أن أحيا لسبب ما. أتعلم، صادفت ذاك الكوماندانت في ساحة المعركة بعد بضع سنين - غريب أمر الله. وجدته في مكب نفايات خارج ميهماناه، مصابا بشظية في صدره. كان مايزال ينتعل الجزمة. سألته إن كان يذكرني. قال لا. أخبرته نفس الشي الذي أخبرته إياك الآن. أنني لا أنسى وجها. ثم أطلقت النار على خصيتيه. وكنت في مهمة من حينها إلى هذه اللحظة.

أي مهمة هذه؟ سمعت نفسي أقول، رجم الزانين؟ اغتصاب الأطفال؟ سوط النساء لانتعالهن كعوباً عالية؟ ذبح الهازارا؟ كل هذا باسم الإسلام؟ انزلقت الكلمات مفاجئة وغير متوقعة، خرجت قبل أن أستطيع كبح جماحي. تمنيت لو أستطيع إرجاعها، أبتلاعها. لكنها خرجت. لقد ارتكبت خطأً، وأي أمل صغير كنت أملكه بالخروج حياً اختفى مع هذه الكلمات.

نظرة دهشة اعتلت وجه آصف للحظة ثم اختفت، أرى أن هذا سيصبح ممتعاً في النهاية. قال، ضاحكاً. لكن هناك أشياء لا يفهمها الخونة مثلك.

مثل ماذا؟

تقوس حاجب آصف. ككرامة شعبكم، تقاليدكم، لغتكم، أفغانستان مثل قصر جميل مليء بالقمامة، وعلى أحدهم أن ينظفه منها.

هذا ما كنت تفعله في مزار، من باب لباب، تخرج القمامة؟
بالضبط.
في الغرب، هناك تعبير لهذا، قلت، يطلقون عليه (التطهير العرقي).
حقاً؟ أضاء وجه آصف، تطهير عرقي، أعجبني هذا المصطلح، وقعه جميل.
كل ما أريد هو الطفل.
التطهير العرقي، تمتم آصف، متذوقاً الكلمات.
أريد الطفل، قلت ثانية، نظرت عينا سوهراب إلي، كانتا عينا خروف مذبوح. حتى كان عليهم (مسكرة) - تذكرت كيف، في عيد القربان، كان المولى في باحتنا الخلفية يضع الماسكاراعلى عيني الخروف ويطعمه مكعباً من السكر قبل قطع رقبته.
اعتقدت أني رأيت رجاء في عيني سوهراب.
أخبرني لماذا. قال آصف، عض برفق شحمة أذن سوهراب، تركها، انزلقت حبات عرق على حاجبه.
هذا شأني.
ماذا تريد أن تفعل معه؟ قال، ثم بابتسامة خبيثة، أو به؟
هذا مقرف. قلت.
كيف تعرف؟ هل جربت هذا يوماً؟
أريد أن آخذه لمكان أفضل.
أخبرني لماذا.
هذا شأني، قلت، لم أعلم ما جرى لي لأكون حازماً الى هذا الحد، ربما الحقيقة أني اعتقدت أني ميت على كل حال.
أتساءل، قال آصف، أتساءل لم قطعت كل هذا المسافة، أمير، كل هذه المسافة لأجل هازارا؟ لم أنت هنا؟ لم أنت هنا حقاً؟
لدي أسبابي. قلت.
حسن جدا إذاً، قال آصف، وهو يبتسم بخبث.

رمي سوهراب إلى الطاولة مباشرة، قالباً إياها رأساً على عقب، وموقعاً العنب. سقط سوهراب عليها، وجهه أولاً، وأصبح قميصه أرجوانياً من عصير العنب. أرجل الطاولة، كانت الآن باتجاه السقف.

خذه إذاً، قال آصف. ساعدت سوهراب على الوقوف، ونظفته من قطع العنب الصغيرة التي علقت بسرواله كالهلاميات البحرية على الرصيف.

اذهب، خذه. قال آصف مشيراً إلى الباب.

أمسكت يد سوهراب، كانت صغيرة، بشرتها جافة ومتشققة، تحركت أصابعه، وتشابكت بأصابعي. رأيت سوهراب في تلك الصورة ثانية، كيف كانت ذراعه ملتفة حول رجل حسان، رأسه يرتاح على ورك أبيه، كانا يبتسمان. رنت الأجراس بينما قطعنا الغرفة.

وصلنا إلى الباب.

بالطبع، قال آصف، لم أقل أنك تستطيع أخذه بالمجان.

التفت. ماذا تريد؟

عليك أن تستحقه.

ماذا تريد؟

لدينا أمر عالق، أنت وأنا، قال آصف، أنت تذكر، أليس كذلك؟

لم يظهر عليه القلق، لن أنسى ذاك اليوم التالي لإسقاط داوود خان لحكم الملك: حياتي البالغة كلها، كلما سمعت اسم داوود خان، ما أراه هو حسان ومقلاعه موجه نحو وجه آصف، حسان يقول أن عليهم أن يسموه آصف ذو العين الواحدة بدلاً من آصف غوشكور. أذكر كم حسدت شجاعة حسان.

تراجع آصف عندها، وأقسم أنه في النهاية سينتقم منا، وقد نفذ وعده مع حسان، الآن كان دوري.

حسن، قلت، غير عالم ماذا يمكن قوله غير ذلك، ما كنت لأرجوه: كان هذا سيزيد حلاوة اللحظة له فقط.

نادى آصف الحارسين ثانية، أريدكما أن تنصتا لي، بعد لحظة، سأغلق الباب، وبعدها، هو وأنا سننهي أمراً قديماً عالقاً بيننا، لا يهم ما تسمعاه لا تتدخلا! هل تسمعاني؟ لا تتدخلا!

هز الحارسان رأسيهما ونظرا من آصف إلي، نعم، آغا صاحب.

عندما ننتهي، واحد منا فقط سيخرج من هذه الغرفة حياً، قال آصف، إن كان هو، إذاً فقد كسب حريته، وستتركانه يذهب، هل تفهمان؟

قال الحارس الأكبر، لكن، آغا صاحب.

إن كان هو، تتركانه يذهب! صرخ آصف. انتفض الرجلان وهزا رأسيهما، والتفتا ليذهبا. أحدهما أمسك بسوهراب.

اتركاه هنا. قال آصف، ضحك، اتركاه يشاهد، الدروس أمور جيدة للأطفال.

خرج الحارسان. وضع آصف مسبحته، مد يده إلى جيب معطفه. لم يفاجئني ما أخرجه البتة: براجمه النحاسية.

كان يضع (جيل) على رأسه، (وشارب كلارك غايبل) فوق شفتيه الثخينتين، سال الجيل من تحت الورقة الجراحي الخضراء على رأسه، وصنعت بقعة سوداء على شكل أفريقيا. أذكر هذا عنه. هذا، وقلادة (الله) الذهبية حول رقبته السوداء.

ينظر إلي، متحدثاً بلا توقف بلغة لا أفهمها. هيدرو على ما أعتقد. عيناي تحدقان إلى حنجرته التي تهز أعلى وأسفل، أعلى وأسفل. أريد أن أسأله عن عمره. يبدو صغيراً جداً، كممثل من أوبرا غريبة.

لكن كل ما تمتمت به كان، أعتقد أنني قاتلت قتالاً مشرفاً. أعتقد أنني قاتلت قتالاً مشرفاً.

لا أعرف إن أعطيت آصف قتالاً جيداً. لا أظن ذلك. كيف أستطيع حتى؟ كانت هذه المرة الأولى التي أقاتل بها أحداً. لم ألكم شخصاً في حياتي كلها. ذاكرتي عن قتالي مع آصف مقسمة بشكل رائع إلى

مقاطع: أذكر آصف يرفع صوت الموسيقى قبل أن يضع براجمه النحاسية. سجادة الصلاة، تلك المستطيلة المصنوعة من صوف الميككا، سقطت عن الجدار وهبطت على رأسي، غبارها جعلني أعطس. أذكر آصف يرفس العنب في وجهي، أسنانه واضحة من فمه المفتوح، عيناه الدمويتان تدوران، سقط توربانه في لحظة ما، محرراً خصلاً من الشعر الأشقر المتجعد تصل حتى الكتف. والنهاية، بالطبع، بقيت أرى بوضوح تام. سأبقى دائماً.

أكثر ما أذكره هو هذا: براجمه النحاسية تلمع تحت شمس بعد الظهيرة. كم كانت باردة مع أول الضربات والسرعة التي أصبحت دافئة فيها من دمي. رُميت على الحائط، طعنني مسمار ربما علقت عليه صورة مؤطرة ذات مرة، طعنني في ظهري. سوهراب يصيح. طبلة، هارمونيوم، الديل - روبا. ضربت بالحائط. البراجم تحطم فكي. الاختناق بأسناني، وابتلاعهم، التفكير في كل الساعات التي أمضيتها أفرشيهم وألمعهم. ضربني بالحائط. السقوط على الأرض، الدم من شفتي العليا المشقوقة على السجادة (الموف). الألم يمزق معدتي، والتساؤل متى سأستطيع التنفس ثانية. صوت فرقعة أضلاعي كأغصان الشجر التي اعتدنا أنا وحسان كسرها لنقاتل بالسيوف كسندباد في تلك الأفلام القديمة. سوهراب يصرخ. جانب وجهي يضرب بالزاوية حيث التلفاز. صوت الفرقعة ثانية، هذه المرة تحت عيني اليسرى بقليل. موسيقى، سوهراب يصرخ، أصابع تقبض شعري، تشد رأسي للوراء، لمعان الستانليس ستيل. هاجم. صوت الفرقعة أيضاً الآن. أنفي، السقوط، ألم، ملاحظة عدم اصطفاف أسناني كما العادة. الركل. سوهراب يصرخ.

لا أدري عند أي نقطة بدأت أضحك، لكني ضحكت. آلمني الضحك، آلم فكي، أضلاعي، حنجرتي. لكني كنت أضحك وأضحك، وكلما ضحكت أكثر، كلما ضربني بقسوة أكبر، لكمني، جرحني.

ماذا يضحكك؟ بقي آصف يزأر مع كل ضربة.

بصاقه حط على عيني. صرخ سوهراب.

ماذا يضحكك؟ صرخ ثانية، ضلع آخر فرقع، هذه المرة في الأسفل إلى اليسار.

المضحك كان. للمرة الأولى منذ شتاء ١٩٧٥، شعرت بالسلام. ضحكت لأني رأيت أنه، في زاوية من عقلي، كنت أتطلع بشوق لهذا. تذكرت اليوم على التلة عندما ضربت حسان بالرمان وحاولت أن أثير غضبه. وهو واقف هناك، لا يفعل شيئاً، العصير الأحمر يسيل على قميصه كالدم. ثم أخذ الرمانة من يدي، وحطمها على رأسه. هل اكتفيت الآن؟ قال حسان. هل تشعر بتحسن؟ لم أكن سعيداً، ولم أشعر بتحسن على الإطلاق. لكني ارتحت الآن. جسدي كان مكسراً - لكن لأي درجة لم أعرف إلا لاحقاً - لكني شعرت بأني شفيت. شفيت أخيراً. ضحكت.

ثم النهاية. هذه، سآخذها إلى قبري:

كنت على الأرض أضحك، وآصف يركب على صدري، وجهه قناع من الجنون، مؤطر بخصل من شعره تتمايل فوق وجهي. يده الحرة تقبض على حنجرتي. الأخرى، التي بها البراجم النحاسية، مرفوعة لفوق كتفه، رفع قبضته أعلى، رفعها لضربة أخرى.

ثم، كفى. صوت حاد.

نظرنا سوية.

أرجوك، توقف.

تذكرت شيئاً قاله مدير الميتم عندما فتح لي ولفريد. ماذا كان اسمه؟ زمان؟

لا يمكنك جعله يبعد ذلك الشيء عنه، قال، يضعه في خصره أينما ذهب.

توقف. خطان من الكحل الأسود، ممتزجان بالدموع، انزلقا على خديه، ملطخا أحمر الشفاه. شفته السفلى ترتجف، المخاط ينزل من أنفه، كفى، صرخ.

يده كانت مرفوعة فوق كتفه، تمسك بمقذاف المقلاع في نهاية الحبل المطاطي، الذي كان مشدوداً على الآخر. كان هناك شيء في المقذاف، شيء لامع أصفر اللون. مسحت الدم عن عيني، ورأيت أنه الكرة النحاسية من قاعدة الطاولة. كان سوهراب يصوب المقلاع نحو وجه آصف.

توقف، آغا، أرجوك. قال. كان صوته أجشاً و يرتجف.

توقف عن إيذائه.

تحرك فم آصف بلا صوت، بدأ يقول شيئاً ثم توقف.

ماذا تظن نفسك فاعلاً؟ قال أخيراً.

توقف، أرجوك. قال سوهراب. دموع جديدة تنهمر من عينيه الخضراوتين ممزوجة بالكحل.

ضعها جانبا، هازارا. قال آصف بصوت فحيح. ضعها جانباً أو ما أفعله به سيكون قرصة أذن لطيفة مقارنة بما سأقوم به معك.

انهمرت الدموع حارة. هز سوهراب رأسه، أرجوك، آغا. قال، توقف.

ضعها جانباً.

لا تؤذه أكثر من ذلك.

ضعها جانبا.

أرجوك.

ضعها جانباً!

كفى.

ضعها جانباً!

أفلت آصف عنقي، وحملق بسوهراب.

أحدث المقلاع صوت (ثوييييت) عندما أفلت سوهراب المقذاف، ثم بدأ آصف بالصراخ. وضع يده حيث كانت عينه اليسرى قبل لحظة. الدم ينهمر من بين أصابعه، دماء وشيء آخر، شيء أبيض ولزج. هذا يسمى علمياً (الخلط المائي)، فكرت بوضوح. قرأت هذا في مكان ما، السائل اللزج.

تقلب آصف على السجادة. من جانب لآخر، يصرخ، يده مازالت على محجره الدامي.

هيا بنا! قال سوهراب. وأخذ يدي. ساعدني على الوقوف. كل إنش من جسمي ناح من الألم. وراءنا، بقي آصف يصرخ.

خارجاً! اخرجا! صرخ.

متمايلاً، فتحت الباب، اتسعت عيون الحارسان عندما رأياني وتساءلت كماذا أبدو.

آلمتني معدتي مع كل نفس. أحد الحراس. قال شيئاً بالباشتو، ثم انطلقا مارين بنا، راكضين إلى الغرفة حيث آصف كان لايزال يصرخ، خارجاً!

هيا، قال سوهراب وهو يشدني إليه، لنذهب!

تهاديت في الممر، يد سوهراب الصغيرة بيدي. ألقيت نظرة أخيرة من فوق كتفي. كان الحارسان فوق آصف، يفعلان شيئاً في وجهه. ثم فهمت. الكرة النحاسية كانت ماتزال عالقة في محجر عينه.

العالم كله يهتز للأمام والخلف، يدور من جنب إلى جنب. عرجت نازلاً الدرجات، متكئاً على سوهراب. من الأعلى، لم تتوقف صرخات آصف، صرخات حيوان مجروح.

وصلنا للخارج، إلى ضوء النهار، ذراعي حول كتف سوهراب، ورأيت فريد يركض نحونا.

بسم الله! بسم الله! قال. عيناه جاحظتان من مظهري. وضع ذراعي حول كتفه وحملني إلى الشاحنة راكضاً، أعتقد أني صرخت. راقبت كيف طرق صندله الرصيف، وصفع كعبيه السوداوين المتشققين. آلمني

التنفس. ثم أصبحت أنظر إلى الأعلى، إلى سقف اللاند كروزر. في المقعد الخلفي. التنجيد الممزق لونه (بيج)، استمعت إلى الـ (دينغ - دينغ - دينغ) التي تشير إلى باب مفتوح. أقدام تركض حول الشاحنة، فريد وسوهراب يتبادلان كلمات سريعة، صفقت أبواب الشاحنة وزأر المحرك بالحياة.

تحركت السيارة قليلاً للأمام، وشعرت بيد صغيرة على جبهتي. سمعت أصواتاً على الطريق، بعض الصراخ، ورأيت الأشجار تمر بنا من النافذة.

كان سوهراب ينشج، فريد ما زال يقول، بسم الله! بسم الله!

عندها، غبت عن الوعي.

ـ 23 ـ

وجوه تظهر من خلال الضباب، تبقى قليلاً، تختفي.

تميل الوجوه علي، تسألني. الكل يسأل أسئلة. هل أعرف من أنا؟ هل أشعر بالألم في مكان ما؟ أعلم من أنا وأتألم في كل مكان. أريد أن أخبرهم هذا لكن التكلم يؤلم. أعرف هذا لأنه منذ وقت مضى، ربما سنة. ربما سنتين، ربما عشرة. حاولت أن أتحدث لطفل يضع أحمر شفاه على خديه وعيناه مطليتان بالسواد.

الطفل، نعم، أراه الآن. نحن في نوع من السيارات، الطفل وأنا، ولا أعتقد أن ثريا تقود لأنها لا تقود بهذه السرعة أبداً. أريد أن أقول شيئاً لهذا الطفل ـ يبدو هاماً جداً أن أقول شيئاً. لكنني لا أذكر ماذا أريد أن أقول، أو لماذا هذا هام جداً. ربما أردت أن أطلب منه التوقف عن البكاء، أن أخبره أن كل شيء سيكون على ما يرام الآن. ربما لا. لسبب ما لا أستطيع التفكير به، أريد شكر هذا الطفل.

وجوه، كلها تضع قبعات خضراء، تظهر وتختفي، تتحدث بلا توقف، تستخدم كلمات لا أفهمها. أسمع أصواتاً أخرى. ضجيجاً آخر، زمامير وإنذارات. ودائماً وجوه أكثر. تحدق بي. لا أذكر أياً منها، إلا الذي يضع (جيل) على رأسه وشارب كلارك غايبل: ذاك الذي على جبهته بقعة على شكل أفريقيا. السيد نجم الأوبرا. هذا مضحك، أريد أن أضحك الآن. لكن الضحك يؤلم أيضاً.

أغيب عن الوعي.

تقول أن اسمها عائشة. كزوجة الرسول. شعرها المخطوط بالرمادي مفروق عند المنتصف ومربوط على شكل ذيل الحصان، أنفها مثقوب بزر على شكل الشمس، تضع نظارة لكل عيوب النظر تجعل عينيها

تبدوان منتفختين. ترتدي الأخضر أيضاً، يداها ناعمتان. تراني أنظر إليها وتبتسم. تقول شيئاً بالإنكليزية. شيء ما يطعنني في جانب صدري.
أغيب عن الوعي.

رجل واقف بجانب سريري، أعرفه، بشرته داكنة، نحيل، لحيته طويلة، ويضع قبعة ـ ماذا تسمى هذه القبعات؟ بوكال؟ يرتديها مائلة إلى جانب شخص مشهور اسمه ذهب مني الآن. أعرف هذا الرجل. لقد قادني إلى مكان قبل بضع سنين. أعرفه. هناك شيء غير سوي بفمي. أسمع صوت فقاعات.
أغيب عن الوعي.

ذراعي اليمنى تحترق. المرأة ذات النظارة، والزر على شكل الشمس منحنية فوق ذراعي، تعلق أنبوباً بلاستيكياً نظيفاً إليها. تقول أنه البوتاسيوم. يلسع كنحلة؟ تتساءل وتجيب بنعم.
ما اسمها؟ شيء يتعلق برسول، أعرفها أيضاً من عدة سنين مضت. كانت تسرح شعرها على شكل ذيل الحصان. الآن هو مرفوع للوراء، معقود بربطة. كان شعر ثريا هكذا في المرة الأولى التي تحدثنا بها. متى كان هذا؟ الأسبوع الماضي؟
عائشة! نعم. هناك شيء بفمي. وذاك الشيء الذي بصدري يطعنني.
أغيب عن الوعي.

نحن في جبال سليمان في بالوتشيستان، بابا يصارع الدب الأسود. بابا طفولتي. طوفان آغا، النموذج العملاق للباشتون. ليس الرجل الملفوف بالأغطية، الرجل ذو الخدين الغارقين والعينين المجوفتين. تقلبا على منطقة من العشب الأخضر، رجل ووحش، شعر بابا البني المجعد يطير. الدب يزأر، أو ربما بابا الذي يزأر. بصاق ودماء تطير: مخالب وضربات أيدي. سقطا على الأرض محدثان صوتاً مخيفاً وبابا فوق

الدب، يجلس على صدره، أصابعه تحفر عينا الدب. نظر إلي ورأيت. أنه أنا. أنا أصارع الدب.

استيقظت. الرجل النحيل داكن البشرة عاد بجانب سريري. اسمه فريد. أذكر الآن، ومعه الطفل من السيارة. وجهه يذكرني بصوت الأجراس. أشعر بالعطش.

أغيب عن الوعي.

أصحو ثم أغيب عن الوعي.

تبين أنّ اسم الرجل ذي شارب كلارك غايبل كان د. فاروقي. لم يكن نجم أوبرا. كان جراح رأس ورقبة، رغم ذلك، بقيت أظنه شخصاً يدعى أرماند في مكان مليء بالبخار على جزيرة استوائية.

أين أنا؟ أردت أن أسأل، لكن فمي لم يفتح. عبست، تجهمت.

ابتسم أرماند: كانت أسنانه بيضاء لامعة.

ليس بعد، أمير. قال، لكن قريباً، عندما تزال الأسلاك.

تحدث الإنكليزية بلهجة هيدرو سميكة.

أسلاك؟

عقد أرماند ذراعيه: كانت ذراعاه كثة الشعر ويرتدي خاتم زواج ذهبي.

لا بد أنك تتساءل أين أنت، ماذا حدث لك. هذا طبيعي جداً، حالة ما بعد الجراحة الوضعية دائماً محيرة. لذا سأخبرك ما أعرفه.

أردت أن أسأله عن الأسلاك. جراحة وضعية؟ أين عائشة؟ أردتها أن تبتسم لي، أردت يديها الناعمتين بيدي.

عبس أرماند، رفع حاجباً واحداً بطريقة تدل على الأهمية الشخصية.

أنت في مستشفى في بيشاوار. قدمت هنا منذ يومين. لقد عانيت من إصابات خطيرة جداً، أمير، يجب أن أخبرك. وأرغب أن أقول أنك محظوظ جداً بكونك حياً، صديقي. هز إصبعه

للأمام والخلف كرقاص الساعة عندما قال هذا.

طحالك تفجر، على الأغلب ـ ولحسن حظك ـ انفجار متأخر، لأنه كان عليك علامات نزيف مبكر في تجويفك البطني. زملائي في وحدة الجراحة المركزية اضطروا لإجراء عملية إزالة طحال عاجلة. لو أنه انفجر في وقت أبكر، كنت ستنتزف حتى الموت.

ربتِ على ذراعي، المعلق بها المصل، وابتسم.

أيضاً، عانيت من سبعة أضلاع مكسورة، أحدها سبب احتباساً غازياً.

عبست. حاولت أن أفتح فمي، تذكرت الأسلاك.

هذا يعني رئة مثقوبة. شرح أرماند، شد أنبوباً بلاستيكياً بجانبي. شعرت بالطعن ثانية في صدري.

أغلقنا التسرب بهذا الأنبوب الصدري. تتبعت بنظري الأنبوب الذي يخرج من بين الشاش واللاصق المشدود على صدري، إلى وعاء نصف مملوء بأعمدة من الماء، صوت الفرقعة كان يأتي من هناك.

لقد أصبت أيضاً بعدة تمزقات. هذا يعني جروح.

أردت أن أخبره أني أعرف ماذا تعني الكلمة: فأنا كاتب. فتحت فمي، ناسياً أمر الأسلاك ثانية.

التمزق الأسوأ في شفتك العليا. قال أرماند. الإصابة قسمت شفتك العليا إلى قسمين، من المنتصف. لكن لا تقلق، رجال التجميل خاطوها ويعتقدون أن النتيجة ستكون ممتازة. رغم أنه سيبقى هناك ندبة، لا يمكن تفادي هذا. هناك أيضاً كسر دائري على الجنبِ الأيسر: هذه عظمة محجر العين، واضطررنا لإصلاح هذا أيضاً. سنخرج الأسلاك من فكيك بعد حوالي ستة أسابيع. قال أرماند، إلى ذلك الحين، ستتغذى على السوائل والخلائط. ستخسر بعض الوزن وستتحدث مثل (آل باتشينو) في العراب الجزء الأول لفترة. ضحك، لكن لديك عملٌ للقيام به اليوم، أتعلم ما هو ؟

هززت رأسي نفيا.

عملك اليوم هو أن تطلق الغازات. قم بهذا وسنبدأ بإعطائك السوائل. لا رياح، لا طعام. ضحك ثانية.

لاحقاً، بعد أن غيرت عائشة الأنبوب، ورفعت رأس السرير كما طلبت. فكرت بما حدث لي. طحال متفجر، أسنان مكسورة، رئة مثقوبة، محجر عين مكسور. لكن بينما راقبت حمامة تنقر فتات الخبز عند عتبة النافذة، بقيت أفكر في شيء آخر قاله د. أرماند فاروقي: الضربة قد قسمت شفتك العليا إلى قسمين، قال، عند المنتصف تماما، عند المنتصف تماماً، كشفة مشقوقة.

أتى فريد وسوهراب لزيارتي اليوم التالي. هل تعرف من نحن اليوم؟ هل تذكر؟ قال فريد، كمن يمزح، لكنه كان جادا. هززت رأسي.

الحمد لله! قال، لا مزيد من الهراء.

شكراً، فريد. قلت من خلال فكين مغلقين بالأسلاك.

كان أرماند محقاً - بدا صوتي كآل باتشينو من العراب. وفاجأني لساني كلما مددته إلى إحدى تلك الفراغات التي خلفتها الأسنان التي ابتلعتها.

أعني شكراً، على كل شيء.

هزّ يده، احمر قليلاً. لكن لا عليك. قال.

نظرت إلى سوهراب. كان يرتدي ثياباً جديدة. بيرهان - تومبان بني فاتح يبدو كبيراً قليلاً عليه، وقلنسوة سوداء. كان ينظر إلى قدميه ويلعب بالأنبوب الملفوف على السرير.

لم نتعرف بالشكل اللازم. قلت ماداً يدي له. أنا أمير. نظر إلى يدي، ثم إلي. أنت أمير آغا الذي أخبرني عنه بابا؟ قال.

نعم. تذكرت الكلمات في رسالة حسان. لقد أخبرت الكثير عنك لفارزانا جان وسوهراب. عنا كيف كبرنا سوية، لعبنا الألعاب، وركضنا في الشوارع. لقد ضحكا على كل قصص المشاكل والخراب الذي كنا نسببه!

أدين لك بالشكر أيضاً، سوهراب جان. قلت، لقد أنقذت حياتي.

لم يقل شيئاً. أنزلت يدي عندما لم يصافحها. جميلة ثيابك الجديدة. تمتمت.

إنها لابني. قال فريد، لقد كبر عليها، وهي تناسب سوهراب تماماً، أعتقد.

سوهراب يستطيع أن يبقى معه، قال، إلى أن نجد مكاناً آخر له.

لا نملك مساحة كافية. لكن ماذا يمكنني أن أفعل؟ لا أستطيع تركه في الشوارع؟ على كل أولادي أحبوه. ها. سوهراب؟ لكن الولد بقي ينظر للأسفل، يلعب بالأنبوب بيده.

كنت أريد أن أسأل، قال فريد بقليل من التردد. ماذا حدث في ذاك المنزل؟ ماذا حدث بينك وبين الطالباني؟

فلنقل أنّ كلينا حصل على ما يستحق. قلت.

هز فريد رأسه، لم يلح. خطر لي أنه في مكان ما بين الوقت الذي غادرنا فيه بيشاوار إلى أفغانستان والآن، أصبحنا صديقين.

كنت أريد أن أسألك شيئاً أيضاً.

ماذا؟

رحيم خان؟ وكنت خائفاً من الجواب.

رحل.

توقف قلبي عن النبض، هل...

لا، فقط... رحل. وأعطاني ورقة مطوية ومفتاحاً صغيراً.

صاحب الشقة أعطاني هذا عندما ذهبت للبحث عنه. قال أن رحيم خان رحل في اليوم الذي تلا رحيلنا.

أين ذهب؟

هز فريد كتفيه. لا يعرف صاحب الشقة، قال أن رحيم خان ترك الرسالة والمفتاح لك ورحل. نظر إلى ساعته. من الأفضل أن أذهب. هيا، سوهراب.

هل تستطيع تركه هنا قليلاً؟ قلت، وتأتي لأخذه لاحقاً؟ التفت إلى سوهراب، هل تريد أن تبقى معي قليلاً؟

هز كتفيه، لم يقل شيئاً.

بالطبع، قال فريد، سأقله قبل صلاة المغرب.

كان هناك ثلاثة مرضى آخرين في الغرفة. رجلان أكبر مني. أحدهما بجبار على رجله، والآخر يتنفس بصعوبة من الربو. وشاب في الخامسة أو السادسة عشر أجرى جراحة موضعية. الرجل العجوز ذو الجبار حدّق بنا دون أن يرمش، عيناه تتنقلان مني إلى الولد الهازارا الجالس على كرسي. عائلات شركائي بالغرفة - نساء كبار يرتدين قمصان شالوار براقة، أولاد، رجال يرتدون قلنسوات - يدخلون ويخرجون بضجة. يجلبون معهم باكورا، خبز، ساموسا، برياني. أحياناً يتجول الناس فقط في الغرفة، كالرجل ذو اللحية الطويلة الذي دخل الغرفة قبل أن يصل فريد وسوهراب، كان يضع غطاء بنياً ملفوفاً حوله. سألته عائشة شيئاً بالهيدرو. لم يهتم لها وبقي يفحص الغرفة بعينيه. ظننت أنه نظر إلي أكثر من الضروري.

عندما تحدثت الممرضة إليه ثانية، فقط التف وخرج.

كيف حالك؟ سألت سوهراب. هز كتفيه ونظر إلى يديه.

هل أنت جائع؟ السيدة هناك أعطتني صحناً من البرياني، لكني لا أستطيع أكله. قلت، لم أدر ماذا أقول غير ذلك. هل تريده؟ سألت سوهراب.

هز رأسه نافياً.

هل تريد أن نتحدث؟

هز رأسه نفياً ثانية.

جلسنا هكذا لفترة، صامتين، أنا مستلق على السرير، بوسادتين خلف ظهري، سوهراب على الكرسي ذات الثلاث أرجل بجانب السرير. نمت عند نقطة ما، وعندما استيقظت، كان ضوء النهار قد خفت، والظلال بدأت تكبر، وسوهراب كان لا يزال يجلس بجانبي، وما زال ينظر للأسفل، إلى يديه.

تلك الليلة، بعد أن أخذ فريد سوهراب، فتحت رسالة رحيم خان. أخرت قراءتها قدر ما استطعت. قرأت:

أمير جان.

أرجو أن تكون هذه الرسالة وصلتك وأنت سالم. أدعو الله أن لا أكون قد وضعتك في طريق الأذى وأن أفغانستان لم تكن فظة جداً معك. لقد كنت حاضراً في صلواتي منذ يوم رحيلك.

كنت محقاً كل تلك السنين أن تشك أني أعرف. لقد عرفت. أخبرني حسان بعض ما حدث. ما فعلته كان خاطئاً، أمير جان، لكن لا تنسى أنك كنت طفلاً عندما حدث ذلك. طفل صغير مضطرب. لقد كنت قاسياً جداً على نفسك عندها، ولا زلت - رأيت ذلك في عينيك في بيشاوار. لكن أرجو أن تفهم هذا: رجل لا يملك ضمير، لا يتعذب. أرجو أن ينتهي عذابك مع نهاية هذه الرحلة إلى أفغانستان.

أمير جان.

أشعر بالعار من تلك الكذبات التي أخبرناك إياها كل تلك السنين. كنت محقاً أن تغضب في بيشاوار. كان لديك الحق أن تعرف. كذلك حسان. أعرف أن هذا لا يبرر لأحد أي شيء. لكن كابول التي عشنا فيها تلك الأيام كانت عالماً غريباً، عالمٌ فيه أشياء أكثر أهمية من الحقيقة.

أمير جان.

أعرف كم كان أبوك قاسياً عليك عندما كنت صغيراً. رأيت كيف تعذبت وتقت لعواطفه، وقلبي نزف لك. لكن أباك كان رجلاً ممزقاً نصفين، أمير جان، أنت وحسان. أحبكما سوية، لكنه لم يستطع أن يحب حسان كما أراد، بشكل واضح، وكأب. لذلك صب ذلك عليك - أمير، النصف الشرعي اجتماعياً، النصف الذي يمثل الثراء الذي ورثه والخطيئة مع امتيازات الحصانة التي أتت مع ذلك الثراء. عندما كان ينظر إليك كان يرى نفسه، وذنبه. لا زلت غاضباً وأنا أدرك أنه لا زال باكراً جداً أن تتقبل هذا، لكن ربما سترى يوماً أنه عندما كان أبوك

يقسو عليك. كان يقسو على نفسه أيضاً. أبوك، مثلك، روح معذبة، أمير جان.

لا أستطيع أن أصف لك عمق وسواد الحزن الذي حل بي عندما سمعت برحيله. أحببته لأنه كان صديقي، لكن أيضاً لأنه كان رجلاً جيداً، ربما رجل عظيم. وهذا ما أريدك أن تفهمه، أن الخير، الخير الحقيقي، ولد من ندم أبيك، أحياناً، أعتقد أن كل ما قام به، إطعام الفقراء في الشوارع، بناء الميتم، إعطاء المال للأصدقاء المحتاجين، كان كله طريقته في التكفير عن ذنبه. وذلك، أعتقد، هو الخلاص الحقيقي، أمير جان. عندما يقود الذنب إلى الخير

أعلم أنه في النهاية، سيغفر الله، سيغفر لأبيك، لي، ولك أيضاً. أرجو أن تستطيع القيام بالمثل. اغفر لأبيك إن استطعت، اغفر لي إذا أردت، لكن، الأهم، اغفر لنفسك.

لقد تركت لك بعض المال، أغلب ما بقي لدي. أعتقد أنك ستحتاج لبعض المصاريف عندما تعود إلى هنا، والمال سيكفي لتغطية هذه المصاريف. هناك بنك في بيشاوار: يعرفه فريد . المال في صندوق إيداع هناك، تركت مفتاحه لك المفتاح.

بالنسبة لي، آن وقت رحيلي، بقي لدي القليل من الوقت وأرغب أن أقضيه وحدي، أرجوك لا تبحث عني، هذا طلبي الأخير منك.

أتركك برعاية الله.

صديقك دائماً

رحيم.

مسحت عيني بكم رداء المشفى، طويت الرسالة ووضعتها تحت فراشي.

أمير، النصف الشرعي اجتماعياً، النصف الذي يمثل الثراء الذي ورث الخطيئة مع امتيازات الحصانة التي أتت مع ذلك الثراء؟ ربما لهذا كانت علاقتنا أفضل أنا وبابا في الولايات المتحدة، تساءلت، بيع

الخردة للحصول على مبلغ ضئيل، أعمالنا التافهة، شقتنا البسيطة ـ النسخة الأميركية للكوخ. ربما في أميركا، عندما نظر بابا إلي، رأى شيئاً من حسان.

أباك، مثلك، كان روحاً معذبةً، كتب رحيم خان. ربما هذا صحيح. كلانا أخطأ وخان. لكن بابا وجد طريقة لخلق الخير من ندمه. ماذا فعلت: غير تعليق ذنوبي على شماعة نفس الأشخاص الذين خنتهم. ثم محاولة النسيان؟ ماذا فعلت، غير تحولي إلى شخص أرِقْ؟ ماذا فعلت لتصحيح الأمور.

عندما دخلت الممرضة ـ ليست عائشة، بل امرأة حمراء الشعر نسيت اسمها الآن ـ وبيدها حقنة وسألتني إن كنت أحتاج بعض المورفين. قلت نعم.

أخرجوا أنبوب الصدر باكراً الصباح التالي، وسمح أرماند للطاقم بتركي أشرب عصير التفاح. سألت عائشة أن تعطيني مرآة، عندما وضعت كأس العصير على الطاولة بجانب سريري. رفعت النظارة إلى جبهتها بينما فتحت الستائر وتركت شمس الصباح تدخل إلى الغرفة.

تذكر، الآن. قالت من فوق كتفها، ستبدو أفضل بعد بضع أيام. زوج ابنتي كان ضحية حادث دراجة السنة الماضية، جُرّ وجهه الوسيم على الإسفلت وأصبح أرجوانياً كالباذنجان. الآن عاد جميلا، كنجوم هوليوود.

رغم تأكيداتها، فإن رؤية ذاك الشيء الذي أصر أنه وجهي في المرآة، تركني مرعوباً قليلا. بدا كأن شخصاً وضع خرطوم ضخ مياه تحت بشرتي وبدأ يضخ.كانت عيناي منتفختان ومزرقتان. الأسوأ كان فمي، أجزاء مشوهة من الأحمر والأرجواني، كله جروح وقطب. حاولت أن أبتسم مزقت شفتيّ دفقة من الألم. لن أبتسم لفترة. كان هناك قطب على طول خدي الأيسر، تحت ذقني مباشرة، وعلى جبهتي تحت خط الشعر. العجوز ذو الجبيرة قال شيئاً بالهيدرو. هززت

كتفي، أشار إلى وجهه، ربت عليه وضحك ضحكة عريضة خالية من الأسنان، جيد جداً. قال بالإنكليزية، انشاءالله.

شكراً، همست.

أتى فريد وسوهراب مباشرة بعد أن وضعت المرآة جانباً: أخذ سوهراب مكانه وأراح رأسه على جانب السرير.

أتعلم، د. فاروقي يؤكد أنه كلما أخرجناك بسرعة أكبر كان أفضل. قال فريد.

لا أعني المستشفى. أعني بيشاور.

لماذا؟

لا أعتقد أنك ستكون بأمان هنا لفترة طويلة. قال فريد، وأخفض صوته، لطالبان أصدقاء هنا. سيبدأون بالبحث عنك.

أعتقد أنهم ربما بدأوا. تمتمت. تذكرت فجأة في الرجل الملتحي الذي دخل الغرفة ووقف هناك يحدق بي.

مال فريد نحوي، عندما تستطيع المشي، سآخذك إلى إسلام أباد، ليست آمنة تماماً، لا مكان في باكستان آمن، لكن أفضل من هنا. على الأقل ستعطيك بعض الوقت.

فريد جان، هذا ليس آمناً لك أيضاً. ربما يجب أن لا تُشاهد معي. لديك عائلة لتطعمها.

أومأ فريد، أولادي صغار، لكنهم فطنون جداً، يعرفون كيف يهتمون بأمهاتهم وأخواتهم. ابتسم، بأي حال، لم أقل أني سأقوم بهذا مجاناً.

لن أسمح لك بهذا حتى لو عرضت. قلت، نسيت أني لا أستطيع الابتسام وحاولت. خيط صغير من الدم نزل على ذقني، هل أستطيع أن أطلب منك خدمة أخرى؟

لأجلك... ألف مرة أخرى. قال فريد

و، بهذه البساطة!، كنت أبكي، أنشج. الدموع تنهمر على وجنتي، لاسعة اللحم المكشوف على شفتي.

ما المشكلة؟ قال فريد، بحذر.

دفنت وجهي في يد ورفعت الأخرى، علمت أن الغرفة كلها تراقبني. بعدها، شعرت بالتعب والفراغ.

أنا آسف، قلت. كان سوهراب ينظر إلي وهو عابس. عندما تحدثت ثانية، أخبرت فريد ما أريد.

قال رحيم خان أنهم يعيشون هنا في بيشاوار.

ربما يجب أن تكتب أسماءهم، قال فريد وهو ينظر إلي بحذر، كأنه يتساءل ما الذي سيفجرني ثانية.

شخبرت أسماءهم على قطعة من ورق، توماس وبيتي وكالدويل.

وضع فريد الورقة في جيبه، سأبحث عنهم بأسرع وقت، قال. نظر إلى سوهراب، بالنسبة إليك. سآتي لآخذك هذا المساء، لا تتعب أمير آغا كثيراً.

لكن سوهراب مشى إلى النافذة، حيث نصف دزينة من الحمامات وقفت تتمشى للأمام والخلف على العتبة. تنقر الخشب وفتات خبز قديم.

في الدرج الثاني، في الطاولة بجانب سريري. وجدت مجلة جغرافية عالمية قديمة، قلم رصاص، مشط بأسنان مكسورة، وما كنت أمد يدي إليه الآن، والعرقٍ يتصبب على وجهي من الجٍهد: أوراق لعب، كنت قد عددتهم سابقاً وبدهشة، كان الورق كاملاً.

سألتٍ سوهراب إن كان يريد أن يلعب. لم أتوقع أن يجيب، أصبح هادئاً جداً منذ هربنا من كابول. لكن التفت وقال، اللعبة الوحيدة التي أعرفها هي بانجبار.

أشعر بالأسف عليك منذ الآن، الآن السيد الأعظم للبانجبار، معلن عالمياً.

أخذ مكانه على الكرسي بجانبي. وزعت له أوراقه الخمسة، عندما كنا أبوك وأنا بعمرك، كنا نلعب هذه اللعبة. خصوصاً في الشتاء، عندما تثلج ولا نستطيع الخروج. كنا نلعب إلى أن تغرب الشمس.

لعب ورقة وسحب أخرى من الكومة.ا سترقت نظرات إليه بينماكان يتأمل في الأوراق، رأيت فيه أباه في كثير من الأشياء، كيفٍ يحمل أوراقه في يديه الاثنتين، كيفٍ يحدق بينما يقرأهم، كيف أنه نادراً ما ينظر إلى شخص في عينيه مباشرة .

لعبنا بصمت. ربحت اللعبة الأولى، تركته يربح الثانية، وخسرت الخمسة التالين بعدل.

أنت جيد، كأبيكِ، ربما أفضل. قلت. بعد خسارتي الأخيرة.

كنت أغلبه أحياناً، لكنني أعتقد أنه كان يتركني أربح، توقفت قبل أن أقول، أباك وأنا أرضعتنا المرأة نفسها .

أعلم.

ماذا... ماذا قال لك عنا أيضاً؟

أنك كنت أفضل صديق حظي به. قال.

لعبت بشب الديناري بين أصابعي. قلبته للأمام والخلف، أخشى أنني لم أكن هذا الصديق الجيد . قلت، لكنني أحب أن أكون صديقك. أعتقد أني سأكون صديقاً جيداً لك. هل هذا جيد؟ هل ستحب هذا؟ وضعت يدي على ذراعه، بلطف. لكنه انتفض، رمى أوراقه وأبعد الكرسي. ومشى عائداً إلى النافذة.

كانت السماء لوحة من الأحمر والأرجواني بينما غربت الشمس في بيشاور، من الطريق كنت أسمع أبواقا ،نهيق حمار، و صفارة شرطي. وقف سوهراب في الضوء الأحمر، جبهته مضغوطة على الزجاج. قبضته مشدودة.

استخدمت عائشة مساعداً كيف آخذ خطواتي الأولى تلك الليلة. مشيت حول الغرفة مرة، يد على البار الحديدي، الأخرى تمسك بذراع المساعدة. احتجت عشر دقائق كي أعود إلى الفراش. عندها، كان الشق في معدتي يخفق، وغرقت في عرقي منهاراً. استلقيت في السرير، ألهث، قلبي يخفق في أذني. أفكر كم اشتقت لزوجتي.

سوهراب وأنا لعبنا ثانيةً البانجبار أغلبٍ اليوم التالي، ولكن بصمت، واليوم الذي تلاه. لم نقل كلمة تقريباً، فقط لعبنا بانجبار، أنا في السرير، وهو على الكرسي ذات الثلاثة أرجل، وكسرت روتيننا فقط بجولتي حولِ الغرفة، أو الذهاب إلى الحمام في نهاية الممر.

حلمت لاحقاً تلك الليلة: أن آصف كان يقف في باب غرفتي. الكرة النحاسية لا زالت في محجر عينه. نحن متشابهان، أنت وأنا. كان يقول، أنت رضعت معه، لكنك توأمي.

أخبرت أرماند في الصباح أني راحل.

لازال الوقت مبكراً. احتج أرماند. لم يكن يرتدي رداءه الطبي ذاك اليوم، كان يرتدي بذة زرقاء وربطة عنق صفراء. كان الجيل قد عاد إلى شعره.

لازلت تحت المضادات الوريدية و.

يجب أن أذهب. قلت، أقدر كل ما قمت به، كله، حقاً، لكن يجب أن أرحل.

أين ستذهب؟ قال أرماند.

أفضل ألا أقول.

لكنك تمشي بصعوبة.

أستطيع المشي إلى نهاية الممر وأعود. قلت، سأكون بخير.

الخطة كانت هكذا، أرحل عن المستشفى. أجلب المال من صندوق الأمانات، أدفع فواتيري الطبية، أذهب إلى الميتم وأترك سوهراب في توماس وبيتي كالدويل، ثم، أذهب إلى إسلام أباد، وأغير خطط السفر. أعطي نفسي بضعة أيام أخرى كي أتحسن. ثم أعود إلى أميركا.

هذه كانت الخطة على أي حال، إلى أن أتى فريد وسوهراب ذاك الصباح.

صديقاك، توماس وبيتي كالدويل، ليسا في بيشاور. قال فريد.

احتجت لعشر دقائق فقط كي أرتدي البيرهان ـ تومبان. صدري، حيث فتحوه كي يدخلوا أنبوب الصدر، يؤلمني عندما أرفع ذراعي،

وتؤلمني معدتي كلما انحنيت. كنت ألهث من التعب فقط من الجهد الذي بذلته في توضيب عدة أغراض في كيس ورقي. لكنني استطعت أن أكون جاهزاً وكنت أجلس على حافة السرير عندما أتى فريد بالأخبار.

جلس سوهراب بجانبي.

أين ذهبا؟ سألت.

هز فريد رأسه، أنت لا تفهم.

لأن رحيم خان قال.

ذهبت إلى قنصلية الولايات المتحدة، قال فريد، وهو يرفع كيسي، لم يكن هناك توماس وبيتي كالدويل في بيشاوار، بحسب الأشخاص في القنصلية، لم يوجدا أبداً، ليس في بيشاوار، على أي حال.

بجانبي، كان سوهراب يقلب صفحات الجغرافية العالمية القديمة.

جلبنا المال من البنك، المدير، رجل ذو كرش ورقع لامتصاص العرق عند إبطيه، راح يطلق الابتسامات ويخبرني أن أحداً في البنك لم يلمس المال، لا أحد مطلقاً، قال بوقار، وهو يدير إصبعه الوسطى كما فعل أرماند.

القيادة خلال بيشاوار مع كل هذا المال في كيس ورقي كانت تجربة مخيفة قليلاً. أضف إلى ذلك، أني شككت في كل رجل ملتح نظر إلي أن يكون قاتلاً طالبانياً، بعثه آصف. شيئين أكدا مخاوفي: هناك الكثير من اللحى في بيشاوار، والجميع يحدق.

ماذا سنفعل معه؟ قال فريد، وهو يمشي ببطء من مكتب المحاسبة في المستشفى إلى السيارة، سوهراب كان في المقعد الخلفي للاند كروزر ينظر إلى السيارات من خلال النافذة المفتوحة، ذقنه تستريح على راحتيه.

لا يمكن أن يبقى في بيشاوار، قلت، متنهداً.

لا، أمير آغا، لا يمكن، قال فريد. قرأ السؤال في كلماتي، أنا آسف، أتمنى لو.

لا عليك، فريد. قلت، مبتسماً ابتسامة متعبة، لديك أفواه تطعمها.

كان كلب يقف قرب السيارة الآن، متكئاً على رجليه الخلفيتين، كفاه على باب الشاحنة، ذيله يتمايل، كان سوهراب يداعب الكلب.

أعتقد أنه سيذهب إلى إسلام أباد الآن. قلت.

نمت خلال كامل الرحلة التي أخذت أربع ساعات إلى إسلام أباد. حلمت كثيراً من الأحلام، وأغلبها لا أذكر منها إلا صورا متباعدة، قصاصات من الذاكرة قصيرة تظهر في رأسي، كالأوراق في الدليل: بابا ينقع لحم الحمل لأجل حفلة عيد ميلادي الثالث عشر. أنا وثريا نمارس الحب لأول مرة، الشمس تشرق من الشرق، آذاننا لا تزال تطن من موسيقى الزفاف، يداها المطليتان بالحنة مشبوكتان بيدي. المرة التي أخذنا بابا أنا وحسان إلى حقل التوت في جلال أباد - أخبرنا المالك أننا نستطيع أن نأكل قدر ما نريد بشرط أن نشتري أربع كليوغرامات - وانتهينا سوية بآلام في البطن. كم هو داكن، تقريباً أسود، دم حسان بدا على الثلج، يسقط من سرواله. الدم ينزف بقوة، كالا جميلة تربت ركبة ثريا وتقول، الله يعلم أفضل، ربما لم يكن مقدراً. النوم على سطح منزل بابا. بابا يقول أن الخطيئة الوحيدة كانت السرقة. عندما تكذب، فأنت تسرق حق شخصٍ بالحقيقة. رحيم خان على الهاتف، يخبرني أن هناك طريقة لأعود جيدا ثانية، طريقة لتعود جيداً ثانية...

- 24 -

إذا كانت بيشاور المدينة التي ذكرتني كيف كانت كابول، فإنَّ إسلام أباد هي المدينة التي كان من الممكن أن تصبحها كابول يوماً.

الطرق كانت أعرض من طرق بيشاور، أنظف، ومحددة بصفوف من الحمضيات وأشجار ذات ورود حمراء، البازارات كانت أكثر تنظيماً وليست مزدحمة بالمتسولين والمتسكعين. البناء كان أكثر أناقة أيضاً، أكثر عصرية، ورأيت حدائق الزهور فيها والياسمين مزروعة في ظلال الأشجار.

وجد فريد فندقاً صغيراً في شارع جانبي على سفح تلال مرج الله. في طريقنا إلى هناك، مررنا بمسجد شاه فيصل الشهير، الذي يعتبر أكبر مسجد في العالم، بخرساناته العملاقة ومآذنه التي تناطح السحاب. ذهل سوهراب من مشهد المسجد، انحنى مخرجاً رأسه من النافذة وتابع النظر اليه إلى أن انعطف فريد.

غرفة الفندق كانت تقدماً عظيماً مقارنة بالغرفة في كابول حيث كنا أنا وفريد. الشراشف والسجادة نظيفة، الحمام يلمع. كان هناك شامبو، صابون وشفرات للحلاقة، بانيو، ومناشف تفوح منها رائحة الليمون. ولا توجد بقع دم على الجدران. شيء آخر: جهاز تلفاز على طاولة قبالة السريرين المفردين.

انظر! قلت لسوهراب. شغلته بيدي - لا يوجد جهاز تحكم - وقلبت بين المحطات، وجدت برنامج أطفال فيه دميتين تغنيان بالهيدرو. جلس سوهراب على إحدى الأسرة ودفن ركبتيه في صدره. صورة من التلفاز انعكست على عينيه الخضرواتين بينما كان يشاهد بشغف، وهو يهز نفسه للأمام والخلف. تذكرت الوقت الذي وعدت حسان أني سأشتري لعائلته تلفازاً ملوناً عندما نكبر.

سأذهب، أمير آغا. قال فريد.

إبق الليلة. قلت، إنها رحلة طويلة، سافر غداً.

تاشاكور. قال، لكني أريد العودة الليلة. اشتقت لأطفالي.

في طريقه إلى خارج الغرفة. توقف عند الباب. وداعا، سوهراب جان. قال. انتظر رداً، لكن سوهراب لم يعره أي اهتمام. فقط بقي يهز للأمام والخلف. وجهه مضاء من الضوء الفضي للصور التي تعرض على الشاشة.

في الخارج، أعطيته مغلفاً. عندما مزقه، فتح فمه.

لم أدر كيف أشكرك، قلت، لقد قمت بالكثير لأجلي.

كم يوجد هنا؟ قال فريد، وهو يشعر بقليل من الدوار.

أكثر قليلاً من ألفي دولار.

ألفي دو- ، شفته السفلى ترتجف قليلاً. بعدها، عندما انطلق، أطلق البوق مرتين ولوح، لوحت بدوري، لم أره ثانية.

عدت إلى غرفة الفندق ووجدت سوهراب مستلق على السرير، ملتف على نفسه بشكل حرف (C). كانت عيناه مغلقتان، لكنني لم أكن متأكداً إن كان نائماً. كان قد أطفأ التلفاز. جلست على سريري مشوشاً من الألم. مسحت العرق البارد عن حاجبي. تساءلت كم سيبقى يؤلمني الوقوف، الجلوس، التقلب على الفراش. تساءلت متى سأصبح قادراً على أكل الطعام الصلب. تساءلت ماذا سأفعل مع هذا الطفل الجريح المستلقي على الفراش، رغم أنّ جزءاً مني كان يعرف.

كان هناك دورق ماء على الطاولة. صببت كأساً من الماء وأخذت حبتين من حبوب أرماند للألم. كان الماء دافئاً ومراً. أغلقت الستائر، أرحت نفسي على السرير. استلقيت. اعتقدت أن صدري سيتمزق، عندما خف الألم قليلا، واستطعت التنفس ثانية، سحبت الغطاء إلى صدري، وانتظرت أن تأخذ حبوب أرماند مفعولها.

عندما استيقظت، كانت الغرفة أكثر ظلاماً، قسم السماء الظاهر من بين الستائر كان أرجوانياً في النهار الذي انقلب ليلاً. كانت الأغطية

مبللة ورأسي يطن. كنت أحلم ثانية، لكن لم أستطع تذكر حلمي. سقط قلبي عندما نظرت إلى سرير سوهراب ووجدته خالياً. ناديته. رد علي صوتي. شعرت بالغربة، جالساً في غرفة فندق مظلمة، على بعد آلاف الأميال من منزلي، جسمي مكسور، أنادي باسم ولد لم ألتقيه إلا منذ بضعة أيام. ناديته ثانية ولم أسمع شيئاً.صارعت خارجاً من السرير، نظرت إلى الحمام، في الممر الضيق خارج الغرفة. لقد اختفى.

أغلقت الباب وعرجت إلى مكتب المدير في اللوبي، يدي متكئة على طول الحائط للدعم. كان هناك شجرة نخيل زينة مليئة بالغبار في زاوية اللوبي، وطيور نحام وردية على الحائط. وجدت مدير الفندق يقرأ جريدة خلف طاولة التسجيل المغطاة بالفورمايكا. وصفت سوهراب له، سألته إن كان قد رآه. وضع جانباً جريدته وخلع نظارة القراءة. كان شعره دهنياً وشاربه مربع الشكل مخطط بالرمادي، تفوح منه رائحة مبهمة لفاكهة استوائية لم أستطع معرفتها.

الأولاد، يحبون الركض واللعب. قال، وهو يتنهد، لدي ثلاثة. كل اليوم يركضون من هنا لهناك، يزعجون أمهم روحعلى نفسه بالجريدة، وحدق بفكي.

لا أظن أنه في الخارج يركض. قلت، ونحن لسنا من هنا، أخاف أن يكون قد تاه.

هز رأسه من جهة لأخرى، إذاً كان يجب أن تبقي عينيك مفتوحتين على الولد، سيد.

أعلم، قلت، لكني غفوت، وعندما استيقظت، كان قد اختفى.

يجب العناية بالأولاد، كما تعلم.

نعم، قلت. نبضي يتسارع. كيف استطاع أن يكون لا مبالياً هكذا بخوفي؟ أمسك الجريدة بيده الأخرى، وعاد يروح، يريدون دراجات هوائية الآن.

من؟

أولادي، قال، يقولون، دادي، دادي، نرجوك اشتر لنا دراجات ولن نزعجك. نرجوك دادي! ضحك ضحكة قصيرة من خلال أنفه. دراجات. أمهم ستقتلني، أقسم لك.

تخيلت سوهراب ملقى في قناة، أو في صندوق سيارة ما، يركل ويصرخ. لم أرد دمه في رقبتي. ليس هذا أيضاً.

أرجوك.. قلت، حدقت. قرأت اسمه على العلامة على قميصه القطني، مستر فياض، هل رأيته؟

الولد؟

عضضت شفتي. نعم، الولد! الولد الذي أتى معي، هل رأيته أم لا؟ رأفة لله!

توقف الترويح. ضاقت عيناه، لا تتذاكى معي، صديقي. لست أنا الشخص الذي أضاعه.

كونه محق لم يوقف الدم من التسارع في وجهي، أنت محق. أنا مخطئ. ذنبي. الآن، هل رأيته؟

آسف، قال باقتضاب. ووضع نظارته مكانها. وقفت عند الطاولة لدقيقة. محاولاً ألا أصرخ.

بينما كنت أخرج من اللوبي، قال، ألديك فكرة أين يمكن أن يكون قد ذهب؟

لا. قلت، شعرت بالتعب، التعب والخوف.

هل لديه أي اهتمامات؟ قال. رأيت أنه قد أغلق الجريدة. أولادي، على سبيل المثال، سيقومون بأي شيء لمشاهدة فيلم أكشن أميركي، خصوصاً أفلام أرنولد شيئا زنغر.

المسجد! قلت، المسجد الكبير، تذكرت كيف شد المسجد انتباه سوهراب عندما مررنا بجانبه، كيف أخرج رأسه من النافذة ونظر إليه.

شاه فيصل؟

نعم، هل تستطيع أخذي إلى هناك!

هل تعلم أنه أكبر مسجد في العالم؟ سأل.

لا ، لكن ـ
صالته وحدها تستطيع استيعاب أربعين ألف.
هل تستطيع أخذي إلى هناك؟
إنه على بعد كيلومتر واحد من هنا. قال، لكنه كان يبتعد عن الطاولة.
سأدفع لك بالمقابلٍ. قلت.
تنهد وهز رأسه نفياً. انتظر هنا. اختفى في الغرفة الخلفية، عاد مرتدياً نظارة أخرى، مجموعة مفاتيح في يد، ومعه امرأة بدينة، قصيرة، في ساري برتقالي. أخذت مكانه خلف الطاولة.
لا آخذ مالك. قال وهو يسرع بجانبي، سآخذك هناك فقط لأني أب مثلك.
اعتقدت أننا سننتهي بالبحث في أرجاء المدينة عندما حل الليل. رأيت نفسي أتصل بالشرطة، أصف سوهراب لهم تحت نظرات فياض المؤنبة، سمعت الضابط، صوته متعب وغير مهتم، يسأل أسئلته التي عليه أن يسألها عادة . وتحت الأسئلة الرسمية، سؤال غير رسمي : من بحق الجحيم يهتم لطفل أفغاني آخر ميت؟
وجدناه على بعد حوالي مئة قدم من المسجد. يجلس في موقف سيارات نصف ممتلئ على جزيرة من العشب. توقف فياض بجانب الجزيرة لأخرج.
يجب أن أعود. قال.
ليست مشكلة، سنعود مشياً. قلت. شكراً، مستر فياض، حقاً.
انحنى على المقعد الأمامي عندما خرجت، هل تسمح أن أقول لك شيئاً ؟
بالطبع ، أجبته . في ظلام الغروب، كان وجهه زوج من النظارات يعكسان الضوء المتلاشي.
المشكلة فيكم أنتم الأفغان هي... حسناً، أنتم متهورون قليلاً.

كنت متعباً وأشعر بالألم. فكي يؤلمني، وتلك الجروح اللعينة في صدري ومعدتي كالأشواك تحت بشرتي. لكني بدأت أضحك على أي حال.

ماذا.. ماذا قلت.. كان فياض يقول، إلا أنني كنت أضحك عندها، دفعات من الضحك ملأت حنجرتي، وخرجت من فمي المليء بالأسلاك.

مجانين. قال.

زعقت عجلات سيارته عندما أقلع. أضواؤها الخلفية كانت تغمز حمراء في الضوء المتلاشي.

لقد أعطيتني جرعة كبيرة من الخوف. قلت، جلست بجانبه، أنيت من الألم عندما انحنيت. كان ينظر إلى المسجد، كان مسجد شاه فيصل يبدو كخيمة عملاقة. السيارات تدخل وتخرج: عباد يرتدون الأبيض يدخلون ويخرجون. جلسنا بصمت، أنا متكئ على الشجرة، سوهراب بجانبي، ركبتاه مدفونتان في صدره. استمعنا إلى الآذان. راقبنا أضواء المسجد التي تعد بالمئات بينما ضوء النهار يختفي.

شع المسجد كماسة في الظلام مضيئاً السماء، ووجه سوهراب.

هل ذهبت إلى مزار شريف؟ قال سوهراب، و ذقنه ترتاح على ركبتيه.

منذ وقت بعيد، لا أذكره جيداً.

أخذني أبي إلى هناك عندما كنت صغيراً، أمي وساسا ذهبتا أيضاً. اشترى لي بابا قرداً من البازار. ليس قرداً حقيقياً، لكن النوع الذي تنفخه. كان بنياً وعليه ربطة عنق.

ربما كان لدي أحدها عندما كنت طفلاً.

أخذني أبي إلى المسجد الأزرق، قال سوهراب، أذكر وجود الكثير من الحمام خارج المسجد، ولم يكونوا خائفين من الناس. كانوا يأتون إلينا. أعطتني ساسا فتات خبز وأطعمت الطيور. بعدها بقليل، كان هناك حمامات تهدل حولي. كان هذا ممتعاً.

أعتقد أنك تفتقد أهلك كثيراً. قلت، تساءلت إن كان قد رأى الطالبانيون يجرون أهله إلى الطريق. رجوت أن لا يكون.

هل تفتقد أهلك؟ سأل، مريحاً خده على ركبتيه، ناظراً إلي.

هل أفتقد أهلي؟ حسناً. أمي لم أعرفها، أبي مات منذ بضع سنين. و، نعم أفتقده أحياناً كثيرا.

هل تذكر كيف كان يبدو؟

فكرت في رقبة بابا الغليظة، عيناه السوداوين، شعره البني المجعد، الجلوس في حضنه كالجلوس على زوج من جذوع الأشجار.

أذكر كيف كان يبدو، أذكر رائحته أيضاً.

بدأت أنسى وجوههم، قال سوهراب، هل هذا سيء؟

لا، قلت، الوقت يفعل هذا.

فكرت في شيء. نظرت في جيب معطفي، وجدت صورة حسان وسوهراب، تفضل. قلت.

وضع الصورة على بعد إنش عن وجهه. قلبها كي يسقط ضوء المسجد عليها. نظر إليها وقتاً طويلاً. فكرت أنه ربما سيبكي، لكنه لم يفعل. فقط أمسكها بيديه الاثنتين، مرر إبهامه عليها: فكرت في سطر قرأته في مكان ما، أو ربما سمعت أحدهم يقوله: *هناك كثير من الأطفال في أفغانستان، لكن قليلاً من الطفولة.*

مد يده ليعطيني الصورة.

احتفظ بها، قلت، إنها لك.

شكراً، نظر إلى الصورة ثانية، ووضعها في جيبه.

مرت عربة يجرها حصان (كليب ـ كلوبد) بجانب الموقف، أجراس صغيرة معلقة من رقبة الحصان رنت مع كل خطوة.

أصبحت أفكر كثيراً في المساجد مؤخرا. قال سوهراب.

حقاً، ماذا عنها؟

هز كتفيه، فقط أفكر بها. رفع وجهه، نظر إلي مباشرة. كان الآن يبكي قليلاً، بصمت.

هل أستطيع أن أسألك شيئاً، أمير آغا.

بالطبع.

هل الله... بدأ، اختنق قليلاً، هل سيضعني الله في الجحيم لما فعلته بذاك الرجل؟

اقتربت منه فانتفض، ابتعدت، لا. بالطبع لا. قلت، أردت أن أقربه مني، أحضنه، أقول له أن العالم كان سيئاً معه، وليس العكس.

تجعد وجهه وتوتر، أبي يقول أنه من الخطأ إيذاء حتى الأشخاص السيئين لأنهم لا يعرفون أفضل من هذا، ولأن الأشخاص السيئين أحيانا يصبحون جيدين.

ليس دائما، سوهراب.

نظر إلي بحيرة.

الرجل الذي آذاك، أعرفه منذ سنين عدة. قلت، أعتقد أنك أدركت هذا من المحادثة التي جرت بيني وبينه. هو.. حاول أن يؤذيني مرة عندما كنت في عمرك، لكن أباك أنقذني. كان أبوك شجاعاً جدا، ودائماً ينقذني من المشاكل، يدافع عني. لذا، في أحد الأيام، الرجل السيء، آذى أباك بدلاً مني. أذاه بطريقة سيئة جدا، وأنا.. لم أستطع إنقاذه كما أنقذني.

لم أراد الناس إيذاء أبي؟ قال سوهراب، لم يكن لئيماً مع أي شخص في حياته.

أنت محق، كان أبوك رجلاً جيداً. لكن هذا ما أحاول أن أخبرك إياه، سوهراب جان. أن هناك أشخاص أشرار في هذا العالم، وأحياناً الأشرار يبقون أشراراً. لذا عليك أن تقف في وجههم. ما فعلته لهذا الرجل هو ما كان علي فعله كل تلك السنين.. لقد أعطيته ما يستحق، وهو يستحق أكثر من هذا أيضاً.

هل تظن أن أبي قد خاب ظنه بي؟

قلت، لقد أنقذت حياتي في كابول، تأكد أنه فخور جداً بك لهذا.

مسح وجهه بكم قميصه، دفن وجهه بين يديه وبكى وقتاً طويلاً قبل أن يتحدث ثانية، أفتقد أبي، وأمي أيضاً، قال، أفتقد ساسا ورحيم خان، لكن أحياناً أنا سعيد أنهم... ليسوا هنا.

لماذا؟ لمست ذراعه، فتراجع للوراء.

لأن ـ قال، وهو يلهث ويزفر بين الدموع.

لأني لا أريدهم أن يروني... أنا وسخ جداً. أخذ نفساً وأخرجه في نهنهة طويلة، أنا وسخ جداً ومليء بالخطيئة.

أنت لست وسخاً سوهراب. قلت.

أولئك الرجال ـ

أنت لست وسخاً على الإطلاق ـ

قاموا بأشياء... الرجل السيء والإثنان الآخران... قاموا بأشياء... قاموا ـ بأشياء لي.

أنت لست وسخاً، ولست مليئاً بالخطيئة. لمست ذراعه ثانية وابتعد، مددتها ثانية، بلطف، وقربته مني.

لن أؤذيك. همست، أعدك. قاوم قليلاً، تراخى. سمح لي أن أقربه لي وأراح رأسه على صدري، تشنج جسده الصغير مع كل شهقة.

هناك رابط ينشأ بين الأشخاص الذين رضعوا من نفس الصدر. الآن، بينما يسيل ألم الولد على قميصي. رأيت أن رابطاً بدأ ينمو بيننا أيضاً. ما حدث في تلك الغرفة مع آصف كان قد ربطنا بشكل غير قابل للشك.

كنت أنتظر الوقت المناسب، اللحظة المناسبة، لأسأل السؤال الذي يدور في رأسي ويبقيني مستيقظاً في الليل. قررت أن هذه هي اللحظة. هنا، الآن، والأضواء اللامعة لبيت الله تضيء ليلنا.

هل ترغب أن تأتي لتعيش في أميركا معي ومع زوجتي؟

لم يجبني. بقي ينشج في قميصي، تركته.

لأسبوع، لم يذكر أحد منا ما كنت قد سألت. كأن هذا السؤال لم يوجد أبدا. ثم، في أحد الأيام، أخذت وسوهراب تاكسي إلى منطقة

دامان - إي - كوه (طرف الجبال)، الجاثمة في منتصف تلال مرج الله، و تعطي صورة بانورامية لإسلام أباد، صفوف الشوارع النظيفة، المحددة بالأشجار والبيوت البيضاء. أخبرنا السائق أننا نستطيع رؤية القصر الرئاسي من هناك، إذا أمطرت وكان الهواء نقياً تستطيع رؤية حتى أبعد من راوال بيندي، قال. رأيت عينيه في المرآة الخلفية، تنتقل من سوهراب إلي، للأمام والخلف. رأيت وجهي أيضاً، لم يكن ملتهبا بقدر ما كان، لكن وجهي كان صبغة صفراء من تشكيلة من الجروح الملتئمة.

جلسنا على مقعد في إحدى مناطق التنزه، في ظل شجرة البان. كان يوماً دافئاً، الشمس ساطعة عالياً في السماء الزبرجدية. على المقاعد القريبة، عائلات تأكل الساموسا والباكورا. في مكان ما، أغنية هندية من مذياع، أعتقد أنها من فيلم قديم، ربما باكيزا. أولاد، كثير منهم في عمر سوهراب، يلاحقون كرات قدم، يضحكون، يصرخون. فكرت في الميتم في كارتيه - سيه. فكرت في الجرذ الذي ركض بين رجلي في مكتب زمان، انقبض صدري وحقنة من غضب غير متوقع على الطريقة التي يدمر بها رجال وطني أرضهم.

ماذا؟ سأل سوهراب.

اغتصبت ابتسامة وأخبرته أن لا شيء مهم.

مددنا واحدة من مناشف حمام الفندق على طاولة النزهة ولعبنا بانجبار عليها. كان شعوراً جيداً أن أكون هناك، مع ابن أخي غير الشقيق، نلعب الورق، دفء الشمس يداعب عنقي. انتهت الأغنية وبدأت أخرى. واحدة لا أعرفها. انظر، قال سوهراب، كان يشير إلى السماء بأوراقه. نظرت للأعلى، رأيت صقراً يحلق في السماء التي تبدو أنها لا تنتهي.

لم أكن أعرف أنه هناك صقوراً في إسلام أباد. قلت.

أنا أيضاً. قال، عيناه تلاحقان تحليق الطائر الدائري. هل لديكم منها حيث تعيش؟

سان فرانسيسكو؟ لا أظن. مع ذلك لا أستطيع القول أني رأيت الكثير.

أوه، قال.

كنت أتمنى أن يسألني أكثر، لكنه وزع دوراً آخراً وسأل إن كنا نستطيع أن نأكل. فتحت الكيس الورقي وأعطيته ساندويتش كرات اللحم. غذائي كان يتألف من وعاء آخر من الموز المخفوق مع عصير البرتقال - كنت قد استعرت خلاط مستر فياض لأسبوع. امتصصت العصير من خلال قشة وامتلأ فمي بالفاكهة المخلوطة الحلوة، سقط بعض منها على زاوية شفتي، أعطاني سوهراب منديلاً، وراقبني بينما مسحت شفتيّ برفق. ابتسمت فابتسم.

أبوك وأنا كنا أخوة. قلت، خرجت هذه الكلمات ببساطة، أردت أن أخبره في الليلة التي جلسنا فيها بجانب المسجد. لكني لم أفعل. لكن لديه حق بأن يعرف، لم أرغب بإخفاء أي شيء بعد الآن، أخوة غير أشقاء. حقاً. لدينا نفس الأب.

توقف سوهراب عن المضغ. وضع ساندوتشه جانباً، لم يخبرني بابا أن لديه أخاً.

هذا لأنه لم يكن يعرف.

لماذا لم يعرف؟

لم يخبره أحد، قلت، لم يخبرني أحد أيضاً. اكتشفت هذا منذ وقت قريب.

رمش سوهراب. كأنه ينظر إلي، فعلاً ينظر إلي. لأول مرة.

لكن لماذا أخفى الناس هذا عن أبي وعنك؟

أتعلم، سألت نفسي نفس السؤال ذاك اليوم. وهناك جواب، ليس جواباً جيداً. دعنا نقل أنهم لم يخبروننا لأن أباك وأنا... لم يكن مفروضاً أن نكون أخوة.

لأنه كان هازارا؟

أجبرت عيني أن تبقيا عليه، نعم.

هل أباك، بدأ، ناظراً إلى طعامه، هل أحبك أباك وأحب أبي بالتساوي؟

تذكرت يوماً طويلاً عند بحيرة غارغا. عندما سمح بابا لنفسه أن يربت ظهر حسان، عندما تفوق حجر حسان على حجري. تصورت بابا في غرفة المشفى، يشع سعادة بينما أزالوا اللصقات عن شفتي حسان.

أعتقد أنه أحبنا بنفس القدر، لكن بشكل مختلف.

هل كان يشعر بالعار من أبي؟

لا، قلت، أعتقد أنه كان يشعر بالعار من نفسه.

أمسك ساندويشته وعاد يأكلها بصمت.

غادرنا متأخرين عصر ذاك اليوم، متعبين من الحرارة، متعبان بسعادة. كل طريق العودة، شعرت أن سوهراب يراقبني. جعلت السائق يتوقف عند متجر يبيع بطاقات اتصال هاتفي. أعطيته المال وبقشيشاً كي يذهب ويشتري واحدة لي.

تلك الليلة، كنا مستلقيين على أسرتنا، نشاهد برنامجاً على التلفاز، رجلا دين بلحيتين رماديتين طويلتين يرتديان توربانات بيضاء، يتلقيان اتصالات من المؤمنين حول العالم. أحد المتصلين من فنلندا، رجلٍ اسمه أيوب، سأل إن كان ابنه المراهق سيدخل الجحيم لارتدائه جنزا واطي الخصر لدرجة أن ثيابه الداخلية تظهر.

رأيتٍ صورة لسان فرانسيسكو مرة، قال سوهراب.

حقاً؟

كان هناك جسراً أحمر وبناء ذو قمة مدببة.

يجب أن ترى الشوارع، قلت.

ماذا عنها؟

كان ينظر إلي الآن، على شاشة التلفاز كان الموليان يستشيران بعضهما.

إنها منحدرة جداً، عندما تقود للأعلى، فإن كل ما تراه هو سقف سيارتك والسماء. قلت.

تبدو مخيفة. قال، انقلب على جانبه، مواجهاً إياي، وظهره للتلفاز.

فعلاً، أول مرة. قلت، لكنك تعتاد عليها.

هل تثلج هناك؟

لا، لكن ينزل الكثير من الضباب، أتعلم، ذاك الجسر الذي رأيته؟

ما به ؟

أحياناً يصبح الضباب كثيفاً جداً في الصباح، لدرجة أن كل ما تراه قمة برجيه فقط.

كان هناك تساؤل في ابتسامته، أوه.

سوهراب؟

نعم.

هل فكرت في ما سألتك إياه سابقاً؟

تلاشت ابتسامته. انقلب على ظهره. عقد يداه خلف رأسه.

قرر الموليان أن ابن أيوب سيدخل الجحيم لارتدائه الجينز بتلك الطريقة، فسرا ذلك أن هذا وارد في الحديث بما معناه .

فكرت به. قال سوهراب.

و؟

الفكرة تخيفني.

أعلم أنها مخيفة قليلاً. قلت. متعلقاً بذلك الخيط من الأمل، لكنك ستتعلم الإنكليزية بسرعة

وستعتاد على ـ

ليس هذا ما أعنيه. هذا يخيفني أيضاً، لكن ـ

لكن ماذا؟

انقلب باتجاهي ثانية. رفع ركبتيه، ماذا إذا تعبت مني؟ ماذا إذا لم تحبني زوجتك؟

صارعت خارجاً من السرير وقطعت المسافة بيننا. جلست بجانبه.

لن أتعب منك أبداً، سوهراب. قلت، أبداً. هذا وعد. أنت ابن أخي، تذكر؟ وثريا جان، هي امرأة لطيفة جداً. ثق بي، ستحبك، أعدك بذلك أيضا.

اغتنمت الفرصة ومددت يدي وأمسكت يده، انقبض قليلاً لكنه تركني أمسكها.

لا أريد أن أذهب إلى ميتم آخر. قال.

لن أسمح بحدوث هذا أبداً. أعدك. حضنت يده بكلتي يديَّ.

تعال معي.

كانت دموعه تنهمر على الوسادة. لم يقل شيئاً لوقت طويل.

ثم ضغطت يده على يدي، وهز رأسه، هز رأسه.

علق الخط عند المحاولة الرابعة. رن الهاتف ثلاث مرات قبل أن ترد.

ألو؟

كانت السابعة والنصف مساء في إسلام أباد. تقريباً نفس الوقت صباحاً في كاليفورنيا. هذا يعني أن ثريا قد استيقظت منذ ساعة، تعد نفسها للذهاب إلى المدرسة.

هذا أنا. قلت. كنت جالساً على سريري، أراقب سوهراب وهو نائم.

أمير! صرخت، هل أنت بخير؟ أين أنت؟

أنا في باكستان.

لم لم تتصل سابقاً، كنت مرعوبة من التشويش (الخوف)! أمي تصلي وتنذر النذور لعودتك كل يوم.

آسف أني لم أتصل. أنا بخير الآن.

أخبرتها أني سأغيب أسبوعاً، اثنان على أكثر تقدير. وكنت قد غبت حوالي الشهر. ابتسمت.

وأخبري كالا جميلة أن تتوقف عن قتل الماعز.

ماذا تعني (بخير الآن)؟ وما خطب صوتك؟

لا تقلقي بهذا الشأن الآن. أنا بخير، حقاً. ثريا، لدي قصة أخبرك إياها. قصة كان يجب أن تعرفيها منذ وقت طويل، لكن أولاً، يجب أن أخبرك شيئاً.

ما هو؟ قالت، أخفضت صوتها الآن، بدت أكثر حذراً.

لن أعود وحدي. سأجلب طفلاً صغيراً معي. توقفت، أريد أن نتبناه.

ماذا؟

نظرت إلى ساعتي، لدي سبعاً وخمسين دقيقة متبقية في بطاقة الاتصال الغبية ولدي الكثير لأقوله لك. اجلسي في مكان ما. سمعت صوت أرجل كرسي تجر بسرعة على الأرضية الخشبية.

ابدأ. قالت.

قمت بما لم أقم به في خمس عشرة سنة زواج: أخبرت زوجتي بكل شيء، كل شيء.

تخيلت هذه اللحظة كثيراً، فزعت منها، لكن، بينما راحت تتحدث، شعرت بشيء ينزاح عن صدري. تصورت أن ثريا قد اختبرت شيئاً كهذا ليلة الكاستيغاري، عندما أخبرتني عن ماضيها.

عندما انتهيت من قصتي، كانت تبكي.

ماذا رأيك؟ قلت.

لا أدري ماذا أعتقد، أمير. لقد أخبرتني الكثير مرة واحدة.

أدرك هذا.

سمعتها تنفخ أنفها، لكن ما أنا متأكدة منه أنه عليك أن تحضره معك، أريدك أن تفعل هذا.

هل أنت متأكدة؟ قلت. مغلقاً عيني، مبتسماً.

هل أنا متأكدة؟ قالت، أمير تذكر، إنه قريبك، من عائلتك. إذاً، هو قريبي أيضاً. طبعاً أنا متأكدة، لا يمكنك تركه في الشوارع.

كان هناك صمت قليل.

كيف يبدو؟ نظرت إلى سوهراب نائماً على السرير.

إنه لطيف، بطريقة جدية.
من يمكنه لومه. قالت، أريد رؤيته، أمير. حقاً أريد.
ثريا؟
نعم.
أحبك.
أحبك أيضاً، قالت. استطعت سماع الابتسامة في كلماتها، وكن حذراً.
سأفعل، شيئاً آخر. لا تخبري أهلك من هو. إذا كان ضرورياً أن يعرفوا، يجب أن يعرفوا مني.
أوكي.
أغلقنا السماعة.
المرج أمام السفارة الأميركية في إسلام أباد كان مقصوصاً بأناقة، مخططاً بأزهار في دوائر، مسيجاً بأسوار حديدية. البناء نفسه كان ككثير من الأبنية في إسلام أباد: مسطح وأبيض. مررنا خلال الكثير من الحواجز إلى هناك وثلاثة موظفي أمن مختلفين قاموا بتفتيشي عندما أطلقت الأسلاك في فكي كاشف المعادن. عندما دخلنا أخيراً من الحرارة، ضرب الهواء المكيف وجهي كالماء المثلج. السكرتيرة في الردهة، امرأة شقراء ذات وجه نحيل، ابتسمت عندما أعطيتها اسمي. كانت ترتدي بلوزة بيج وبنطال فضفاض ـ المرأة الأولى التي أراها منذ أسابيع ترتدي شيئاً غير البرقع أو كاميز ـ شالوار. بحثت عن إسمي في قائمة المواعيد، تدق نهاية ممحاة قلم رصاص على المكتب. وجدت اسمي، وطلبت مني أن أجلس.
هل ترغب ببعض الليمونادة؟ سألت.
لا، شكراً، قلت
ماذا عن ابنك؟
معذرة؟
الشاب الوسيم، قالت، مبتسمة لسوهراب.

أوه، سيكون هذا لطيفاً، شكراً لك.

جلست أنا وسوهراب على الصوفا السوداء الجلدية قبالة مكتب الاستقبال، قرب علم أميركا. أمسكِ سوهراب بمجلة من طاولة القهوة. قلب الصفحات، بدون أن ينظر فعلاً إلى الصور.

ماذا؟ قال سوهراب.

عفواً؟

أنت تبتسم.

كنت أفكر بك. قلت.

ابتسم بتوتر، أمسك مجلة أخرى، وقلب صفحاتها بأقل من ثلاثين ثانية.

لا تخف. قلت، لامساً ذراعه، هؤلاء الأشخاص لطفاء، استرخ.

أستطيع أن أستخدم نصيحتي. بقيتِ أتقلب في مقعدي، أفك وأربط رباط حذائي. وضعت السكرتيرة كأساً طويلة من الليمونادةٍ مع إِلجليد على طاولة القهوة. تفضل. ابتسم سوهراب بخجل، شكراً جزيلاً لك. قال بالإنكليزية، خرجت من فمه كـ (ثانك يو ويري ماتش). كانت كل ما يعرفه بالإنكليزية، كما أخبرني، هذا و يومك سعيد.

ضحكت، على الرحب والسعة.

مشت عائدة إلى مكتبها، كعبها العالي يطرق الأرضية.

يومك سعيد، قال سوهرِاب.

رايموند أندروز كان رجلاً قصيراً ويدان صغيرتان، أظافره مقصوصة بأناقة، خاتم زفاف حول إصبعه. صافحني باقتضاب. بدت كمن يضغط على عصفور. هذه هي الأيدي التي تمسك بقدرنا. فكرتِ بينما جلسنا أنا وسوهراب قبالة المكتب. ملصق البؤساء كان معلقاً على الحائط خلف أندروز قرب خريطة طبوغرافية للولايات المتحدة، وعاء يحوي نبتة بندورة موضوعة تحت الشمس عندِ عتبة النافذة.

سيجارة؟ سأل، صوته كان غنائياً وعميقاًو بدا غريباً مع بنيته الصغيرة.

لا، شكراً. قلت، غير مهتم بالطريقة التي تجاهلت عينا أندروز النظر إلى سوهراب، أو كيف لم ينظر إلي عندما تحدث.

فتح درجاً في المكتبٍ، وأشعل سيجارة من علبة نصف ممتلئة. وأخرج أيضاً مستحضراً من الدرجٍ، نظر إلي، إلى نبتة البندورة بينما فرك المستحضر على يديه، واضعاً السيجارة في زاوية فمه. ثم أغلق الدرج.

وضع مرفقيه على المكتب، زفر، إذاً، قال، تجعدت عيناه الرماديتان من الدخان، أخبرني قصتك.

شعرت كأنني جون فالجون جالساً قبالة جافير. ذكرت نفسي أني على أرضٍ أميركية الآن، أن هذا الرجل في صفي، يدفعون له ليساعد أشخاصاً مثلي.

أريد تبني هذا الولد. أعيده معي إلى الولايات.

أخبرني قصتك. أعاد وهو ينفض سيجارته.

أخبرته نسخة ملفقة كنت قد عملت عليها منذ أن انتهيت من هاتفي مع ثريا.

أني ذهبت إلى أفغانستان لأجلب ابن أخي غير الشقيق، وجدت الطفل في أوضاع سيئة، مرمي في ميتم. دفعت لمدير الميتم بعض المال وأخذت الطفل، ثم جلبته إلى باكستان.

أنت عم الطفل؟

نعم.

نظر إلى ساعته والتفت إلى نبتات البندورة على العتبة.

أتعرف أحداً يستطيع الشهادة بذلك؟

نعم، لكن لا أعلم أين هو الآن.

التفت إلي وهز رأسه. حاولت أن أقرأ وجهه لكن لم أستطع. تساءلت إن كان قد جرب خفة يديه في البوكر.

أظن وضع الأسلاك في فكيك ليس آخر صيحة. قال.

أدركت أننا كنا في مشكلة، ، هذا عندها. أخبرته أن أحدهم نشلني في بيشاوار.

بالطبع، قال، وسعل، هل أنت مسلم؟

نعم.

ممارس؟

في الحقيقة لا أذكر آخر مرة وضعت فيها رأسي على الأرض في صلاة. ثم تذكرت اليوم الذي شخص فيه دكتور أماني حالة بابا. ركعت وقتها على سجادة الصلاة، متذكراً فقط أجزاء من مقاطع تعلمتها في المدرسة.

قد يساعدك هذا قليلاً، لكن ليس فعلاً.قال وهو يحك منطقة من شعره الرملي الرائع.

ماذا تعني؟ سألت. بحثت عن يد سوهراب، شبكت أصابعي بأصابعه.نقل سوهراب نظره بقلق بيني وبين أندروز.

هناك جواب طويل وأنا متأكد أني سأنتهي بقوله لك، هل تريد الجواب القصير أم لا؟

أعتقد. قلت.

أطفأ أندروز سيجارته، أطلقت شفتاه النصيحة: دعك من الأمر.

عذراً؟

طلبك لتبني هذا الطفل. دعك منه، هذه نصيحتي لك.

أخذت نصيحتك بعين الاعتبار، قلت، الآن، ربما ستخبرني لماذا.

هذا يعني أنك تريد الجواب الطويل، قال، صوته غير مكترث، غير مهتم بنبرتي المقتضبة. ضغط يديه على بعضهما، كما لو أنه يركع أمام مريم العذراء.

فلنفرض أن القصة التي أخبرتني إياها صحيحة، مع أني أراهن على راتبي التقاعدي صفقة رابحة أنها إما مختلقة أو قص منها الكثير. لا يعني هذا أني أهتم، عذراً منك. أنت هنا، هو هنا، هذا هو المهم. رغم

هذا، طلبك يواجه عقبات كبيرة، وليس أكبرها أن هذا الطفل ليس يتيماً.

بالطبع هو.

ليس قانونياً، لا.

أهله أعدموا في الشارع. الجيران رأوهم. قلت. سعيداً أننا نتحدث بالإنكليزية.

هل لديك شهادات وفاة؟

شهادة وفاة؟ نحن نتحدث عن أفغانستان، أغلب الناس هناك لا يملكون شهادة حياة.

عيناه الزجاجيتان لم تتحركا. لا أمسك القوانين، سيد. على الرغم من غضبك. لازلت تحتاج أن تثبت وفاة الوالدين. على الولد أن يسجل يتيماً قانونياً.

لكن -

أردت الجواب الطويل، وسأعطيك إياه. مشكلتك التالية هي أنك تحتاج تعاوناً من بلد الطفل بالولادة. الآن، هذا صعب في أفضل الأحوال. و، اقتباساً عنك، نحن نتحدث عن أفغانستان. ليس لدينا سفارة في كابول. هذا يجعل الأمور معقدة لأبعد الحدود. تقريباً مستحيلة.

ماذا تقول، أن علي رميه في الشوارع؟

لم أقل هذا.

لقد استغل جنسياً. قلت وأنا أفكر في الأجراس حول كاحلي سوهراب والكحل في عينيه.

آسف لسماع هذا. قال فم أندروز، الطريقة التي كان ينظر بها إلي، كان من الممكن أن نكون نتحدث عن حالة الطقس. لكن هذا لن يجعل وكالة الهجرة تحرر فيزا للشاب الصغير.

ماذا تقول إذاً؟

أقول أنه، إذا أردت المساعدة، أرسل مالاً إلى منظمة إغاثة محترمة، تطوع في مخيم مهجرين. لكن في هذا الوقت نحن لا ننصح مواطني الولايات المتحدة محاولة تبني أطفال أفغان.

وقفت، هيا بنا سوهراب، قلت بالفارسية. انزلق سوهراب إلى جانبي. أراح رأسه على وركي. تذكرت صورته وحسان واقفاً بنفس الطريقة.

هل أستطيع أن أسألك شيئاً، مستر أندروز؟

نعم.

هل لديك أطفال؟

لأول مرة، رمش.

حسناً، هل لديك؟ إنه سؤال بسيط.

بقي صامتاً.

اعتقدت هذا. قلت ممسكاً بيد سوهراب، يجب عليهم أن يضعوا شخصاً في كرسيك يعلم معنى أن ترغب طفلاً.

استدرت لأذهب وسوهراب يتبعني.

هل أستطيع أن أسألك سؤال؟ نادى أندروز.

اسأل.

هل وعدت هذا الطفل بأخذه معك؟

ماذا إذا فعلت.

هز رأسه، إنه عمل خطر، إعطاء الوعود للأطفال. تنهد وفتح درج مكتبه ثانية، هل تنوي أن تكمل هذا؟ قال وهو يفتش بين الأوراق.

أنوي متابعته.

مد بطاقة عمل، إذاً أنصحك أن تعين محامي هجرة جيد. عمر فيصل يعمل هنا في إسلام أباد، تستطيع أن تخبره أني أرسلتك.

أخذت البطاقة من يده، شكراً، تمتمت.

حظاً جيداً. قال.

بينما خرجنا من الغرفة، ألقيت نظرة خاطفة من فوق كتفي. كان أندروز يقف في مثلث من أشعة الشمس، يحدق بلا هدف من النافذة، يداه تديران أصيص نباتات البندورة نحو الشمس، تربت عليهم بحب.

وداعا، قالت السكرتيرة بينما مررنا من مكتبها.

رئيسك يحتاج لبعض الأخلاق. قلت.

توقعت أن تدير عينيها، ربما تهز رأسها كأنها تقول، أعلم، الكل يقول هذا.لكن بدل من أن تفعل هذا، أخفضت صوتها، المسكين راي. لم يعد كما كان منذ أن ماتت ابنته.

رفعت حاجباً.

انتحار. همست.

في التاكسي عائدين إلى الفندق. أراح سوهراب رأسه على النافذة، وبقي يحدق في الأبنية التي تمر، وفي صفوف أشجار البان ، بخار تنفسه يغبش النافذة، يمسحه، ثم يلتصق بها ثانية. انتظرت أن يسألني عن الاجتماع، لكنه لم يفعل.

على الجهة الثانية من باب الحمام المغلق كان الماء جارياً. منذ اليوم الذي نزلنا فيه بالفندق. كان سوهراب يأخذ حماماً طويلاً كل ليلة قبل الفراش. في كابول، الماء الساخنة كانت كالآباء، عملة نادرة. الآن سوهراب يمضي تقريباً ساعة كل ليلة في الحمام، غارقاً في الماء والصابونٍ، يفرك جسده.

جالساً على حافة الفراش، اتصلت بثريا، لمحت خط الضوء تحت باب الحمام. هل تشعر أنك نظيف، سوهراب؟ نقلت لثريا ما قاله رايموند أندروز لي. إذاً، ما رأيك؟ قالت.

علينا أن نفكر أنه مخطئ. أخبرتني أنها أجرت بعض الإتصالات مع وكالات التبني التي تدير عمليات تبني عالمية، لم تجد للآن وكالة تفكر في القيام بتبني أفغاني، لكنها مازالت تبحث.

كيف تلقى أهلك الأخبار؟ سألتها.

ماما سعيدة لأجلنا، تعرف كيف تشعر نحوك، أمير. لا يمكن أن تقوم بعمل خاطئ في نظرها. بابا... حسناً، كالعادة، يصعب قراءة ما يفكر به، لم يقل الكثير.

وأنت؟ هل أنت سعيدة؟

سمعتها تمسك جهاز الاستقبال بيدها الأخرى، أعتقد أننا سنكون جيدين لابن أخيك، لكن ربما ذاك الطفل الصغير سيكون جيداً لنا أيضاً.

كنت أفكر بالشيء نفسه.

أعلم أن هذا يبدو جنوناً، لكني أجد نفسي أفكر بهوايته المفضلة، أو مادته المفضلة في المدرسة. أتصور نفسي أساعده بوظائفه... ضحكت.

في الحمام، توقف الماء عن الجريان. استطعت سماع سوهراب هناك، يتحرك في البانيو، يطرطش الماء على الجوانب.

ستكونين عظيمة، قلت.

أوه، كدت أنسى! اتصلت بكاكا شريف.

تذكرته وهو يلقي قصيدة في حفلة زفافنا من ورقة فندق، وابنه يحمل القرآن فوق رأسينا بينما مشينا أنا وثريا نحو المسرح، نبتسم بوجه الكاميرات. ماذا قال؟

حسناً، سيدير القدر إلى جهتنا. سيتصل ببعض أصدقائه في وكالة الهجرة. قالت.

هذه فعلاً أخبار عظيمة، قلت، لا أستطيع الانتظار حتى تري سوهراب.

لا أستطيع الانتظار لأراك، قالت. أغلقت السماعة مبتسماً.

خرج سوهراب من الحمام بعد بضع دقائق، لم يكن قد قال عشر كلمات منذ الاجتماع مع رايموند أندروز، ومحاولاتي للحديث لم تقابل إلا بهزة رأس أو رد من كلمة واحدة. صعد إلى السرير. رفع الغطاء حتى ذقنه. وفي دقائق معدودة كان يشخر.

مسحت دائرة على المرآة الضبابية وحلقت بإحدى شفرات الفندق القديمة. النوع الذي يفتح وتضع الشفرة داخله. ثم أخذت حمامي، استلقيت هناك إلى أن أصبحت الماء باردة وانقبضت بشرتي. جلست هناك أتأمل، أتساءل، أتخيل...

كان عمر فيصل رجلا ممتلئاً، داكن البشرة، خدان كئيبان، عينان سوداوان وابتسامة لطيفة. شعره الرمادي الذي بدأ يخف مربوط إلى الخلف كذيل الحصان. كان يرتدي بذة كودورووي ببقع جلدية عند المرفقين ويحمل حقيبة قديمة، بلا مقبض، لذا كان يحملها على صدره. كان من نوع الأشخاص الذين يبدون كثيراً من الضحك والاعتذار الغير ضروري، مثل، أنا آسف، سأكون هناك عند الخامسة، ضحكة. عندما اتصلت به، أصر أن يأتي هو ليقابلنا. أنا آسف، سائقو التاكسي في هذه المدينة قروش، قال بإنكليزية كاملة، بلا أي لكنة، يشمون الغريب، ويضاعفون الإيجار ثلاث مرات.

دخل من الباب، كل الوقت ابتسامات واعتذارات، يلهث قليلاً والعرق يتساقط منه. تربع على السرير مسح حاجبه بمنديله وفتح حقيبته، بحث فيها عن دفترٍ واعتذر عن الأوراقِ التي سقطت على السرير، أبقى سوهراب عيناً على التلفاز، وعيناً أخرى على المحامي المرتبك، كنت قد أخبرته في الصباح أنٍ فيصل سيأتي، فهز رأسه، كاد أن يسأل شيئاً، لكنه بقي يشاهد برنامجاً بحيوانات ناطقة.

ها نحن، قال فيصل، وهويقلب دفترملاحظات أصفر رسمي.

أتمنى أن ينتبه أولادي لأمهم عندما ترتب المنزل. أنا آسف، ربما هذا ليس نوعٍ الأشياء التي تريد سماعها من محاميك المحترم، هه؟ وضحك.

حسنا، رايموند أندروز يعتقد أنك محام جيد.

مستر أندروز، نعم، نعم. رجل صادق. بالحقيقة، لقد اتصل بي وأخبرنِي عنك.

حقا؟

أوه، نعم.

إذاً أنت تعرف حالتي.

مسح فيصل حبات العرق عن شفتيه.

أنا أعرف نسخة حالتك التي أخبرتها لمستر أندروز، قال، غمز خديه بابتسامة خجولة، التفت إلى سوهراب، هذا يجب أن يكون الشاب الذي سبب كل المشكلة، قال بالفارسية.

هذا سوهراب. قلت، سوهراب، هذا مستر فيصل، المحامي الذي أخبرتك عنه.

انزلق سوهراب عن السرير وصافح عمر فيصل، السلام عليكم، قال بصوت خفيض.

عليكم السلام، سوهراب. قال فيصل، هل تعرف أنك سميت تيمناً بمحارب عظيم؟

هز سوهراب رأسه، تسلق عائداً إلى السرير واستلقى على جنبه وعاد لمشاهدة التلفاز.

لم أعلم أنك تتحدث الفارسية جيداً، قلت بالإنكليزية، هل نشأت في كابول؟

لا، لقد ولدت في كاراتشي، لكنني عشت في كابول عدداً من السنين. شار - إي - ناو، قرب مسجد الحاج يعقوب. قال فيصل، لقد كبرت في بريكلي، حقيقة، أبي فتح متجر موسيقى هناك في أواخر الستينات، حب مجاني، ربطات يد، قمصان عليها صور مغنين، سمي ما تريد، انحنى مقترباً مني، كنت في وودستوك.

رائع، قلت. ضحك فيصل بشدة حتى أنه بدأ يتعرق ثانية.

على أي حال، أكملت، ما أخبرت مستر أندروز كان القصة تقريباً، إلا شيء واثنين، ربما ثلاثة. سأخبرك القصة كاملة.

لعق إصبعه وقلب على صفحة فارغة، رفع غطاء قلمه، أقدر هذا، أمير، ولم لا نبقها بالإنكليزية من هنا؟

حسن.

أخبرته كل ماحدث. لقائي مع رحيم خان، الرحلة إلى كابول، الميتم، الإعدام في استاد غازي.

رباه، همس، أنا آسف، لدي ذكريات رائعة عن كابول. من الصعب تصديق أنها نفس المكان الذي تخبرني عنه.

هل ذهبت إلى هناك مؤخراً.

رباه، لا.

إنها ليست بيركلي، أقول لك ذلك. قلت.

أكمل.

أخبرته البقية، اللقاء مع آصف، القتال، سوهراب ومقلاعه، هربنا إلى باكستان. عندما انتهيت، كان قد شخبر بعض الملاحظات، تنفس بعمق، ونظر إلي بانتباه.

حسناً، أمير، أمامك معركة صعبة.

واحدة يمكنني الفوز بها؟

أعاد غطاء قلمه، ربما أبدو كرايموند أندروز، هذا مستبعد، ليس مستحيلاً، لكن مستبعد كثيراً.

ذهبت الابتسامة اللطيفة، النظرة اللعوبة في عينيه.

لكن الأطفال كسوهرابٍ من يحتاجون مكاناً، قلت، هذه القواعد والقوانين لا تبدو منطقية أبداً لي.

أنت تقترب من الجوقة، أمير، قال، لكن الحقيقة هي، خذ قوانين الهجرة الحالية، سياسات وكالات التبني، والوضع السياسي في أفغانستان، والكفة تنقلب ضدك.

لا أفهم، قلت، أردت أن أضرب شيئاً ما، أعني، أفهم لكن لا أفهم.

هز عمر رأسه، تقوس حاجبه، حسناً، يكون الوضع هكذا في حسابات ما بعد الكارثة، أكانت من الطبيعة أو من صنع الإنسان - وطالبان كارثة، أمير، صدقني - من الصعب دائماً التحقق إن كان الطفل يتيماً أم لا. يضيع الأطفال في مخيمات المهجرين، أو أن الوالدين

يتخليان عن أولادهم لأنهما لا يستطيعان الاهتمام بهم. تحدث كل الوقت، لذا وكالة الهجرة لن تعطي فيزا إلا إذا كان أكيداً أن الطفل تنطبق عليه مواصفات اليتيم القانونية. أنا آسف، أعرف أن الأمر يبدو سخيفاً، لكنك تحتاج شهادات وفاة.

لقد كنت في أفغانستان، قلت، وتعرف كم هذا مستحيلاً.

أعلم، قال، لكن فلنفرض أنه كان من الواضح أن ليس للطفل والدين حيين. حتى عندها، تعتقد وكالة الهجرة أنه من الأفضل أن تضع الطفل مع شخص من بلده كي يحفظ تراثه.

أي تراث؟ قلت، طالبان دمرت ما كان للأفغان من تراث. رأيت ما فعلوه بالتمثالين العملاقين لبوذا في باميان.

آسف، أنا أخبرك كيف تعمل وكالة الهجرة، أمير. قال عمر، وهو يلمس ذراعي. نظر إلى سوهراب وابتسم، التفت عائدا إلي.

الآن، على الطفل أن يكون متبنى بشكل قانوني بحسب قوانين ولوائح بلده، لكن عندما تكون البلد في حالة اضطراب، بلد كأفغانستان، مكاتب الحكومة مشغولة بالطوارئ، وعملية تبني لن تكون من أولوياتها.

تنهدت وفركت عيني، آلام رأس ضربت رأسي خلف عيني مباشرة.

ولكن فلنفرض أن أفغانستان استقرت، قال عمر، وهو يعقد ذراعيه حول بطنه البارز، رغم هذا، لن تسمح أفغانستان بهذا التبني، في الحقيقة، حتى أكثر الدول الإسلامية تطوراً تتردد بشأن التبني لأنه في أغلب هذه الدول، القانون الإسلامي، الشريعة، لا يعترف بالتبني.

أتطلب مني أن أستسلم؟ سألت، وأنا أضغط راحة يدي على جبهتي.

لقد عشت في الولايات المتحدة، أمير، إذا علمتني أميركا شيئاً، فهو أن الاستسلام كالتبول في كؤوس فتيات الكشافة. لكن، كمحامي، علي أن أخبرك الحقائق، قال، أخيراً، وكالات التبني

روتينياً ترسل موظفيها لتقييم بيئة الطفل، ولا وكالة عاقلة يمكن أن ترسل أحد أعضائها إلى أفغانستان.

نظرت إلى سوهراب الجالس على السرير، يشاهد التلفاز، يشاهدنا، كان يجلس كأبيه، ذقنه ترتاح على ركبة واحدة.

أنا عمه غير الشقيق، هل لهذا أية قيمة؟

له قيمة، إذا استطعت إثباته. أنا آسف، هل لديك أي أوراق أو أي شخص يدعم قصتك؟

لا أوراق، قلت بصوت متعب، لا أحد عرف بهذا، سوهراب لم يعرف إلى أن أخبرته، وأنا نفسي لم أعرف إلا منذ فترة بسيطة، الشخص الوحيد الذي يعرف هذا رحل، ربما مات.

همم...

ما هي خياراتي، عمر؟

سأكون صريحا، ليس لديك الكثير.

إذاً، بحق المسيح، ماذا يمكنني فعله؟

شهق عمر، وهو يضرب على ذقنه بقلمه، زفر شهيقه.

تستطيع أن تقدم طلب يتيم، متأملاً بالأفضل. تستطيع أن تقوم بتبني مستقلٍ، هذا يعني أن عليك أن تعيش مع سوهراب هنا في باكستان، يوماً بعد يوم، لمدة سنتين. تستطيع أن تطلبٍ لجوء باسمه. هذه عملية طويلة وعليك أن تثبت أنه اضطهد سياسياً. تستطيع أن تطلب فيزا إنسانية... هذه بيد المدعي العام، ولا تعطى بسهولة. توقف، هناك خيار آخر، وهوٍ أفضل فرصك.

ما هو ؟ قلت مادا رأسي إلى الأمام.

تستطيع تركه في ميتم هنا، ثم تقدم طلب تبني يتيم. تبدأ وثيقة (I-600) دراستك المنزلية بينما هو في مكان آمن.

ما هي هذه؟

أنا آسف، (I-600) هي قوانين وكالة الهجرة. الدراسة المنزلية التي تقوم بها وكالة التبني التي تختارها. قال عمر، إنها كما تعلم، ليتأكدوا أنك وزوجتك لستما مجنونان أو مجرمان.

لا أريد القيام بهذا، قلت، وأنا أنظر إلى سوهراب، وعدته أني لن أرسله إلى ميتم مرة اخرى.

كما قلت.

إنها أفضل فرصك، قال . تحدثنا بعدها لفترة قصيرة، ثم رافقته إلى سيارته، فوكس فاغن سلحفاة قديمة، كانت الشمس تغرب في إسلام أباد عندها، و سحاب ممطر أحمر في الغرب.

راقبت السيارة تميل تحت وزن عمر بينما هو بطريقة ما استطاع أن يجلس خلف المقود. أنزل زجاج النافذة، أمير؟

نعم.

كنت أريد أن أقول لك هذا في الداخل ،أعتقد أن ما تحاول القيام به عظيم جداً. لوح بيده بينما قاد مبتعداً، واقفاً خارج غرفة الفندق ملوحاً له، تمنيت لو كانت ثريا معي.

كان سوهراب قد أطفأ التلفاز عندما عدت إلى الغرفة، جلست على حافة سريري... سألته أن يجلس بجانبي، مستر فيصل يعتقد أن هناك طريقة كي آخذك معي إلى أميركا. قلت.

حقاً؟ قال سوهراب، وعلى وجهه ابتسامة باهتة هي الأولى منذ أيام، متى يمكننا الذهاب؟

حسناً، هذه هي المشكلة، ربما تأخذ بعض الوقت، لكنه قال أنها ممكنة وأنه سيساعدنا.

وضعت يدي على رقبته. في الخارج، كان صوت الآذان يرتفع في الشوارع.

متى؟ سأل سوهراب.

لا أعلم، فترة.

هز سوهراب كتفه وابتسم. ابتسامة أوسع هذه المرة، لا أمانع، أستطيع الانتظار، هذا كالتفاح الحامض.

التفاح الحامض؟

مرة، عندما كنت صغيراً جداً، تسلقت شجرة وأكلت تلك التفاحات الخضراء الحامضة. انتفخت معدتي وأصبحت قاسية كالطبل، آلمتني كثيراً. قالت أمي أني لو انتظرتِ إلى أن نضج التفاح. لما مرضت، هكذا الحال الآن، كلما رغبت شيئاً بشدة، أحاول تذكر ما قالته أمي عن تلك التفاحات.

التفاح الحامض، قلت، ماشاالله، أنت أذكى طفل قابلته في حياتي، سوهراب جان.

احمرت أذناه خجلاً.

هل ستأخذني إلى ذاك الجسر الأحمر؟ الجسر ذو الضباب؟ قال.

بالتأكيد، قلت، بالتأكيد.

وهل سنقود على تلك الطرق للأعلى، تحيث كل ما تراه هو سقف السيارة والسماء؟

كل طريق منها، قلت. امتلأت عيني بالدموع فأغمضتهما.

هل الإنكليزية صعبة التعلم؟

أقولٍ، في أقل من سنة، ستتحدث الإنكليزية كالفارسية.

حقاً؟

نعم، وضعت إصبعاً على ذقنه، رفعت وجهه ليقابل وجهي.

هناك شيء آخر، سوهراب.

ماذا؟

حسناً، مستر فيصل يعتقد أنه سيساعدنا كثيراً إذا... قبلت أن نضعك في بيت للأطفال لفترة.

بيت للأطفال؟ قال، وابتسامته تختفي، تقصد ميتم؟

سيكون هذا لفترة قصيرة فقط.

لا، قال، لا، أرجوك.

سوهراب، سيكون هذا لفترة قصيرة فقط، أعدك.

وعدتني أنك لن تضعني في إحدى تلك الأماكن، أمير آغا، قال، و صوته يتهدج، الدموع تنهمر من عينيه. شعرت أنني سافل.

هذه المرة مختلفة، ستكون هنا، في إسلام أباد، ليس في كابول، سأزورك كل الوقت إلى أن نستطيع الذهاب إلى أميركا.

أرجوك! أرجوك، لا! أناّ، أخاف ذاك المكان، سيؤذونني! لا أريد أن أذهب.

لن يؤذيك أحد، أبداً. ليس ثانية.

بل سيفعلوا! يقولون دائماً أنهم لن يفعلوا لكنهم يكذبون. يكذبون! أرجوك، رباه!

مسحت دمعة تنهمر على خده بإبهامي. التفاح الحامض، أتذكر؟ الأمر كالتفاح الحامض. قلت بلطف.

لا، ليس كذلك، ليس ذاك المكان، رباه، أوه، رباه. أرجوك، لا!

كان يرتجف، المخاط والدموع تمتزج عل وجهه.

شش... ضممته بشدة، لففت ذراعي حول جسده الصغير المرتجف. شش، كل شيء سيكون على ما يرام. سنذهب للبيت معاً، سترى، سيكون كل شيء على ما يرام.

اختنق صوته على صدري، لكني لمست الذعر فيه.

أرجوك، عدني أنك لن تفعل! أوه، ربي، أمير آغا! أرجوك عدني أنك لن تفعل!

كيف أستطيع أن أعده؟ حضنته، حضنته بقوة، وهززته للأمام والخلف. بكى على قميصي إلى أن جفت دموعه، إلى أن توقف جسده عن الارتجاف، ورجاءاته المسعورة تضاءلت إلى غمغمة غير مفهومة، انتظرت، هززته إلى أن تباطأ تنفسه وارتخى جسده. تذكرت شيئاً قرأته في مكان ما قبل وقت طويل، هكذا يتعامل الأطفال مع الرعب. يناموت.

حملته إلى سريره، وضعته تحت الغطاء. ثم استلقيت على سريري، ناظراً خارج النافذة إلى السماء الأرجوانية فوق إسلام أباد.

كانت السماء سوداء قاتمة عندما أيقظني الهاتف من نومي. فركت عيني وأضأت المصباح. كانت الساعة بعد العاشرة والنصف بقليل: كنت نائماً منذ حوالي ثلاث ساعات، رفعت السماعة، مرحباً؟

اتصالٍ من أميركا، صوت مستر فياض السأِمْ.

شكراً لك، قلت، كان الحمام مضاءً: سوهراب يأخذ حمامه الليلي. نقرتين ثم ثريا: سلام! قالت بسعادة.

هاي.

كيف كان اللقاء مع المحامي؟

أخبرتها اقتراح عمر فيصل.

حسناً، يمكنكِ أن تنسى هذا. قالت، لن تحتاج لأن تقوم بهذا.

جلست منتصباً، لماذا ؟ ما الجديد؟

رد علي كاكا شريف. قال أن المفتاح هو إدخال سوهراب إلى البلد. عندما يصبح هناك، توجد طريقة لإبقائه. لذا قام ببعض الاتصالات مع أصدقائه في وكالة الهجرة، ثم اتصل بي الليلة وقال أنه تقريباً متأكد أنه يستطيع أن يحصل على فيزا إنسانية لسوهراب.

بلا مزاح! قلت، أوه، شكراً لله! شريف جان الطيب!

أعلم، على أي حال، يجب أن يحصل كل شيء بسرعة. قال أن الفيزا صالحة لمدة سنةٍ، يوجد وقت طويل لتقديم طلب تبني.

سيحدث هذا حقاً، ثريا، هه؟

يبدو هكذا. قالت، و بدت سعيدة.

أخبرتها أني أحبها وقالت أنها تحبني.

أغلقت السماعة.

سوهراب! ناديت، وأنا أقف عن سريري، لدي أخبار رائعة.

طرقت باب الحمام، سوهراب! ثريا جان اتصلت الآن من كاليفورنيا، لن نحتاج إلى وضعك في الميتم. سوهراب، سنذهب إلى أميركا، أنا وأنت، هل سمعتني؟ سنذهب إلى أميركا!

فتحت الباب، دخلت إلى الحمام.

فجأة كنت على ركبتي، أصرخ، أصرخ من خلال أسناني المربوطة بالأسلاك، أصرخ إلى أن ظننت أن حنجرتي ستتمزق وصدري سينفجر.

لاحقاً، قالوا أني كنت لا أزال أصرخ عندما وصلت سيارة الإسعاف.

- 25 -

لم يسمحوا لي بالدخول.

أراهم يجرونه على النقالة خلال عدة أبواب مزدوجة وأتبعه. أطير خلال الأبواب، رائحة اليود والبيروكسيد تضرب وجهي، لكن كل ما أراه، هو رجلان يعتمران قلنسوات جراحية وامرأة ترتدي الأخضر تتهادى على كرسي متحرك، شرشف أبيض على جانب الكرسي ورجل ظاهرة من تحته، وأرى أن ظفر الإصبع الأكبر مقلم. ثم رجل طويل ضخم الجثة يضغط راحة كفه على صدري ويدفعني خارج الأبواب، شعرت ببرودة خاتم زفافه على بشرتي، ألوح بيدي وألعنه، لكنه يقول أني لا أستطيع أن أكون هنا، يقولها بإنكليزية، صوته لبق لكن حازم.

يجب أن تنتظر، قال، عائداً بي إلى مكان الانتظار، والآن، أغلق الأبواب المزدوجة خلفه مع تنهيدة وكل ما أراه هو قمة قلنسوات الرجال الجراحية من خلال نوافذ الأبواب المثلثة الضيقة.

تركني في بهو واسع بلا نوافذ، مزدحم بأشخاص يجلسون على كراس حديدية قابلة للطي موضوعة على طول الجدران، آخرون يجلسون على السجادة الباهتة. أريد أن أصرخ ثانية، وأذكر آخر مرة شعرت هكذا، في شاحنة الوقود مع بابا، مدفوناً في الظلام مع الهاربين الآخرين. أريد أن أمزق نفسي من هذا المكان، من هذا الواقع. أريد أن أرتفع كغيمة وأطوف بعيداً، أن أذوب في هذه الليلة الصيفية الرطبة وأتحلل في مكان بعيد، فوق التلال. لكنني هنا، رجلاي خرسانتان من الحجر، رئتاي خاليتان من الهواء، حنجرتي تحترق. لن يكون هناك هروب إلى البعيد. لن يكون هناك واقع آخر الليلة. أغلق عيني ويمتلئ أنفي بروائح البهو، عرق وإقياء، كحول وكاري. على السقف،

فراشات تطير حول أنابيب الضوء الرمادية على طوال البهو، أسمع تصفيق جوانحها الورقية، أسمع أحاديثاً، نشيجاً مكتوماً، شهيق أحد ما، شخص آخر يتنهد، أبواب المصعد تفتح مع صوت (البينغ)، عاملة الاستعلامات تطلب شخصاً بالهيدرو. أفتح عيني ثانية وأعرف ما علي القيام به. أنظر حولي، ضربات قلبي (كالجاك هامر) في صدري، الدم يحرق أذني. هناك غرفة مؤونة صغيرة مظلمة إلى اليسار. داخلها، وجدت ما أحتاج، ستنفع، أمسك بشرشف من كومة الأغطية المطوية وأحمله عائداً إلى البهو. أرى ممرضة تتحدث إلى شرطي قرب المرحاض. أمسك بمرفق الممرضة وأشد، أريد أن أعلم في أي اتجاه الغرب. لم تفهم والخطوط على وجهها أصبحت أعمق عندما تجهمت. حنجرتي تؤلمني والعرق ينخر عيني، كل نفس كان كاستنشاق النار، وأعتقد أنني أبكي، أسأل ثانية. أتوسل، الشرطي كان من أشار، أرمي سجادة الصلاة البديلة على الأرض وأركع على ركبتي، رأسي على الأرض، الدموع تملأ الشرشف، أركع نحو الغرب، ثم أتذكر أني لم أصل منذ ما يزيد على الخمس عشرة سنة، نسيت الكلمات منذ زمن، لكن لا يهم، سأردد تلك الكلمات القليلة التي لازلت أذكرها، لا إله إلا الله، محمد رسول الله. أرى الآن أن بابا كان مخطئاً، هناك إله، دائماً كان هناك. أراه هنا، في عيون الناس في بهو اليأس هذا. هذا هو بيت الله الحقيقي، من فقد الله سيجده هنا، ليس المسجد الأبيض مع أضوائه الماسية ومآذنه العالية. هناك إله، يجب أن يكون، والآن، سأصلي، سأصلي أن يغفر لي إهمالي كل تلك السنين، أني خنت، كذبت، وأذنبت. مع حصانة أني ألجأ له فقط في ساعة الحاجة. أدعو وهو رحيم، مجيب، محسن، ومنعم كما يقول كتابه. أركع نحو الغرب وأقبل الأرض وأقسم أني سأقوم بالزكاة، سأقوم بالصلاة، سأصوم خلال رمضان، وعندما يمر رمضان سأبقى أصوم، سألتزم بحفظ كل كلمة من كتابه المقدس، وأني سأحج إلى تلك المدينة الضائعة في الصحراء، وأركع أمام الكعبة أيضا. سأقوم بكل

هذا، وسأفكر به كل يوم من هذا اليوم، إذا حقق لي هذه الأمنية الوحيدة: يداي ملوثتان بدم حسان، أدعو ربي أن لا يجعلهما تتلوثا بدماء ابنه أيضاً.

أسمع نشيجاً وأدرك أنه أنا. شفتاي مالحتان من الدموع التي تنهمر على وجهي. أشعر أن عيون الجميع في البهو منصبة علي، وأبقى راكعاً نحو الغرب. أصلي، أدعو أن لا تلتصق بي خطاياي كما خفت دائماً.

ليلة مظلمة، بلا نجوم تحل على إسلام أباد. مرت بضع ساعات، وأنا الآن جالس على أرضية غرفة جلوس صغيرة في نهاية البهو تؤدي إلى ردهة الطوارئ. أمامي طاولة قهوة مبعثر عليها جرائد ومجلات ـ إصدار نيسان ١٩٩٦ من التايم، جريدة باكستانية تنشر وجه طفل صغير دهسه قطار قبل أسبوع، مجلة تسلية على غلافها اللامع ممثلي هوليوود مبتسمين. هناك امرأة عجوز ترتدي كاميز ـ شالوار أخضر مبرقع وشال مشدود تهز على كرسي متحرك قبالتي. كل بضعة دقائق، تستيقظ وتتمتم دعاءاً بالعربية. أتساءل متعباً، صلوات من ستستجاب هذه الليلة، صلواتها أو صلواتي. أتصور وجه سوهراب، ذقنه معقوفة، أذناه الصدفيتان، عيناه كأوراق المامبو التي تشبه إلى حد كبير عيني أبي. حزن أسود كالليل في الخارج يجتاحني. وأشعر أن هناك شيء ثقيل يطبق على حنجرتي.

أحتاج للهواء.

أقف وأفتح النوافذ. الهواء الذي دخل كان عفناً وساخناً ـ رائحته كالخوخ الناضج كثيراً والروث. أغصبه داخل رئتي بدفعات كبيرة، لكنه لا يبعد الإحساس بالانقباض في صدري، أسقط عائداً إلى الأرض. أمسك بمجلة التايم وأقلب صفحاتها. لكني لا أستطيع القراءة، لا أستطيع التركيز على أي شيء، لذا، أرميها على الطاولة، وأعود للتحديق في الشقوق المتعرجة في الأرض الإسمنتية، شباك العنكبوت على السقف حيث التقت الجدران، على الذبابات الميتة على عتبة النافذة. لكن أكثر شيء أقلقني الساعة على الجدار، إنها أكثر من

الرابعة صباحاً بقليل، وأنا ما زلت مرمياً خارج الغرفة ذات الأبواب المزدوجة أكثر من خمس ساعات إلى الآن .ولم أسمع أي شيء.

بدأت أشعر بالأرض تحتي كأنها جزء من جسدي، وأنفاسي أصبحت أثقل، أبطأ. أريد أن أنام، أريد أن أغلق عيني وألقي رأسي على هذه الأرض الباردة، المغبرة، وأرحل، عندما أستيقظ، ربما سأكتشف أن كل شيء رأيته في حمام الفندق كان حلماً: حبات الماء البارد تسقط على مياه البانيو الدامية، الذراع اليسرى متدلية فوق جانب البانيو، الشفرة الملوثة بالدماء على غطاء المرحاض - نفس الشفرة التي حلقت بها اليوم السابق - وعيناه لا زالتا نصف مفتوحتين لكنهما بلا ضوء. أكثر من أي شيء. أريد أن أنسى عينيه.

بعد قليلٍ من الوقت، أتى النوم وتركته يأخذني. حلمت بأشياء لم أذكرها لاحقاً.

أحدهم يربت على كتفي، أفتح عيني، هناك رجل راكع بجانبي، يضع قلنسوة كالرجل خلف الأبواب المزدوجة وقناع جراحي ورقي على فمه - غرق قلبي عندما رأيت نقطة دم على القناع. كان هناك صورة فتاة صغيرة على جهاز النداء خاصته. خلع القناع فارتحت أنه ليس علي أن أنظر إلى دم سوهراب بعد الآن. كانت بشرته داكنة كالشوكولا السويسرية المستوردة التي اعتدت وحسان على شرائها من البازار في شار - إي - ناو: شعره خفبف وعيناه البندقيتان تعلوهما رموش طويلة، بلكنة بريطانية، أخبرني أن اسمه د. ناواز، وفجأة أردت الابتعاد عن هذا الرجل، لأني لا أعتقد أني أستطيع احتمال سماع ما أتى ليخبرني إياه.

يقول أن الطفل قد جرح نفسه بعمق، وأنه قد خسر كمية كبيرة من الدماء.

بدأ فمي بتمتمة تلك الصلاة ثانية، لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

كان عليهم أن ينقلوا وحدات عديدة من خلايا الدم الحمراء ـ كيف سأخبر ثريا؟

مرتين، اضطروا لإنعاشه ـ

سأقوم بالصلاة، سأودي الزكاة.

كانوا سيخسروه لولا أنّ لديه قلباً شاباً وقوياً ـ

سأصوم.

إنه حي.

ابتسم د. ناواز، احتجت لحظة حتى استطعت فهم ما قاله. ثم قال كلاماً أكثر لكني لم أسمعه. لأني أخذت يديه ووضعتهما على وجهي أبكي ارتياحي في يدي هذا الغريب الصغيرتين المكتنزتين، ولم يقل شيئاً الآن. ظلَّ ينتظر.

وحدة العناية المشددة كانت على شكل (L). خليط من الشاشات المتصلة والآلات الطنانة. قادني د. ناواز بين صفين من الأسرة مفصولة عن بعضها بستائر بلاستيكية بيضاء. كان سرير سوهراب الأخير عند الزاوية، الأقرب لمحطة الممرضات حيث ممرضتان ترتديان أردية الجراحة الخضراء تكتبان بعض الملاحظات على لوحة، وتتحدثان بصوت منخفض.

في الرحلة الصامتة في المصعد مع د. ناواز، فكرت أني سأبكي ثانية عندما أرى سوهراب. لكني عندما جلست على الكرسي عند قدم السرير، أنظر إلى وجهه الأبيض من خلال أنابيب بلاستيكية مضيئة.

بعينين جافتين رحت أراقب صدره يرتفع ويهبط على رتم المروحة الدوارة. خدر محير اعتراني، نفس الخدرِ الذي قدٍ يشعر به المرء بعد أن ينحرف بسيارته ويتفادى بصعوبة تصادماً مباشراً.

أفقد الوعي، وعندما أستيقظ، أرى الشمس ترتفع في السماء الحليبية من خلال النافذة قرب محطة الممرضات. ينزلق الضوء إلى الغرفة. يصوب خيالي نحو سوهراب، لم يتحرك.

ستقدم لنفسك معروفاً إذا أخذت قسطاً من النوم. قالت ممرضة لي، لم أعرفها ـ لا بد أنه كان هناك تبديل نوبات بينما غفوت. تأخذني إلى غرفة أخرى. هذه خارج وحدة العناية المشددة مباشرة، إنها فارغة. تعطيني وسادة وغطاء عليه علامة المستشفى. أشكرها، وأستلقي على الصوفا الفينيلية في زاوية الغرفة. أنام، فوراً.

أحلم أني في غرفة الجلوس في الأسفل. د. ناواز يدخل وأقف لألقاه، يخلع قناعه الورقي. يداه فجأة أكثر بياضاً مما أذكر، أظافره مطلية، شعره مفروق بعناية. وأرى أنه ليس د. ناواز، لكن رايموند أندروز، رجل السفارة الصغير ذو نبتات البندورة. يهز أندروز رأسه، ويضيق عينيه...

في النهار، كانت المشفى متاهة من الردهات المنعطفة، عقدة من البياض المضلل. مع الوقت، تعلمت الطرق، أصبحت أعلم أن زر الطابق الرابع في الجناح الشرقي لا يعمل، أن باب مرحاض الرجال في ذاك الطابق مخلوع وعليك أن تدفعه بكتفك ليفتح . أصبحت أعرف أن لحياة المستشفى إيقاعها الخاص، موجة من النشاط قبل تغيير النوبات الصباحية، زحام منتصف الليل، الهدوء والسكون في ساعات الليل المتأخرة الذي يقطع أحياناً بمجموعة من الأطباء والممرضين يسرعون لإنعاش أحدهم. بقيت بجانب سرير سوهراب في وقت النهار، وتجولت في ردهات المستشفى الأفعوانية في الليل، مستمعاً إلى صوت كعبي يطرق البلاط. أفكر بما سأقول لسوهراب عندما يصحو. أنتهي عائداً إلى وحدة العناية المشددة، قرب أزيز المروحة بجانب سريره.

بعد ثلاثة أيام في وحدة العناية المشددة، سحبوا أنبوب التنفس ونقلوه إلى سرير في غرفة في الطابق الأول. لم أكن هناك عندما نقلوه. كنت قد عدت إلى الفندق تلك الليلة لأحصل على بعض الراحة، وانتهيت أتقلب في السرير كل الليل. في الصباح، حاولت ألا أنظر إلى البانيو. كان نظيفاً الآن، أحدهم مسح الدماء، وضع سجادات أخرى على الأرض، ومسح الجدران. لكني لم أستطع منع نفسي من الجلوس

على حافته البورسلانية الباردة. تصورت سوهراب يملأه بالماء الدافئ. رأيته يخلع ثيابه. يفتح مزالج الأمان في الشفرة، يخرج النصل، يمسكه بين إبهامه وسبابته. تخيلته ينزلق في الماء، يستلقي هناك فترة، عيناه مغمضتان. تساءلت ماذا كانت آخر أفكاره بينما رفع النصل وأنزله على معصمه.

كنت أخرج من الردهة عندما لحقني مدير الفندق، مستر فياض.

أنا آسف جداً لأجلك، قال، لكني أسألك مغادرة فندقي، أرجوك. هذا مسيء للعمل، مسيء لسمعة الفندق.

أخبرته أني أتفهم موقفه، ودفعت له أجرة الغرفة. لم يحاسبني على الثلاثة أيام التي أمضيتها في المستشفى. وأنا أنتظر سيارة خارج ردهة الفندق، فكرت في ما قاله لي مستر فياض في الليلة التي ذهبنا نبحث فيها عن سوهراب: المشكلة فيكم أنتم الأفغان... حسناً، أنتم متهورون بعض الشيء. ضحكت عليه يومها، لكن الآن تساءلت، هل نمت فعلاً بعد أن أخبرته أن أكبر مخاوفه ستحدث؟

عندما ركبت التاكسي، سألت السائق إن كان يعرف أي متجر كتب فارسية. قال أن هناك واحد على بعد كيلومترين إلى الجنوب. توقفنا هناك في طريقنا إلى المستشفى .

جدران غرفة سوهراب الجديدة كانت بلون الكريما، مقطعة بمربعات رمادية، وبلاط زجاجي ربما كان أبيضاً يوماً. كان يتشارك الغرفة مع مراهق بنجابي، علمت لاحقاً من إحدى الممرضات أنه كسر رجله عندما انزلق عن سطح باص متحرك. كانت رجله في الجبار، مرفوعة ومثبتة بعدة ملاقط تتدلى من أوزان مختلفة. سرير سوهراب كان قرب النافذة، النصف السفلي مضاء بأشعة شمس الصباح المتأخر من خلال ألواح زجاجية مثلثة اللون. حارس بزي غير رسمي كان يقف عند النافذة، يفصفص حبوب البطيخ ـ كان سوهراب تحت الرقابة لأربع وعشرين ساعة في اليوم خوفاً من الانتحار. هذا قانون المستشفى، أخبرنب د. ناواز. عدَّل الحارس قبعته عندما رآني وغادر الغرفة، كان

سوهراب يرتدي بيجاما قصيرة الأكمام خاصة المستشفى ومستلق على ظهره، غطاؤه مرفوع إلى صدره، وجهه ملتفت إلى النافذة. اعتقدت أنه نائم، لكن عندما جررت كرسياً قربٍ سريره رمشت عيناه وفتحتا. نظر إلي، ثم نظر بعيداً. كان شاحباً جداً رغم كل الدماء التي نقلوها له . وكان هناك كدمة كبيرة أرجوانية على رسغه الأيمن.

كيف حالك؟ قلت.

لم يجب. كان ينظر خارج النافذة إلى مربع رملي مسور وأرجوحة في حديقة المستشفى. كانت هناك تعريشة مقوسة قرب الملعب، في ظل صف من الحمضيات، بعض الكرمات الخضراء تسلقت الأغصان المتشابكة. بعض الأطفال يلعبون بأسطل ومجارف في مربع الرمل. كانت السماء زرقاء خالية من الغيوم ذاك اليوم، رأيت طائرة نفاثة تقلع مخلفة زوجاً من الآثار البيضاء.

التفتُّ إلى سوهراب، قلت له أني تحدثت إلى د. ناواز منذ بضع دقائق، يعتقد أنك ستخرج بعد يومين، أخبار جيدة، لا؟

ثانية قوبلت بالصمت. الطفل البنجابي في الجانب الآخر للغرفة تحرك في نومه وأنّ .

أحب غرفتك، قلت، محاولاً ألا أنظر إلى رسغيه المتدليين، إنها مضيئة ولها إطلالة جيدة .

صمت، بضع دقائق صعبة مرت.

عرق خفيف تشكل على حاجبي، شفتي العليا. أشرت إلى وعاء البازلاء الخضراء الذي لم يمس على الطاولة، الملعقة البلاستيكية غير المستخدمة.

يجب أن تحاول أكل شيء كي تستعيد قوتك. هل تريدني أن أساعدك؟

نظر إلي قليلاً، ثم التفت، كان وجهه كالحجر. عيناه لا تزالا بلا ضوء، ، كما وجدتهما في الليلة التي أخرجته فيها من البانيو. مددت يدي إلى الكيس الورقي بين رجلي وأخرجت النسخة المستعملة من

الشاهناماه التي اشتريتها من المتجر الفارسي. قلبت الغلاف كي يواجه سوهراب، اعتدت أن أقرأها لأبيك عندما كنا أطفال. كنا نذهب إلى أعلى التلة قرب البيت ونجلس تحت الرمانة... توقفت، كان سوهراب ينظر من النافذة ثانية. غصبت ابتسامة، قصة أبيك المفضلة هي روستام وسوهراب وهكذا حصلت على اسمك. أعلم أنك تعرف هذا. توقفت، شعرت كمغفل قليلاً. على أي حال لقد قال في رسالته أنها المفضلة لديك أيضاً، لذا فكرت أن أقرأ لك منها. هل تحب هذا؟

أغلق سوهراب عينيه، غطاهما بذراعه، ذات الندبة.

قلبت الصفحة التي علّمتها في التاكسي، ها نحن ذا، قلت. متسائلاً لأول مرة ما هي الأفكار التي مرت برأس حسان عندما قرأ أخيراً الشاهناماه بنفسه واكتشف أني قد خدعته كل تلك المرات.

سعلت، وقرأت. أعط أذناً إلى معركة سوهراب وروستام رغم أنها ستكون حكاية ممزوجة بالدموع، بدأت: ذات يوم استيقظ روستام ورأسه مليء بنذر الشؤم، لقد فكر...

قرأت له معظم القسم الأول، إلى القسم حيث المحارب الشاب سوهراب يأتي إلى أمه، تاهميناه، أميرة سامينغان، ويطالبها بمعرفة شخصية أبيه. أغلقت الكتاب، هل تريد أن أكمل؟ هناك معارك قادمة، أتذكر؟ سوهراب يقود جيشه إلى الحصن الأبيض في إيران؟ هل أكمل؟

هز رأسه ببطء، رميت الكتاب في الكيس الورقي. حسناً. قلت، متشجعاً كونه أجابني، ربما نكمل غداً، كيف تشعر؟

فتح سوهراب فمه وصوت أجش خرج، أخبرني د. ناواز أن هذا سيحدث، بسبب أنبوب التنفس الذي أدخلوه في حباله الصوتية، لعق شفتيه وحاول ثانية: متعب.

أعلم، د. ناواز قال أن هذا متوقع ـ

كان يهز رأسه ثانية.

ماذا، سوهراب؟

أنّ عندما تحدث ثانية بذاك الصوت الأجش، بصعوبة يزيد عن همسة قال:

متعب من كل شيء.

تنهدت وتهالكت في مقعدي. كان هناك بقعة من ضوء الشمس على السرير بيننا، و للحظة فقط، لم يكن الوجه الذي لعبت معه البلي إلى أن يصيح المولى بآذانِ العشاء وينادينا علي للعودة، ولا وجه حسان الذي طاردته هابطين تلّتنا بينما غربتِ الشمس خلف السطوح الطينية في الغرب، إنما حسان الذي رأيته حياً لآخر مرة، يجر أغراضه خلف علي في مطر صيفي دافئ. يحشرهم في صندوق سيارة أبي بينما كنت أراقب من خلال نافذة غرفتي المغمورة بحبات المطر.

هز رأسه ببطء، متعب من كل شيء. قال ثانية.

ماذا يمكنني أن أفعل، سوهراب؟ أرجوك، أخبرني.

أريد ـ بدأ. أنّ ثانية ووضع يده على حنجرته ليزيح ما أعتقد أنه يحجز صوته، جُذبت عيناي ثانية إلى رسغه الملفوف بضمادات بيضاء.

أريد حياتي القديمة أن تعود. تنفس.

أوه، سوهراب.

أريد بابا وماما جان. أريد ساسا، أريد أن ألعب مع رحيم خان صاحب في الحديقة. أريد أن أعيش في بيتنا ثانية.

وضع ذراعه على عينيه، أريد حياتي السابقة أن تعود.

لم أعرف ماذا أقول، أين أنظر، لذا أنزلت نظريٍ إلى يدي.

حياتك السابقة، فكرت، حياتي السابقة أيضاً. لعبت في نفس الباحة، سوهراب، عشت في نفس المنزل. لكن العشب مات وجيب الغرباء تقف في ممر منزلنا، تبول الزيت فوق الإٍسفلت. حياتنا السابقة ذهبت، سوهراب. وكل من كان هناك صار ميتاً أو يموت. لم يبق غيرك وغيري الآن، أنا وأنت فقط.

لا أستطيع إعطاءك هذا. قلت.

أتمنى لو لم...

أرجوك لا تقل هذا.

أتمنى لو لم... أتمنى لو لم تخرجني من الماء.

لا تقل هذا أبداً، سوهراب. قلت، وأنا أنحني نحوه. لا أستطيع احتمال سماعك تقول هذا. لمست كتفه وانتفض. ابتعدت. أسقطت يدي، متذكراً بحزنٍ كيف أنه في آخر الأيام قبل أن أكسر وعدي له أصبح أخيراً مرتاحاً للمساتي. سوهراب، لا أستطيع إعطاءك حياتك السابقة، أتمنى من الله لو أستطيع. لكنني أستطيع أخذك معي، هذا ما كنت أريد إخبارك إياه عندما دخلت الحمام. لديك فيزا لنذهب إلى أميركا، لتحيى معي ومع زوجتي. هذا حقيقي. أعدك.

تنهد من أنفه، وأغلق عينيه. تمنيت لو لم أقل تلك الكلمات الأخيرة.

أتعلم. قمت بالكثير من الأشياء التي أندم عليها في حياتي، قلت، وربما لا أندم على شيء أكثر منٍ أن أحنث بالوعدِ الذيٍ قطعته لك. لكن هذا لن يحدث ثانية، أبداً، وأنا آسف جداً جداً، أنا أطلب مغفرتك . هل تستطيع القيام بهذا؟ هل تستطيع أن تسامحني ؟ هل تستطيع أن تصدقني؟ خفضت صوتي، هلا تأتي معي؟

بينما انتظرت جواباً. ذهب عقلي إلى يوم شتوي قبل وقت طويل، حسان وأنا جالسين على الثلج تحت شجرة الكرز الحامض العارية. لعبت عندها معه لعبة قاسية، تحديته، سألته أن يأكل التراب ليثبت ولاءه لي. الآن أنا الذي تحت المجهر. الشخص الذي عليه إثبات قيمته. أستحق هذا.

انقلب سوهراب إلى جانبه، ظهره لي. لم يقل شيئاً لوقت طويل.

ثم عندها، فقط عندما اعتقدت أنه قد نام. قال بصوت أجش، أنا متعب كثيراً، متعب كثيراً.

جلست عند سريره إلى أن نام. شيء ما كسر بيني وبين سوهراب. لقائي مع المحامي، عمر فيصل، خلق شعاعاً من الأمل كان قد بدأ يدخل عيني سوهراب كضيف خجول. الآن اختفى الضوء، هرب

الضيف - تساءلت متى سيتجرأ على العودة - تساءلت إلى متى سيطول الأمر قبل أن يبتسم لي سوهراب ثانية. كم سيمضي قبل أن يثق بي ثانية.

لذا غادرت الغرفة لأبحث عن فندق آخر، غير مدرك أن سنة ستمضي قبل أن أسمع سوهراب ينطق كلمة أخرى.

في النهاية، سوهراب لم يقبل عرضي، ليس أنه رفض أيضاً.

لكنه علم أنه عندما تزال الضمادات وتسترجع ثياب المستشفى، فإنه سيكون يتيم هازارا، مشرد آخر ليس إلا .

ما الخيار الذي كان يملكه؟ أين يستطيع الذهاب؟ لذا ما اعتبرته موافقة كان بالحقيقة أقرب ما يكون إلى استسلام صامت. ليس موافقة حقة أكثر منه تخلي من شخص متعب أكثر من أن يقرر. ومتعب أكثر بكثير من أن يصدق. ما حنّ إليه كان حياته السابقة. ما حصل عليه كان أنا وأميركا. ليس أنه قدر سيء، بالنظرٍ الى كل ما مرَّ به، لكنني لم أستطع إخباره هذا . كان رأسي مزدحماً باستمرار بكتيبة من الشياطين.

وهكذا كان، بعد حوالي الأسبوع. قطعنا مدرجاً أسوداً دافئاً وأحضرت ابن حسان من أفغانستان إلى أميركا. أخذته من ثقة الاضطراب ورميت به في اضطراب عدم الثقة.

في أحد الأيام، ربما في ١٩٨٣ أو ١٩٨٤، كنت في متجر أفلام في فريمونت. كنت أقف عند قسم أفلام الغرب الأميركية عندما أشار رجل بقربي، يرتشف الصودا من كأس إلى (السبعة الرائعون) وسألني إن شاهدته.

نعم، ثلاث عشرة مرة، قلت، يموت تشارلز برونسون فيه، وأيضاً جايمس كوبيرن وروبيرت فوغن. نظر إلي بقسوة، كأنني بصقت في كأسه. شكرا جزيلا، صاح. قال، وهو يهز رأسه ويتمتم شيئاً بينما ابتعد. وقتها تعلمت أنه، في أميركا، لا تكشف نهاية الفيلم. وإذا فعلت، ستحتقر وعليك الاعتذار كثيراً لإفسادك النهاية.

في أفغانستان، النهاية كانت كل ما يهم. عندما كنا نعود أنا وحسان من مشاهدة فيلم هندي في سينما زينب، فإن ما كان الجميع (علي،

رحيم خان، بابا أو حشد أصدقائه ـ أولاد العم الثانين أو الثالثين الذين يأتون ويذهبون) ماكانوا يريدون معرفته هو هذا، هل وجدت الفتاة في الفيلم السعادة؟ هل باتشيم الفيلم، الرجل في الفيلم، أصبح بطلا وحقق أحلامه، أم أنه كان ناه ـ كام وانتهى في التمرغ بالفشل؟

هل كان هناك سعادة في النهاية، كانوا يرغبون أن يعرفوا.

إذا سألني أحد اليوم هل قصة حسان، سوهراب وأنا انتهت بالسعادة، لن أعرف ماذا أقول.

هل كان أي شخص سيعرف؟

في النهاية، الحياة ليست فيلماً هندياً. (زينداغي ميغزارا)، يحب الأفغان القول: تستمر الحياة، لا تهم البداية، بل النهاية إما كارثة أو نهاية الآمال، المضي قدماً هو كقافلة من الكوتشي بطيئة، محاطة بالغبار.

لن أعرف كيف أجيب عن هذا السؤال، رغم المعجزة الصغيرة التي نعمت بها.

وصلنا قبل حوالي سبعة أشهر، في يوم دافئ من آب ٢٠٠١، أقلتنا ثريا من المطار. لم تغب عني ثريا أبداً كل هذه الفترة، وعندما عقدت ذراعيها حول عنقي، عندما شممت التفاح في شعرها، أدركت كم افتقدتها. لا زلت شمس الصباح ليلداي. همست.

ماذا؟

لا تهتمي. قبلت أذنها.

بعدها، ركعت لتقابل عيني سوهراب. أخذت يده وابتسمت له.

سلام، سوهراب جان، أنا كالا ثريا، كنا جميعاً ننتظرك.

ناظراً إليها تبتسم لسوهراب، عيناها تدمعان قليلاً، رأيت لمحة عن الأم التي يمكن أن تكون، هل حقاً خانها رحمها؟

حرك سوهراب رجليه ونظر بعيداً.

كانت ثريا قد حولت المكتب في الأعلى إلى غرفة نوم لسوهراب. قادته إليها، جلس سوهراب على حافة السرير. كان مطبوعاً على الشراشف طائرات ورقية ملونة تطير في سماء زرقاء نيلية. كانت قد

قامت بنقوش على الحائط بجانب الخزانة، أقدام وإنشات لقياس مقدار طول الطفل مع عمره. عند قدم السرير، سلة محشوة بالكتب. قاطرة، وعدة رسم.

كان سوهراب يرتدي قميصاً أبيضاً جديداً، اشتريته له في إسلام أباد قبل أن نرحل مباشرة. انسدل القميص حراً فوق كتفيه المتهدلين الخاليين من اللحم. اللون لم يعد إلى وجهه بعد، دوائر سوداء حول عينيه. كان ينظر إلينا الآن بالطريقة غير المكترثة التي كان ينظر بها إلى صحون الأرز المسلوق في المستشفى التي كانت توضع بانتظام أمامه. سألته ثريا إن أعجبته غرفته ولاحظت أنها كانت تحاول عدم النظر إلى رسغيه لكن عيناها بقيتا تُجران إلى تلك الخطوط الوردية. أخفض سوهراب رأسه. أخفى يديه تحت فخذيه ولم يقل شيئاً. ثم ببساطة ألقى رأسه على الوسادة. وفي أقل من خمس دقائق، ثريا وأنا نراقبه من عند الباب، كان يشخر.

ذهبنا إلى السرير، ونامت ثريا على صدري. في ظلام غرفتنا. استلقيت مستيقظاً، أرِقاً مرة أخرى، وحيداً مع شياطيني.

في وقت ما بعد منتصف الليل، انسللت من سريري وذهبت إلى غرفة سوهراب. وقفت بجانب سريره. أنظر إليه، رأيت شيئاً بارزاً من تحت وسادته. أمسكته،. الصورة التي أعطيته إياها في الليلة التي جلسنا فيها بجانب مسجد شاه فيصل. صورة حسان وسوهراب يقفان جنباً إلى جنب، يحدقان في ضوء الشمس، ويبتسمان كأن العالم مكان جيد وعادل، تساءلت كم بقي سوهراب مستلق يحدق في الصورة، يقلبها بين يديه.

نظرت إلى الصورة، أباك كان رجلاً ممزقاً بين نصفين، قال رحيم خان في رسالته، كنت أنا النصف المعلن، المقبول اجتماعياً، النصف الشرعي، الشاهد الحي على ذنب بابا. نظرت إلى حسان، مظهراً تينك السنين الأماميتين المفقودتين، ضوء الشمس يسطع على وجهه، نصف بابا الآخر، غير المعلن، نصف بلا امتيازات. النصف الذي ورث ما

كان طاهراً ونبيلاً في بابا. النصف الذي، ربما، في أعمق جوانب قلب بابا، اعتبره إبنه الحقيقي.

زلقت الصورة معيداً إياها حيث كانت، ثم أدركت شيئاً: الفكرة الأخيرة لم يؤلمني حضورها.

مغلقاً باب سوهراب، تساءلت إن كان هذا هو الغفران، ليس مع السعادة والفرح والأعياد، بل مع الألم يجمع أغراضه، يوضبها، وينسل غير معلناً في منتصف الليل.

أتى الجنرال وكالا جميلة على العشاء الليلة التالية. كالا جميلة، شعرها مقصوص ومصبوغ بدرجة حمراء أدكن من العادة، أعطت ثريا صحناً من الماغووت المزين باللوز جلبته للتحلية.

رأت سوهراب وأشرق وجهها وهي تقول، ماشالله! أخبرتنا ثريا كم أنت جميل، لكنك أكثر وسامة في الواقع، سوهراب جان.

أعطته كنزة زرقاء. حُكت هذا لك. قالت، للشتاء المقبل، انشالله، ستكون على مقاسك.

أخذ سوهراب الكنزة منها.

مرحباً، أيها الشاب الصغير. كان كل ما قاله الجنرال: منحنياً بكلتي يديه على حوضه، ينظر إلى سوهراب كمن يدرس شيئاً غريب الديكور في بيت أحدهم.

أجبت، وأجبت ثانيةعلى أسئلة كالا جميلة عن إصاباتي - كنت قد طلبت من ثريا أن تخبرهم أني نشلت - مؤكداً لها أن لا إصابة منها دائمة. أن الأسلاك ستخلع بعد أسابيع قليلة وسأكون قادراً على أكل طبقها ثانية، ذاك، نعم، سأجرب فرك عصير الروبارب والسكر على ندباتي لأجعلها تختفي بسرعة.

جلست أنا والجنرال في غرفة المعيشة نحتسي النبيذ، بينما ثريا وأمها يجهزون الطاولة، أخبرته عن كابول وطالبان. استمع وهز رأسه، يده على حضنه، وشتم عندما أخبرته عن الرجل الذي رأيته يبيع رجله الصناعية. لم أذكر الإعدام الذي رأيته في استاد غازي ولم أذكر آصف.

سألني عن رحيم خان، الذي كما قال لي أنه التقاه في كابول بضع مرات، وهز رأسه بحزن عندما أخبرته عن مرض رحيم خان. لكن بينما كنا نتحدث، التقطتُ عيناه تلتفتان مرة تلو الأخرى إلى سوهراب النائم على الأريكة. كأننا ندور حول حافة ما يريد حقاً أن يعرف.

انتهى الدوران أخيراً على العشاء عندما وضع الجنرال شوكته وقال، إذاً، أمير جان، ستخبرنا لماذا جلبت هذا الطفل معك؟

إقبال جان! أي نوع من الأسئلة هذا؟ قالت كالا جميلة.

بينما كنتِ مشغولة بحياكة الكنزات، عزيزتي، كان علي التعامل مع مفهوم المجتمع عن عائلتنا، الناس ستسأل. سيريدون أن يعرفوا لماذا يعيش طفل هازارا مع ابنتي. ماذا سأقول لهم؟

ألقت ثريا ملعقتها، التفتت إلى أبيها، تستطيع أن تخبرهم.

- أمر متوقع، ثريا. قلت، آخذا بيدها، طبعا، جنرال صاحب محق، سيسأل الناس.

أمير- بدأت.

كل شيء على ما يرام. التفتُّ إلى الجنرال، أترى جنرال صاحب، أبي نام مع زوجة خادمه، التي أعطته ابنا اسمه حسان. حسان ميت الآن. ذاك الطفل النائم على الأريكة هو ابن حسان. إنه ابن أخي. هذا ما ستخبره للناس عندما يسألون.

كان الكل يحدق بي.

وشيء آخر، جنرال صاحب، قلت، لن تشير ثانية إليه على أنه (طفل هازارا) في حضوري. لديه اسم. اسمه سوهراب.

لم يقل أحد شيئاً لنهاية العشاء.

سيكون من الخطأ القول عن سوهراب أنه هادئ. هادئ يعني السلام. الراحة. هادئ يعني خفض رتم الحياة.

الصمت هو ضغط زر الإطفاء. إغلاقه. كله.

صمت سوهراب لم يكن صمت محبي الظهور، أولئك، ذوو الإحتجاجات، المعترضين الذين يبحثون عن قول قضيتهم بعد الحديث، إطلاقاً.

كان صمته صمت من يختبئ في الظلام، كمن يمسك بكل الحواف ويحشر نفسه تحتها.

لم يحيى حقاً في مساحة محجوزة له . على أهميتها، أحياناً، في السوق، أو في الحديقة، ألاحظ كيف أن الآخرين تقريباً لا يروه. كأنه ليس موجودا على الإطلاق. كنت أرفع نظري عن كتاب وأدرك أن سوهراب قد دخل الغرفة، جلس قبالتي، ولم ألاحظ. كان يمشي كمن يخاف أن يترك خلفه آثار أقدامه. تحرك كأنه لا يريد تحريك الهواء حوله، غالباً، كان ينام.

صمت سوهراب كان قاسياً على ثريا أيضاً، على خط الهاتف البعيد إلى باكستان، أخبرتني ثريا عن الأشياء التي تحضرها لسوهراب. دروس سباحة، كرة قدم. بطولة بولينغ. الآن تمشي بجانب غرفة سوهراب وتلقي نظرة خاطفة إلى الكتب الموضوعة دون أن تفتح في السلة، سجل النمو غير المجرب، قطع التركيب غير المصفوفة، كل شيء يمكن أن يكون مذكراً بالحياة. مذكراً بحلم يذوي رغم أنه لازال بذرة. لكنها لم تكن وحدها، كان لدي أيضاً أحلامي الخاصة لسوهراب.

بينما كان سوهراب صامتاً، لم يكن العالم كذلك. في أحد صباحات الثلاثاء من أيلول الماضي، دُمر البرجان، وفي ليلة واحدة، تغير العالم. ظهر العلم الأميركي فجأة في كل مكان، على هوائيات سيارات الأجرة، على ثياب الباعة المتجولين على الأرصفة، حتى على متسولي سان فرانسيسكو المتجهمين الجالسين تحت مظلات صالات العرض الصغيرة والمتاجر المفتوحة الأبواب. في أحد الأيام مررت بإيديث، المرأة المتشردة التي تعزف الأوكورديون كل يوم عند تقاطع ساتر وستكوتون، ورأيت ملصقاً للعلم الأميركي على علبة الأوكورديون عند أرجلها.

بعد الهجمات بوقت قريب، قصفت أميركا أفغانستان، دخل الحلف الشمالي، وهرب الطالبانيون كالجرذان إلى جحورهم. وهكذا، أصبح الناس يقفون بالدور في متاجر البقالة ويتحدثون عن مدن طفولتي، قندبار، هيراتٍ، مزار شريف.

عندما كنت صغيراً جداً، أخذنا بابا أنا وحسان إلى قندز. لا أذكر الكثير عن الرحلة، إلا الجلوس في ظل شجرة أكاسيا مع بابا وحسان، نتناوب على احتساء عصير البطيخ من وعاء فخاري ونتنافس من يستطيع أن يبصق البذور أبعد. الآن دان راذر، توم بروكاو، والناس يتحدثون عن معركة قندز، آخر معقل صامد لطالبان في الشمال. كانون الأول ذاك، اجتمع الباشتون، الطاجيك، الأوزباك والهازارا في بون، تحت سمع وبصر الـ (UN)، بدأوا العملية التي ربما تنهي يوماً أكثر من عشرين سنة من التعاسة في وطننا. أصبحت قبعة حامد كارزاي الكاراكول وتشابانه الأخضر مشهورين.

سوهراب مشى نائماً خلال كل هذا.

أصبحنا أنا وثريا فاعلين في المشاريع الأفغانية. بسبب الواجب المدني كما بسبب الحاجة لشيء ـ أي شيء ـ يملأ الصمت في الأعلى، الصمتٍ الذي امتص كل شيء كحفرة سوداء. لم أكن من النوع النشيط سابقاً. لكن عندما اتصل بي رجل يدعى كابر، سفير أفغاني سابق، وسأل إذا كنت أرغب بمساعدته في مشروع مستشفى، قلت نعم، أقيم المستشفى الصغير قرب الحدود الأفغانية الباكستانية ملحق به وحدة جراحية صغيرة عالجت المهاجرين الأفغان من إصابات الألغام الأرضية. لكنها أغلقت بسبب قلة المال. أصبحت مدير المشروع، ثريا شريكتي في الإدارة. أمضيت أغلب أيامي فيِ المكتب، أرسل رسائل إلكترونية إلى الناس حول العالم. أطلب تمويلا، أنظم حفلات خيرية، وأقنع نفسي أن جلب سوهراب، كان العمل الصائب .

انتهت السنة بثريا وأنا على الأريكة، غطاء ممدود على أرجلنا، نشاهد ديك كلارك على التلفاز. هتف الناس وقبلوا بعضهم عندما

سقطت الكرة الفضية، وأضاء ما انتثر منها الشاشة. في منزلنا، بدأت السنة الجديدة كما انتهت السابقة، بصمت.

ثم، منذ أربعة أيام، في يوم ممطر بارد من آذار ٢٠٠٢، شيء صغير رائع حدث.

أخذتُ ثريا، كالا جميلة، وسوهراب إلى تجمع للأفغان في حديقة بحيرة إلزابيث في فريمونت. الجنرال كان قد طلب أخيراً قبل شهر إلى أفغانستان ليتولى منصباً وزارياً، وطار إلى هناك قبل أسبوعين ـ تاركاً خلفه بزته الرمادية وساعة الجيب. الخطة كانت أن تنضم إليه كالا جميلة بعد بضعة شهور عندما يستقر. افتقدته بجنون ـ وقلقت على صحته هناك ـ أصررنا أن تبقى معنا لفترة.

الثلاثاء السابق، أول أيام الربيع، كان يوم السنة الجديدة للأفغان ـ السول ـ إي ـ ناو ـ والأفغان في منطقة الخليج خططوا لاحتفالات خلال الخليج الشرقي والبينيسولا. كابر، ثريا وأنا كان لدينا سبب آخر للاحتفال: مستشفانا الصغير في راوال بيندي عاد للعمل الأسبوع الماضي. بدون الوحدة الجراحية، فقط عيادة الأطفال. لكنها كانت بداية جيدة، كلنا أكد ذلك.

كان الجو مشمساً منذ عدة أيام، لكن صباح الأحد، بينما كنت أغادر السرير، سمعت صوت حبات المطر على النافذة. حظ الأفغان، فكرت، تمددت، صليت صلاة الصباح بينما ثريا كانت ثريا نائمة ـ ليس علي التقيد بمواعيد الصلاة وكنت قد امتنعت عن الذهاب إلى المسجد: المقاطع أتت وحدها الآن، دون جهد.

وصلنا قرابة الثانية عشر ووجدنا حوالي الخمسة أشخاص يحتمون تحت خيمة بلاستيكية كانت قد أقيمت اليوم الماضي.

أحدهم بدأ بقلي البولاني: البخار تصاعد من كؤوس الشاي وقدر من (أوش) القرنبيط. أغنية مشوشة لأحمد زاهير كانت تصدح من مشغل كاسيت. ابتسمت قليلاً بينما ركضنا أربعتنا قاطعين العشب

الغارق بالماء، أنا وثريا في المقدمة، كالا جميلة في المنتصف، سوهراب خلفنا، غطاء معطفه المطري الأصفر يتقافز على ظهره.

ما المضحك؟ قالت ثريا، وهي تمسك بجرائد مطوية فوق رأسها.

تستطيعين إخراج الأفغان من باغمان، لكنك لا تستطيعين إخراج باغمان من الأفغان. قلت.

وقفنا حانين رؤوسنا تحت الخيمة، ذهبت وثريا وكالا جميلة نحو المرأة البدينة التي تقلي بولاني السبانخ. بقي سوهراب تحت الستارة قليلاً، ثم عاد تحت المطر، يداه في جيبي معطفه، شعره - الذي أصبح الآن بنياً سابلاً كشعر حسان - التصق بجمجمته. توقف قرب بركة لونها كلون القهوة وحدق بها. لم يلاحظ أحد، لم يناده أحد كي يعود. مع الوقت، التساؤلات عن تبنينا - وخصوصاً غرابة أطوار - الطفل الصغير ، توقفتْ رحمة من الله. و، باعتبار كم قد تكون مزعجة استعلامات الأفغان أحياناً. كانت هذه راحة كبيرة. توقف الناس عن السؤال لماذا لا يتكلم أبداً، لم لا يلعب مع الأولاد الآخرين، والأهم، توقفوا عن خنقنا بتعاطفهم المبالغ به، هزات رؤوسهم البطيئة، لعناتهم للقدر، ، أوه الصغير الصامت المسكين. الدراما توقفت. كلوحة كبيرة، اندمج سوهراب في الخلفية.

صافحت كابر - رجل ضئيل، شعره فضي - الذي قدمني إلى مجموعة رجال، أحدهم مدرس متقاعد، آخر مهندس، معماري سابق، جراح يدير الآن كشك هوت دوغ في هايوورد. كلهم قالوا أنهم عرفوا بابا في كابول، وتحدثوا عنه بطريقة أو بأخرى باحترام، لمس بابا حياتهم جميعاً. قال الرجال أني محظوظ بكون رجل عظيم مثل بابا والدي.

تحدثنا عن العمل الصعب وربما الذي يستحق الشكر الذي أمام كارزاي، واللويا جيرغا، وعودة الملك الوشيكة إلى وطنه بعد ثمان وعشرين سنة من النفي. تذكرت تلك الليلة في عام ١٩٧٣، الليلة التي ابن عم زاهير شاه أطاح به فيها، أذكر إطلاق النار والسماء تشع

بالفضي - احتضننا علي أنا وحسان بين ذراعيه، أخبرنا ألا نخاف. إنهم فقط يصطادون البط.

أحدهم قال نكتة عن المولى نصر الدين وضحكنا جميعاً.

أتعلم، أباك كان رجلاً يملك حس فكاهة رائع أيضاً. قال كابر.

فعلاً، كان. قلت مبتسماً، متذكراً كيف، بعد وصولنا إلى أميركا بوقت قصير بدأ بابا يشكو من الذباب الأميركي. كان يجلس عند طاولة المطبخ وبيده المذبة، يراقب الذباب يندفع من جدار إلى آخر، تأز هنا، تأز هناك، بسرعة واندفاع.

في هذا البلد، حتى الذباب وقته قيم. كان يتأوه، كم ضحكت.

ابتسمت لهذه الذكرى.

عند الثالثة، توقف المطر وأصبحت السماء رمادية مغطاة بالغيوم. نسيم بارد هب في الحديقة، عائلات أخرى قدمت، أفغان يحييون بعضهم، يتعانقون، يقبلون بعضهم، يتبادلون الطعام. أحدهم أشعل فحماً للشواء وفوراً أشعلت حواسي رائحة الثوم وكوباب المورغ.

كان هناك موسيقى، مغن جديد لا أعرفه، وضحكات أطفال. رأيت سوهراب لا يزال في معطفه الأصفر، منحن فوق كومة قمامة، يحدق بالأفق. بعد قليل من الوقت، بينما كنت أتحدث مع الجراح السابق، الذي أخبرني أنه وبابا كانا زملاء في الصف الثامن، شدت ثريا كمي.

أمير، انظر! كانت تشير إلى السماء. حوالي عشرة طائرات ورقية كانت تحلق عالياً، مرقطة السماء الرمادية بالأصفر الفاتح، الأحمر والأخضر.

اذهب، وانظر. قالت ثريا، هذه المرة كانت تشير إلى رجل يبيع الطائرات في كشك قربنا.

أمسكي. قلت، أعطيتها كأس الشاي، استأذنت ومشيت إلى كشك الطائرات، حذائي يسحق العشب المبلل. أشرت إلى طائرة صفراء. عيد مبارك، قال بائع الطائرات، آخذاً العشرين دولار مني ومعطياً إياي

الطائرة وبكرة خشبية ملتف عليها حبل زجاجي. شكرته وتمنيت له سنة جديدة سعيدة أيضاً.

اختبرت الحبل كما كنا أنا وحسان نفعل. أمسكته بين إبهامي وسبابتي وشددته. امتلأ بالدماء فابتسم البائع. ابتسمت أيضاً.

أخذت الطائرة ومشيت نحو سوهراب، الذي كان لا يزال ينحني أمام كومة القمامة، ذراعاه معقودتان على صدره، ناظراً إلى السماء.

هل تحب الطائرة الورقية؟ قلت، ممسكاً بالطائرة حيث يتقاطع القضيبان.

بقي ينقل نظره من السماء إلي، إلى الطائرة. بضع قطرات مطر انزلقت عن شعره، على وجهه.

قرأت مرة، في ماليزيا، أنهم يستخدمون الطائرات الورقية لالتقاط السمك، قلت، أراهن أنك لم تعلم هذا. يربطون حبل صيد بها ويطيرونها فوق المياه العميقة، لذا لا يظهر لها ظلاً لتخيف السمك. في الصين القديمة، اعتاد الجنرالات على تطيير الطائرات فوق أراضي المعركة لإرسال رسائل إلى رجالهم.

هذه طائرة حقيقيه، أنا لا أمازحك.و أريته إبهامي الدامي، والحبل ممتاز أيضاً.

من زاوية عيني، رأيت ثريا تراقبنا من الخيمة، يداها محشورتان بقلق تحت إبطيها. بعكسي، تخلت ثريا بالتدريج عن محاولة التواصل معه. الأسئلة غير المجابة، التحديقات الفارغة، الصمت. كان مؤلماً جداً. فانتقلت إلى وضع الانتظار، انتظار ضوء أخضر من سوهراب، .

لعقت إصبعي الأوسط ورفعته. أذكر الطريقة التي كان أباك يعرف بها اتجاه الريح، كان يركل الرمل بصندله، يرى بأي اتجاه تدفعها الريح. كان يعلم الكثير من هذه الحيل . أنزلت إصبعي، الغرب، أعتقد.

مسح سوهراب قطرة مطر عن شحمة أذنه ولم يقل شيئاً.

فكرت في ثريا تسألني قبل بضعة أشهر كيف هو صوته. أخبرتها أني لم أعد أذكر.

هل أخبرتك يوماً أن أباك كان أفضل مطارد طائرات في وزير أكبر خان؟ ربما في كل كابول؟ قلت، وأنا أعقد النهاية الحرة لحبل البكرة على عقدة الحبل المربوطة إلى مركز القضبان.

كم حسده أولاد الحي. كان يطارد الطائرات ولا ينظر إلى السماء، كان يقول الناس أنه يلاحق خيال الطائرة. لكنهم لم يعرفوه كما عرفته. لم يكن أبوك يلاحق أي خيال، كل ما في الأمر أنه كان فقط... يعلم.

نصف دزينة أخرى من الطائرات راحت تحلق. بدأ الناس يتجمعون في مجموعات، كؤوس الشاي في يد، والعيون ملتصقة بالسماء.

هل تريد مساعدتي في تطيير هذه؟ قلت.

تقافزت عينا سوهراب من الطائرة إلي، عائدة إلى السماء.

أوكي، هززت كتفي، يبدو أن علي أن أطيرها لوحدي!

وازنت البكرة في يدي اليسرى وأرخيت حوالي الثلاثة أقدام من الحبل. تعلقت الطائرة في نهايتها، فوق العشب الرطب بقليل، آخرٍ فرصة، قلت، لكن سوهراب كان ينظر إلى زوج من الطائرات عالياً فوق الأشجار.

حسناً، ها أنا ذا. أقلعت راكضاً، حذائي ينثر الماء من البرك، يدي تمسك بالحبل والطائرة تعلو فوق رأسي. كان قد مضى وقت طويل، سنوات كثيرة جداً منذ فعلت هذا، تساءلت إن كنت سأجعل من نفسي أضحوكة. تركت البكرة تدور في يدي اليسرى بينما ركضت. شعرت بالحبل يقص يدي اليمنى بينما تركته يسرح. كانت الطائرة مرفوعة خلف أكتافي الآن، تعلو، تتمايل، وركضت أسرع، البكرة دارت بشكل أسرع ومزق الحبل مكاناً آخر في راحة يدي اليمنى. توقفت والتفت. نظرت للأعلى، ابتسمت. عالياً، كانت طائرتي تتمايل من جهة لأخرى كرقاص الساعة، مصدرة صوت الرفيف الذي طالما

ربطته بصباحات الشتاء في كابول. لم أطير طائرة منذ ربع قرن، لكن فجأة صرت في الثانية عشر ثانية وكل الغرائز القديمة عادت مسرعة.

شعرت بحضور أحد قربي ونظرت للأسفل. كان سوهراب، يداه محشورتان في جيبي معطفه المطري. كان قد تبعني.

هل تريد أن تحاول؟ سألت، لم يقل شيئاً، لكن عندما ثبتُّ الحبل لأجله، خرجت يداه من جيبيه، ترددتا، ثم أمسكتا بالحبل، تسارع قلبي بينما أدرت البكرة لأجمع الطرف الحر من الحبل . وقفنا بصمت جنبا إلى جنب، عنقانا مرفوعان.

حولنا، أطفال يلاحقون بعضهم، ينزلقون على العشب.

أحدهم كان يعزف أغنية فيلم هندي قديم. صف من الرجال يصلون العصر على شرشف بلاستيكي مفروش على الأرض. رائحة الهواء عبقت بالعشب المبلل، الدخان، واللحم المشوي. تمنيت أن يتوقف الزمن.

رأيت أن هناك من يلاحقنا. طائرة خضراء كانت تقترب. لاحقت الحبل إلى طفل يقف على بعد حوالي الثلاثين قدماً عنا، كان يرتدي قميصاً كتب عليه (الروك يحكم) بأحرف عريضة. رآني أنظر إليه فابتسم، لوح بيده، لوحت له بدوري.

كان سوهراب يعطيني الحبل.

متأكد؟ قلت وأنا آخذه.

أخذ البكرة مني.

أوكي، قلت، فلنعلمه، درساً، ما رأيك ؟

نظرت إليه، النظرة الزجاجية، الفارغة في عينيه كانت قد اختفت. نظره يتنقل بين طائرتنا والطائرة الخضراء. وجهه محمر قليلاً، فجأة عيناه منتبهتان، مستيقظتان، حيتان. تساءلت متى نسيت أنه، برغم كل شيء، كان لا يزال طفلاً.

كانت الطائرة الخضراء تقوم بحركتها، فلننتظر. قلت.

اقتربت الطائرة الخضراء أكثر، الآن أعلى قليلاً منا، غير مدركة الفخ الذي نصبته لها.

راقِب، سوهراب. سأريك إحدى خدع أبيك المفضلة، (ارتفع وانخفض) القديمة.

بقربي، كان سوهراب يتنفس بسرعة من أنفه، البكرة تدور بين راحتيه، الأوتار في رسغيه كأوتار الربابة. رمشت وفقط للحظة، الأيدي التي تمسك بالبكرة كانت مقضومة الأظافر، أيدي مثلمة لطفل ذو شفة مشقوقة. سمعت غراباً ينعق في مكان ما فنظرت للأعلى، الحديقة تومض بثلج حديث الهطول، أبيض براق لدرجة أنه حرق عيني، لمع بلا صوت من جذوع الأشجار المتشابكة البيضاء. شممت كورما اللفت. التوت البري الجاف. البرتقال الحامض، نشارة الخشب والجوز. الصمت المكتوم. صمت الثلج، كان يصم الآذان. ثم من بعيد، خلال الصمت، صوت ينادينا للعودة، صوت رجل يجر خلفه رجله اليمنى.

الطائرة الخضراء تحوم فوقنا مباشرة الآن. سيذهب إليها، في أي وقت الآن. قلت، عيني تتنقلان بين سوهراب وطائرتنا.

ترددت الطائرة الخضراء، بقيت في موقعها. ثم اندفعت للأسفل.

ها هو آت! قلت.

قمت بها بامتياز. بعد كل هذه السنين. فخ (ارتفع وانخفض) القديم. أرخيت قبضتي وشددت على الحبل، مزاحماً وملتحماً بالطائرة الخضراء. سلسلة من الشدات الجانبية السريعة وطائرتنا انطلقت بعكس عقارب الساعة، في نصف دائرة، فجأة كنت في الأعلى. الطائرة الخضراء كانت تجاهد الآن، مذعورة. لكن فات الأوان. كنت قد قمت بخدع حسان. شددت بقوة وهبت طائرتنا، كدت أشعر بحبلنا ينشر حبله. كدت أسمع صوت القص.

ثم، بهذه البساطة، كانت الطائرة الخضراء تدور وتترنح خارج السيطرة، خلفنا، هتف الناس، تصفير وتصفيق انفجرا. كنت أشعر

بالأدرينالين يضرب داخل رأسي. آخر مرة شعرت بهذه الإثارة كان في ذاك اليوم من شتاء ١٩٧٥ ، بعد أن قطعت حبل آخر طائرة، عندما رأيت بابا على سطح بيتنا، يصفق، ويصرخ.

نظرت إلى سوهراب، زاوية فمه تحركت.

ابتسامة.

جانبية فقط.

تكاد لا تبدو.

لكنها هناك.

خلفنا، كان الأطفال يعدون، كتيبة من مطاردي الطائرات يصرخون ويلاحقون الطائرة التي تتمايل عالياً فوق الأشجار. رمشت وكانت ابتسامته قد اختفت. لكنها كانت هناك، رأيتها.

أتريدني أن أجلب تلك الطائرة لك.

تفاحة آدم ارتفعت وهبطت بينما بلع ريقه، الريح لعبت بشعره. اعتقدت أني رأيت هزة رأس.

لأجلك... ألف مرة أخرى. سمعت نفسي أقول.

ثم التفت وركضت.

كانت فقط ابتسامة، لا شيء أكثر. لم تجعل كل شيء على ما يرام. لم تجعل أي شيء على ما يرام. فقط ابتسامة، شيء صغير، ورقة في الغابة، تهتز مع استيقاظ الطيور لتحلق.

لكني سأقبل بها، بذراعين مفتوحتين. لأنه عندما يأتي الربيع. يذيب الثلج رقاقة بعد رقاقة. وربما كنت الآن قد شاهدت أول حبة تذوب.

ركضت، رجل يركض مع مجموعة من أطفال يصرخون.

لكني لم أهتم. ركضت والريح تضرب وجهي، وابتسامة واسعة كوادي بانجشير على شفتي.

ركضت.

.. لأجلك . . . ألف مرة أخرى



كل المواضيع الهامة في الحياة هي تركيبة هذه الرواية الاستثنائية : الحب ، الشرف ، الذنب ، الخوف ، التوبة .

هذه الرواية من القوة ، لحد أنه لوقت طويل سيبدو كل ماقرأته سطحياً

إيزابيل ألليندي

إنها ليست قصة عن السياسة الشرق أوسطية ، بقدر ماهي قصة عن بلد جميل مزقت أشلاء . من خلال شخصياته والمؤامرة الرهيبة .

خالد حسيني يقدم مثلاً عن حضارة وتاريخ وطنه المحبوب .

سان أنطونيو إكسبرس



